

مِنْ رَوَائِعِ التَّفَاسِيرِ

النُّكْتُ وَالْعِيُونُ تَفْسِيرُ الْمِائَةِ وَارْدِي

تَصْنِيفُ

أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ حَبِيبٍ الْمَاوَرَدِيِّ الْبَصْرِيِّ
٣٦٤ - ٤٥٠ هـ

الجزء الثاني

رَاجَعَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ
السَّيِّدُ بْنُ عَبْدِ الصَّوَّادِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

مؤسسة الكتب الثقافية
بيروت - لبنان

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

ملتزم الطبع والنشر والتوزيع

دار الكتب العلمية

مؤسسة الكتب الثقافية

مؤسسة الكتب الثقافية

المطابع : مكتبة الاتحاد الوطني - الطابق السابع شقة ٧٨
هايف الكتب

مبنى ٥١١٥ - طريق الكتب
بيروت - لبنان

طبع من : دار النشر والعلمية بيروت - لبنان
رقم : ١١/٩٤٤٤ - تلخيص : Nasher 41245 Le

هاتف : ٨١٥٥٧٣ - ٣٦٦١٣٥

النُّكْتُ وَالْعُيُونُ
تَفْسِيرُ الْمَنَافِرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْبَغُونَ فَضلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرَضَوْنَا وَإِذَا حُلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ فيها خمسة أقاويل :

أحدها : أنها عهود الله ، التي أخذ بها الإيمان ، على عباده فيما أحله لهم ، وحرمه عليهم ، وهذا قول ابن عباس .

والثاني : أنها العهود التي أخذها الله تعالى على أهل الكتاب أن يعملوا بما في التوراة ، والإنجيل من تصديق محمد ﷺ ، وهذا قول ابن جريج .

والثالث : أنها عهود الجاهلية وهي الحلف الذي كان بينهم ، وهذا قول

قتادة .

الرابع : عهود الدين كلها^(١) ، وهذا قول الحسن .

والخامس : أنها العقود التي يتعاقد بها الناس بينهم من بيع ، أو نكاح ، أو يعقدها المرء على نفسه من نذر ، أو يمين ، وهذا قول ابن زيد .

﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها الأنعام كلها ، وهي الإبل ، والبقر ، والغنم ، وهذا قول قتادة ، والسدي .

والثاني : أنها أجنة الأنعام التي توجد ميتة في بطون أمهاتها ، إذا نحررت أو ذبحت ، وهذا قول ابن عباس ، وابن عمر .

والثالث : أن بهيمة الأنعام وحشيتها كالظباء وبقر الوحش ، ولا يدخل فيها الحافر ، لأنه مأخوذ من نعمة الوطاء^(*) .

قوله عز وجل : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ أي معالم الله ، مأخوذ من الإشعار وهو الإعلام .

وفي شعائر الله خمسة تأويلات :

أحدها : أنها مناسك الحج ، وهو قول ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : أنها ما حرمه الله في حال الإحرام ، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنها حرم الله ، وهو قول السدي .

والرابع : أنها حدود الله فيما أحل وحرم وأباح وحظر ، وهو قول عطاء .

والخامس : هي دين الله كله ، وهو قول الحسن ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٢٢] أي دين الله .

﴿ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ أي لا تستحلوا القتال فيه ، وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه رَجَبُ مُضَر .

(١) والصحيح ما قاله القرطبي وجمهور المفسرين أن المراد بالعقود ما يشمل عقود المعاملة وعقود الشريعة وهي التكاليف والواجبات الشرعية التي فرضها الله على عباده وما أحل وحرم عليهم .
(*) هكذا في الأصول ولعل العبارة « لأن اسم الأنعام مأخوذ من نعمة الوطاء » .

والثاني : أنه ذو القعدة ، وهو قول عكرمة .

والثالث : أنها الأشهر الحرم ، وهو قول قتادة .

﴿ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴾ أما الهدي ففيه قولان :

أحدهما : أنه كل ما أهداه من شيء إلى بيت الله تعالى .

والثاني : أنه ما لم يقلد من النعم ، وقد جعل على نفسه ، أن يهديه ويقلده ، وهو قول ابن عباس .

فأما القلائد ففيها ثلاثة أقاويل :

أنها قلائد الهدي ، وهو قول ابن عباس ، وكان يرى أنه إذا قلد هديه صار مُحَرَّمًا .

والثاني : أنها قلائد من لحاء الشجر ، كان المشركون إذا أرادوا الحج قلدوها في ذهابهم إلى مكة ، وعَوَّدَهم ليأمنوا ، وهذا قول قتادة .

والثالث : أن المشركين كانوا يأخذون لحاء الشجر من الحرم إذا أرادوا الخروج منه ، فيقلدونه ليأمنوا ، فَنُهِوا أن ينزعوا شجر الحرم فيقلدوه ، وهذا قول عطاء .

﴿ وَلَا أَمِينَ الْأَيْتِ الْحَرَامِ ﴾ يعني ولا تحلوا قاصدين البيت الحرام ، يقال أمت كذا إذا قصدته ، وبعضهم يقول يمتته ، كقول الشاعر :

إني لذاك إذا ما ساءني بلد . يمت صدر بعيري غيره بلداً^(٢)
﴿ يَتَتَفَوْنَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : الربح في التجارة ، وهو قول ابن عمر .

والثاني : الأجر ، وهو قول مجاهد . ﴿ وَرِضْوَاناً ﴾ يعني رضي الله عنهم بنسكهم .

﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ وهذا وإن خرج مخرج الأمر ، فهو بعد حظر ،

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة (١٤٦/١) وفيه : إني كذاك بدلاً من : إني لذاك والتصحيح من الطبري (٤٧١/٩) .

فاقتضى إباحة^(٣) الاصطياد بعد الإحلال دون الوجوب .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانٌ ﴾^(٤) قَوْمٌ ﴿ فِي يَجْرِمَنَّكُمْ تَأْوِيلَانِ .

أحدهما : لا يحملنكم ، وهو قول ابن عباس ، والكسائي ، وأبي العباس المبرد يقال : جرمني فلان على بغضك ، أي حملني ، قال الشاعر :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزاره بعدها أن يغضبوا^(٥)

والثاني : معناه ولا يكسبنكم ، يقال جرمت على أهلي ، أي كسبت لهم ، وهذا قول الفراء .

وفي ﴿ شَتَانٌ قَوْمٌ ﴾ تأويلان :

أحدهما : معناه بغض قوم ، وهذا قول ابن عباس .

والثاني : عداوة قوم ، وهو قول قتادة .

وقال السدي : نزلت هذه الآية في الحُطَم بن هند البكري أتى رسول الله ﷺ ، فقال : إِلَّامٌ تَدْعُو؟ فأخبره ، وقد كان النبي ﷺ قال لأصحابه : « يَدْخُلُ الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ رِبِيعَةٍ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ شَيْطَانٍ » ، فلما أخبره النبي ﷺ قال : أنظرني حتى أشاور ، فخرج من عنده ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ دَخَلَ بَوَجهِ كَافِرٍ ، وَخَرَجَ بِقَفَا غَادِرٍ »^(٦) فمر بسرح من سرح المدينة ، فاستقاه وانطلق وهو يرتجز ويقول :

(٣) وهذه مسألة أصولية مختلف فيها قال الحافظ ابن كثير عند هذه الآية (٥/٢) وهذا أمر بعد الحظر والصحيح الذي يثبت على السير أن يُرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي فإن كان واجباً رده واجباً وإن كان مستحباً فمستحب أو مباحاً فمباح اهـ . وهذا القول اختاره الزركشي ونصره الشنقيطي في أضواء البيان (٤/٢) .

(٤) وقرأ ابن عامر يسكون النون أنظر السبعة في القراءات لابن مجاهد (ص ٢٤٢) . وعلى قراءة يسكون النون يكون [الشَتَان] وصفاً كالغضبان .

وقيل : الشَتَان على هذه القراءة أيضاً البغض .

(٥) أنظر اللسان مادة [جرم] ، والخزانة (٣١٠/٤) ، ومجاز القرآن (١٤٧/١) ومشكل القرآن (٤١٨) .

(٦) رواه الطبري (٤٧٣/٩) عن السدي قال أقبل الحُطَم بن هند البكري ثم أحد بن قيس بن ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ وحده وخلف خيله خارجة من المدينة فدعاه فقال إلام تدعوننا فأخبره . . . الحديث فيه فقال رسول الله ﷺ « لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقب غادر » . . . الحديث . . . وهو =

لقد لفها الليل بسواق حطم
 ليس براعي إبل ولا غنم
 ولا بجزار على ظهر وضم
 باتوا نياماً وابن هند لم ينم
 بات يقاسيها غلام كالزلم
 خدلج الساقين ممسوح القدم

ثم أقبل من عام قابل حاجاً قد قلد الهدى ، فاستأذن أصحاب النبي ﷺ أن يقتلوه ، فنزلت هذه الآية حتى بلغ ﴿ ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ﴾ فقال له ناس من أصحابه : يا رسول الله خل بيننا وبينه ، فإنه صاحبنا ، فقال : « إنه قد قلد » .

ثم اختلفوا فيما نسخ من هذه الآية بعد إجماعهم على أن منها منسوخاً على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن جميعها منسوخ ، وهذا قول الشعبي ، قال : لم ينسخ من المائدة إلا هذه الآية .

والثاني : أن الذي نسخ منها ﴿ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ﴾ وهذا قول ابن عباس ، وقتادة .

والثالث : أن الذي نسخ منها ما كانت الجاهلية تتقلده من لحاء الشجر ، وهذا قول مجاهد .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ
 وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى
 النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَيسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ
 نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ
 لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

= معضل كما ترى وقد روى الطبري رحمه الله نحوه (٤٧٣/٩) من حديث عكرمة لكن فيه قال قدم الحطم أخو بني ضبيعة بن ثعلبة البكري المدينة في غير له تحمل طعاماً فباعه ثم دخل على النبي ﷺ فباعه وأسلم فلما ولى خارجاً نظر إليه فقال لمن عنده لقد دخل عليّ بوجه فاجر وولى بقفا غادر ... الحديث .. وهذا مرسل من مراسيل عكرمة .
 وروى الطبري نحوه عن ابن جريج (٤٧٤/٩) .

قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ فيها تأويلان :

أحدهما : أنه كل ما له نفس سائلة من دواب البر وطيره .

والثاني : أنه كل ما فارقتة الحياة من دواب البر وطيره بغير ذكاة .

﴿ وَالْدَّمُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الحرام منه ما كان مسفوحاً كقوله تعالى : ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ .

الثاني : أنه كل دم مسفوح وغير مسفوح ، إلا ما خصته السنة من الكبد والطحال^(٧) . فعلى القول الأول لا يحرم السمك ، وعلى الثاني يحرم .

﴿ وَلَحْمُ الْخِزْيَرِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن التحريم يختص بلحم الخنزير دون شحمه ، وهذا قول داود .

والثاني : أنه يعم اللحم وما خالطه من شحم وغيره ، وهو قول الجمهور ، ولا فرق بين الأهلي منه والوحشي .

﴿ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ يعني ما ذبح لغير الله من الأصنام والأوثان^(٨) ،

وأصله من استهلال الصبي إذا صاح حين يسقط من بطن أمه ، ومنه إهلال المُحَرَّم بالحج والعمرة ، قال ابن أحرر :

(٧) وذلك لحديث أحلت لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالسمك والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال

وقد اختلف في رفعه ووقفه فرواه الشافعي (٤٢٥/٢) وأحمد (٩٧/٢) وابن ماجه (٣٣١٤) من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعاً . . وعبد الرحمن ضعيف وأخرجه الدارقطني (ص ٥٣٩ ، ٥٤٠) من طريق علي بن مسلم عن عبد الرحمن ومن طريق مطرف عن عبد الله عن أبيهما زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعاً . . ورواه البيهقي (٢٥٤/١) من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم عن ابن عمر موقوفاً ثم قال وهذا إسناد صحيح ثم رجه على المرفوع وتعقبه ابن الترمذاني في الجوهر النقي بأن الرفع زيادة ثقة . وعلى كل حال فهذا الحديث وإن كان موقوفاً لفظاً فهو مرفوع حكماً لأن قول الصحابي أحل لنا كذا أو حرم علينا كذا من قبيل المرفوع سواء أسنده إلى النبي أو لم يسنده على القول المختار عند أهل الحديث .

(٨) اعلم أن الذبح لغير الله تعالى مع تعظيم الذي ذبح إليه كجلب نفع أو دفع ضرر فهذا شرك وضلال ، أو نذر لهم بشخصهم فالنذر لا يكون إلا لله تعالى وتقرباً إليه أو عن روح فلان .

واعلم أنه لا ضار ولا نافع على الحقيقة إلا الله ومن اعتقد أنه ينتفع بنبي أو ولي من دون مشيئة الله فقد كفر .

يهل بالفرقد ركبائها كما يهل الراكب المعتمر^(٩)
﴿وَالْمُنْحَنَةَ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها تنحن بحبل الصائد وغيره حتى تموت ، وهو قول السدي ،
والضحاك .

والثاني : أنها التي توثق ، فيقتلها خناقها .

﴿وَالْمَوْقُودَةَ﴾ هي التي تضرب بالخشب حتى تموت ، يقال : (وقذتها
أقذها وقذاً ، وأوقذها إيقاذاً ، إذا أثختها ضرباً)^(*) ، ومنه قول الفرزدق :

شغارة تقذ الفصيل برجلها فطارة لقوادم الأبقار^(١٠)

﴿وَالْمُتَرَدِّيةُ﴾ هي التي تسقط من رأس جبل ، أو بر حتى تموت .

﴿وَالنَّطِيطَةُ﴾ هي الشاة التي تنطحها أخرى حتى تموت .

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني من المنخنة وما بعدها ، وهو قول علي رضي الله عنه ،
وابن عباس ، وقتادة ، والحسن ، والجمهور .

والثاني : أنه عائد إلى ما أكل السبع خاصة ، وهو محكي عن الظاهرية .

وفي مأكولة السبع التي تحل بالذكاة قولان :

أحدهما : أن تكون لها عين تطرف أو ذنب يتحرك .

والثاني : أن تكون فيها حركة^(*) قوية لا كحركة المذبوح ، وهو قول
الشافعي ، ومالك .

﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾ معناه أن تطلبوا علم ما قُسم أو لم يُقسم
من رزق أو حاجة بالأزلام ، وهي قداح ثلاثة مكتوب على أحدها : أمرني ربي ،
والآخر : نهاني ربي ، والثالث : غفل لا شيء عليه ، فكانوا إذا أرادوا سفراً ، أو

(٩) مجاز القرآن (١٥٠ / ١) واللسان مادة [هـل]

(*) جاء في نسخة أخرى مكان هذه العبارة « وقذه يقذه وقذاً إذا ضربه حتى أشفى على الهلاك .

(١٠) ديوانه (٤٥٤) ، النقائض (٣٣٢) .

(*) جاء في نسخة للمخطوطة : حياة بدلاً من حركة .

غزواً ، ضربوا بها واستسقسموا ، فإن خرج أمرني ربي فعلوه ، وإن خرج نهاني ربي تركوه ، وإن خرج الأبيض أعادوه ، فنهى الله عنه ، فَسُمِّيَ ذلك استقساماً ، لأنهم طلبوا به علم ما قَسِمَ لهم .

وقال أبو العباس المبرد : بل هو مشتق من قَسَمَ اليمين ، لأنهم التزموا ما يلتزمون به باليمين .

﴿ ذَالِكُمْ فَسَقٌ ﴾ أي خروج عن أمر الله وطاعته ، وفعل ما تقدم نهيه عنه .

﴿ الْيَوْمَ يَنْسَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن ترتدوا عنه راجعين إلى دينهم .

والثاني : أن يقدروا على إبطاله ويقدحوا في صحته .

قال مجاهد : كان ذلك يوم عرفة حين حج النبي ﷺ حجة الوداع ، بعد دخول العرب الإسلام حتى لم ير النبي ﷺ مشركاً .

﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ ﴾ أي لا تخشوهم أن يظهروا عليكم ، واخشون ، أن تخالفوا أمري .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه يوم عرفة في حجة الوداع ولم يعش [الرسول ﷺ] بعد ذلك إلا إحدى وثمانين ليلة ، وهذا قول ابن عباس ، والسدي .

والثاني : أنه زمان النبي ﷺ كله إلى أن نزل ذلك عليه في يوم عرفة ، وهذا قول الحسن .

وفي إكمال الدين قولان :

أحدهما : يعني أكملت فرائضي وحدودي وحلالي وحرامي^(١١) . ولم ينزل على النبي ﷺ بعدها شيء من الفرائض من تحليل ولا تحريم ، وهذا قول ابن عباس والسدي .

(١١) هذه الآية حجة على كل مبتدع فلا مجال لأحد كائناً من كان أن يزيد في شرع الله أو ينقص فإن الدين قد تم والشرعة قد اكملت فليت الذين يسمون أنفسهم بالسلطة التشريعية عقلوا هذه الآية ورجعوا إلى كتاب ربهم وعلموا أن التشريع حق لله وحده .

والثاني : يعني اليوم أكملت لكم حجّكم ، أن تحجوا البيت الحرام ، ولا يحج معكم مشرك ، وهذا قول قتادة ، وسعيد بن جبير .
﴿ وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ بإكمال دينكم .
﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أي رضيت لكم الاستسلام لأمري ديناً ، أي طاعة .

روى قبيصة قال : قال كعب لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية ، لعظموا اليوم ، الذي أنزلت فيه عليهم ، فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه ، فقال عمر : قد علمت اليوم الذي أنزلت فيه ، والمكان الذي نزلت فيه ، نزلت في يوم الجمعة ويوم عرفة ، وكلاهما - بحمد الله - لنا عيد .

﴿ فَمَنْ أَضْطَرُّ ﴾ أي أصابه ضر الجوع .

﴿ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾ أي في مجاعة ، وهي مَفْعَلَةٌ مثل مجهلة ومبخرلة ومجبنة ومخرزة من خمص البطن ، وهو اضطباره (*) من الجوع ، قال الأعشى :

تبيتون في المشتي ملاء بطونكم وجاراتكم غرقى بيتن خماصاً (١٢)

﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : غير متعمد لإثم ، وهذا قول ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد .

والثاني : غير مائل إلى إثم ، وأصله من جنف القوم إذا مالوا ، وكل أعوج عند العرب أجنف .

وقد روى الأوزاعي عن حسان عن عطية عن أبي واقد الليثي (١٣) قال : قلنا

(*) هكذا في الأصول وفي اللسان أن الخمص دقة البطن أي ضموره فلعل الصواب اضطماره .

(١٢) ديوانه (١٠٩) ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة (١٥٣/١) .

ووقع هنا تصحيف في الشطر الثاني من البيت وصوابه :

« وجاراتكم غرقى بيتن خمائصاً » ويروى أيضاً : جوعى بدلاً من غرقى .

(١٣) رواه ابن جرير (٥٣٨/٩) وأحمد (٢٨٥/٥) والحاكم (١٢٥/٤) وقال صحيح على شرط

الشيخين فتعقبه الذهبي بقوله : فيه انقطاع اهـ . قلت : يعني بين حسان بن عطية وأبي واقد الليثي

كما قال أبو الحجاج المزني ونقله الهيثمي في المجمع (١٦٥/٤) .

يا رسول الله إنا بأرض يصيبنا فيها مخمصة ، فما يصلح لنا من الميتة ؟ قال : « إِذَا لَمْ تَصْطَبِحُوا أَوْ تَغْتَبِقُوا أَوْ تَجْنِفُوا بِهَا ، فَسَأُنْكُمْ بِهَا » .

واختلف في وقت نزول هذه السورة على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في يوم عرفة ، روى شهر بن حوشب^(١٤) عن أسماء بنت يزيد قالت : نزلت سورة المائدة جميعاً وأنا آخذة بزمام ناقة رسول الله ﷺ العضباء وهو واقف بعرفة فكادت من ثقلها أن تدق عضد الناقة .

والثاني : أنها نزلت في مسيره ﷺ في حجة الوداع ، وهو راكب ، فبركت به راحلته من ثقلها .

والثالث : أنها نزلت يوم الإثنين بالمدينة ، وهو قول ابن عباس ، وقد حكي عنه القول الأول .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْفُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ يعني بالطيبات الحلال ، وإنما سمي الحلال طيباً ، وإن لم يكن مستلذاً تشبيهاً بما يستلذ .

= وقد رواه الطبري برقم ١١٣٢ ، ١١٣٣ عن حسان بن عطية عن رجل .
فلعل المبهم هنا هو أبو واقد الليثي .

وقد رواه بعضهم عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن مسلم بن يزيد عن أبي واقد به ومنهم من رواه عن الأوزاعي عن حسان عن مرثد أو أبي مرثد عن أبي واقد به ورواه ابن جرير أيضاً عن هناد عن ابن المبارك عن الأوزاعي عن حسان مرسلاً والله أعلم . راجع تفسير ابن كثير (١٤/٢) وقد وردت ألفاظ في هذا الحديث فانظرها في الطبري وفيها غريب الحديث . وقد فسر الشيخ أحمد شاكر حفظه الله هذه الألفاظ وأسهب فيها وزاد على ما أورده الطبري عندها فانظره هناك .

(١٤) رواه أحمد في مسنده (٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨) والطبري برقم (١١١٠٧) وذكره الهيثمي في الزوائد (١٣/٧) وقال رواه أحمد والطبراني وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد وثقه .

﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ مَنِ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ يعني وصيد ما علمتم من الجوارح ، وهي الكواسب من سباع البهائم والطيور ، سميت جوارح لكسب أهلها بها من قولهم : فلان جارحة أهله أي كاسبهم ، ومنه قول أعشى بني ثعلبة :

ذا جبار منضجاً ميسمه يذكر الجارح ما كان اجتراح^(١٥)
أي ما اكتسب .

وفي قوله : ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني من الكلاب دون غيرها ، وأنه لا يحل إلا صيد الكلاب وحدها ، وهذا قول ابن عمر ، والضحاك ، والسدي .

والثاني : أن التكليل من صفات الجوارح من كلب وغيره ، ومعناه مُضْرِبِينَ عَلَى الصَّيْدِ كَمَا تُضْرِبُ الكلاب ، وهو قول ابن عباس ، وعلي بن الحسين ، والحسن ، ومجاهد .

والثالث : أن معنى التكليل من صفات الجارح : التعليم .

﴿ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ﴾ أي تعلمونهن من طلب الصيد لكم مما علمكم الله من التأديب الذي أدبكم وصفات التعليم التي بيّن حكمها لكم . فأما صفة التعليم ، فهو أن يُشَلَّى إذا أشلى ، ويجيب إذا دعي ويمسك إذا أخذ .

وهل يكون إمساكه عن الأكل شرطاً في صحة التعليم أم لا ؟ على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه شرط في كل الجوارح ، فإن أكلت لم تؤكل ، وهذا قول ابن عباس ، وعطاء .

والثاني : أنه ليس بشرط في كل الجوارح ويؤكل وإن أكلت ، وهذا قول ابن عمر ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي هريرة ، وسلمان .

(١٥) ديوانه : ١٦٤ ووقع في تفسير الطبري .

ذات حد فيضج ميسمها يذكر الجارح ما كان اجتراح

(٥٤٣/٩) .

والثالث : أنه شرط في جوارح البهائم فلا يؤكل ما أكلت ، وليس بشرط في جوارح الطير ، فيؤكل وإن أكلت ، وهذا قول الشعبي ، والنخعي ، والسدي .
واختلف في سبب نزول هذه الآية على قولين :

أحدهما : ما روى القعقاع بن حكيم عن سليمان بن أبي رافع^(١٦) عن أبي رافع قال : جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ليستأذن عليه ، فقال أذنًا لك ، فقال أجل ولكننا لا ندخل بيتاً فيه كلب ، قال أبو رافع : فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة فقتلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبع عليها فتركته رحمة لها ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فأمرني بقتله ، فرجعت إلى الكلب فقتلته ، فجاؤوا ، فقالوا : يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ، قال فسكت رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ الآية .

والثاني : ما حكى أن زيد الخيل لما وفد على النبي ﷺ قال فيه من الخير ما قال فسماه زيد الخير ، فقال : يا رسول الله فينا رجلان ، يقال لأحدهما دريح ، والآخر يكنى أبا دجانة ، لهما أكلب خمسة تصيد الطباء ، فما ترى في صيدها ؟

وحكى هشام عن ابن عباس أن أسماء هذه الكلاب الخمسة التي لدريح وأبي دجانة : المختلس وغلاب والغنيم وسهلب والمتعاطي ، قال : فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ الآية .

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

(١٦) رواه ابن جرير (٥٤٥/٩) وفي سننه عنده موسى بن عبيدة وهو منكر الحديث لا تحل الرواية عنه كما قال الإمام أحمد ورواه الحاكم (٣١١/٢) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي لكن في سننه عنده محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد عنعن الحديث وزاد السيوطي في الدر (٢١/٣) نسبته للفرجاني وابن المنذر والبيهقي وابن أبي حاتم والطبراني .

قال تعالى : ﴿ أَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ ﴾ يعني ذبائحهم .

﴿ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ ﴾ يعني ذبائحنا .

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ يعني نكاح المحصنات ، وفيهن قولان :

أحدهما : أنهن الحرائر من الفريقين ، سواء كن عفيفات أو فاجرات ، فعلى هذا ، لا يجوز نكاح إمائهن ، وهذا قول مجاهد ، والشعبي ، وبه قال الشافعي .
والثاني : أنهن العفاف ، سواء كن حرائر أم إماء ، فعلى هذا ، يجوز نكاح إمائهن ، وهذا قول مجاهد ، والشعبي أيضاً ، وبه قال أبو حنيفة .

وفي المحصنات من الذين أوتوا الكتاب قولان :

أحدهما : المعاهدات دون الحرييات ، وهذا قول ابن عباس .

والثاني : عامة أهل الكتاب من معاهدات وحرييات ، وهذا قول الفقهاء وجمهور السلف .

﴿ إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ يعني صداقهن .

﴿ مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ يعني أَعْفَاءَ غَيْرَ زُنَاةٍ .

﴿ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ هي ذات الخليل الواحد تقيم معه على السفاح .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾
يعني إذا أردتم القيام إلى الصلاة ، فاغسلوا وجوهكم ، فيه ثلاثة أقاويل :
أحدها : إذا قمتم إلى الصلاة محدثين ، فاغسلوا ، فصار الحدث مُضْمَرًا ،
وفي وجوب الوضوء شرطاً ، وهو قول عبد الله بن عباس ، وسعد بن أبي وقاص ،
وأبي موسى الأشعري ، والفقهاء .

والثاني : أنه واجب على كل من أراد القيام إلى الصلاة ، أن يتوضأ ، ولا
يجوز أن يجمع بوضوء واحد بين فرضين ، وهذا مروى عن علي وعمر .
والثالث : أنه كان واجباً على كل قائم إلى الصلاة ، ثم نسخ إلّا على المحدث .
روى سليمان بن بريدة عن أبيه ^(١٧) قال : كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل
صلاة ، فلما كان عام الفتح ، صلى الصلوات كلها بوضوء واحد ، ومسح على
خفيه ، فقال عمر : إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله ، قال : « عمداً فعلته يا عمر » .
وروى عبد الله بن حنظلة بن عامر الغسيل ^(١٨) : أن النبي ﷺ أمر بالوضوء
عند كل صلاة فشق عليه ، فأمر بالسواك ، ورفع عنه الوضوء .

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى
أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

(١٧) رواه مسلم (١٧٦/٣ ، ١٧٧) وأبو داود (برقم ١٧٢) والترمذي (٨٩/١ ، ٩٠) والنسائي
(٨٦/١) والبيهقي (١٦٢/١ ، ٢٧١) وأحمد (٣٥٨ ، ٣٥٠/٥ ، ٣٥١) وابن جرير (١٦/١٠)
برقم ١١٣٣٠ ، ١١٣٣٣ .

(١٨) رواه أبو داود (برقم ٤٨) وابن جرير (١٤/١٠) والبيهقي (٣٧/١ ، ٣٨) وأحمد (٢٢٥:٥) والحاكم
(١٥٦/١) .

وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

وما كان من تدليس محمد بن إسحاق فقد صرح بالتحديث في رواية الطبري والحاكم وصححه ابن كثير
في التفسير (٢٢/٢) وزاد السيوطي في الدرر (٢٧/٣) نسبته لابن خزيمة .

تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾ يعني بالحق فيما يلزم من طاعته .

﴿ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل . وفي هذه الشهادة ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها الشهادة بحقوق الناس ، وهذا قول الحسن .

والثاني : الشهادة بما يكون من معاصي العباد ، وهذا قول بعض البصريين .

الثالث : الشهادة لأمر الله تعالى بأنه حق .

وهذه الآية نزلت في النبي ﷺ ، واختلف المفسرون في سبب نزولها فيه على

قولين :

أحدهما : أن النبي خرج إلى يهود بني النضير ، يستعين بهم في دية ، فهموا أن يقتلوه ، فنزل ذلك فيه ، وهذا قول قتادة ، ومجاهد .

ثم إن الله تعالى ذكرهم نِعْمَةً عَلَيْهِمْ بِخِلاصِ نَبِيِّهِمْ بقوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ .

والقول الثاني : أن قريشاً بعثت رجلاً ، ليقتل رسول الله ﷺ ، فأطاع الله نَبِيَّهُ على ذلك ، فنزلت فيها هاتان الآيتان ، وهذا قول الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ يعني بإخلاص العباد لله ولزوم طاعته .

﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ أخذ من كل سبط منهم نقيباً ، وفي النقيب

ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الضمين ، وهو قول الحسن .

الثاني : الأمين ، وهو قول الربيع .

والثالث : الشهيد على قومه ، وهو قول قتادة .

وأصله في اللغة : النقيب الواسع ، فنقيب القوم هو الذي ينقب أحوالهم .

وفيما بعث فيه هؤلاء النقباء قولان :

أحدهما : أنهم بُعثوا إلى الجبارين ، ليقفوا على أحوالهم ويرجعوا بذلك إلى موسى ، فرجعوا عن قتالهم ، لمَّا رأوا من شدة بأسهم ، وعظم خلقهم ، إلا اثنين منهم ، وهذا قول مجاهد ، والسدي .

والثاني : أنهم بعثوا لقومهم بما أخذ به ميثاقهم منهم ، وهذا قول الحسن .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمْهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١٢) ﴿ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاصِبِهِ ۖ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۖ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣) ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۖ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١٤)

وفي قوله تعالى : ﴿ وَعَزَّرْتُمْهُمْ ﴾ تأويلان :

أحدهما : يعني نصرتموهم ، وهذا قول الحسن ، ومجاهد .

الثاني : عظمتموهم ، وهذا قول أبي عبيدة .

وأصله المنع ، قال الفراء : عززته عزراً إذا رددته عن الظلم ، ومنه التعزير لأنه يمنع من معاودة القبح .

قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ وتقديره : فبنقضهم ميثاقهم لعنّاهم ، و« ما » صلة زائدة .

﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ من القسوة وهي الصلابة .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ قَسِيَةً ﴾ وفيه تأويلان :

أحدهما : أنها أبلغ من قاسية .

والثاني : أنها بمعنى قاسية .

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ يعني بالتغيير والتبديل ، وسوء التأويل .

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ يعني نصيبهم من الميثاق المأخوذ عليهم .

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني خيانة منهم .

والثاني : يعني فرقة خائنة .

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أن حكمها ثابت في الصفح والعفو إذا رآه .

والثاني : أنه منسوخ ، وفي الذي نسخه قولان :

أحدهما : قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

[التوبة : ٢٩] وهذا قول قتادة .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَانِذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى

سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال : ٥٨] .

بَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا
كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ

مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُتِبَ
تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعني : نبوة محمد ﷺ ، ورجم الزانين .

﴿ وَيَغْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ مما سواه .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ في النور تأويلان :

أحدهما : محمد ﷺ ، وهو قول الزجاج .

الثاني : القرآن وهو قول بعض المتأخرين .

قوله تعالى : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : سبيل الله ، لأن الله هو السلام ، ومعناه دين الله ، وهذا قول
الحسن .

والثاني : طريق السلامة من المخافة ، وهو قول الزجاج .

﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾ يعني : من الكفر إلى الإيمان

بلطفه .

﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : طريق الحق وهو دين الله (*) ، وهذا قول الحسن .

والثاني : طريق الجنة في الآخرة ، وهو قول بعض المتكلمين .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ

(*) وفي نسخة : الحق .

مَا يَشَاءُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ في قولهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه قول جماعة من اليهود حذرهم النبي ﷺ عقاب الله ، وخوفهم به ، فقالوا لا نخوفنا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ ، وهذا قول ابن عباس .

والثاني : أن اليهود تزعم أن الله عز وجل أوحى إلى إسرائيل أن ولدك بكرى من الولد ، فقالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ وهذا قول السدي .

وقال الحسن : أنهم قالوا ذلك على معنى قرب الولد من والده ، وهو القول الثالث .

وأما النصارى ، ففي قولهم لذلك قولان :

أحدهما : لتأويلهم ما في الإنجيل من قوله : اذهب إلى أبي وأبيكم ، فقالوا لأجل ذلك ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ .

الثاني : لأجل قولهم في المسيح : ابن الله ، وهم يرجعون إليه ، فجعلوا نفوسهم أبناء الله وأحباءه ، فرد الله منطقهم ذلك بقوله :

﴿ ... فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ لأن الأب لإشفاقه لا يعذب ابنه ، ولا المحب حبيبه .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ

وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَقَوْمِ ادْخُلُوا
 الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَيَّ آدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ
 ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ خَلْهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن
 يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ
 اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ
 فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْعُكَ خَلْهَا أَبَدًا مَا دَامُوا
 فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا
 أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا
 مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
 جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾ فيهم قولان :

- أحدهما : أنهم الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى .
- والثاني : أنهم السبعون الذين اختارهم موسى .
- ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : لأنهم ملكوا أنفسهم بأن خلصهم من استعباد القبط لهم ، وهذا قول
 الحسن .

والثاني : لأن كل واحد ملك نفسه وأهله وماله ، وهذا قول السدي .

والثالث : لأنهم كانوا أول من ملك الخدم من بني آدم (*) ، وهو قول قتادة .

والرابع : أنهم جُعِلُوا ملوكاً بالْمَنِّ وَالسُّلُوى وَالْحَجَرِ ، وهذا قول ابن عباس .

(*) وفي نسخة : من بني آدم بن إسرائيل وفي أخرى من بني إسرائيل اهـ . وتعقب ابن عطية هذا
 القول .

والخامس : أن كل من ملك داراً وزوجة وخادماً ، فهو ملك من سائر الناس ، وهذا قول عبد الله بن عمرو بن العاص ، والحسن ، وزيد بن أسلم .
وقد روى زيد بن أسلم ^(١٩) قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان له بيت [يأوي إليه وزوجة] وخادم ، فهو ملك » .

﴿ وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : المن والسلوى والغمام والحجر ، وهو قول مجاهد .
الثاني : كثرة الأنبياء فيهم والآيات التي جاءتهم .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أرض بيت المقدس ، وهذا قول ابن عباس ، والسدي .

والثاني : دمشق وفلسطين وبعض الأردن ، وهذا قول الزجاج .

والثالث : هي الشام ، وهذا قول قتادة ، ومعنى المقدسة : المطهرة .

وقوله : ﴿ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ وإن قال : ﴿ إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ لأنها كانت هبة من الله تعالى لهم ثم حرّمها عليهم بعد معصيتهم .

﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : لا ترجعوا عن طاعة الله إلى معصيته .

والثاني : لا ترجعوا عن الأرض التي أمرتم بدخولها .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ والجبار : هو الذي يجبر الناس على ما يريد إكراههم عليه ، ومنه جبر العظم ، لأنه كالإكراه على

(١٩) وهذا حديث مرسل من مراسيل زيد قال الحافظ ابن كثير (٣٧/٢) مرسل غريب رواه الطبري (١٦١/١٠) وزاد السيوطي في الدرر (٤٧/٣) نسبته للزبير بن بكار في الموقوفات ولأبي داود في مراسيله .

ويغني عن هذا الحديث ما رواه مسلم (١٨ : ١٠٩ ، ١١٠) والطبري (١٦١/١٠) والسياق له عن أبي هاني أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي يقول سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال ألسنا من فقراء المهاجرين فقال له عبد الله ألك امرأة تأوي إليها قال نعم قال ألك مسكن تسكنه قال نعم قال فأنت من الأغنياء فقال إن لي خادماً قال فأنت من الملوك .

الصلاح ، ويقال [للأعواد التي] تحمله جُبَّارة ، إذا قامت اليد طولاً ، لأنها امتنعت كامتناع الجبار من الناس .

وقيل : بلغ من جبروت هؤلاء القوم ، أن واحداً منهم ، أخذ الاثني عشر نقيباً ، الذين بعثهم موسى ، ليخبروه بخبرهم ، فحملهم مع فاكهة حملها من بستانه ، وجاء فنشرهم بين يدي الملك ، وقال : هؤلاء يريدون أن يقاتلونا ، فقال الملك : ارجعوا إلى صاحبكم فأخبروه خبرنا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يخافون الله ، وهو قول قتادة .

الثاني : يخافون الجبارين ، ولم يمنعهم خوفهم من قول الحق .

﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : بالتوفيق للطاعة .

والثاني : بالإسلام ، وهو قول الحسن .

وفي هذين الرجلين قولان :

أحدهما : أنهما من النقباء يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : أنهما رجلان ، كانا في مدينة الجبارين أنعم الله عليهما بالإسلام ، وهذا مروى عن ابن عباس .

﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : إنما قالوه لعلمهم بأن الله كتبها لهم .

والثاني : لعلمهم بأن الله ينصرهم على أعدائه ، ولم يمنعهم خوفهم من قول

الحق ، وقد قال النبي ﷺ : « لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدُكُمْ مَخَافَةَ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا رَأَهُ أَوْ عِلِمَهُ فَإِنَّهُ لَا يُبْعَدُ مِنْ رِزْقٍ وَلَا يُذْنِبُ مِنْ أَجْلِ » (٢٠) .

(٢٠) رواه أحمد (٥٠/٣) من حديث أبي سعيد الخدري ولفظه ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول

الحق إذا رآه وتابعه فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم .

وصححه الشيخ أحمد شاكر في المسند وله ألفاظ أخرى بنحوه من حديث ابن سعيد أيضاً تراها في

المسند (٨٤/٣ ، ٨٧ ، ٩٢) .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِأَثَمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَعَتْ لهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوَلِّتُنِي أَعِزَّتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ فيهما قولان :

أحدهما : أنهما من بني إسرائيل ، وهذا قول الحسن .

والثاني : أنهما ابنا آدم لصلبه ، وهما هابيل وقابيل ، وهو قول ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وقتادة .

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ والقربان : هو البر الذي يقصد به القرب من رحمة الله ، وهو فعلاَن من القرب .

واختلف في السبب الذي قربا لأجله قرباناً على قولين :

أحدهما : أنهما فعلاه لغير سبب .

والثاني : وهو أشهر القولين (٢١) أن ذلك لسبب ، وهو أن حواء كانت تضع

(٢١) هذه القصة من القصص الإسرائيلية ليس لها أصل صحيح وقد ساق العلامة ابن كثير آثاراً كثيرة معظمها في الطبري وأجود ما فيها ما رواه ابن أبي حاتم عن ابن خثيم قال أقبلت مع سعيد بن جبير فحدثني عن ابن عباس قال نهي أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأقر أن ينكحها غيره من إخوتها وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيفة وولد له أخرى قبيحة دميمة فقال أخو الدميمة أنكحني أختك وانكحك أختي فقال لا أنا أحق بأختي فقربا قرباناً فتقبل من صاحب الكباش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله ، قال الحافظ ابن كثير بعد نقله للأثر (٤٢/٢) إسناده

في كل عام غلاماً وجارية ، فكان الغلام يتزوج من أحد البنتين بالجارية من البطن الآخر ، وكان لكل واحد من ابني آدم هابيل وقايل توأمة ، فأراد هابيل أن يتزوج بتوأة قايل فمنعه ، وقال أنا أحق بها منك .

واختلف في سبب منعه على قولين :

أحدهما : أن قايل قال لهابيل أنا أحق بتوأمتي منك ، لأننا من ولادة الجنة وأنت من ولادة الأرض .

الثاني : أنه منعه منها لأن توأمته كانت أحسن من هابيل ومن توأمته ، فقربا قرباناً ، وكان قايل حراثاً ، وهابيل راعياً ، فقرب هابيل سخلة سمينية من خيار ماله ، وقرب قايل حزمة سنبل من شر ماله ، فنزلت نار بيضاء فرفعت قربان هابيل وتركت قربان قايل ، وكان ذلك علامة القبول ولم يكن فيهم مسكين يتقرب بالصدقة عليه وإنما كانت قُرْبُهُمْ هكذا .

قال أبو جعفر الطبري (*) : وكانت سخلة هابيل المقبولة ترعى في الجنة حتى فدئ الله تعالى بها إسحاق بن إبراهيم الذبيح .

واختلف في سبب قبول قربان هابيل على وجهين :

أحدهما : لأنه كان أتقى الله من قايل لقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مَنِ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، والتقوى ها هنا الصلاة ، على ما ذكره المفسرون .

الثاني : لأن هابيل تقرب بخيار ماله فَتَقَبَّلَ منه ، وقايل تقرب بشر ماله ، فلم يَتَقَبَّلَ منه ، وهذا قول عبد الله بن عمر ، وأكثر المفسرون .

واختلف في قربانهما هل كان بأمر آدم ، أو من قبل أنفسهما على قولين :

أحدهما : أنهما قربا بأمر آدم حين اختصاصا إليه .

والثاني : أنهما قربا من قِبَلِ أنفسهما .

جيد قلت ورواه الطبري مطولاً برقم ١١٧٥١ وجود إسناد الطبري الشيخ أحمد شاکر كما في العمدة

(١٢٤/٢) وقال عن هذا الأثر « وهو خبر كما ترى ليس من السنة النبوية بل ظاهره يدل على أنه مما

أخذه ابن عباس من كتب أهل الكتاب » .

(*) وما قاله الإمام الطبري هنا لم نعلم له أثراً مرفوعاً يدل عليه ولعله من الإسرائيليات والله أعلم .

وكان آدم قد توجه إلى مكة ، ليراها ويزور البيت بها عن أمر ربه ، وكان قد عرض الأمانة في حفظ أهله على السموات فأبت ، فعرضها على الأرض فأبت ، فعرضها على الجبال فأبت ، فعرضها على قابيل فقبلها ، ثم توجه وعاد فوجد قابيل قد قتل هابيل وشربت الأرض دمه ، فبكى ولعن الأرض لشربها دمه ، فأنبئت الشوك ، ولم تشرب بعده دماً .

روى غياث بن إبراهيم عن أبي إسحاق الهمداني (٢٢) عن علي قال : لما قتل قابيل بن آدم هابيل أخاه بكاه آدم عليه السلام فقال :

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُغْبِرٌ قَبِيحٌ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَقَلَّ بَشَاشَةُ الْوَجْهِ الْمَلِيحِ
قال فأجيب آدم :

أبا هابيل قد قُتِلَ جَمِيعاً وصَارَ الْحَيُّ كَالْمَيِّتِ الذَّبِيحِ
وَجَاءَ بِشَرٍّ مَا قَدْ كَانَ مِنْهُ عَلَى خَوْفٍ فَجَاءَ بِهَا تَصِيحٌ

واختلف في قابيل هل كان عند قتل أخيه كافراً أو فاسقاً ؟ فقال قوم كان كافراً ، وقال آخرون بل كان رجل سوء فاسقاً .

قال ابن جريج : لم يزل بنو آدم في نكاح الأخوات حتى مضى أربعة آباء ، فنكح ابنة عمه وذهب نكاح الأخوات .

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ معناه لئن بدأتني بالقتل لم أبدأك بمثله ، وفي امتناعه من دفعه قولان :

أحدهما : منعه منه التخرج مع قدرته عليه وجوازه له ، وهذا قول ابن عباس ، وعبد الله بن عمر .

والثاني : أنه لم يكن له الامتناع ممن أراد إذ ذاك ، وهذا قول مجاهد والحسن .

(٢٢) هذا الأثر عن علي لا يصح فقد رواه الطبري (٢٠٩/١٠) وفي سننه غياث بن إبراهيم وهو مشهور بالوضع ولم يشهد له أحد بخير راجع ترجمته في الميزان فقد أورد له الذهبي هذا الحديث (٣٧٧/٣ ، ٣٣٨) وجاء نحو هذا الحديث مع اختلاف في بعض ألفاظه عن ابن عباس موقوفاً رواه الخطيب وابن عساكر كما في الدر (٦٣/٣) .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ معناه ترجع ، وفيه تأويلان :

أحدهما : أن تبوء بإثم قتلي وإثمك الذي عليك من معاصيك وذنوبك ، وهذا قول ابن عباس ، وابن مسعود .

والثاني : يعني أن تبوء بإثمي في خطاياي ، وإثمك بقتلك لي ، فتبوء بهما جميعاً ، وهذا قول مجاهد .

وروى الأعمش ، عند عبد الله بن مرة ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » (٢٣) .

قوله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ﴾ معنى طوعت أي فعلت من الطاعة ، وفيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني شجعت ، وهو قول مجاهد .

والثاني : يعني زينت ، وهو قول قتادة .

والثالث : يعني فساعدته .

وكان هابيل أول من قُتِلَ في الأرض ، وقيل إن قابيل لم يدر كيف يقتله حتى ظهر له إبليس فعلمه ، وقيل إنه قتله غيلة ، بأن ألقي عليه وهو نائم صخرة ، شدخه بها .

قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني عورة أخيه .

والثاني : جيفة أخيه لأنه تركه حتى أتنن ، فقبل لجيفته سواة .

وفي الغراب المبعوث قولان :

(٢٣) رواه البخاري (٢٦٢/٦ ، ١٦٩/١٢ ، ٢٥٦/١٣) ومسلم (١٣٠٣/٣) وأحمد (٢٢٦/٥) والترمذي (٩٢/١) والنسائي (٨٢/٧) وابن ماجه (٨٧٣/٢) وابن جرير (٢١٨/١٠) وزاد السيوطي في الدر (٦١/٣) نسبه لابن المنذر .

أحدهما : أنه كان ملكاً على صورة الغراب ، فبحث الأرض على سواة أخيه حتى عرف كيف يدفنه .

والثاني : أنه كان غراباً بحث الأرض على غراب آخر .

﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ قيل إنه ندم على غير الوجه الذي تصح منه التوبة ، فلذلك لم تقبل منه ، ولوندم على الوجه الصحيح لقبلت توبته .

وروى معمر ، عن قتادة ، عن الحسن (٢٤) ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « إِنَّ ابْنِي آدَمَ ضَرَبَا مَثَلًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَخُذُوا مِنْ خَيْرِهِمَا ، وَدَعُوا شَرَّهُمَا » .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ﴾ يعني من أجل أن ابن آدم قتل أخاه ظلماً .

﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ﴾

يعني من قتل نفساً ظلماً بغير نفس قتلت ، فيقتل قصاصاً ، أو فساد في الأرض استحققت به القتل ، والفساد في الأرض يكون بالحرب لله ولرسوله وإخافة السبيل .

(٢٤) رواه ابن جرير (٢٣٠/١٠) وزاد السيوطي في الدر (٥٩/٣) نسبته لعبد الرزاق وهو حديث مرسل وقد ورد نحوه عن السدي قال بلغني أن رسول الله ﷺ قال « أيها الناس ألا إن ابني آدم ضربا لكم مثلاً . . . الحديث وهذا بلاغ كما ترى ونسبه السيوطي في الدر (٥٩/٣) لعبد بن حميد .

﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ فيه ستة

تاويلات :

أحدها : يعني من قتل نبياً أو إمام عدل ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن شد على يد نبي أو إمام عدل ، فكأنما أحيا الناس جميعاً ، وهذا قول ابن عباس .

والثاني : معناه فكأنما قتل الناس جميعاً عند المقتول ، ومن أحياها فاستنقذها من هلكة ، فكأنما أحيا الناس جميعاً عند المستنقذ ، وهذا قول ابن مسعود .

والثالث : معناه أن قاتل النفس المحرمة يجب عليه من القود والقصاص مثل ما يجب عليه لو قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها بالعفو عن القاتل ، أعطاه الله من الأجر مثل ما لو أحيا الناس جميعاً ، وهذا قول ابن زيد وأبيه .

والرابع : معناه أن قاتل النفس المحرمة يَصْلِي النار كما يَصْلَاهَا لو قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها ، يعني سلم من قتلها ، [فكأنما] سلم من قتل الناس جميعاً ، وهذا قول مجاهد .

والخامس : أن على جميع الناس (جناية القتل) كما لو قتلهم جميعاً ، ومن أحياها بإنجائها من غرق أو حرق أو هلكة ، فعليهم شكره كما لو أحياهم جميعاً .
والسادس : أن الله تعالى عظم أجرها ووزرها فإحياؤها [يكون] بمالك أو عفوك ، وهذا قول الحسن ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً ﴾ اختلف فيمن نزلت فيه هذه الآية على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض ، فعرف الله نبيه الحكم فيهم ، وهذا قول ابن عباس .

الثاني : أنها نزلت في العُرَيْنَيْنِ ارتدوا عن الإسلام وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا إبله ، وهذا قول أنس بن مالك ، وقتادة .

والثالث : أنها نزلت إخباراً من الله تعالى بحكم من حارب الله ورسوله ، وسعى في الأرض فساداً .

واختلف في المستحق اسم المحارب لله ورسوله الذي يلزمه حكم هذه الآية على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الزنى والقتل والسرقة ، وهذا قول مجاهد .

والثاني : أنه المجاهر بقطع الطريق والمكابر باللصوصية في المِصْر وغيره ، وهذا قول الشافعي ، ومالك ، والأوزاعي .

والثالث : أنه المجاهر بقطع الطريق دون المكابر في المِصْر ، وهذا قول أبي حنيفة ، وعطاء الخراساني .

﴿ أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ جعل الله هذا حكم المحارب ، وفيه قولان :

أحدهما : أنها على التخيير وأن الإمام فيهم بالخيار بين أن يقتل أو يصلب أو يقطع أو ينفي ، وهذا قول سعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعطاء ، وإبراهيم .

والثاني : أنها مرتبة تختلف على قدر اختلاف الأفعال : أن يقتلوا إذا قتلوا ، أو يصلبوا إذا قتلوا وأخذوا المال ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إذا أخذوا المال ولم يقتلوا ، وهذا قول ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي .

وروى ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب^(٢٥) أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك العربيين وهم من بجيلة ، فسأل رسول الله ﷺ جبريل عن القصاص فيمن حارب ، فقال : من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده لسرقته ورجله لإخافته ، ومن قتل فاقطع يده ، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج فاصلبه .

أما قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ فقد اختلف أهل التأويل فيه على أربعة أوجه :

(٢٥) رواه الطبري (٢٦٧/١٠) مطولاً ومختصراً برقم ١١٨١٦ وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف إلا في رواية العبادلة عنه وهذه ليست منها وفيه الوليد بن مسلم وهو مدلس وقد عنعن وفيه انقطاع بين يزيد ابن أبي حبيب وأنس فإنه لم يدرك أنساً ولم يُذكر أنه سمع منه وعلى هذا فالحديث ضعيف بهذه العلل الثلاث أما قصة العربيين فهي صحيحة ثابتة في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه .

أحدها : أنه نفيتهم وإبعادهم من بلاد الإسلام إلى بلاد الشرك ، وهو قول أنس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، والزهري ، والضحاك ، والربيع .
والثاني : أنه إخراجهم من مدينة إلى مدينة أخرى ، وهو قول عمر بن عبد العزيز ، وسعيد بن جبير .

والثالث : أنه الحبس ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه .

والرابع : هو أن يطلبوا لتقام الحدود عليهم فَيُبْعَدُوا ، وهذا قول ابن عباس ، والشافعي ، والليث بن سعد .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ فيه ستة أقاويل :

أحدها : إلا الذين تابوا من شركهم وسعيهم في الأرض فساداً بإسلامهم ، فأما المسلمون فلا تسقط التوبة عنهم حداً وجب عليهم ، وهذا قول ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة .

الثاني : إلا الذين تابوا من المسلمين المحاربين بأمان من الإمام قبل القدرة عليهم ، فأما التائب بغير أمان فلا ، وهذا قول علي عليه السلام ، والشعبي ، وروى الشعبي أن خارجة بن زيد خرج محارباً فأخاف السبيل ، وسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وجاء تائباً من قبل القدرة عليه ، فقبل علي توبته وجعل له أماناً منشوراً على ما كان أصاب من دم ومال .

والثالث : إلا الذين تابوا بعد أن لحقوا بدار الحرب وإن كان مسلماً ثم جاء تائباً قبل القدرة عليه ، وهذا قول عروة بن الزبير .

والرابع : إن كان في دار الإسلام في منعة وله فئة يلجأ إليها وتاب قبل القدرة عليه قبلت توبته ، وإن لم يكن له فئة يمتنع بها [وتاب] لم [تسقط] عنه توبته شيئاً من عقوبته ، وهذا قول ابن عمر ، وربيعة ، والحكم بن عيينة .

والخامس : أن توبته قبل القدرة عليه تضع عنه حدود الله تعالى دون حقوق الأدميين ، وهذا قول الشافعي .

والسادس : أن توبته قبل القدرة عليه تضع عنه سائر الحقوق والحدود إلا الدماء ، وهذا مذهب مالك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَ لَهُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ وهي في قراءة عبد الله ابن مسعود: والسارقون والساقيات فاقطعوا أيماهما .

إنما بدأ الله تعالى في السرقة بالسارق قبل السارقة ، وفي الزنى بالزانية قبل الزاني ، لأن حب المال على الرجال أغلب ، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب ، ثم جعل حد السرقة قطع اليد لتناول المال بها ، ولم يجعل حد الزنى قطع الذكر مع مواجهة الفاحشة به ، لثلاثة معانٍ :

أحدها : أن للسارق مثل يده التي قطعت فإن انزجر بها اعتاض بالثانية ، وليس للزاني مثل ذكره إذا قطع فلم يعتض بغيره لو انزجر بقطعه .

والثاني : أن الحد زجر للمحدود وغيره ، وقطع اليد في السرقة ظاهر ، وقطع الذكر في الزنى باطن .

والثالث : أن في قطع الذكر إبطال النسل وليس في قطع اليد إبطاله .

وقد قطع السارق في الجاهلية ، وأول من حكم بقطعه في الجاهلية الوليد ابن المغيرة ، فأمر الله تعالى بقطعه في الإسلام ، فكان أول سارق قطعه رسول الله

ﷺ في الإسلام الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، ومن النساء مرة بنت سفيان بن عبد الأسد من بني مخزوم ، وقال : « لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ لَقَطَعْتُ » (٢٦) .
وقطع عمر ابن سمرة أخا عبد الرحمن بن سمرة .

والقطع في السرقة حق لله تعالى لا يجوز العفو عنه بعد علم الإمام به ، لقول رسول الله ﷺ في سارق رداء صفوان حين أمر بقطعه ، فقال صفوان : قد عفوت عنه ، فقال النبي ﷺ : « هَلَّا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ ؟ لَا عَفَاَ اللَّهُ عَنِّي إِنْ عَفَوْتُ » (٢٧) .
وروي أن معاوية بن أبي سفيان أتى بلبصوص فقطعهم حتى بقي واحد منهم فقدم ليقطع فقال :

يميني أمير المؤمنين أعيدها بعفوك أن تلقى مكاناً يشينها
يدي كانت الحسنة لو تم سبرها ولا تعدم الحسنة عابا يعيبها
فلا خير في الدنيا وكانت حبيبة إذا ما شمالي فارقتها يمينها

فقال معاوية : كيف أصنع وقد قطعت أصحابك ، فقالت أم السارق : يا أمير المؤمنين اجعلها من ذنوبك التي تتوب منها ، فخلّ سبيله ، فكان أول حد ترك في الإسلام .

ولوجوب القطع مع ارتفاع الشبهة شرطان هما : الحرز والقدر ، وقد اختلف الفقهاء في قدر ما تقطع فيه اليد خلافاً ، كتّب الفقه أولى .

واختلف أهل التأويل حينئذ لأجل استثناء القطع وشروطه عمن سرق من غير حرز أو سرق من القدر الذي تقطع فيه اليد في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ هل هو عام خَصَّ ؟ أو مجمل فُسِّر على وجهين :
أحدهما : أنه العموم الذي خَصَّ .
والثاني : أنه المجمل الذي فُسِّر .

(٢٦) جزء من حديث رواه البخاري (٧٦/١٢) ومسلم (١٨٦/١١٠ - ١٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها واسم المرأة المخزومية التي سرقت فاطمة بنت الأسود راجع ترجمتها في الإصابة .
(٢٧) رواه عبد الرزاق في المصنف (٢٢٥/١٠) مختصراً عن الزهري أن صفوان أتى النبي ﷺ ورواه مطولاً أيضاً (٢٣٠/١٠) عن طاووس قال قيل لصفوان بن أمية . . . الحديث ورواه أيضاً (٢٢٩/١٠) عن عمرو بن دينار مطولاً بنحو حديث طاووس .

ثم قال تعالى : ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا ﴾ فاختلفوا هل يجب مع القطع عُزْمُ المسروق إذا استهلك على مذهبين :

أحدهما : أنه لا غرم ، وهذا قول أبي حنيفة .

والثاني : يجب فيه الغرم ، وهو مذهب الشافعي .

وذكر الكلبي أن هذه الآية نزلت في طعمة بن أبيرق سارق الدرع .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ في التوبة ها هنا قولان :

أحدهما : أنها كالتوبة من سائر المعاصي والندم على ما مضى والعزم على ترك المعاودة .

والثاني : أنها الحد ، وهو قول مجاهد .

وقد روى عبد الله بن عمرو قال (٢٨) : سرت امرأة حلياً فجاء الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله سرقتنا هذه المرأة ، فقال رسول الله ﷺ : « أَقْطَعُوا يَدَهَا الْيَمْنَى » فقالت المرأة : هل لي من توبة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أَنْتِ الْيَوْمَ مِنْ خَطِيئَتِكَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ » فأنزل الله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يغفر لمن تاب من كفره ، ويعذب من مات على كفره ، وهذا قول الكلبي .

الثاني : يعذب من يشاء في الدنيا على معاصيهم بالقتل والخسف والمسخ والآلام وغير ذلك من صنوف عذابه ، ويغفر لمن يشاء منهم في الدنيا بالتوبة واستنقاذهم بها من الهلكة وخلصهم من العقوبة .

(٢٨) رواه الطبري (٢٩٩/١٠) وأحمد مطولاً ومفصلاً برقم ٦٦٥٧ من حديث ابن لهيعة عن حي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو . . . الحديث وهذا السند فيه ضعف من أجل ابن لهيعة وقد تقدم الكلام عليه وكذا حي بن عبد الله تكلم فيه البخاري وقال فيه نظر وقال أحمد عنده مناكير ومشاء ابن معين وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به إذا روى عن ثقة وذكره ابن حبان في الثقات وقد صحح الحديث الشيخ شاكر على قاعدته في توثيق ابن لهيعة ولم يلتفت إلى تضعيف من ضعف حي بن عبد الله . وزاد السيوطي في الدرر (٧٣/٣) نسبته لابن أبي حاتم .

﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمِعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعًا لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمِعُوا لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني به المنافقين المظهرين للإيمان المبطنين للكفر .

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني اليهود .

﴿سَمِعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعًا لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ ليكذبوا عليك عندهم إذا أتوا من بعدهم ، وهذا قول الحسن ، والزجاج .

والثاني : أن معنى قوله : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أي قائلون للكذب عليك .
 و ﴿ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ يعني في قصة الزاني المحصن من اليهود
 الذي حكم رسول الله ﷺ برجمه فأنكروه ، وهذا قول ابن عباس .
 ﴿ يُحَرِّقُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ فيه قولان :
 أحدهما : أنهم إذا سمعوا كلام النبي ﷺ غيروه بالكذب عليه ، وهذا قول
 الحسن .

والثاني : هو تغيير حكم الله تعالى في جلد الزاني بدلاً من رجمه ، وقيل في
 إسقاط القود عند استحقاقه .

﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه يريد بذلك حين زنى رجل منهم بامرأة فأنفذوه إلى النبي ﷺ
 ليحكم بينهم وقالوا : إن حكم عليكم بالجلد فاقبلوه وإن حكم عليكم بالرجم فلا
 تقبلوه ، فقام النبي ﷺ إلى مدارس توراتهم وفيها أحبارهم يتلون التوراة ، فأتى
 عبد الله بن صوريا ، وكان أعور ، وهو من أعلمهم فقال له أسألك بالذي أنزل
 التوراة بطور سيناء على موسى بن عمران هل في التوراة الرجم ؟ فأمسك ، فلم يزل
 به حتى اعترف ، فأمر بهما النبي ﷺ فَرَجِمَا ، قال عبد الله : وكنت فيمن رجمه
 وأنه ليقبها الأحجار بنفسه حتى ماتت ، ثم إن ابن صوريا أنكر وفيه أنزل الله تعالى
 هذه الآية وهذا قول ابن عباس ، وجابر ، وسعيد بن المسيب ، والسدي ، وابن
 زيد .

والقول الثاني : أن ذلك في قتل منهم ، قال الكلبي : قتل بنو النضير رجلاً
 من بني قريظة وكانوا يمتنعون بالاستطالة عليهم من القود بالدية ، وإذا قتل بنو
 قريظة منهم رجلاً لم يقنعوا إلا بالقود دون الدية ، قالوا : إن أفتاكم بالدية فاقبلوه ،
 وإن أفتاكم بالقود فردوه ، وهذا قول قتادة .

﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : عذابه ، وهذا قول الحسن .

والثاني : إضلاله ، وهو قول السدي .

والثالث : فضيحتة ، وهو قول الزجاج .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لم يطهرها من الضيق والخرج عقوبة لهم .

والثاني : لم يطهرها من الكفر .

قوله تعالى : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن السحت الرشوة (٢٩) ، وهو مروي عن النبي ﷺ .

والثاني : أنه الرشوة في الحكم ، وهو قول علي .

والثالث : هو الاستعجال في القضية ، وهو قول أبي هريرة .

والرابع : ما فيه الغار من الأثمان المحرمة : كثمن الكلب ، والخنزير ،

والخمر وعسب الفحل ، وحلوان الكاهن .

وأصل السحت الاستئصال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَيَسْجِئْكُمْ بِعَذَابٍ ﴾ أي

يستأصلكم ، وقال الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجلف (٣٠)

فسمي سحتاً لأنه يسحت الدين والمروءة .

﴿ فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فيمن أريد بذلك قولان :

أحدهما : اليهوديان اللذان زنيا خير رسول الله ﷺ أن يحكم بينهما بالرجم أو

يدع ، وهذا قول الحسن ، ومجاهد ، والزهري .

والثاني : أنها في نفسين من بني قريظة وبني النضير قتل أحدهما صاحبه

فخير رسول الله ﷺ عند احتكامهما إليه بين أن يحكم بالقود أو يدع ، وهذا قول

قتادة .

(٢٩) رواه ابن جرير (٣٢٣/٩) لسيدته عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل لحم

نبت من سحت فالنار أولى به » قيل يا رسول الله ما السحت قال الرشوة في الحكم وهذا حديث مرسل

ونسبه السيوطي في الدرر (٨١/٣) لابن مردويه وعبد بن حميد وابن جرير لعبد الله بن عمر والذي

في الطبري كما تقدم عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر .

(٣٠) ديوانه ٥٥٦ والقائض : الخزانة ٢ : ٢٤٧ واللسان مادة سحت .

واختلفوا في التخيير في الحكم بينهم ، هل هو ثابت أو منسوخ ؟ على قولين :

أحدهما : أنه ثابت وأن كل حاكم من حكام المسلمين مخير في الحكم بين أهل الذمة بين أن يحكم أو يعدم ، وهذا قول الشعبي ، وقتادة ، وعطاء ، وإبراهيم .

والقول الثاني : أن ذلك منسوخ ، وأن الحكم بينهم واجب على من تحاكموا إليه من حكام المسلمين ، وهذا قول ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعمر بن عبد العزيز ، وعكرمة ، وقد نسخ قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : حكم الله بالرجم .

والثاني : حكم الله بالقتل .

﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بعد حكم الله في التوراة .

والثاني : بعد تحكيمك .

﴿ وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أي في تحكيمك أنه من عند الله مع جحودهم نبوتك .

والثاني : يعني في توليهم عن حكم الله غير راضين به .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ يعني بالهدى الدليل ، وبالنور البيان .

﴿ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم جماعة أنبياء منهم محمد ﷺ .

والثاني : المراد نبينا محمد ﷺ وحده وإن ذكر بلفظ الجمع .

وفي الذي يحكم به من التوراة قولان :

أحدهما : أنه أراد رجم الزاني المحصن ، والقود من القاتل العامد .

والقول الثاني : أنه الحكم بجميع ما فيها من غير تخصيص ما لم يرد به

نسخ .

ثم قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ يعني على الذين هادوا ، وهم اليهود ، وفي

جواز الحكم بها على غير اليهود وجهان : على اختلافهم في التزامنا شرائع من قبلنا

إذا لم يرد به نص ينسخ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ واحد الأحبار حَبْر بالفتح ، قال

الفراء : أكثر ما سمعت حَبْر بالكسر ، وهو العالم ، سُمِّي بذلك اشتقاقاً من

التحبير ، وهو التحسين لأن العالم يحسن الحسن ويقبح القبيح ، ويحتمل أن يكون

ذلك لأن العلم في نفسه حسن .

ثم قال تعالى : ﴿ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معناه يحكمون بما است حفظوا من كتاب الله .

والثاني : معناه والعلماء بما است حفظوا من كتاب الله :

وفي ﴿ اسْتَحْفَظُوا ﴾ تأويلان :

أحدهما : استودعوا ، وهو قول الأخفش .

والثاني : العلم بما حفظوا ، وهو قول الكلبي .

﴿ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ يعني على حكم النبي ﷺ أنه في التوراة .

﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُونَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : فلا تخشوهم في كتمان ما أنزلت ، وهذا قول السدي .

والثاني : في الحكم بما أنزلت .

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : معناه لا تأخذوا على كتمانها أجراً .

والثاني : معناه لا تأخذوا على تعليمها أجراً .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ، ثم قال تعالى :
﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وفي
اختلاف هذه الآي الثلاث أربعة أقاويل :

أحدها : أنها واردة في اليهود دون المسلمين ، وهذا قول ابن مسعود ،
وحذيفة ، والبراء ، وعكرمة .

الثاني : أنها نزلت في أهل الكتاب ، وحكمها عام في جميع الناس ، وهذا
قول الحسن ، وإبراهيم .

والثالث : أنه أراد بالكافرين أهل الإسلام ، وبالظالمين اليهود ، وبالفاسقين
النصارى ، وهذا قول الشعبي .

والرابع : أن من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به ، فهو كافر ، ومن لم
يحكم مقرأ به فهو ظالم فاسق ، وهذا قول ابن عباس .

وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ
وَالْأَذْنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ
بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ
﴿٤٥﴾ وَقَفِينَا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَاهُ
الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ الآية . نزلت في
اليهود من بني قريظة والنضير ، وقد ذكرنا قصتهما .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ فيه قولان :
أحدهما : أنه كفارة للجروح ، وهو قول عبد الله بن عمر ، وإبراهيم ،

والحسن ، والشعبي ، روى الشعبي عن ابن الصامت (٣١) قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ جُرِحَ فِي جَسَدِهِ جِرَاحَةٌ فَتَصَدَّقَ بِهَا كَفَّرَ عَنْهُ ذُنُوبُهُ بِمِثْلِ مَا تَصَدَّقَ بِهِ » .

والثاني : أنه كفارة للجراح (٣٢) ، لأنه يقوم مقام أخذ الحق منه ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وهذا محمول على من عفى عنه بعد توبته .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ اتْنِكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرِيذُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني القرآن .

﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعني لما قبله من الكتاب وفيه وجهان :

أحدهما : مصدقاً بها ، وهو قول مقاتل .

(٣١) رواه ابن جرير (٣٦٤/١٠) وأحمد (٥ : ٣١٦) وصحح إسنادهما الشيخ شاکر في العمدة (١٦١/٢) وقد أعله البيهقي بالانقطاع بين الشعبي وعبادة بن الصامت وإن كان الإسناد إلى الشعبي صحيح فإله أعلم .

(٣٢) قال الشيخ أحمد شاکر في العمدة (١٦٠/٢) « هذا التشريع الثابت بنص القرآن الكريم والذي أخبرنا الله سبحانه في هذه الآية أنه ثابت في التوراة جعله الإفراج الكفرة الفجرة مما يتندرون به في أقوالهم وكتاباتهم يسمونه شريعة الغاب !! عن كفرهم بالأديان وإنكارهم للشرائع السماوية حتى سارت هذه الكلمة المنكرة مثلاً ثم يقلدهم الملحدون من المنتسبين للإسلام والجاهلون من المسلمين لا يدرون أنهم بذلك طعنوا في التشريع الإلهي الثابت في الشرائع السماوية الثلاثة ، فليحذر المسلمون مواطن الزلق ، وليصونوا ألسنتهم وأقلامهم أما الملحدون فهم الملحدون .

والثاني : موافقاً لها ، وهو قول الكلبي .

﴿ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني أميناً ، وهو قول ابن عباس .

والثاني : يعني شاهداً عليه ، وهو قول قتادة ، والسدي .

والثالث : حفيظاً عليه .

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ هذا يدل على وجوب الحكم بين أهل

الكتاب إذا تحاكموا إلينا ، وألا نحكم بينهم بتوراتهم ولا بإنجيلهم .

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم أمة نبينا محمد ﷺ .

والثاني : أمم جميع الأنبياء .

﴿ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَأً ﴾ أما الشرعة فهي الشريعة وهي الطريقة الظاهرة ، وكل ما

شرعت فيه من شيء فهو شريعة ومن ذلك قيل لشريعة الماء شريعة لأنها أظهر طرقه إليه ، ومنه قولهم : أُشْرِعَتِ الْأَسْنَةُ إِذَا ظَهَرَتْ .

وأما المنهاج فهو الطريق الواضح ، يقال طريق نهج ومنهج ، قال الراجز :

مَنْ يَكُ ذَا شَكٍّ فَهَذَا فَلْجُ مَاءٍ رُوءٍ وَطَرِيقُ نَهْجٍ (٣٣)

فيكون معنى قوله شرعة ومنهاجاً أي سبيلاً وسنة ، وهذا قول ابن عباس ،

والحسن ، ومجاهد ، وقتادة .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لجعلكم على ملة واحدة .

الثاني : لجمعكم على الحق ، وهذا قول الحسن .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ

يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

(٣٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ١٩٨ ، معجم ما استعجم ١٠٢٧ واللسان مادة روى .

مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ
أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾
اختلف أهل التفسير فيمن نزلت فيه هذه الآية على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في عبادة بن الصامت ، وعبد الله بن أبي بن سلول ،
حين تبرأ عبادة من حلف اليهود وقال : أتولى الله ورسوله حين ظهرت عداوتهم لله
ولرسوله . وقال عبد الله بن أبي : لا أبرأ من حلفهم وأخاف الدوائر ، وهذا قول
الزهري .

والثاني : أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى
بني قريظة لما نقضوا العهد فلما أطاعوا بالنزول على حكم سعد أشار إلى حلقه
إليهم أنه الذبيح ، وهذا قول عكرمة .

والثالث : أنها نزلت في رجلين من الأنصار خافا من وقعة أحد فقال أحدهما
لصاحبه : أَلْحَقْ بِالْيَهُودِ وَأَتَهُودْ مَعَهُمْ ، وقال الآخر : أَلْحَقْ بِالنَّصَارَىٰ فَاتَنَصَّرْ
مَعَهُمْ ، ليكون ذلك لهما أماناً من إدالة الكفار على المسلمين ، وهذا قول
السدي (٣٤) .

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : موالاتهم في العهد فإنه منهم في مخالفة الأمر .

والثاني : موالاتهم في الدين فإنه منهم في حكم الكفر ، وهذا قول ابن

عباس .

(٣٤) هذه الأقوال الثلاثة ما بين مرسل ومعضل وكلها في الطبري وقال الطبري لم يصح بواحد من هذه
الأقوال الثلاثة خبر ثبت بمثله حجة اهـ (١٠/٣٩٩) .

قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أن المرض الشك وهو قول مقاتل .

والثاني : النفاق ، وهو قول الكلبي .

وفيهم قولان :

أحدهما : المعنيّ به عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي سلول ، وهذا قول

عطية بن سعد .

والثاني : أنهم قوم من المنافقين .

﴿ . . . يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ والدائرة الدولة ترجع عمن انتقلت

إليه إلى من كانت له ، سميت بذلك لأنها تدور إليه بعد زوالها عنه ، ومنه قول

الشاعر :

يَرُدُّ عَنَّا الْقَدَرَ الْمَقْدُورَا وَدَائِرَاتِ الدَّهْرِ أَنْ تَدُورَا (٣٥)

﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يريد فتح مكة ، قاله السدي .

والثاني : فتح بلاد المشركين على المسلمين .

والثالث : أنه القضاء الفصل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا

بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٨٩] ، قاله قتادة .

﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : هودون الفتح الأعظم .

الثاني : أنه موت من تقدم ذكره من المنافقين .

الثالث والرابع : أنه الجزية ، قاله السدي .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۖ أَذِلَّةٌ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ

فَضَّلَ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ مَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ
بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ فيهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم أبو بكر وأصحابه رضي الله عنهم الذين قاتلوا معه أهل الردة ،
قاله : علي ، والحسن ، وابن جريج ، والضحاك .

والثاني : أنهم قوم أبي موسى الأشعري من أهل اليمن لأنه كان لهم في
نصرة الإسلام أثر حسن ، وقد روي أن النبي ﷺ حين نزلت هذه الآية إليه أوماً إلى
أبي موسى الأشعري بشيء كان في يده وقال : « هُمْ قَوْمٌ هَذَا » (٣٦) ، قاله :
مجاهد وشریح .

﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني أهل رقة عليهم .

﴿ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يعني أهل غلظة عليهم ، يحكى ذلك عن علي ،
وابن عباس .

وهي في قراءة عبد الله بن مسعود : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ غُلْظٌ عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾ الآية . وفي
هذه الآية قولان :

أحدهما : أنها نزلت في عبد الله بن سلام ومن أسلم معه من أصحابه حين
شكوا إلى رسول الله ﷺ ما أظهره اليهود من عداوتهم لهم ، قاله الكلبي .

(٣٦) رواه الطبري (٤١٤/١٠) برقم ١٢١٨٨ ، ١٢١٨٩ ، ١٢١٩٠ ، ١٢١٩١ ، ١٢١٩٢ وابن سعد
في الطبقات (١٠٧/٤) والحاكم في المستدرک وصححه (٣١٣/٢) وزاد السيوطي في الدر
(١٠٢/٣) نسبه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي
الشيخ والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وقال الهيثمي في المجمع (١٦/٧) رواه
الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

والثاني : أنها نزلت في عبادة بن الصامت حين تبرأ من حلف اليهود وقال : أتولى الله ورسوله .

وفي قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ قولان :

أحدهما : أنه علي ، تصدق وهو راکع ^(٣٧) ، قاله مجاهد .

والثاني : أنها عامة في جميع المؤمنين ، قاله الحسن ، والسدي .

وفي قوله : ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم فعلوا ذلك في ركوعهم .

والثاني : أنها نزلت فيهم وهم في ركوعهم .

والثالث : أنه أراد بالركوع التنفل ، وبإقامة الصلاة الفرض من قولهم فلان

يركع إذا انتفل بالصلاة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هَٰؤُلَاءِ وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَٰؤُلَاءِ وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ مِنَّا آلَآءٌ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّا أَكْثَرُكُمْ فَسِيقُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ هَلْ أَنبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ لَطُغُوتٍ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦١﴾ وَإِذَا جَاءَ وَكُم مِّنَ الْقَوَائِمِ قَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَالَهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ

(٣٧) وقد ذكر الحافظ ابن كثير عن هذه الآية آثاراً كثيرة وضعفها وبان عن عوارها قال الشيخ أحمد شاكر (١٨٠/٢) . هي من أكاذيب الشيعة الذين يلعبون بتأويل القرآن لينسبوا لعلي كرم الله وجهه مآثر وفضائل غير ثابتة ثم أعجب من ذلك أن يستدلوا بهذه الأكاذيب في هذا الموضع على وجوب إمامة علي ، والزمخشري - على ذكائه - فاتت عليه هذه السخافات وحكاها كأنها حقيقة واقعة جهلاً منه بطرق الرواية وإثباتها والفخر الرازي على جهله بعلوم الحديث - رفضها رفضاً شديداً ونذد بمخترعيها ومصديقيها .

﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ ﴾ يريد بالإثم معصية الله تعالى .

﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ أي ظلم الناس .

﴿ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : الرُّشا .

والثاني : الربا .

﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أي لبئس صنيع الربانيين والأحبار إذ لم ينهوهم ، قال ابن عباس والضحاك : ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية . وكان ابن عباس يقرأها : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لَوْلَا ﴾ بمعنى هلا .

والربانيون : هم علماء الإنجيل ، والأحبار : هم علماء التوراة .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَقْدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَادْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ

لَا أَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أي مقبوضة عن العطاء على جهة البخل ، قاله ابن عباس وقتادة .
والثاني : مقبوضة عن عذابهم ، قاله الحسن .

قال الكلبي ومقاتل : القائل لذلك فنحاس وأصحابه من يهود بني قينقاع .
﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه قال ذلك إلزاماً لهم البخل على مطابقة الكلام ، قاله الزجاج .
والثاني : أن معناه غلت أيديهم في جهنم على وجه الحقيقة ، قاله الحسن .
﴿ وَلَعِنَا بِمَا قَالُوا ﴾ قال الكلبي : يعني يعذبهم بالجزية .
ويحتمل أن يكون لَعْنُهُمْ هو طردهم حين أجلوا من ديارهم .

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن اليدين ها هنا النعمة من قولهم لفلان عندي يد أي نعمة ، ومعناه بل نعمته مبسوطتان ، نعمة الدين ، ونعمة الدنيا .

والثاني : اليد ها هنا القوة كقوله تعالى : ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص : ٤٥] ومعناه بل قوته بالثواب والعقاب .

والثالث : أن اليد ها هنا الملك من قولهم في مملوك الرجل هو : ملك يمينه ، ومعناه ملك الدنيا والآخرة .

والرابع : أن الثنية للمبالغة في صفة (٣٨) النعمة كما تقول العرب لبيك وسعديك ، وكقول الأعشى :

(٣٨) اعلم رحمني الله وإياك أن الإمام الماوردي رحمه الله قد نقل الأقوال التي أوردها الطبري كلها إلى تفسير اليمين وقد ذكر الطبري وليس في إيراد هذه الأقوال من مخالفه للتنزيه والتوحيد الموافق للكتاب والسنة وقد نحى الإمام الماوردي في هذا الإتجاه اتجاهاً سليماً كما نحاه السلف من قبله كقول الشافعي : آمنت بما جاء عن الله على مراد الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ وهذا هو الصواب في مثل هذه الآيات فعليك باتباع سلف هذه الأمة .

يداك يدا مجد فكف مفيدة وكف إذا ما ضنّ بالزاد تنفق (٣٩)

﴿ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بمعنى أنه يعطي من يشاء من عباده إذا علم أن في إعطائه مصلحة دينه .

والثاني : ينعم على من يشاء بما يصلحه في دينه .

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ يعني حسدهم

إياه وعنادهم له .

﴿ وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه عنى اليهود بما حصل منهم من الخلاف .

والثاني : أنه أراد بين اليهود والنصارى في تباين قولهم في المسيح ، قاله

الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أقاموها نصب أعينهم حتى إذا نظروا ما فيها من أحكام الله تعالى

وأوامره لم يزلوا .

والثاني : إن إقامتها العمل بما فيها من غير تحريف ولا تبديل .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يعني القرآن لأنهم لما خوطبوا

به صار منزلاً عليهم .

﴿ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنه أراد التوسعة عليهم كما يقال هو في الخير من قرنه إلى قدمه .

والثاني : لأكلوا من فوقهم بإنزال المطر ، ومن تحت أرجلهم بإنبات الثمر ،

قاله ابن عباس .

= نؤمن بما جاء عن الله على مراد الله ربما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ وهذا هو الصواب في مثل هذه الآيات فعليك باتباع سلف هذه الأمة .

وأما قول المعتزلة بأن اليد بمعنى القدرة فهو غير سائغ قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر ولا نقول يده قدرته .

(٣٩) ديوانه : ١٥٠ .

﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : مقتصدة على أمر الله تعالى ، قاله قتادة .

الثاني : عادلة ، قاله الكلبي .

﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ
وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٧)

قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أوجب الله تعالى بهذه الآية على رسوله تبليغ ما أنزل عليه من كتابه سواء كان حكماً ، أو حداً ، أو قصاصاً ، فأما تبليغ غيره من الوحي فتخصيص وجوبه : بما يتعلق بالأحكام دون غيرها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ يعني إن كتمت آية مما أنزل عليك فما بلغت رسالته لأنه [يكون] ، غير ممثّل لجميع الأمر .

ويحتمل وجهين آخرين :

أحدهما : أن يكون معناه بلغ ما أنزل إليك من ربك فيما وعدك من النصر ، فإن لم تفعل فما بلغت حق رسالته فيما كلفك من الأمر ، لأن استشعار النصر يبعث على امتثال الأمر .

والثاني : أن يكون معناه بلغ ما أنزل إليك من ربك بلاغاً يوجب الانقياد إليه بالجهاد عليه ، وإن لم تفعل ما يقود إليه من الجهاد عليه فما بلغت ما عليك من حق الرسالة إليك .

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ يعني أن ينالك بسوء من قتل أو غيره . واختلف أهل التفسير في سبب نزول ذلك على قولين :

أحدهما : أن النبي ﷺ نزل منزلاً في سفره واستظل بشجرة يقبل تحتها ، فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال : من يمنعك مني ؟ فقال : الله ، فرعدت يد الأعرابي وسقط سيفه وضرب برأسه الشجرة حتى انتشر دماغه ، فأنزل الله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ، قاله محمد بن كعب القرظي (٤٠) .

والثاني : أن النبي ﷺ كان يهاب قريشاً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، قاله ابن جريج .

وروت عائشة أن النبي (٤١) ﷺ كان يُحَرِّسُ حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال : يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : لا يعينهم على بلوغ غرضهم .

الثاني : لا يهديهم إلى الجنة .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصْرَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا

(٤٠) رواه الطبري في التفسير (٤٧٠/١٠) وهو مرسل كما ترى وقد ورد الحديث من حديث جابر مرفوعاً في مسند أحمد (٣١١/٣) وبمعناه في المسند أيضاً (٣٦٤/٣) والبخاري في صحيحه (٧ : ٣٢٩ - ٣٣١) وبأسانيد في مسلم في صحيحه (٤٤/١٥ ، ٤٥) والطبري (١٠٦/١٠) .

(٤١) هذا حديث اختلف في وصله وإرساله .

فرواه موصولاً ابن جرير (٤٦٩/١٠) وفي سننه الحارث بن عبيد الأيادي أبو قدامة وهو ضعيف . ورواه الحاكم في المستدرک (٣١٣ : ٢) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . والترمذي برقم ٥٠٣٧ وقال حديث غريب وروى بعضهم هذا الحديث عن الجريري عن عبد الله بن شقيق ولم يذكر فيه عائشة أ . هـ . قال الحافظ في الفتح : «إسناده حسن واختلف في وصله وإرساله» .

ورواه ابن جرير (٤٦٩/١٠) مرسلًا عن عبد الله في شقيق وزاد السيوطي في الدر (١١٨/٣) نسبة المرسل لعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وأبي نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن مردويه وابن أبي حاتم .

إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا
 وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَن لَّا تَكُونُ فِتْنَةً فَעَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أن الميثاق آيات مبينة يقررها علم ذلك عندهم .

والثاني : أن الميثاق أيمان أخذها أنبياء بني إسرائيل عليهم أن يعملوا بها
 وأمروا بتصديق رسله .

﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا ﴾ يعني بعد أخذ الميثاق .

﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ ﴾ هوى النفس مقصور ، وهواء
 الجو ممدود ، وهما يشتركان في معنى الاسم لأن النفس تستمتع بهواها كما تستمتع
 بهواء الجو .

﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ يعني أن الأنبياء إذا لم يحلوا لهم ما يهْوُونَه
 في الدين كذبوا فريقاً في الدين ، كذبوا فريقاً وقتلوا فريقاً ، وهم قد كذبوا من قتلوه
 ولكن تقدير الكلام أنهم اقتصروا على تكذيب فريق وتجاوزوا إلى قتل فريق .

﴿ وَحَسِبُوا أَن لَّا تَكُونُ فِتْنَةً ﴾ فيها ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنها العقوبة التي تنزل من السماء .

والثاني : ما ابتلوا به من قتل الأنبياء وتكذيبهم .

والثالث : ما بلوا به من جهة المتغلبين عليهم من الكفار .

﴿ فَعَمُوا وَصَمُوا ﴾ يعني ، فعَمُوا عن المرشد وصَمُوا عن الموعظة حتى

تسرعوا إلى قتل أنبيائهم حين حسبوا ألا تكون فتنة .

﴿ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني أنهم تابوا بعد معاينة الفتنة فقبل الله توبتهم .

﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا ﴾ يعني أنهم عادوا بعد التوبة إلى ما كانوا عليه قبلها ،

والعود إنما كان من أكثرهم لا من جميعهم .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ
يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا
يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ
إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ
مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا
يَاكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّ
يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ رد الله بذلك على اليهود
والنصارى ، فرده على اليهود في تكذيبهم لنبوته ونسبتهم له إلى غير رُسْدة ، وردّه
على النصارى في قولهم إنه ابن الله .

﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ رد على اليهود في نسبتها إلى الفاحشة .

وفي قوله : ﴿ صِدِّيقَةٌ ﴾ تأويلان :

أحدهما : أنه مبالغة في صدقها ونفي الفاحشة عنها .

والثاني : أنها مصدقة بآيات ربها فهي بمنزلة ولدها ، قاله الحسن .

﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه كنى بذلك عن الغائط لحدوثه منه ، وهذه صفة تنفّ عن

الإله .

والثاني : أنه أراد نفس الأكل لأن الحاجة إليه عجز والإله لا يكون عاجزاً .

﴿ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ﴾ يعني الحجج والبراهين .

﴿ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني يصرفون ، من قولهم أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر .

والثاني : يعني يقلبون ، والمؤتفكات : المنقلبات من الرياح وغيرها .

والثالث : يكذبون ، من الإفك ، وهو الكذب .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا
عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى
لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ
﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ
مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ
﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ
أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً
لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَهُهُمُ الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ
آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ
وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى
أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا

رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَاثْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا﴾ يعني عبدة الأوثان من العرب ، تَمَلُّاُ الفريقان على عداوة النبي ﷺ .
﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ ليس هذا على
العموم ، وإنما هو خاص ، وفيه قولان :
أحدهما : عنى بذلك النجاشي وأصحابه لما أسلموا ، قاله ابن عباس ،
وسعيد بن جبير .

والثاني : أنهم قوم من النصارى كانوا على الحق متمسكين بشريعة عيسى
عليه السلام ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ آمَنُوا بِهِ ، قاله قتادة .
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهَبَانًا﴾ واحد القسيسين قس ، من قس وهم
العباد . وواحد الرهبان راهب ، وهم الزهاد .
﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني عن الإذعان للحق إذا لزم ، وللحجة إذا
قامت .

وفي قوله تعالى : ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وجهان :

أحدهما : مع أمة محمد ﷺ الذين يشهدون بالحق ، كما قال تعالى :
﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، قاله ابن عباس ، وابن جريج .
والثاني : يعني الذين يشهدون بالإيمان ، قاله الحسن .

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنه اغتصاب الأموال المستطابة ، فتصير بالغصب حراماً ، وقد كان يمكنهم الوصول إليها بسبب مباح ، قاله بعض البصريين .

والثاني : أنه تحريم ما أبيح لهم من الطيبات ، وسبب ذلك أن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ منهم علي ، وعثمان بن مظعون ، وابن مسعود ، وابن عمر ، هموا بصيام الدهر ، وقيام الليل ، واعتزال النساء ، وجب أنفسهم ، وتحريم الطيبات من الطعام عليهم ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : لا تعتدوا بالغصب للأموال التي هي حرام عليكم .

والثاني : أنه أراد بالاعتداء ما هم به عثمان بن مظعون من جب نفسه ، قاله السدي .

والثالث : أنه ما كانت الجماعة همّت به من تحريم النساء والطعام ، واللباس ، والنوم ، قاله عكرمة .

والرابع : هو تجاوز الحلال إلى الحرام ، قاله الحسن .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ قد ذكرنا اختلاف المفسرين والفقهاء في لغو اليمين .

﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ اختلف في سبب نزولها على

قولين :

أحدهما : أنها نزلت في عثمان بن مظعون ، حين حرّم على نفسه الطعام ، والنساء ، بيمين حَلَفَهَا ، فأمره النبي ﷺ بالحنث فيها ، قاله السدي .

والثاني : أنها نزلت في عبد الله بن رَوَاحَة ، وكان عنده ضيف فَأَخْرَجَتْ زوجته قِرَاءَهُ فَحَلَفَ لا يأكل من الطعام شيئاً ، وَحَلَفَتِ الزوجة لا تأكل منه إن لم يأكل ، وَحَلَفَ الضيف لا يأكل منه إن لم يأكلا ، فأكل عبد الله وأكلا معه ، فأخبر النبي ﷺ بذلك ، فقال : « أَحْسَنْتَ » ^(٤٢) ، ونزلت فيه هذه الآية ، قاله ابن زيد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ وعقدها هو لفظ باللسان وقصد بالقلب ، لأن ما لم يقصده في أَيْمَانِهِ ، فهو لغو لا يؤاخذ به .
ثم في عقدها قولان :

أحدهما : أن يكون على فعل مستقبل ، ولا يكون على خبر ماض . والفعل المستقبل نوعان : نفي وإثبات ، فالنفي أن يقول والله لا فعلت كذا ، والإثبات أن يقول : والله لأَفْعَلَنَّ كذا .

وأما الخبر الماضي فهو أن يقول : والله ما فعلت ، وقد فعل ، أو يقول : والله لقد فعلت كذا ، وما فعل ، فينعتقد يمينه بالفعل المستقبل في نوعي إثباته ونفيه .
وفي انعقادها بالخبر الماضي قولان :

أحدهما : أنها لا تنعقد بالخبر الماضي ، قاله أبو حنيفة وأهل العراق .
والقول الثاني : أنها تنعقد على فعل مستقبل وخبر ماض يتعلق الحنث بهما ، قاله الشافعي ، وأهل الحجاز .

ثم قال تعالى : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ ﴾ فيه قولان : -
أحدهما : أنها كفارة ما عقدوه من الأيمان ، قالته عائشة ، والحسن ، والشعبي ، وقتادة .

والثاني : أنها كفارة الحنث فيما عقده منها ، وهذا يشبه أن يكون قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وإبراهيم .

(٤٢) زواه الطبري برقم ١٢٣٤٩ وسنده صحيح إلى ابن زيد لكن الحديث مرسل .

والأصح من إطلاق هذين القولين أن يعتبر حال اليمين في عقدها وحلها ،
فإنها لا تخلو من ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يكون عقدها وحلها معصية كقوله : والله لا قَتَلْتُ نفساً ولا
شربت خمرأ ، فإذا حث فقتل النفس ، وشرب الخمر ، كانت الكفارة لتكفير مآثم
الحنث .

والحال الثالثة : أن يكون عقدها مباحاً ، وحلها مباحاً كقوله : والله لا لبست هذا
الثوب ، فالكفارة تتعلق بهما وهي بالحنث أخص .

ثم قال تعالى : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : من أوسط أجناس الطعام ، قاله ابن عمر ، والحسن ، وابن سيرين .

والثاني : من أوسطه في القدر ، قاله علي ، وعمر ، وابن عباس ، ومجاهد .

وقرأ سعيد بن جبير ﴿ مِنْ وَسْطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾

ثم اختلفوا في القدر على خمسة أقاويل :

أحدها : أنه مُدٌّ واحد من سائر الأجناس ، قاله ابن عمر ، وزيد بن ثابت ،
وعطاء ، وقتادة ، وهو قول الشافعي .

والثاني : أنه نصف صاع من سائر الأجناس ، قاله علي ، وعمر ، وهو
مذهب أبي حنيفة .

والثالث : أنه غداء وعشاء ، قاله علي في رواية الحارث عنه ، وهو قول
محمد بن كعب القرظي ، والحسن البصري .

والرابع : أنه ما جرت به عادة المكفر في عياله ، إن كان يشبعهم أشبع
المساكين ، وإن كان لا يشبعهم فعلى قدر ذلك ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن
جبير .

والخامس : أنه أحد الأمرين من غداء أو عشاء ، قاله بعض البصريين .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ وفيها خمسة أقاويل :

أحدها : كسوة ثوب واحد ، قاله : ابن عباس ، ومجاهد ، وطاووس ،
وعطاء ، والشافعي .

والثاني : كسوة ثوبين ، قاله أبو موسى الأشعري ، وابن المسيب ،
والحسن ، وابن سيرين .

والثالث : كسوة ثوب جامع كالملحفة والكساء ، قاله إبراهيم .

والرابع : كسوة إزار ورداء وقميص ، قاله ابن عمر .

والخامس : كسوة ما تجزىء فيه الصلاة ، قاله بعض البصريين .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ يعني أو فك رقبة من أسر العبودية إلى
حال الحرية والتحرير ، والفك : العتق ، قال الفرزدق :

أبني غداة إنني حررتكم فوهبتكم لعطية بن جعال^(٤٣)
ويجزىء صغيرها ، وكبيرها ، وذكرها ، وأنثاها ، وفي استحقاق أثمانها
قولان :

أحدهما : أنه مستحق ولا تجزىء الكفارة ، قاله الشافعي .

والثاني : أنه غير مستحق ، قاله أبو حنيفة .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ فجعل الله الصوم بدلاً
من المال عند العجز عنه ، وجعله مع اليسار مخيراً بين التكفير بالإطعام ، أو
بالكسوة ، أو بالعتق ، وفيها قولان :

أحدهما : أن الواجب منها أحدها لا يعينه عند الجمهور من الفقهاء .

والثاني : أن جميعها واجب ، وله الاختصار على أحدها ، قاله بعض
المتكلمين ، وشاذ من الفقهاء .

وهذا إذا حقق خلف في العبارة دون المعنى .

واختلف فيما إذا لم يجده صام على خمسة أقاويل :

أحدها : إذا لم يجد قوته وقوت من يقوت صام ، قاله الشافعي .

والثاني : إذا لم يجد ثلاثة دراهم صام ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : إذا لم يجد درهمين ، قاله الحسن .

(٤٣) ديوانه ٧٢٦ والنقائض ٢٧٥ ، طبقات فحول الشعراء ٤٢٤ .

والرابع : إذا لم يجد مائتي درهم صام ، قاله أبو حنيفة .
والخامس : إذا لم يجد فاضلاً عن رأس ماله الذي يتصرف فيه لمعاشه صام .

وفي تتابع صيامه قولان :

أحدهما : يلزمه ، قاله مجاهد ، وإبراهيم ، وكان أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود يقرآن : ﴿ فصيام ثلاثة أيام متتابعات ﴾ .

والثاني : إن صامها متفرقة جاز ، قاله مالك ، والشافعي في أحد قوله : ﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ يعني وحشتم ، فإن قيل فلم لم يذكر مع الكفارة التوبة ؟ قيل : لأنه ليس كل يمين حنث فيها كانت مأثماً توجب التوبة ، فإن اقترن بها المأثم لزمّت التوبة بالندم ، وترك العزم على المعاودة .

﴿ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعني احفظوها أن تحلفوا .

والثاني : احفظوها أن تحشوا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا ءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ الآية .

اختلف في سبب نزولها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما روى ابن اسحاق عن أبي ميسرة قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٤٤) : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ فدُعِيَ عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في سورة النساء : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ وكان منادي رسول الله ﷺ إذا حضرت الصلاة ينادي لا يقربن الصلاة سكران ، فدُعِيَ عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت التي في المائدة ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ فقال عمر : انتهينا ، انتهينا .

والثاني : أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص وقد لاحى رجلاً على شراب ، فضربه الرجل بلحي جمل ، ففزر أنفه ، قاله مصعب بن سعد .
والثالث : أنها نزلت في قبيلتين من الأنصار ثملوا من الشراب فعبث بعضهم ببعض ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ، قاله ابن عباس .

وأما ﴿ الْمَيْسِرُ ﴾ فهو القمار .

وأما ﴿ الْأَنْصَابُ ﴾ ففيها وجهان :

أحدهما : أنها الأصنام تعبد ، قاله الجمهور .

والثاني : أنها أحجار حول الكعبة يذبحون لها ، قاله مقاتل .

وأما ﴿ الْأَزْلَامُ ﴾ فهي قدام من خشب يُسْتَقْسَمُ بها على ما قدمناه .

(٤٤) رواه الطبري برقم ١٢٥١٢ وأحمد برقم ٣٧٨ وأبو داود برقم ٣٦٧٠ والنسائي في سننه (٢٨٦/٨) ، (٢٨٧) والترمذي في كتاب التفسير (٤١٥/٨) تحفة . والحاكم ٢ : ٢٧٨ والبيهقي في السنن (٢٨٥/٨) وأبو جعفر النحاسي في الناسخ والمنسوخ ٣٩ والواحدي في أسباب النزول ص ١٥٤ وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في ابن كثير (٩٢/٢) من طرق عن ابن إسحق عن أبي ميسرة قال قال عمر . . . الحديث فذكره .

قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

وقد رواه الترمذي من طريق أخرى عن ابن إسحق عن أبي ميسرة مرسلًا ثم قال وهذا أصح من حديث محمد بن يوسف . يعني أنه أصح مرسلًا . والصواب أن الحديث صحيح متصل السند لأن أبا ميسرة هو عمرو بن شرحبيل الهمداني سمع من عمر ونقل الحافظ ابن كثير تصحيح علي بن المديني للحديث .

قوله تعالى : ﴿ رَجَسٌ ﴾ يعني حراماً ، وأصل الرجس المستقذر الممنوع منه ، فعبّر به عن الحرام لكونه ممنوعاً منه .

ثم قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانِ ﴾ أي مما يدعو إليه الشيطان ويأمر به لأنه لا يأمر إلا بالمعاصي ، ولا ينهى إلا عن الطاعات .

فلما حُرِّمَتِ الخمر قال المسلمون (٤٥) : يا رسول الله كيف ياخواننا الذين شربوها وماتوا قبل تحريمها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ ، يعني من الخمر قبل التحريم ، ﴿ إِذَا مَا اتَّقَوْا ﴾ يعني في أداء الفرائض ﴿ وَءَامَنُوا ﴾ يعني بالله ورسوله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : يعني البر والمعروف ، ﴿ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ﴾ يعني بعمل النوافل ، فالتقوى الأولى عمل الفرائض ، والتقوى الثانية عمل النوافل .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بَشْيَءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ ءَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ ۚ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ وَمَن عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بَشْيَءٍ مِّنَ الصَّيْدِ ﴾ في قوله ليبلونكم تأويلان :

أحدهما : معناه لِيُكَلِّفَنَّكُمْ .

الثاني : لِيَخْتَبِرَنَّكُمْ ، قاله قطرب ، والكلبي .

(٤٥) رواه الطبري مختصراً برقم ١٢٥٢٨ ومطولاً ١٢٥٢٩ والطيالسي برقم ٧١٥ والترمذي في كتاب التفسير وصححه وزاد السيوطي في الدر (١٧٢/٣) نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن حبان وأبي الشيخ وابن مردويه كلهم من طريق أبي إسحق عن البراء الحديث .

وفي قوله : ﴿ مِّنَ الصَّيْدِ ﴾ قولان :

أحدهما : أن ﴿ مِّنَ ﴾ للتبعض في هذا الموضع لأن الحكم متعلق بصيد البرّ دون البحر ، وبصيد الحرم والإحرام دون الحل والإحلال .

والثاني : أن ﴿ مِّنَ ﴾ في هذا الموضع داخلة لبيان الجنس نحو قوله تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ [الحج : ٣٠] قاله الزجاج .
﴿ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : ما تناله أيدينا : البيض ، ورماحنا : الصيد ، قاله مجاهد .

والثاني : ما تناله أيدينا : الصغار ، ورماحنا : الكبار ، قاله ابن عباس .

﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن معنى ليعلم الله : ليرى ، فعبّر عن الرؤية بالعلم لأنها تؤول إليه ، قاله الكلبي .

والثاني : ليعلم أولياؤه من يخافه بالغيب .

والثالث : لتعلموا أن الله يعلم من يخافه بالغيب .

والرابع : معناه لتخافوا الله بالغيب ، والعلم مجاز ، وقوله : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ يعني بالسر كما تخافونه في العلانية .

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ يعني فمن اعتدى في الصيد بعد ورود النهي .

﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي مؤلم ، قال الكلبي : نزلت يوم الحديبية وقد غشي الصيد الناس وهم محرمون .

قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني الإحرام بحج أو عمرة ، قاله الأكثرون .

والثاني : يعني بالحرم الداخل إلى الحرم ، يقال أحرم إذا دخل في الحرم ، وأنهم إذا دخل تهامة ، وأنجد إذا دخل نجد ، ويقال أحرم لمن دخل في الأشهر الحرم . قاله بعض البصريين .

والثالث : أن اسم المحرم يتناول الأمرين معاً على وجه الحقيقة دون المجاز من أحرم بحج أو عمرة أو دخل الحرم ، وحكم قتل الصيد فيهما على سواء بظاهر الآية ، قاله علي بن أبي هريرة .

﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : متعمداً لقتله ، ناسياً لإحرامه ، قاله مجاهد ، وإبراهيم ، وابن جريج .

والثاني : متعمداً لقتله ذاكراً لإحرامه ، قاله ابن عباس ، وعطاء ، والزهري .

واختلفوا في الخاطيء في قتله الناسي لإحرامه على قولين :

أحدهما : لا جزاء عليه ، قاله داود .

الثاني : عليه الجزاء ، قاله مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة .

﴿ فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ ﴾ يعني أن جزاء القتل في الحرم أو الإحرام

مثل ما قتل من النعم .

وفي مثله قولان :

أحدهما : أن قيمة الصيد مصروفة في مثله من النعم ، قاله أبو حنيفة .

والثاني : أن عليه مثل الصيد من النعم في الصورة والشبه قاله الشافعي .

﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ يعني بالمثل من النعم ، فلا يستقر المثل فيه

إلا بحكم عدلين فقيهين ، ويجوز أن يكون القاتل أحدهما .

﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ يريد أن مثل الصيد من النعم يلزم إيصاله إلى الكعبة ،

وعنى بالكعبة جميع الحرم ، لأنها في الحرم .

واختلفوا هل يجوز أن يهدي في الحرم ما لا يجوز في الأضحية من صغار

الغنم على قولين :

أحدهما : لا يجوز قاله : أبو حنيفة .

الثاني : يجوز ، قاله الشافعي .

﴿ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه يُقَوِّم المثل من النعم ويشترى بالقيمة طعاماً ، قاله عطاء ،
والشافعي .

الثاني : يَقَوِّم الصيد ويشترى بالغنيمة طعاماً ، قاله قتادة ، وأبو حنيفة .

﴿ أَوْ عَدَلْ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ يعني عدل الطعام صياماً ، وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه يصوم عن كل مد يوماً ، قاله عطاء ، والشافعي .

والثاني : يصوم عن كل مد ثلاثة أيام ، قاله سعيد بن جبیر .

والثالث : يصوم عن كل صاع يومين ، قاله ابن عباس .

واختلفوا في التكفير بهذه الثلاثة ، هل هو على الترتيب أو التخيير على

قولين :

أحدهما : أنه على الترتيب ، إن لم يجد المثل فالإطعام ، فإن لم يجد
الطعام فالصيام ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعامر ، وإبراهيم ، والسدي .

والثاني : أنه على التخيير في التكفير بأي الثلاثة شاء ، قاله عطاء ، وهو أحد

قولي ابن عباس ، ومذهب الشافعي .

﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهٖ ﴾ يعني في التزام الكفارة ، ووجوب التوبة .

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ يعني قبل نزول التحريم .

﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني ومن عاد بعد التحريم ، فينتقم الله منه بالجزاء عاجلاً ،
وعقوبة المعصية آجلاً .

والثاني : ومن عاد بعد التحريم في قتل الصيد ثانية بعد أوله ، فينتقم الله

منه .

وعلى هذا التأويل قولان :

أحدهما : فينتقم الله منه بالعقوبة في الآخرة دون الجزاء ، قاله ابن عباس ،

وداود .

والثاني : بالجزاء مع العقوبة ، قاله الشافعي ، والجمهور .

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ
 مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ
 الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ
 اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾
 أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ
 إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ يعني صيد الماء سواء كان من بحر
 أو نهر أو عين أو بئر فصيده حلال للمحرم والحلال في الحرم والحل .

﴿ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ في طعامه قولان :

أحدهما : طافيه وما لفظه البحر ، قاله أبو بكر ، وعمر ، وقتادة .

والثاني : مملوحة ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن

المسيب .

وقوله تعالى : ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ يعني منفعة للمسافر والمقيم .
 وحكى الكلبي أن هذه الآية نزلت في بني مدلج ، وكانوا يتزلون بأسياف البحر ،
 سألوا عما نضب عنه الماء من السمك ، فنزلت هذه الآية فيهم .

قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ ﴾ في تسميتها
 كعبة قولان :

أحدهما : سميت بذلك لتربيعها ، قاله مجاهد .

والثاني : سميت بذلك لعلوها ونتوئها من قولهم : قد كعب ثدي المرأة إذا
 علا ونتأ ، وهو قول الجمهور .

وسميت الكعبة حراماً لتحريم الله تعالى لها أن يصاد صيدها ، أو يختلى
 خلاها ، أو يعضد شجرها (٤٦)

(٤٦) مضى تخريج الحديث في ذلك .

وفي قوله تعالى : ﴿ قِيَاماً لِلنَّاسِ ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني صلاحاً لهم ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : تقوم به أبدانهم لأمنهم به في التصرف لمعايشهم .

والثالث : قياماً في مناسكهم ومتعباداتهم .

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَكُونُ لَكُمْ أَلْتَبَابٌ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن شَيْءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدِّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ فيه ثلاث تأويلات :

أحدها : يعني الحلال والحرام ، قاله الحسن .

والثاني : المؤمن والكافر ، قاله السدي .

والثالث : الرديء والجيد .

﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ يعني أن الحلال والجيد مع قلتها خير وأنفع

من الحرام والرديء مع كثرتها .

قال مقاتل : نزلت هذه الآية في حُجَّاجِ اليمامة وقد همَّ المسلمون بأحدهم .

قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن شَيْءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾

اختلف أهل التأويل في سبب نزول هذه الآية على ثلاثة أقوال :

أحدها : ما روى أنس بن مالك قال (٤٧) : سأل الناس رسول الله ﷺ حتى

(٤٧) رواه الطبري مطولاً ومختصراً (٩٩/١١) والسياق له ورواه مسلم (١٥/١٤ ، ١٥) وزاد

السيوطي نسبته في الدر (٢٠٤/٣) لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه . وابن المنذر وعبد بن حميد وينحوه عن أبي هريرة مرفوعاً رواه الطبري (١٠٣/١٠) وفي سنده عبد العزيز بن أبان الأموي وهو كذاب يضع .

الحفوه بالمسألة ، فصعد المنبر ذات يوم فقال : « لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُ لَكُمْ » قال أنس : فجعلت أنظر يمينا وشمالا فأرى كل الناس لاق ثوبه في رأسه يبيكي ، فسأل رجل كان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه فقال : يا رسول الله من أبي ؟ فقال : « أَبُوكَ حَذَافَةُ » ، فأنشأ عمر فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد عليه السلام رسولاً عائداً بالله من سوء الفتن ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ .

والثاني : ما روى الحسن بن واقد عن محمد بن زياد عن أبي هريرة قال (٤٨) : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحِجُّوا » فقام محصن الأسدي وقال : في كل عام يا رسول الله ؟ فقال : « أَمَا إِنِّي لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ ، وَلَوْ وَجِبَتْ ثُمَّ تَرَكْتُمْ لَضَلَلْتُمْ ، اسْكُتُوا عَنِّي مَا سَكَتَ عَنْكُم ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ » فأنزل الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا ... ﴾ .

والثالث : أنها نزلت في قوم سألوا رسول الله ﷺ على البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، قاله ابن عباس .

﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّ لَكُمْ ﴾ جعل نزول القرآن عند السؤال موجبا بتعجيل الجواب .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ فيها قولان :

أحدهما : عن المسألة .

والثاني : عن الأشياء التي سألوا عنها .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ فيه أربعة

تاويلات :

(٤٨) رواه الطبري مطولا (١٠٥ / ١١ برقم ١٢٨٠٥) ومختصرا (برقم ١٢٨٠٦) وفيه فقام عكاشة بن محصن الأسدي بدلا من محصن الأسدي ورواه أحمد في مسنده (٢ : ٤٤٧ ، ٤٤٨) وليس فيه ذكر الحج ولا السؤال ولا ذكر السائل . ورواه في (٢ : ٤٥٦ ، ٤٥٧) (٢ : ٤٦٧) ، (٢ : ٥٠٨) فيه ذكر الحج والسؤال والسائل رجل مبهم .

ومن طريق أحمد رواه مسلم (٩ : ١٠٠) والبخاري مختصرا (١٣ : ٢١٩ - ٢٢٤) فتح والبيهقي في السنن (٤ : ٣٢٥ ، ٤٢٦) وزاد السيوطي نسبته في الدر (٢٠٦ / ٣) لأبي الشيخ وابن مردويه .

أحدها : قوم عيسى سألوه المائدة ، ثم كفروا بها ، قاله ابن عباس :

والثاني : أنهم قوم صالح سألوا الناقة ، ثم عقروها وكفروا به .

والثالث : أنهم قريش سألوا رسول الله ﷺ أن يحول لهم الصفا ذهباً ، قاله السدي .

والرابع : أنهم القوم الذين سألوا رسول الله ﷺ من أبي ؟ ونحوه ، فلما أخبرهم به أنكروه وكفروا به ، قاله بعض المتأخرين .

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوكَانَ آبَاءُؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ يعني ما بحر الله من بحيرة ، ولا سيب سائبة ، ولا وصل وصيلة ، ولا حمى حامياً .

روى أبو صالح عن أبي هريرة قال (٤٩) : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم ابن جون : « يَا أَكْثَمُ رَأَيْتَ عَمْرُو بْنُ لُحْيٍ بَنَ قَمْعَةَ بَنَ خَنْدَفٍ يَجْرُ قَصْبَهُ فِي النَّارِ ، فَمَا رَأَيْتَ رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْكَ بِهِ ، وَلَا بِهِ مِنْكَ » فقال أكثم : أخشى أن يضرنى شبهه يا رسول الله ، فقال : « لَا إِنَّكَ مُؤْمِنٌ ، وَهُوَ كَافِرٌ ، إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ ، وَبَعَرَ الْبَحِيرَةَ ، وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ ، وَحَمَى الْحَامِي » .

ومعنى قوله يجر قصبه في النار ، يعني أمعاه ، والبحيرة : الفصلة من قول القائل ، بحرت أذن الناقة إذا شققها ، ومنه قول الأبيرد :

وأمسى فيكم عمران يمشي ... كأنه جمل بحير

(٤٩) رواه الطبري (١١٨/١١) ونسبه الحافظ في الإصابة في ترجمة أكثم بن الجون لابن أبي عروبة وابن منده وما في الرواية من قوله « أخشى أن يضيرني شبه » تصحيح إنما هو « عسى أن يضيرني شبه » والتصحيح من الطبري (١١٩/١١) .

وقد روى أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن أبيه قال (٥٠) : دخلت على رسول الله ﷺ فقال ﷺ : « أَرَأَيْتَ إِبْلَكَ تَكُونُ مُسَلَّمَةً أَذَانَهَا فَتَأْخُذُ الْمُوسَى فَتَجِدَعُهَا تَقُولُ هَذِهِ بِحِيرَةٌ ، وَتَشْقُونَ أَذَانَهَا تَقُولُونَ هَذِهِ بِحِيرَةٌ » . قال : فإن ساعد الله أشد ، وموسى الله أحد ، كل مالك لك حلال لا يحرم عليك منه شيء .

وفي البحيرة ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن البحيرة الناقة إذا ولدت خمسة أبطن ، فإن كان الخامس ذكراً أكلته الرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى بحروا أذنها أي شقوها ، وتركت ، فلا يشرب لها لبن ، ولا تنحر ، ولا تتركب ، وإن كان ميتة اشترك فيه الرجال والنساء ، قاله عكرمة .

والقول الثاني : البحيرة الناقة التي تنجب خمسة أبطن ، فكان آخرها ميتاً ذكراً شقوا أذن الناقة وخلوا عنها ، فلا تُحَلَبُ وَلَا تُرَكَّبُ تخرجاً ، قاله أبو عبيدة .

والقول الثالث : أن البحيرة بنت السائبة ، قاله أبو إسحاق ، وأما السائبة ، فإنها المسيية المخلاة وكانت العرب تفعل ذلك ببعض مواشيها فتحرم الانتفاع بها على أنفسها تقرباً إلى الله تعالى ، قال الشاعر :

عقرتم ناقة كانت لربي وسائبة فقوموا للعقاب

وكذا كان بعض أهل الإسلام يعتقد عبده سائبة ، ولا ينتفع به ولا بولائه ، وكان أبو العالية سائبة ، فلما أتى مولاه بميراثه فقال : هو سائبة وأبى أن يأخذه .

وأخرجت المسيية بلفظ السائبة ، كما قيل في عيشة راضية يعني مرضية ، وفي السائبة قولان :

أحدهما : أنها الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس فيهن ذكر سُبَيْت فلم يُرَكَّبَ ظهرها ولم يُجَزَّ وبرها ولم يَشْرَبَ لبنها إلا ضيف ، وما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها ، وسميت بحيرة ، وخُلِّيت مع أمها ، قاله محمد بن إسحاق .

والقول الثاني : أنهم كانوا يندرون السائبة عند المرض فيسيب الرجل بعيره

(٥٠) رواه الطبري برقم ١٢٨٢٥ ، والطيايسي مطولاً برقم ١٣٠٣ ، وأحمد ٣ : ٤٧٣ والبيهقي في السنن (١٠ : ١٠) كلهم من حديث عبد الله بن مسعود .

ولا يركب ، ولا يجلى عن ماء كالبحيرة ، قاله أبو عبيدة .

أما الوصيلة فأجمعوا على أنها من الغنم ، وفيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نُظِرَ في البطن السابع فإن كان جدياً ذبحوه ، فأكل الرجال دون النساء ، فقالوا هذا حلال لذكورنا ، حرام على أزواجنا ونسائنا ، وإن كان عناقاً سرحت في غنم الحي ، وإن كان جدياً وعناقاً ، قالوا وصلت أخاها فسميت وصيلة ، قاله عكرمة .

القول الثاني : أنها الشاة إذا أتامت عشر إناث في خمسة أبطن ليس فيهن ذكر ، جعلت وصيلة ، فقالوا قد وصلت ، وكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الإناث ، قاله محمد بن إسحاق .

والقول الثالث : أن العرب كانت إذا ولدت الشاة لهم ذكراً قالوا هذا لآلهتنا فيتقربون به ، وإذا ولدت أنثى قالوا هذه لنا ، وإذا ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوه لمكانها ، قاله أبو عبيدة .

وأما الحام ففيه قول واحد أجمعوا عليه وهو البعير ينتج من صلبه عشرة أبطن ، فيقال حمى ظهره ويخلئ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنبِتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِن أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسَبُوهمَا مِّنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِئَا أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ

أَدِّقْ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَسْمِعُوا اللَّهَ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ ... ﴾ في قوله : ﴿ شَهَادَةٌ
بَيْنَكُمْ ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنها الشهادة بالحقوق عند الحكام .

والثاني : أنها شهادة الحضور للوصية .

والثالث : أنها أيمان ، ومعنى ذلك أيمان بينكم ، فعبر عن اليمين بالشهادة
كما قال في أيمان المتلاعنين : ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ﴾ .

وفي قوله تعالى : ﴿ ... أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ تأويلان :

أحدهما : يعني من المسلمين ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : من حي الموصي ، قاله الحسن ، وسعيد بن المسيب ، وعكرمة .

وفيها قولان :

أحدهما : أنهما شاهدان يشهدان على وصية الموصي .

والثاني : أنهما وصيان .

﴿ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : من غير دينكم من أهل الكتاب ، قاله ابن عباس ، وأبو موسى ،
وسعيد بن جبير ، وإبراهيم ، وشريح .

والثاني : من غير قبيلتكم وعشيرتكم ، قاله الحسن ، وعكرمة ، والزهري ،
وعبيدة .

وفي ﴿ أَوْ ﴾ في هذا الموضع قولان :

أحدهما : أنها للتخيير في قبول اثنين منا أو آخرين من غيرنا .

والثاني : أنها لغير التخيير ، وإن معنى الكلام ، أو آخران من غيركم إن لم
تجدوا منكم ، قاله ابن عباس وشريح ، وسعيد بن جبير والسدي .

﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني سافرتم .

﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ وفي الكلام محذوف تقديره : فأصابتكم مصيبة الموت ، وقد أسندتم الوصية إليهما .

ثم قال تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ يعني تستوقفونهما للأيمان وهذا خطاب للورثة ، وفي هذه الصلاة ثلاثة أقوال :

أحدها : بعد صلاة العصر ، قاله شريح ، والشعبي ، وسعيد بن جبير وقتادة .

والثاني : من بعد صلاة الظهر ، والعصر ، قاله الحسن .

والثالث : من بعد صلاة أهل دينهما ومِلَّتَهُمَا من أهل الذمة ، قاله ابن عباس ، والسدي .

﴿ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا ﴾ معناه فيحلفان بالله إن ارتبتم بهما ، وفيهما قولان :

أحدهما : أنهما الوصيان إن ارتبتم بهما في الخيانة أخلَفَهُمَا الورثة .

والثاني : أنهما الشاهدان إن ارتبتم بهما ، ولم تُعْرَفْ عدالتهما ، ولا جرحهما ، أخلَفَهُمَا الحاكم ليزول عنه الارتباب بهما ، وهذا إنما جوزه قائل هذا القول في السفر دون الحضر .

وفي قوله تعالى : ﴿ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا ﴾ تأويلان :

أحدهما : لا نأخذ عليه رشوة ، قاله ابن زيد .

والثاني : لا نعتاض عليه بحق .

﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أي لا نميل مع ذي القربى في قول الزور ، والشهادة بغير حق .

﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ يعني عندنا فيما أوجبه علينا .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ يعني فإن ظهر على أنهما كَذَبًا وَخَانًا ، فعبر عن الكذب بالخيانة والإثم لحدوثه عنهما .

وفي الذين : ﴿ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ قولان :

أحدهما : أنهما الشاهدان ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهما الوصيان ، قاله سعيد بن جبير .

﴿ فَآخَرَانِ ﴾ يعني من الورثة .

﴿ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ في اليمين ، حين ظهرت الخيانة .

﴿ مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولِيَّانِ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : الأوليان بالميت من الورثة ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : الأوليان بالشهادة من المسلمين ، قاله ابن عباس وشريح .

وكان سبب نزول هذه الآية ما روى عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن

ابن عباس^(٥١) قال : خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء ،

فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم ، فلما قدما بتركته ، فقدوا جاماً من فضة

مُخَوَّصاً بالذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ ، ثم وجد الجام بمكة ، وقالوا اشتريناه

من تميم الداري ، وعدي بن بداء ، فقام رجلان من أولياء السهمي فَحَلَفَا :

﴿ لَشَهَادَتِنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ﴾ وأن الجام لصاحبهم قال : وفيهم نزل : ﴿ يَتَأَيَّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ ﴾ .

ثم اختلفوا في حكم هاتين الآيتين هل هو منسوخ أو ثابت .

فقال ابن عباس حكمهما منسوخ . قال ابن زيد : لم يكن الإسلام إلا

بالمدينة فجازت شهادة أهل الكتاب وهو اليوم طبق الأرض .

وقال الحسن : حكمهما ثابت غير منسوخ .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ

الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

(٥١) رواه الطبري والسياق له (١٨٥/١١) والبخاري في صحيحه (٣٠٧ - ٣٠٩) فتح وأبو داود

برقم (٣٦٠٦) والبيهقي في السنن ١٠ : ١٦٥ وأبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ ١٣٣

والترمذي في كتاب التفسير وقال حسن غريب . وزاد السيوطي في الدر (٢٢١/٣) نسبته للبخاري

في التاريخ وابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ .

في قوله : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ خمسة تأويلات :

أحدها : لم يكن ذلك إنكاراً لِمَا علموه ولكن ذهلوا عن الجواب من هول ذلك اليوم ثم أجابوا بعدما ثابت عقولهم ، قاله الحسن ، والسدي .

والثاني : لا علم لنا إلا ما علمتنا ، قاله مجاهد .

والثالث : لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا ، قاله ابن عباس .

والرابع : لا علم لنا بما أجاب به أممنا ، لأن ذلك هو الذي يقع عليه الجزاء ، وهو مروى عن الحسن أيضاً .

والخامس : أن معنى قوله : ﴿ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ أي ماذا عملوا بعدكم ﴿ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ قاله ابن جريج .

وفي قوله : ﴿ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ تأويلان :

أحدهما : أنه مبالغة .

والثاني : أنه لتكثير المعلومات .

فإن قيل : فلم سألهم عما هو أعلم به منهم ؟ فعليه جوابان :

أحدهما : أنه إنما سألهم ليعلمهم ما لم يعلموا من كفر أممهم ونفاقهم وكذبهم عليهم من بعدهم .

والثاني : أنه أراد أن يفضحهم بذلك على الأشهاد ليكون ذلك نوعاً من

العقوبة لهم .

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم

بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ
إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ... ﴾
وإنما ذكر الله عيسى عليه السلام نعمته عليه وعلى والدته ، وإن كان لهما ذاكراً
لأمرين :

أحدهما : ليتلو على الأمم ما خصه به من الكرامة وميزه به من علو المنزلة .
والثاني : ليؤكد به حجته ويرد به جاحده .

ثم أخذ تعالى في تعديد نعمه فقال : ﴿ إِذْ أَيْدُتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ يعني
قويتك ، مأخوذ من الأيد وهو القوة ، وروح القدس جبريل ، والقدس هو الله تعالى
تقدسست أسماؤه .

وتأييده له من وجهين :

أحدهما : تقويته على أمر دينه .

والثاني : معونته على دفع ظلم اليهود والكافرين له .

﴿ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أما كلامه لهم في المهد إنما اختص
بتعريفهم حال نبوته ، ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي
مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٣٠ - ٣١]

وكلامه لهم كهلاً دعاؤهم إلى ما أمر الله به من الصلاة والزكاة ، وذلك حين
صار ابن ثلاثين سنة وإن كان مبعوثاً حين ولد ، فمكث فيهم ثلاثين سنة ثم رفعه
الله ، ولم يبعث الله نبياً حين ولد غيره ولذلك خصه الله بالكلام في المهد صبيّاً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ ﴾ وفيه تأويلان :

أحدهما : يريد الخط .

والثاني : يريد الكتب فعبّر عنها بالكتاب إرادة للجنس .

ثم فصل فقال تعالى : ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ وفيها تأويلان :

أحدهما : أنها العلم بما في تلك الكتب .

والثاني : أنها جميع ما يحتاج إليه في دينه ودنياه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَالتَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ يريد تلاوتهما وتأويلهما .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ يعني بقوله : ﴿ تَخْلُقُ ﴾ أي تفعل وتصور من الطين مثل صورة الطير ، لأن الخلق فعل لكن على سبيل القصد والتقدير من غير سهو ولا مجازفة ولذلك وُصِفَتْ أفعال الله تعالى بأنها مخلوقة لأنها لا تكون إلا عن قصد وتقدير ووصفت بعض أفعال العباد بأنها مخلوقة إذا كانت مقدرة مقصودة ولم توصف جميعها بهذه الصفة لجواز كون بعضها سهواً أو مجازفة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَنْفُخُ فِيهَا ﴾ يعني الروح ، والروح جسم .

وفي المَتَوَلَّى لنفخها وجهان :

أحدهما : أنه المسيح ينفخ الروح في الجسم الذي صوره من الطين كصورة الطير .

والثاني : أنه جبريل .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ يعني أن الله تعالى يقلبها بعد نفخ الروح فيها لحماً ودماً ، ويخلق فيها الحياة ، فتصير طيراً بإذن الله تعالى وأمره ، لا بفعل المسيح .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ أي تدعوني أن أبرئ الأكمة والأبرص ، فأجيب دعاءك وأبرئهما ، وهو فعل الله تعالى ، وإنما نَسَبَهُ إلى المسيح مجازاً لأن فعله لأجل دعائه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ يعني واذكر نعمتي عليك ، إذ تدعوني أن أحيي الموتى ، فأجيب دعاءك ، حتى تخرجهم من القبور أحياء ، ونسب إليه ذلك توسعاً أيضاً لأجل دعائه ، ويجوز أن ينسب إخراجهم إليه حقيقة ، لأن إخراجهم من قبورهم بعد إحياء الله لهم يجوز أن يكون من فعل المسيح .

قال الكلبي : والذين أحياهم من الموتى رجالان وامرأة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي ... ﴾ في وحيه إلى الحواريين وجهان :

أحدهما : معناه أَلْهَمْتُهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِي ، ويصدقوا أنك رسولي ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ [النحل : ٦٨] .

والثاني : يعني أَلْقَيْتُ إِلَيْهِمْ بِالْآيَاتِ الَّتِي أَرَيْتَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِي وَبِكَ . وفي التذكير بهذه النعمة قولان :

أحدهما : أنها نعمة على الحواريين أَنْ ءَامَنُوا ، فذكر الله تعالى به عيسى لأنهم أنصاره .

الثاني : أنها نعمة على عيسى ، لأنه جعل له أنصاراً من الحواريين قد ءَامَنُوا به .

والحواريون : هم خواص عيسى عليه السلام الذين استخلفهم من جملة الناس .

﴿ قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ يعني بالله تعالى ربك .

﴿ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام على إسلامهم بالله تعالى وبه .

والثاني : أنهم أشهدوا الله تعالى بذلك على أنفسهم .

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ،
قرأ الكسائي وحده ﴿هل تُستطيع ربُّك﴾ بالتاء والإدغام ، وربك بالنصب ، وفيها
وجهان :

أحدهما : معناه هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله ، قاله الزجاج .

والثاني : هل تستطيع أن تسأل ربك ، قاله مجاهد ، وعائشة .

وقرأ الباقون ﴿هل يستطيع ربك﴾ بالياء والإظهار ، وفي ذلك التأويل ثلاثة
أوجه :

أحدها : هل يقدر ربك ، فكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام
معرفتهم بالله تعالى .

والثاني : معناه هل يفعل ربك ، قاله الحسن ، لأنهم سموا بالحواريين بعد
إيمانهم .

والثالث : معناه هل يستجيب لك ربك ويطيعك .

﴿أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قاله السدي ، قال قطرب : والمائدة لا
تكون مائدة حتى يكون عليها طعام ، فإن لم يكن قيل : خِوان ، وفي تسميتها مائدة
وجهان :

أحدهما : لأنها تميد ما عليها أي تعطي ، قال رؤبة :

إلى أمير المؤمنين الممتاد^(٥٢)

أي المستعطي .

والثاني : لحركتها بما عليها من قولهم : مَادَ الشيء إذا مال وتحرك ، قال
الشاعر :

لعلك باك إن تغنت حمامة يمد بها غصن من الأيك مائل
﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه قولان :

(٥٢) هذا عجز بيت أوله :

لهذي رؤوس المترفين الأنداد ...

ديوان رؤبة ٤٠ ومجاز القرآن لابن عبيدة ١ : ١٨٣ واللسان مادة [ميد] .

أحدهما : يعني اتقوا معاصي الله إن كنتم مؤمنين به ، وإنما أمرهم بذلك لأنه أولى من سؤالهم .

والثاني : يعني اتقوا الله في سؤال الأنبياء إما طلباً لِعَتَبَتِهِمْ وإما استزادة للآيات منهم ، إن كنتم مؤمنين بهم ومصديقين لهم لأن ما قامت به دلائل صدقهم يغنيكم عن استزادة الآيات منهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ وهذا اعتذار منهم بيئوا به سبب سؤالهم حين نهوا عنه فقالوا : ﴿ نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ .
يحتمل وجهين :

أحدهما : أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها .

والثاني : أنهم أرادوه تبركاً بها لا لحاجة دعتهم إليها ، وهذا أشبه لأنهم لو احتاجوا لم ينهوا عن السؤال .

﴿ وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : تطمئن إلى أن الله تعالى قد بعثك إلينا نبياً .

والثاني : تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا لك أعواناً .

والثالث : تطمئن إلى أن الله قد أجابنا إلى ما سألنا .

﴿ وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا ﴾ في أنك نبي إلينا ، وذلك على الوجه الأول .

وعلى الوجه الثاني : صدقتنا في أننا أعوان لك .

وعلى الوجه الثالث : أن الله قد أجابنا إلى ما سألنا .

وفي قولهم ﴿ وَنَعْلَمَ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه علم مستحدث لهم بهذه الآية بعد أن لم يكن ، وهذا قول من زعم أن السؤال كان قبل استحكام المعرفة .

والثاني : أنهم استزادوا بذلك علماً إلى علمهم وبقيناً إلى يقينهم ، وهذا قول من زعم أن السؤال كان بعد التصديق والمعرفة .

﴿ وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من الشاهدين لك عند الله بأنك قد أديت ما بعثك به إلينا .

والثاني : من الشاهدين عند من يأتي من قومنا بما شاهدناه من الآيات الدالة على أنك نبي إليهم وإلينا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ إنما زيدت الميم في آخر اللهم مثقلة عوضاً عن حرف النداء ، فلم يجز أن يدخل عليه حرف النداء فلا يقال يا اللهم لأن الميم الْمُعَوِّضَةُ منه أغنت عنه ، فأما قول الشاعر :

وما عليك أن تقولي كلما سبحت أو هللت يا اللهم ما
أردد علينا شيخنا مسلماً فإننا من خيرهِ لن نَعْدَمَا(*)
فلأن ضرورة الشعر جوزته .

سأل عيسى ربه ، أن ينزل عليهم المائدة التي سألوه ، وفي سؤاله وجهان : أحدهما : أنه تفضل عليهم بالسؤال ، وهذا قول من زعم أن السؤال بعد استحكام المعرفة .

والثاني : أنه رغبة منه إلى الله تعالى في إظهار صدقه لهم ، وهذا قول من زعم أن السؤال قبل استحكام المعرفة .

﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : نتخذ اليوم الذي أنزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا قاله قتادة والسدي .

وقيل : إن المائدة أنزلت عليهم في يوم الأحد غداة وعشية ، ولذلك جعلوا الأحد عيداً .

والثاني : معناه عائدة من الله تعالى علينا ، وبرهاناً لنا ولمن بعدنا .

والثالث : يعني نأكل منها جميعاً ، أولنا وآخرنا ، قاله ابن عباس .

﴿ وَآيَةٌ مِّنكَ ﴾ يعني علامة الإعجاز الدالة على توحيدك وقيل التي تدل على

صدق أنبيائك .

(*) هذا الشطر الموضوع بين القوسين زدناه من خزنة الأدب (٣٥٨/١) .

الشكر على ما أنعمت به علينا من إجابتك ، وقيل : أرزقنا ذلك من عندك .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا وعد من الله تعالى أجاب

به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين .

واختلفوا في نزول المائدة على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى لخلقه ، ينهاهم به عن مسألة الآيات

لأنبيائه ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم سألوا ووعدهم بالإجابة ، فلما قال لهم : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ

مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذُّبُهُ عَذَابًا لَّا أَعَذُّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ استعفوا منها فلم تنزل

عليهم ، قاله الحسن .

والثالث : أنهم سألوا فأجابهم ، ولم يستعفوا ، لأنه ما حكى الاستعفاء

عنهم ، ثم أنزلها عليهم ، لأنه قد وعدهم ، ولا يجوز أن يخلف وعده .

ومن قال بهذا اختلفوا في الذي كان عليها حين نزلت على ستة أقاويل :

أحدها : أنه كان عليها ثمار الجنة ، قاله قتادة .

والثاني : أنه كان عليها خبز ولحم ، قاله عمار بن ياسر .

والثالث : أنه كان عليها سبعة أرغفة ، قاله إسحاق بن عبد الله .

والرابع : كان عليها سمكة فيها طعم كل الطعام ، قاله عطاء ، وعطية .

والخامس : كان عليها كل طعام إلا اللحم ، قاله ميسرة .

والسادس : رغيفان وحتوتان ، أكلوا منها أربعين يوماً في سفرة^(٥٣) ، وكانوا

ومن معهم نحو خمسة آلاف ، قاله جوير .

وأمرُوا أن يأكلوا منها ولا يخونوا ولا يدخروا ، فخانوا وادخروا فَرُفِعَتْ .

وفي قوله تعالى : ﴿ ... عَذَابًا لَّا أَعَذُّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قولان :

أحدهما : يعني من عالمي زمانهم .

(٥٣) قال الإمام الطبري رحمه الله (٢٣٢/١١) .

« أما الصواب من القول فيما كان على المائدة أن يقال كان عليها مأكول وجائز أن يكون سمكاً أو خبزاً وجائز أن يكون كان ثمرأ من ثمر الجنة وغير نافع العلم به ولا ضار الجهل به إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل » .

والثاني : من سائر العالمين كلهم .

وفيهم قولان :

أحدهما : هو أن يمسخهم قردة ، قاله قتادة .

والثاني : أنه جنس من العذاب لا يعذب به غيرهم لأنهم كفروا بعد أن رأوا من الآيات ما لم يره غيرهم ، فكانوا أعظم كفراً فصاروا أعظم عذاباً .

وهل هذا العذاب في الدنيا أو في الآخرة ؟ قولان (*) :

وفي الحواريين قولان :

أحدهما : أنهم خواص الأنبياء .

والثاني : أنهم المندوبون لحفظ شرائعهم إما بجهاد أو علم .

وفي تسميتهم بذلك ثلاثة أقاويل :

أحدها : لبياض ثيابهم ، وهذا قول ابن عباس ، تشبيهاً بما هم عليه من نقاء سرائرهم ، قاله الضحاك ، وهو بلغة القبط حواري .

والثاني : لنظافة ثيابهم وطهارتها تشبيهاً بطهارة قلوبهم .

والثالث : بجهادهم عن أنبيائهم ، قال الشاعر :

ونحن أناس نملأ البيد مأمنا ونحن حواريون حين نزاحف

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَّا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾

(*) لاحظ أنه لم يذكر القولين ولعله يريد بالقولين العذاب في الدنيا والعذاب في الآخرة وعلى هذا فلا إشكال .

﴿١١٨﴾ إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ... ﴾ الآية . ﴿ إِذْ ﴾ ها هنا بمعنى (إذا) كما قال أبو النجم :

ثم جزاك الله عني إذ جرى جنات عدن في السموات العلاء^(١) يعني إذا جرى ، فأقام الماضي مقام المستقبل وهذا جائز في اللغة كما قال تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ . [الأعراف : ٤٤] .
واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال وليس باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام على قولين :

أحدهما : أنه تعالى سأل عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ، ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع .
والثاني : أنه قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غُيِّرُوا بعده وادعوا عليه ما لم يقله .

فإن قيل : فالنصارى لم تتخذ مريم إلهاً ، فكيف قال تعالى فيهم ذلك ؟
قيل : لما كان من قولهم أنها لم تلد بشراً وإنما ولدت إلهاً لزمهم أن يقولوا إنها لأجل البعضية بمثابة من ولدته ، فصاروا حين لزمهم ذلك كالقائلين له .
وفي زمان هذا السؤال قولان :

أحدهما : أن الله تعالى قال ذلك لعيسى حين رفعه إليه في الدنيا ، قاله السدي وميسرة .

والثاني : أن الله تعالى يقول له ذلك يوم القيامة ، قاله ابن جريج وقتادة وهو أصح القولين .

﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴾ أي ادعى لنفسي ما ليس من شأنها ، يعني أنني مربوب ولست برب ، وعابد ولست بمعبود .

(٥٤) انظر الأضداد لابن الأنباري ١٠٢ ، والصاحبي ١١٢ والطبري (٢٣٥ / ١١) لكن البيت في المصادر

ثم جزاه الله عنا إذ جرى ... جنات عدن في العلاء^(١) العلى

وبدا بالتسبيح قبل الجواب لأمرين :

أحدهما : تنزيهاً له عما أضيف إليه .

الثاني : خضوعاً لعزته وخوفاً من سطوته .

ثم قال : ﴿ إِنْ كُنْتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ فرد ذلك إلى علمه تعالى ، وقد كان الله عالماً به أنه لم يقله ، ولكن قاله تقريراً لمن اتخذ عيسى إلهاً .

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه .

والثاني : تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم .

وفي النفس قولان :

أحدهما : أنها عبارة عن الجملة كلها (٥٥) .

والثاني : أنها عبارة عن بعضه ، كقولهم قتل فلان نفسه .

﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : عالم السر والعلانية .

والثاني : عالم ما كان وما يكون .

وفي الفرق بين العالم والعلام وجهان :

أحدهما : أن العلام الذي تقدم علمه ، والعالم الذي حدث علمه .

والثاني : أن العلام الذي يعلم ما كان وما يكون ، والعالم الذي يعلم ما كان ولا يعلم ما يكون .

(٥٥) أعلم رحمك الله وإيانا أن النفس الثابتة لله عز وجل وممرت الآيات بها كما وردت بها الأخبار عن رسول الله ﷺ لكن الخلاف بين السلف في هل النفس صفة للذات أم أنها هي الذات فذهب شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٧٣/٥) إلى أنها بمعنى الذات ورجح هذا القول وذهب ابن خزيمة الإمام رحمه الله إلى أنها صفة للذات وذلك في كتابه التوحيد قال « باب ذكر البيان من خبر النبي ﷺ في إثبات النفس لله » ثم ذكر الآيات والأحاديث الدالة على ذلك . وكذلك ذهب ابن حقيق مذهب ابن خزيمة كما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عنه .

قوله عز وجل : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ لم يذكر عيسى ذلك على وجه الإخبار به لأن الله عالم به ، ويحتمل وجهين :
أحدهما : تكذيباً لمن اتخذ إلهاً معبوداً .

والثاني : الشهادة بذلك على أمته فيما أمرهم به من عبادة ربه .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ يحتمل وجهين :
أحدهما : إعلامهم أن الله ربه وربهم واحد .

والثاني : أن عليه وعليهم أن يعبدوا رباً واحداً حتى لا يخالفوا فيما عبده .

﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ يحتمل وجهين :
أحدهما : يعني شاهداً .

والثاني : شاهداً عليهم .

﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه الموت .

والثاني : أنه رفعه إلى السماء .

﴿ ... الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الحافظ عليهم .

والثاني : العالم بهم .

﴿ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : شاهداً لما حضر وغاب .

والثاني : شاهداً على من عصى ، وأطاع .

قوله عز وجل : ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه قاله على وجه الاستعطاف لهم والرافة بهم كما يستعطف العبد

سيده .

والثاني : أنه قاله على وجه التسليم لأمر ربه والاستجارة من عذابه .

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ يعني يوم
القيامة ، وإنما نفعهم الصدق في ذلك اليوم لوقوع الجزاء فيه وإن كان في كل الأيام
نافعاً ، وفي هذا الصدق قولان :

أحدهما : أن صدقهم الذي كان منهم في الدنيا نفعهم في الآخرة جُوزُوا
عليه من الثواب ، فعلى هذا المراد بهذا الصدق وجهان محتملان :

أحدهما : أنه صدقهم في عهودهم .

والثاني : أنه تصديقهم لرسول الله وكتبه .

والقول الثاني : أنه صدق يكون منهم في الآخرة ينفعهم لقيامهم فيه بحق

الله .

فعلى هذا في المراد بهذا الصدق وجهان محتملان :

أحدهما : أنه صدقهم في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ .

والثاني : صدقهم فيما شهدوا به على أنفسهم عن أعمالهم ، ويكون وجه

النفع فيه أن يكفوا المؤاخذه بتركهم كتم الشهادة ، فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم
وعلى أنفسهم .

وهل هم مصروفون عنه قبل موقف العرض ؟ على قولين .

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

مكية كلها في قول الأكثرين ، وقيل : إنها نزلت جملة واحدة .

وقال ابن عباس وقتادة : هي مكية إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة : إحداهما : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام : ٩١] نزلت في مالك بن الصيف ، وكعب بن الأشرف اليهوديين ، والأخرى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام : ١٤١] نزلت في ثابت بن قيس بن شماس .

وقال ابن جريج : نزلت في معاذ بن جبل ، وقيل : شيع هذه السورة سبعون ألف ملك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

قوله عز وجل : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآية قال وهب بن منبه : فاتحة التوراة فاتحة الأنعام إلى قوله : ﴿يَعْدِلُونَ﴾ ، وخاتمة التوراة خاتمة هود .

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الأمر ، وذلك أولى

من أن يجيء بلفظ الأمر فيقول احمِدِ الله ، لأمرين :

أحدهما : أنه يتضمن تعليم اللفظ والمعنى ، وفي الأمر المعنى دون اللفظ .

والثاني : أن البرهان إنما يشهد بمعنى الخبر دون الأمر .

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ لأن خلق السموات والأرض نِعَمٌ

تستوجب الحمد ، لأن الأرض ثقل ، والسماء تظل ، وهي من أوائل نعمه على خلقه ، ولذلك استحمد بخلقها وأضاف خلقها إلى نفسه عند حمده ، على أن مستحق الحمد هو خالق السموات والأرض ، ليكون باستحقاق الحمد منفرداً لانفراده بخلق السموات والأرض .

وفي جمع السموات وتوحيد الأرض وجهان :

أحدهما : لأن السموات أشرف من الأرض ، والجمع أبلغ في التفخيم من التوحيد كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ [الحجر : ٩] .

والثاني : لأن أوامره إلى الأرض تخترق جميع السموات السبع .

وفي تقديم السموات على الأرض وجهان :

أحدهما : لتقدم خلقها على الأرض .

والثاني : لشرفها فقدمها على ذكر الأرض وإن كانت مخلوقة بعد الأرض .

وهذان الوجهان من اختلاف العلماء أيهما خُلِقَ أولاً .

﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ يعني وخلق ، فغاير بين اللفظ ليكون أحسن في

النظم ، والمراد بالظلمات والنور هنا ثلاثة أوجه :

أحدها : وهو المشهور من قول قتادة ، قدم الظلمة على النور لأنه قدم خلق

الظلمة على خلق النور ، وجمع الظلمات ووجد النور لأن الظلمات أعم من النور .

والثاني : أن الظلمات : الليل ، والنور : النهار .

والثالث : أن الظلمات : الكفر ، والنور : الإيمان ، قاله السدي .

ولأصحاب الخواطر^(٥٦) فيه ثلاثة أوجه آخر :

(٥٦) سبق الكلام عن مثل هذه الخواطر التي ذكر المؤلف منها الكثير وقد تحدثنا عن موقفه منها ومن ذلك ما ذكرناه في المقدمة لهذا التفسير .

أحدها : أن الظلمات : الأجسام ، والنور : الأرواح .
 الثاني : أن الظلمات : أعمال الأبدان ، والنور : ضمائر القلوب .
 والثالث : أن الظلمات : الجهل ، والنور : العلم .
 ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾^(٥٧) أي يجعلون له مع هذه النعم عِدلاً ،
 يعني مثلاً .
 وفيه قولان :

أحدهما : أنهم يعدلون به الأصنام التي يعبدونها .
 والثاني : أنهم يعدلون به إلهاً غيره لم يُخلَق مثل خلقه .
 ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ في هذين
 الأجلين أربعة أقاويل :

أحدها : أن الأجل الأول الذي قضاه أجل الحياة إلى الموت ، والأجل الثاني
 المسمى عنده أجل الموت إلى البعث ، قاله الحسن ، وقتادة .

الثاني : أن الأجل الأول الذي قضاه أجل الدنيا ، والأجل الثاني المسمى
 عنده ابتداء الآخرة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثالث : أن الأجل الأول الذي قضاه هو حين أخذ الميثاق على خلقه في
 ظهر آدم ، والأجل الثاني المسمى عنده الحياة في الدنيا ، قاله ابن زيد .

والرابع : أن الأجل الذي قضاه أجل من مات ، والأجل المسمى عنده أجل
 من يموت بعد ، قاله ابن شجرة .

﴿ تَمَتُّوْا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تشكون ، والامتراء : الشك .

والثاني : تختلفون ، مأخوذ من المراء وهو الاختلاف .

(٥٧) قال مجاهد رحمه الله قوله « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض » فكان فيه رد على ثلاثة أديان
 منهم ، فكان فيه رد على الدهرية لأن الأشياء كلها دائمة ، ثم قال « وجعل الظلمات والنور » فكان
 فيه رد على المجوس الذين زعموا أن الظلمة والنور هما المديران ، وقال « ثم الذين كفروا بربهم
 يعدلون » فكان فيه رد على مشركي العرب ، ومن دعا دون الله إلهاً أخرجه أبو الشيخ كما في الدر
 المنثور (٢٤٧/٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن معنى الكلام وهو الله المُدَبِّرُ في السموات وفي الأرض .

﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ أي ما تخفون ، وما تعلنون .

والثاني : وهو الله المعبود في السموات ، وفي الأرض (٥٨) .

والثالث : أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا ، وتقديره : وهو الله يعلم سرركم وجهركم في السموات وفي الأرض ، لأن في السموات الملائكة ، وفي الأرض الإنس والجن ، قاله الزجاج .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أي ما تعملون من بعد ، ولا يخفى عليه ما كان منكم ، ولا ما سيكون ، ولا ما أنتم عليه في الحال من سر ، وجهر .

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى كُنْبٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْنَهَزَيْ بَرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا

(٥٨) ويدل على هذا الوجه قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ وقد تكلم الإمام الطبري حول هذه الآية بكلام طيب ورد على الجهمية الذين يزعمون أن الله في كل مكان بذاته تعالى ربنا وتقدس عن قولهم . . . وخير ما كتب في هذا الموضوع كتاب العلو للحافظ الذهبي .

مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ﴾ لأن مشركي قريش لما أنكروا نزول القرآن أخبر الله أنه لو أنزله عليهم من السماء لأنكروه وكفروا به لغلبة الفساد عليهم ، فقال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ﴾ واسم القرطاس لا ينطلق إلا على ما فيه كتابة ، فإن لم يكن فيه كتابة قيل طرس ولم يقل قرطاس . قال زهير بن أبي سلمى :

بها أخاديد من آثار ساكنها كما تردد في قرطاسه القلم
﴿ فَلَمْ سُوهْ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ قال ذلك تحقيقاً لنزوله عليهم .

ويحتمل بلمس اليد دون رؤية العين ثلاثة أوجه :

أحدها : أن نزوله مع الملائكة وهم لا يرون بالأبصار ، فلذلك عَبَّرَ عنه باللمس دون الرؤية .

والثاني : لأن الملموس أقرب من المرئي .

والثالث : لأن السحر يتخيل في المرئيات ، ولا يتخيل في الملموسات .

﴿ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ تكذيباً لليقين بالعناد ، والمبين : ما دل على بيان نفسه ، والبيِّن : ما دل على بيانه ، فكان المبين أقوى من البيِّن .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي ملك يشهد بتصديقه ﴿ وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي لو أنزلنا ملكاً فلم يؤمنوا لقضي الأمر وفيه تأويلان .

أحدهما : لقضي عليهم بعداب الاستئصال ، قاله الحسن ، وقتادة ، لأن الأمم السالفة كانوا إذا اقترحوا على أنبيائهم الآيات فأجابهم الله تعالى إلى الإظهار فلم يؤمنوا استأصلهم بالعذاب .

والثاني : أن معنى لقضي الأمر أي لقامت الساعة ، قاله ابن عباس .

﴿ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴾ أي لا يُمهَلُونَ ولا يُؤخَرُونَ ، يعني عن عذاب الاستئصال على التأويل الأول ، وعن قيام الساعة على التأويل الثاني .
﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ يعني ولو جعلنا معه ملكاً يدل على صدقه لجعلناه في صورة رجل .

وفي وجوب جعله رجلاً وجهان :

أحدهما : لأن الملائكة أجسامهم رقيقة لا تُرَى ، فافتضى أن يُجعل رجلاً لكثافة جسمه حتى يرى .

والثاني : أنهم لا يستطيعون أن يروا الملائكة على صورهم ، وإذا كان في صورة الرجل لم يعلموا ملك هو أو غير ملك .

﴿ وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبُسُونَ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه ولخلطنا عليهم ما يخلطون ، قاله الكلبي .

والثاني : لشبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم ، قال الزجاج : كما يشبهون على ضعفائهم واللبس في كلامهم هو الشك ومنه قول الخنساء :

أصدق مقالته واحذر عداوته والبس عليه بشك مثل ما لبسا

والثالث : وللبسنا على الملائكة من الثياب ما يلبسه الناس من ثيابهم ، ليكونوا على صورهم وعلى زيِّهم ، قاله جوير .

قوله تعالى : ﴿ ... كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ أي أوجبها ربكم على نفسه (٥٩) ، وفيها أربعة أوجه :

أحدها : أنها تعريض خلقه لما أمرهم به من عبادته التي تفضي بهم إلى

جنته .

والثاني : ما أراهم من الآيات الدالة على وجوب طاعته .

(٥٩) وهذا الكتب منه سبحانه على نفسه ولم يوجب عليه أحد ومعنى كتب الرحمة على نفسه جل شأنه إيجابها بطريق التفضل والإحسان على ذاته المقدسة بالذات لا بتوسط شيء وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً « لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي » ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقاً بالخلق وأكثر وصولاً إليهم مع أنها من مقتضيات الذات المفضية للخير. راجع روح المعاني (١٠٤/٧) .

والثالث : إمهالهم عن معالجة العذاب واستئصالهم بالانتقام .

والرابع : قبوله توبة العاصي والعفو عن عقوبته .

﴿ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وهذا توعد منه بالبعث والجزاء أَخْرَجَهُ مَخْرَجَ

القسم تحقيقاً للوعد والوعيد ، ثم أكده بقوله : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ .

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُوا لِيَا فَاطِرِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ

أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ

يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ من أجسام الحيوان ، لأن

من الحيوان ما يسكن ليلاً ، ومنه ما يسكن نهاراً .

فإن قيل : فلم قال ﴿ مَا سَكَنَ ﴾ ولم يقل ما تحرك ؟ قيل لأمرين (٦٠) :

أحدهما : أن ما يُعْمَهُ السكون أكثر مما يُعْمَهُ الحركة .

والثاني : لأن كل متحرك لا بد أن تنحل حركته سكوناً ، فصار كل متحرك

ساكناً ، وقد قال الكلبي : معناه وله ما استقر في الليل والنهار ، وهما الزمان كله ،

لأنه لا زمان إلا ليل أو نهار ، ولا فصل بينهما يخرج عن واحد منهما .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُوا لِيَا ﴾ يعني إلهاً يَتَوَلَّأَنِي .

﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خالق السموات والأرض ومبتدئها ، قال

ابن عباس (٦١) : كنت لا أدري ما فاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بشر ، فقال

(٦٠) زاد ابن الجوزي في زاد المسير وجهاً ثالثاً فقال : الثالث : إن في الآية إضماراً والمعنى وله ما سكن

وتحرك كقوله : ﴿ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ النحل : ٨٣ أراد والبرد فاختصر . زاد المسير (١٠/٣) .

(٦١) قال الحافظ في تخريج الكشف (٦١/٤) « رواه أبو عبيد في غريب الحديث وفي فضائل القرآن

أحدهما لصاحبه : أنا فَطَرْتُهَا ، أي ابتدأتها ، وأصل الفطر الشق ، ومنه ﴿ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ [الملك : ٣] أي شقوق .

﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ معناه يَرْزُقُ وَلَا يُرْزَقُ ، قرأ بعضهم ^(٦٢) ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ معناه على هذه القراءة : وهو يطعم خلقه ولا يأكل .

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ يعني من أمته ، وفي إسلامه هذا ثلاثة أوجه :

أحدها : استسلامه لأمر الله ، ومثله قول الشاعر :

طال النهار على من لا لقاح له إلا الهدية أو ترك بإسلام
أي باستسلام .

والثاني : هو دخوله في سِلْمِ الله وخروجه من عداوته .

والثالث : دخوله في دين إبراهيم كقوله تعالى : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الحج : ٧٨] ويكون المراد به أول من أسلم من قريش ، وقيل : من أهل مكة .

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يحتمل أن يكون هذا خطاباً من الله لنبية ينهأه به عن الشرك ، ويحتمل أن يكون المراد به جميع أمته ، وإن توجه الخطاب إليه .

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ

بإسناد حسن ليس فيه إلا إبراهيم بن مهاجر قلت : وهو ضعيف كما يراجع في ترجمته في الميزان

(٦٧/١) والتهذيب (١٤٦/١) .

(٦٢) وهي قراءة عكرمة والأعمش وقال الزجاج وهذا الاختيار عند البصريين بالعربية ومعناه وهو يرزق ويطعم ولا يأكل ، زاد المسير (١١/٣) .

خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه إن ألحق الله بك ضرراً ، لأن المس لا يجوز على الله .
والثاني : معناه وإن جعل الضر يمسك .
وكذلك قوله : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ .
وفي الضر والخير وجهان :

أحدهما : أن الضرُّ السُّقْمُ (٦٣) ، والخير العافية .
والثاني : أن الضرَّ الفقر ، والخير الغنى .
قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ فيه قولان :
أحدهما : أن معناه القاهر لعباده ، وفوق صلة زائدة .
والثاني : أنه بظهره لعباده مستعلٍ عليهم (٦٤) ، فكان قوله فوق مستعملاً على حقيقته كقوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] لأنها أعلى قوة .
ويحتمل ثالثاً : وهو القاهر فوق قهر عباده ، لأن قهره فوق كل قهر .
وفي هذا القهر وجهان :

أحدهما : أنه إيجاد المعدم .

(٦٣) والقول بالعموم أولى قال العلامة الألوسي في روح المعاني (١١٣/٧) وفي هذه الآية الكريمة رد على من رجا كشف الضر من غيره سبحانه وتعالى وأمل أحداً سواه . أ. هـ قلت : ليت الذين يلتمسون المدد من الأموات ويستغيثون بهم في الكربات قرأوا هذه الآية وعملوا بمعناها .
(٦٤) وعلوه سبحانه علو ذات وعلو صفات ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأما تأويل المؤلف هنا اليد بمعنى القوة فليس هذا من تفسير السلف إنما هذا التفسير دخيل على العقيدة السلفية وقد تقدم الكلام على القول الصحيح في صفة اليد فراجع في سورة المائدة والقاهر هو الذي خضعت له الرقاب وذلت له الجباه وعت له الوجوه وقهر كل شيء ودانت له الخلائق وتواضعت لعظمته جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمته راجع عمدة التفسير (١٩ ، ١٨/٢) .

والثاني : أنه لا راد لأقداره ولا صَادٌّ عن اختياره .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ الآية . في سبب [نزول] ذلك قولان :

أحدهما : أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : من يشهد لك بالنبوة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية يأمره فيها أن يقول لهم : ﴿ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ ، ثم أجابه عن ذلك فقال : ﴿ قُلْ أَللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ يعني : بصديقي وصحة نبوتي وهي أكبر الشهادات ، قاله الحسن .

والثاني : أن الله تعالى أمره أن يشهد عليهم بتبليغ الرسالة إليهم فقال ذلك ليشهده عليهم .

﴿ لَأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لأنذرکم [يا] أهل مكة ومن بلغه القرآن من غير أهل مكة .

والثاني : لأنذرکم به : [أيها] العرب ومن بُلِّغ من العجم^(٦٥) .

قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه التوراة والإنجيل^(٦٦) ، قاله الحسن ، وقتادة ، والسدي ، وابن

جريج .

والثاني : أنه القرآن .

﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، لأن صفته موجودة في

كتابهم ، قاله الحسن ، وقتادة ، ومن زعم أن الكتاب هو التوراة والإنجيل .

(٦٥) قال العلامة الشوكاني في فتح القدير (١٠٥/٢) « أي أوحى الله إلي هذا القرآن الذي تلوته عليكم

لأجل أن أنذرکم به ومن بلغ إليه أي كل من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلية

وفي هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد كشمولها لمن قد كان موجوداً وقت

النزول ما لا يحتاج معه إلى تلك الخزعات المذكورة في علم أصول الفقه اهـ .

(٦٦) واختاره ابن جريج (١٦٤/٧) وحكاه ابن الجوزي في زاد المسير (١٤/٣) عن الجمهور واختار

الشوكاني في فتح القدير (١٠٥/٢) القول بالعموم .

والثاني : يعرفون الكتاب الدال على صفته ، وصدقه ، وصحة نبوته ، وهذا قول من زعم أن الكتاب هو القرآن^(٦٧).

وعنى بقوله : ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ ﴾ تثبيتاً لصحة المعرفة .

وحكى الكلبي والفراء : أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام حين أسلم : ما هذه المعرفة التي تعرفون بها محمداً ﷺ كما تعرفون آباءكم ؟ قال : والله لأننا به إذا رأيته أعرف مني بابني وهو يلعب مع الصبيان ، لأنني لا أشك أنه محمد ، وأشهد أنه حق ، ولست أدري ما صنع النساء في الابن^(٦٨).

﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنهم خسروا بالكفر منازلهم وأزواجهم في الجنة ، لأنه ليس أحد من مؤمن ولا كافر إلا وله منازل وأزواج ، فإن أسلموا كانت لهم ، وإن كفروا كانت لمن آمن من أهلهم ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَرْتُؤْنَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١] ، قاله الفراء .

والثاني : معناه غبنوها فأهلكوها بالكفر والتكذيب ، ومنه قول الأعشى^(*) :

لَا يَأْخُذُ الرُّشْوَةَ فِي حُكْمِهِ وَلَا يُيَالِي خُسْرَ الْخَاسِرِ

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾
ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ

(٦٧) وزاد ابن الجوزي في زاد المسير (١٥/٣) قولاً ثالثاً وأن الهاء في تعرفونه راجعة إلى الدين والنبى فالمعنى يعرفون الإسلام أنه دين الله عز وجل وأن محمداً رسول الله وهذا القول قاله قتادة واختاره ابن جرير (١٦٤/٧) .

(٦٨) هذا الأثر رواه الثعلبي كما في الدر (٣٥٧/١) من طريق السدي الصغير وهو ضعيف جداً عن الكلبي وهو متروك عن ابن عباس وعلى هذا فالأثر ضعيف جداً وقد ورد من قول ابن جريج ولفظه قال : زعموا أن بعض أهل المدينة من أهل الكتاب ممن أسلم قال والله لنحن أعرف به منا بأبنائنا من الصفة والنعت الذي نجده في كتابنا وأما أبنائنا فلا ندري ما أحدث النساء رواه ابن جرير (١٦٥/٧) وابن المنذر كما في الدر (٣٥٦/١) .

(*) ديوانه : ٩٢ وفيه ولا ييالي غبن الخاسر .

أَكِنَّةٌ أَنْ يَقْفَهُوهُ وَفِيءَ إِذَانِهِمْ وَقَرَأُوا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتْنَتُهُمْ . . . ﴾ الآية . في الفتنة هنا ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني معذرتهم ، فسمّاها فتنة (٦٩) لحدوثها عن الفتنة ، قاله قتادة .

والثاني : عاقبة فتنتهم وهو شركهم .

والثالث : يعني بَلَّيْتَهُم التي ألزمتهم الحجة وزادتهم لائمة ، قاله أبو عبيد (٧٠)

القاسم بن سلام .

﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ تبدأوا بذلك من شركهم ، فإن

قيل : كيف كذبوا في الآخرة بجحود الشرك ولا يصح منهم الكذب في الآخرة
لأمرين :

أحدهما : أنه لا ينفعهم .

والثاني : أنهم مصروفون عن القبائح ملجؤون إلى تركها لإزالة التكليف

عنهم ، ولو لم يلجؤوا إلى ترك القبيح ويصرفوا عنه مع كمال عقولهم وجب
تكليفهم ليقنعوا به عن القبيح ، وفي عدم تكليفهم دليل على إلجائهم إلى تركه .

قيل : عن ذلك جوابان :

أحدهما : أن قولهم ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ أي في الدنيا عند أنفسنا

لاعتقادنا فيها أننا على صواب ، وإن ظهر لنا خطؤه الآن ، فلم يكن ذلك منهم
كذباً ، قاله قطرب .

والثاني : أن الآخرة مواطن ، فموطن لا يعلمون ذلك فيه ولا يضطرون إليه ،

وموطن يعلمون ذلك فيه ويضطرون إليه ، فقالوا ذلك في الموطن الأول ، قاله
بعض متأخري المتكلمين .

(٦٩) الفتنة تستعمل في معان عدة كالعذاب والاختبار والبلية والمصيبة والكفر والإثم والضلال والمعذرة
كما حقق ذلك الراغب الأصفهاني في المفردات .

(٧٠) وفي نسخة أبو عبيدة بزيادة الهاء والصواب بدون هاء كما هنا راجع التهذيب (٢٨٣/٨) وغيره .

وهذا ليس بصحيح لأنه يقتضي أن يكونوا في الموطن الأول مكلفين لعدم الإلجاء والاضطرار ، وفي الموطن الثاني غير مكلفين .

وقد يعتل الجواب الأول بقوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ فأخبر عنهم بالكذب ، وهم على الجواب الأول غير كاذبين .
وقد أُجيب عن هذا الاعتراض بجواب ثالث ، وهو أنهم أنكروا بالسننهم ، فلما نطقت جوارحهم أقروا ، وفي هذا الجواب دخل لأنهم قد كذبوا نطق الجوارح .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بسوء كذبهم وجحودهم .

والثاني : فصلت عنهم أوثانهم التي افتروا على الله بعبادتها ، والافتراء : تحسين الكذب .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ قيل إنهم كانوا يستمعون في الليل قراءة النبي ﷺ في صلاته .
وفيه وجهان :

أحدهما : يستمعون قراءته ليردوا عليه .

والثاني : ليعلموا مكانه فيؤذوه ، فصرفهم الله عن سماعه ، بإلقاء النوم عليهم ، بأن جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه .

والأكنة الأغطية واحدها كنان ، يقال : كَنَنْتُ الشيء إذا غطيته ، وأكننته في نفسي إذا أخفيت ، وفي قراءة علي ، وابن مسعود : على أعينهم غطاء .

﴿ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ والقر : الثقل ، ومنه الوقار إذا ثقل في المجلس .

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا ءَايَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ يعني بالآية علامة الإعجاز لما قد استحکم في أنفسهم من حسده وبغضه ، وذلك صرفهم عن سماع القرآن ، لأنهم قصدوا بسماعه الأذى والافتراء .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ

الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ فيما كانوا يجادلون به النبي ﷺ قولان :

أحدهما : أنهم كانوا يجادلونه بما ذكره الله تعالى من قوله عنهم : ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾ ، قاله الحسن .

والثاني : هو قولهم : تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم . قاله ابن عباس .

ومعنى ﴿٢٧﴾ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾ أي أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها في كتبهم ، وقيل : إن الذي جادلهم بهذا النضر بن الحارث .

قوله عز وجل : ﴿٢٩﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴿٣٠﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يَنْهَوْنَ عَنْهُ عَنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ويتباعدون عنه فراراً منه ، قاله محمد ابن الحنفية ، والحسن ، والسدي .

والثاني : يَنْهَوْنَ عَنْ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْمَلَ بِمَا فِيهِ ، ويتباعدون من سماعه كيلا يسبق إلى قلوبهم العلم بصحته ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : ينهون عن أذى محمد ﷺ ، ويتباعدون عن اتِّبَاعِهِ ، قال ابن عباس : نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين عن أذى محمد ﷺ ، ويتباعد عما جاء به ، فلا يؤمن به مع وضوح صدقه في نفسه .

واستشهد مقاتل بما دل على ذلك عن شعر أبي طالب^(٧١) بقوله :

ودعوتني وزعمت أنك ناصحي فلقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِيناً
وعرضت ديناً قد علمتُ بأنه من خير أديان البرية ديناً

(٧١) وقد استدل بعض من لا علم عنده بهذه الأبيات التي نسبت لأبي طالب على إسلامه ولا حجة فيها حتى لو ثبت هذا الشعر المنسوب إليه فإنه نظير ما حكاه الله تعالى عن كفار قريش : ﴿٧٢﴾ وَجَعَلُوا بِهَا وَاسْتَيْقَضَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴿٧٣﴾ سورة النمل فكان كفرهم عناداً ، ومنشؤه من الأنفة والكبر ولم يأت أثر صحيح ولا حسن في كون أبي طالب أسلم وكل ما ورد من الأحاديث فهي واهية أو هي من بيت العنكبوت وقد كشف عن عوارها الحافظ ابن حجر كما في الإصابة (٢٣٥/٧) وما بعدها وقال رحمه الله (٢٤٢/٧) «وإننا نسلم أنه (أي أبا طالب) نصره (أي نصر رسول الله) وبالغ في ذلك لكنه لم يتبع النور الذي أنزل معه ، وهو الكتاب العزيز الداعي إلى التوحيد ولا يحصل الفلاح إلا بحصول ما رتب عليه من الصفات كلها اهـ . ونقل الحافظ ابن حجر عن الحافظ ابن عساكر قوله : «قيل إنه أسلم ولا يصح إسلامه» .

لَوْلا الذَّمَامَةُ^(٧٢) أَوْ أَحَاذِرُ سُبَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذَلِكَ مُبِيناً
فَاذْهَبْ لِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ وَابْشِرْ بِذَلِكَ وَقَرِّ مِنْكَ عَيْوناً
وَاللهُ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أَوْسَدَ فِي التُّرَابِ دَفِيناً

فنزلت هذه الآية ، فقرأها عليه النبي ﷺ ، فقال له أبو طالب : أما أن أدخل في دينك فلا . قال ابن عباس : لسابق القضاء في اللوح المحفوظ ، وبه قال عطاء ، والقاسم^(٧٣) .

وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى
رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : عاينوها ، ومن عاين الشيء فقد وقف عليه .

والثاني : أنها كانت من تحتهم وهم فوقها ، فصاروا وقوفاً عليها .

والثالث : أنهم عرفوها بالدخول فيها ، ومن عرف الشيء فقد وقف عليه .

وذكر الكلبي وجهاً رابعاً : أن معناه ولو ترى إذ حُسِبُوا على النار^(٧٤) .

﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تمنوا

الرد إلى الدنيا التي هي دار التكليف ليؤمنوا ويصدقوا ، والتمني لا يدخله صدق ولا كذب ، لأنه ليس بخبر^(٧٥) .

(٧٢) وفي زاد المسير (٢١/٣) « لولا الملامة أو حذاري سبة »

(٧٣) هو أبو عروة القاسم بن مخيمرة الهمداني الكوفي نزيل دمشق ثقة فاضل مترجم له في التهذيب (٣٠٢/٨) .

(٧٤) زاد ابن الجوزي في زاد المسير (٢٢/٣) وجهين آخرين فانظرهما هناك .

(٧٥) وهو قول الزجاج كما في زاد المسير (٢٤/٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :
أحدها : بدا لهم وبال ما كانوا يخفون .

والثاني : بدا لهم ما كان يخفيه بعضهم عن بعض ، قاله الحسن .

والثالث : بدا للأتباع ما كان يخفيه الرؤساء .

﴿ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ ﴾ يعني ولو ردوا إلى ما تمنوا من الدنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه خبر مستأنف أخبر الله به عن كذبهم^(٧٦) لا أنه عائد إلى ما تقدم من تمنّيهم ، لعدم الصدق والكذب في التمني .

والثاني : ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ يعني في الإخبار عن أنفسهم بالإيمان إن رُدُّوا .

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَسَاءَ مَا يَرْزُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : وما أمر الدنيا والعمل لها إلا لعب^(٧٧) ولهو ، فأما عمل الصالحات فيها فهو من عمل الآخرة ، فخرج من أن يكون لعباً ولهواً .

(٧٦) وفي نسخة « لأنه » بدلاً من لا والصواب ما هنا .

(٧٧) وقد أبدى بعض المفسرين سراً بديعاً في تقديم اللعب على اللهو كما هنا وتأخيره عنه في سورة العنكبوت بأنه لما كان هذا الكلام مسوقاً للرد على الكفرة فيما يزعمونه من إنكار الآخرة والحصر السابق وليس في اعتقادهم لجهلهم إلا ما عجل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية قدم اللعب الدال على الباطل في أكثر أقوالهم وأفعالهم . قدم ما يدل على ذلك أو لما كان التقديم مقدماً على الترك والنسيان قدم اللعب على اللهو رعاية للترتيب الخارجي وأما في العنكبوت فالمقام لذكر قصر مدة الحياة الدنيا بالقياس إلى الآخرة وتحقيرها بالنسبة إليها ولذا ذكر اسم الإشارة المشعر بالتحقير وعقب ذلك بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ راجع روح المعاني (١٣٤/٧) .

والثاني : وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو لاشتغالهم بها عما هو أولى منها ، قاله الحسن .

والثالث : أنهم كأهل اللعب واللهو لانقطاع لذاتهم وقصور مدتهم ، وأهل الآخرة بخلافهم لبقاء مدتهم واتصال لذتهم ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَلِلْآخِرَةِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ لأنه قد دام لهم فيها ما كان منقطعاً في غيرها .
﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن ذلك خير لكم .

وذكر بعض الخاطرية قولاً رابعاً : أنها لعب لمن جمعها ، لهو لمن يرثها .

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ
اللَّهُ يَمْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْذُوا
حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾
وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا
فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

قوله عز وجل : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ يعني من التكذيب لك ، والكفري .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : فإنهم لا يكذبونك بحجة ، وإنما هو تكذيب بهت وعناد ، فلا يحزنك ، فإنه لا يضرك ، قاله أبو صالح ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : فإنهم لا يكذبون قولك لعلمهم بصدقك ، ولكن يكذبون ما جئت به ، قاله ناجية بن كعب .

والثالث : لا يكذبونك في السر لعلمهم بصدقك ، ولكنهم يكذبونك في العلانية لعداوتهم لك ، قاله الكلبي .

والرابع : معناه أن تكذيبهم لقولك ليس بتكذيب لك ، لأنك رسول مُبَلَّغ ، وإنما هو تكذيب لآياتي الدالة على صدقك والموجبة لقبول قولك ، وقد بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي يكذبون .

وقرأ نافع والكسائي : ﴿ لَا يُكْذِبُونَكَ ﴾ وهي قراءة عن النبي ﷺ (٧٨) وتأويلها : لا يجدونك كاذباً .

قوله عز وجل : ﴿ ... وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ يحتمل أربعة تأويلات :

أحدها : معناه لا مُبْطِل لِحُجَّتِهِ ولا دافع لبرهانه .

والثاني : معناه لا رَادٌّ لأمره فيما قضاه من نصر أوليائه ، وأوجبه من هلاك أعدائه .

والثالث : معناه لا تكذيب لخبره فيما حكاه من نصر مَنْ نُصِرَ وهلاك مَنْ أَهْلِكَ .

والرابع : معناه لا يشتبه ما تخرّصه الكاذبون عليه بما بلغه الأنبياء عنه .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فيما صبروا عليه من الأذى ، وقُوبِلُوا عليه من النصر .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : [إعراضهم] عن سماع القرآن .

والثاني : عن استماعك .

﴿ فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي سرباً ، وهو المسلك فيها ، مأخوذ من نافقاء (٧٩) اليربوع .

﴿ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

(٧٨) وهي قراءة مخففة وضبطها « لَا يُكْذِبُونَكَ » وقرأ الباقون بالتشديد المبسوط في القراءات العشر ص ١٩٢ .

(٧٩) ونافقاء اليربوع إحدى حجرات بيته وهي سبعة حجرات فإذا أتاه العدو من قبل القاصعاء وهو باب آخر خرج من هذا الباب وقد سمي المنافق منافقاً لأنه يدخل الإسلام من وجه ويخرج من وجه آخر فأشبه اليربوع في صنيعه .

أحدها : مصعداً ، قاله السدي .

والثاني : دَرَجاً ، قاله قتادة .

والثالث : سبباً ، قاله الكلبي وقد تضمن ذلك قول كعب بن زهير .

وَلَا لَكُمْ مَنَاجِيٌّ عَلَى الْأَرْضِ قَابِغِيًّا بِهِ نَفَقًا أَوْ فِي السَّمَوَاتِ سُلُمًا

﴿ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ ﴾ يعني أفضل من آيتك ولن تستطيع ذلك ، لم يؤمنوا لك ، فلا يحزنك تكذيبهم وكفرهم ، قال الفراء : وفي الكلام مضمّر محذوف وتقديره : فتأتيهم بآية فافعل .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ قيل : يعني ^(٨٠) بالإلجاء

والاضطرار .

قال ابن عباس : كل موضع قال الله فيه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ فإنه لم يشأ .

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ يعني فلا تجزع في مواطن الصبر ، فتصير

بالأسف والتحسر مقارباً لأحوال الجاهلين .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ الاستجابة هي القبول ،

والفرق بينها وبين الجواب : أن الجواب قد يكون قبولاً وغير قبول .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني الذين يعقلون ، قاله الكلبي .

والثاني : الذين يسمعون طلباً للحق ، لأن الاستجابة قد تكون من الذين

يسمعون طلباً للحق ، فأما من لا يسمع ، أو يسمع لكن لا بقصد طلب الحق ، فلا يكون منه استجابة .

﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن المراد بالموتى هنا الكفار ، قاله الحسن ، وقتادة ومجاهد ،

(٨٠) وهذا القول قول المعتزلة والصواب أي لو شاء الله تعالى لجمعهم على الهدى كما أنتم على الهدى وذلك بأن يوقفهم للإيمان فيؤمنوا ولكن لم يشأ ذلك سبحانه لسوء اختيارهم حسبما علمه الله تعالى منهم في الأزل والله تعالى الحكمة البالغة في ذلك وهذا قول أهل السنة وكان على المؤلف رحمه الله أن يأتي بقول أهل السنة لكنه لم يفعل .

ويكون معنى الكلام : إنما يستجيب المؤمنون الذين يسمعون ، والكفار لا يسمعون إلا عند معاينة الحق اضطراباً^(٨١) حين لا ينفعهم حتى يبعثهم الله كفاراً ثم يحشرون كفاراً .

والقول الثاني : أنهم الموتى الذين فقدوا الحياة ، وهو مثل ضربه الله تعالى لنبيه ﷺ ، ويكون معنى الكلام : كما أن الموتى لا يستجيبون حتى يبعثهم الله فكذلك الذين لا يسمعون .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُفُّوا فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَن يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ يعني آية تكون دليلاً على صدقه وصحة نبوته .

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً ﴾ يعني آية يجابون بها إلى ما سألوا .

﴿ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يعلمون المصلحة في نزول الآية .

الثاني : لا يعلمون أن زيادة الآيات إذا لم يؤمنوا بها ، توجب الزيادة من عذابهم ، لكثرة تكذيبهم .

فإن قيل : فهذه الآية لا تدل على أن الله لم ينزل عليهم آية تقودهم إلى التصديق فلم يلزمهم الإيمان ، قيل : هذا خطأ ، لأن ما أظهره الله من الآيات

(٨١) لعله يقصد أن الكفار يؤمنون عند وقوع آية العذاب بهم كما حكاها الله تعالى عنهم . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفروا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سورة غافر فهذه الآية تدل على أن إيمان المضطر عند معاينة العذاب لا يفيد ولا ينفع أشبه حال فرعون .

الدالة على صدق رسوله وصحة نبوته ، أظهر من أن يُخْفَى ، وأكثر من أن ينكر ، وأن القرآن مع عجز من تحداهم الله من الآيات بمثله ، وما تضمنه من أخبار الغيوب وصدق خبره عما كان ويكون أبلغ الآيات وأظهر المعجزات .

ولإنما اقترحوا آية سألوها إعنائاً ، فلم يجابوا مع قدرة الله تعالى على إنزالها ، لأنه لو أجابهم إليها لاقترحوا غيرها إلى ما لا نهاية له ، حتى ينقطع الرسول بإظهار الآيات عن تبليغ الرسالة .

ولإنما يلزمه إظهار الآيات في موضعين :

أحدهما : عند بعثه رسولاً ليكون مع استدعائه لهم دليل على صدقه .

والثاني : أن يسألها من يعلم الله منه أنه إن أظهرها له آمن به ، وليس يلزمه إظهارها في غير هذين الموضعين .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ دابة بمعنى ما يدب على الأرض من حيوان كله .

﴿ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ يعني في الهواء ، جمع بين ما هو على الأرض وفيها وما ارتفع عنها .

﴿ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ في الأمم تأويلان :

أحدهما : أنها الجماعات .

والثاني : أنها الأجناس ، قاله الفراء .

وليس يريد بقوله : ﴿ أَمْثَلُكُمْ ﴾ في التكليف كما جعل قوم اشتبه الظاهر عليهم وتعلقوا مع اشتباه الظاهر برواية أبي ذر^(٨٢) ، قال : انتطحت شاتان عند النبي ﷺ ، فقال : يا أبا ذر أتدري فيم انتطحتا ؟ قلت : لا ، قال : « لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا » قال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً ، لأنه إذا كان العقل سبباً للتكليف كان عدمه لارتفاع التكليف .

(٨٢) رواه ابن جرير (٣٤٨/١١) وأحمد (١٦٢/٥) والطيالسي (٤٨٠) وصححه سند الطيالسي الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٧/٤) .

والمراد بقوله : ﴿ أَمْثَالُكُمْ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنها أجناس وتتميز في الصور والأسماء .

والثاني : أنها مخلوقة لا تُظَلَّم ، ومرزوقة لا تُحَرَّم .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : ما تركنا خلقاً إلا أوجبنا له أجلاً ، والكتاب هنا هو إيجاب الأجل

كما قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : ٣٨] قاله ابن بحر وأنشد لنا بغة بني

جعدة :

بلغوا الملوك وأدركوا الـ كتاب وانتهى الأجل

والتأويل الثاني : وهو قول الجمهور : أن الكتاب هو القرآن الكريم الذي

أنزله ، ما أخل فيه بشيء من أمور الدين ، إما مُفَصَّلاً يَسْتَعْنِي عن التفسير ، أو مُجْمَلاً جعل إلى تفسيره سبيلاً .

يحتمل تأويلاً ثالثاً : ما فرطنا فيه بدخول خلل عليه ، أو وجود نقص^(٨٣)

فيه ، فكتاب الله سليم من النقص والخلل .

﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أن المراد بالحشر الموت ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن الحشر الجمع لبعث الساعة^(٨٤) .

فإن قيل : فإذا كانت غير مُكَلَّفَةٍ فلماذا تبعث يوم القيامة ؟ قيل : ليس

التكليف علة البعث ، لأن الأطفال والمجانين يبعثون وإن كانوا في الدنيا غير

مكلفين ، وإنما يبعثها^(٨٥) ليعوض ما استحق العوض منها بإيلام أو ظلم ، ثم

(٨٣) وفي تفسير الكتاب هنا قول آخر وهو أن المراد به اللوح المحفوظ وهو إحدى الروايتين عن ابن

عباس قال ابن القيم في شفاء العليل ص ٤٠ « وهو أظهر القولين في الآية والسياق يدل عليه » .

(٨٤) ولا تنافي بين القولين فهي تجمع يوم القيامة وثم يقتض بعضها من بعض ثم يقال لها كوني تراباً وقد

ورد بذلك الأثر فالقول يحشر البهائم والقصاص بينها هو قول جمهور المفسرين والعلماء المحققين

كإبن جرير والشوكاني والنووي والقاري وابن كثير وغيرهم .

(٨٥) قال العلماء . والحكمة في بعثها أن هذا البعث دال على كمال العدالة بين كافة المكلفين فإنه إذا كان

هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف فكيف بدوي العقول من الوضيع والشريف والقوي

والضعيف .

يجعل ما يشاء منها تراباً ، وما شاء من دواب الجنة^(٨٦) يتمتع المؤمنون بركوبه ورؤيته .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرُّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَاخِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ معنى ذلك أنهم تركوا ما ذُكِّرَهُم الله من آياته الدالة على توحيده وصدق رسوله .

﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعني من نعم الدنيا وسعة الرزق .

وفي إنعامه عليهم مع كفرهم وجهان :

أحدهما : ليكون إنعامه عليهم داعياً إلى إيمانهم .

والثاني : ليكون استدراجاً وبلوياً^(٨٧) ، وقد روى ابن لهيعة بإسناده عن عقبة

ابن عامر أن النبي ﷺ قال^(٨٨) : « إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعِبَادَ مَا يَشَاءُونَ عَلَىٰ

(٨٦) لا نعلم لذلك أثراً صحيحاً يدل على ما قال المؤلف .

(٨٧) والقول الثاني أظهر وأوجه لأن الحديث يؤيده وإنما فعل الله تعالى ذلك بهم ليزدادوا في الطغيان ليزيد لهم في العقوبة .

(٨٨) رواه الطبري ١٣٢٤٠ ، ١٣٢٤١ وأحمد برقم (١٧٣٨٢) من حديث عقبة بن عامر وفي إسناد الطبري ابن لهيعة وهو سيبويه الحفظ لكنه لم ينفرد به بل توبع في إسناد أحمد بحرملة بن عمران وفي سند أحمد رشدين بن سعد لكن الإسنادين يقوي أحدهما الآخر وزاد السيوطي في الدر (١٢ / ٣) نسبة الحديث لابن أبي حاتم وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ
إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾
وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا
شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ
فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ
لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾
وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ
نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ تَرْتَابَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان :
أحدهما : الرزق ، أي لا أقدر على إغناء فقير ، ولا إفقار غني ، قاله
الكلبي .
والثاني : مفاتيح خزائن العذاب لأنه خَوَّفَهُمْ منه ، فقالوا متى يكون هذا ؟ ،
قاله مقاتل .

﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : علم الغيب في نزول العذاب عليهم متى يكون ؟ ، قاله مقاتل .
والثاني : علم جميع ما غاب من ماضٍ ومستقبل ^(٩١) ، إلا أن المستقبل لا

(٩١) ولا شك أن القول الثاني أحق وأولى ورحم الله المؤلف فقد فصل فيه تفصيلاً رائعاً .

يعلمه إلا الله أو من أطلعه الله تعالى على علمه من أنبيائه ، وأما الماضي فقد يعلمه المخلوقون من أحد الوجهين : إما من معاينة أو خبر ، فإن كان الإخبار عن مستقبل ، فهو من آيات الله المعجزة ، وإن كان عن ماض فإن علم به غير المخبر والمخبر لم يكن معجزاً ، وإن لم يعلم به أحد وعلم به المخبر وحده كان معجزاً ، فنفى رسول الله ﷺ عن نفسه علم الغيب ، لأنه لا يعلمه غير الله تعالى ، وإن ما أخبر به من غيب فهو عن الله ووحيه .

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه يريد أنه لا يقدر على ما يعجز عنه العباد ، وإن قدرت عليه الملائكة .

والثاني : أنه يريد بذلك أنه من جملة البشر وليس بمَلَك ، لينفي عن نفسه غُلُوَّ النصراني في المسيح وقولهم : إنه ابن الله .

ثم في نفيه أن يكون ملكاً وجهان :

أحدهما : أنه يَبَيِّنُ بذلك فضل الملائكة على الأنبياء^(٩٢) ، لأنه دفع عن نفسه منزلة ليست له .

والثاني : أنه أراد إني لست ملكاً في السماء ، فأعلم غيب السماء الذي تشاهده الملائكة ويغيب عن البشر ، وإن كان الأنبياء أفضل من الملائكة مع غيبهم عما تشاهده الملائكة .

﴿ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن أخبركم إلا بما أخبرني الله به^(٩٣) .

(٩٢) قال الإمام الألوسي رحمه الله في كتابه روح المعاني (١٥٥/٧) . (تأويل وتقرير أن الملائكة أفضل من النبي ﷺ فهذا كلام لا يسوغ شرعاً أبداً ، وهذا فهم خاطيء مستنبط من الآية فالرسول محمد ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق بما فيهم الملائكة المقربون وهذا لا ينكره عالم في بيان التفضيل أي تفضيل الأنبياء على الملائكة واحد) .

(٩٣) فلا يجوز أن نضع الرسول عليه الصلاة والسلام دون المنزلة التي حباه الله إياها وكذلك لا يجوز أن نبالغ بأمور تجاوز حدود الشرع كعص المتصوفة الذين يقولون إن الرسول هو أول خلق الله أو الذين يقولون خلق من نور معتمدين على أحاديث واهية وموضوعة .

والثاني : أن أفعل إلا ما أمرني الله به .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : الجاهل والعالم .

والثاني : الكافر والمؤمن .

﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فيما ضربه الله من مثل الأعمى والبصير .

الثاني : فيما بينه من آياته الدالة على توحيده وصدق رسوله .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ .

روي أن سبب نزول هذه الآية أن الملائكة أتوا النبي ﷺ وعنده جماعة من ضعفاء المسلمين مثل بلال ، وعمار ، وصهيب ، وخباب بن الأرت ، وابن مسعود ، فقالوا : يا محمد اطرده عنا موالينا وحلفاءنا فإنما هم عبيدنا وعتاقاؤنا^(٩٥) ، فلعلك إن طردتهم نتبعك ، فقال عمر : لو فعلت ذلك حتى نعلم ما الذي يريدون وإلّا يصيرون ، فهم رسول الله ﷺ بذلك حتى نزلت هذه الآية ، ونزل في الملائكة من قريش ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ الآية . فأقبل عمر فاعتذر من مقالته فأنزل الله فيه : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية .

وفي قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أربعة تأويلات :

أحدها : أنها الصلوات الخمس ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : أنه ذكر الله ، قاله إبراهيم النخعي .

والثالث : تعظيم^(٩٦) القرآن ، قاله أبو جعفر .

(٩٤) وقد ورد سبب نزول الآية من قول عكرمة باطول من هذا رواه الطبري (٣٧٩/١١ ، ٣٨٠) وقد ورد من حديث خباب بن الأرت رواه أحمد (٣٩٨٥) والطبري (٣٧٤/١١ ، ٣٧٥) وصححه سند أحمد الشيخ أحمد شاكر .

(٩٥) هذا خطأ والصواب وعسفاؤنا كما في الطبري (٣٧٩/١١) وهو جمع عسيف وهو الأجير المستهان به .

(٩٦) قوله تعظيم خطأ والصواب تعليم والدليل على ذلك أن هذا القول أورده ابن جرير (٣٨٥/١١)

والرابع : أنه عبادة الله ، قاله الضحاک .

ومعنى قوله : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يريدون بدعائهم ، لأن العرب تذكر وجه الشيء إرادة له مثل قولهم : هذا وجه الصواب تفخيماً للأمر وتعظيماً .

والثاني : معناه يريدون طاعته لقصدتهم الوجه الذي وجَّهَهُم^(٩٧) إليه .

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : يعني ما عليك من حساب عملهم من شيء من ثواب أو عقاب .

﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يعني وما من حساب عملك عليهم من شيء ، لأن كل أحد مؤاخذ بحساب عمله دون غير ، قاله الحسن .

والثاني : معناه ما عليك من حساب رزقهم وفقرهم من شيء .

والثالث : ما عليك كفايتهم ولا عليهم كفايتك ، والحساب الكفاية كقوله تعالى : ﴿ عَطَاءٌ حِسَاباً ﴾ [النبا : ٣٦] أي تاماً كافياً ، قاله ابن بحر .

قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ يعني لاختلافهم في الأرزاق ، والأخلاق ، والأحوال .

وفي إفتان الله تعالى لهم قولان :

أحدهما : أنه ابتلاؤهم واختبارهم ليختبر به شكر الأغنياء وصبر الفقراء ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثاني : تكليف ما يشق على النفس مع قدرتها عليه .

﴿ لَيَقُولُوا^(٩٨) أَهْؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ ﴾ وهذا قول الملائكة من قریش

بسند عن ابن جعفر قال كان يقرئهم القرآن من الذي يقص على النبي ﷺ ؟ قلت فأراد أبو جعفر رحمه الله تعلمهم القرآن وقراءته ويؤيد ما ذهب إليه أن ابن الجوزي رحمه الله أورد هذا القول في زاد المسير (٤٦/٣) وقال : « الرابع : أنه تعلم القرآن غدوة وعشية قال أبو جعفر اهـ . ولعل هذا سبق قلم من الناسخ والله أعلم .

(٩٧) أما مذهب السلف في هذه الآية فإنهم يمرونها كما نزلت ويؤولونها تأويلاً إجمالياً أي يؤمنون بالنص إيماناً يتناسب مع قوله تعالى ليس كمثله شيء .

(٩٨) واللام في قوله ﴿ لَيَقُولُوا ﴾ للتعليل وليس للعاقبة فإن لام العاقبة تكون في حق من هو جاهل أو

للضعفاء من المؤمنين ، وفيما مَنَّ الله تعالى به عليهم قولان :

أحدهما : ما تفضل الله به عليهم من اللطف في إيمانهم .

والثاني : ما ذكره من شكرهم على طاعته .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾ يعني به ضعفاء

المسلمين وما كان من شأن عمر .

﴿ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه أمر بالسلام عليهم من الله تعالى ، قاله الحسن .

والثاني : أنه أمر بالسلام عليهم من نفسه تكرمة لهم ، قاله بعض

المتأخرين .

وفي السلام قولان :

أحدهما : أنه جمع السلامة .

والثاني : أنه السلام هو الله ومعناه ذو السلام .

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معناه ^(٩٩) أوجب الله على نفسه .

والثاني : كتب في اللوح المحفوظ على نفسه .

و ﴿ الرَّحْمَةَ ﴾ يحتمل المراد بها هنا وجهين :

أحدهما : المعونة .

والثاني : العفو ^(١٠٠) .

﴿ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ﴾ في الجهالة تأويلان :

عاجز عن دفعها ولهذا قال ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل ص ١٩١ عنه هذه الآية . . ولا ريب أن هذا تعليل لفعله المذكور « أي فعل الرب » وهو امتحان بعض خلقه ببغض كما امتحن السادات والأشراف بالعبود والضعفاء والموالي فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم أنف وحمى أن يسلم معه أو بعده الخ وراجع أيضاً روح المعاني (١٦٢/٧) .

(٩٩) تقدم الكلام على هذا الكتب في الآيات السابقة .

(١٠٠) والصواب إثبات صفة الرحمة للرب تبارك وتعالى على ما ذكر في الآية .

أحدهما : الخطيئة ، قاله الحسن ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : ما جهل كراهية عاقبته ، قاله الزجاج .

ويحتمل ثالثاً : أن الجهالة هنا ارتكاب الشبهة بسوء التأويل (١٠١) .

﴿ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأُصْلَحَ ﴾ يعني تاب من عمله الماضي وأصلح في

المستقبل .

وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَسِيْلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ
الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنْ
الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا
تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ
أَنْ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ
وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَاسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ في البينة هنا قولان :

أحدهما : الحق الذي بان له .

والثاني : المُعْجِزُ فِي الْقُرْآنِ .

﴿ وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وكذبتكم بالبينة .

والثاني : وكذبتكم بربكم .

(١٠١) قال العلامة الألوسي قوله سبحانه ﴿ بجهالة ﴾ حال أيضاً على الأظهر أي من عمل ذنباً وهو جاهل
أي فاعل فعل الجهلة لأنه من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من
أهل الجهل والسفه لا من أهل الحكمة والتدبير أو جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة روح
المعاني (١٦٤/٧) .

﴿ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : ما يستعجلون به من العذاب الذي أُوعِدُوا به قبل وقته ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ ، قاله الحسن .

والثاني : ما استعجلوه من اقتراح الآيات لأنه طلب الشيء في غير وقته ، قاله الزجاج .

﴿ إِنَّ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : الحكم في الثواب والعقاب .

والثاني : الحكم في تمييز الحق من الباطل (١٠٢) .

﴿ يَقْضُ الْحَقُّ ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وعاصم ﴿ يَقْضُ ﴾ بصاد غير معجمة من الْقَضِص وهو الإخبار به ، وقرأ الباقر ﴿ يَقْضِي ﴾ بالضاد معجمة من القضاء ، وهو صنع الحق وإتمامه .

قوله عز وجل : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : خزائن غيب السموات والأرض والأرزاق والأقدار ، وهو معنى قول ابن عباس .

والثاني : الوصول إلى العلم بالغيب .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن ما في البر ما على الأرض ، وما في البحر ما على الماء ، وهو الظاهر ، وبه قال الجمهور .

والثاني : أن البر القفر ، والبحر القرى لوجود الماء فيها ، فلذلك سميت بحراً ، قاله مجاهد .

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ يعني قبل يسها وسقوطها .

﴿ وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ﴾ يحتمل وجهين :

(١٠٢) والصواب أن يقال إن الحكم في كل شيء إلا الله فهو الذي يحكم لا معقب لحكمه ومن جملة ذلك ما استعجلوه من العذاب راجع فتح القدير (١٢٢/٢) .

أحدهما : ما في بطنها من بذر .

والثاني : ما تخرجه من زرع .

﴿ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الرطب النبات واليابس الجواهر .

والثاني : أن الرطب الحي ، واليابس الميت .

﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١٠٣) يعني في اللوح المحفوظ .

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦٢﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٣﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ يعني به النوم ، لأنه يقبض

الأرواح فيه عن التصرف ، كما يقبضها بالموت ، ومنه قول الشاعر (١٠٤) :

إِنَّ بَنِي الْأُدْرَدِ لَيْسُوا مِنْ أَحَدٍ وَلَا تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ فِي الْعَدَدِ
أي لا تقبضهم .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أي ما كسبتم لأنه مستفاد بعمل الجارحة ، ومنه

جوارح الطير لأنها كواسب بجوارحها ، وجَرَحُ الشهادة هو الطَّعْنُ فيها لأنه مكسب الإثم ، قاله الأعشى (*) :

(١٠٣) وما أجمل قول علامة اليمن الشوكاني رحمه الله « وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدعين ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم ولقد ابتلي الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخدولة ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة في قول الصادق والمصدق ﷺ « من أتى كاهناً أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد » فتح القدير (١٢٣/٢) .

(١٠٤) والشاعر هو منظور الوبري والبيت في اللسان (وفي) وقوله بني الأدرد خطأ والصواب بنو الأدرم والبيت في الطبري (٤٠٥/١١) وراجع ما كتب في الحاشية هناك .

(*) ديوانه : ٤١ .

وَهُوَ الدَّافِعُ عَنْ ذِي كُرْبَةٍ أَيَدِي الْقَوْمِ إِذَا الْجَانِي اجْتَرَحَ ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ يعني في النهار باليقظة ، وتصرف الروح بعد قبضها بالنوم .

﴿لِيُقَضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يعني استكمال العمر وانقضاء الأجل بالموت .

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني بالبعث والنشور في القيامة .

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من خير وشر .

قوله عز وجل : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أعلى قهراً ، فلذلك (١٠٥) قال : ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ .

والثاني : أن الأقدر إذا استحق صفة المبالغة عبّر عنه بمثل هذه العبارة ،

ف قيل : هو فوقه في القدرة أي أقدر ، وفوقه في العلم أي أعلم .

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه جوارحهم التي تشهد عليهم بما كانوا يعملون .

والثاني : الملائكة (١٠٦) .

ويحتمل ﴿حَفَظَةً﴾ وجهين :

أحدهما : حفظ النفوس من الآفات .

والثاني : حفظ الأعمال من خير وشر ، ليكون العلم بإتيانها أزرع عن الشر ،

وأبعث على الخير .

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ يعني أسباب الموت ، بانقضاء الأجل .

فإن قيل : المتولّي لقبض الروح مَلَكُ الموت ، وقد بين ذلك بقوله تعالى :

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] فكيف قال : ﴿تَوَفَّاهُ

رُسُلُنَا﴾ والرسل جمع .

(١٠٥) وقد عرّفناك فيما سلف إثبات فوقية الرب وعلوه على خلقه والله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع

البصير . بلا جهة ولا مكان كما قال الطحاوي لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات .

(١٠٦) والقول الثاني أرجح واختاره ابن جرير (٤٠٩/١١) والشوكاني (١٢٤/٢) وابن كثير (١٣٨/٢)

والألوسي (١٧٥/٧) والبيضاوي (ص ١٧٨) والزمخشري (١٩/٢) .

قيل : لأن الله أعان مَلَك الموت بأعوان من عنده يتولون ذلك بأمره ، فصار التوفّي من فعل أعوانه ، وهو مضاف إليه لمكان أمره ، كما يضاف إلى السلطان فعل أعوانه من قتل ، أو جلد ، إذا كان عن أمره^(١٠٧) .

﴿ وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا يؤخرون .

الثاني : لا يُضَيَّعُونَ ، قاله ابن عباس .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ ﴾ وفي متولّي الرد قولان :

أحدهما : أنهم الملائكة التي توفتهم .

والثاني : أنه الله بالبعث والنشور .

وفي ردهم إلى الله وجهان :

أحدهما : معناه ردهم إلى تدبير الله وحده ، لأن الله دبّرهم عند خلقهم وإنشائهم ، مكّنهم من التصرف فصاروا في تدبير أنفسهم ، ثم كفّهم عنه بالموت فصاروا في تدبير الله كالحالة الأولى ، فصاروا بذلك مردودين إليه .

والثاني : أنهم ردوا إلى الموضع الذي لا يملك الحكم عليهم فيه إلا الله ، فجعل الرد إلى ذلك الموضع رداً إليه .

فإن قيل : فكيف قال : ﴿ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ ﴾ وقد قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد : ١١] .

قيل : عنه جوابان :

أحدهما : أنه قال هذا لأنهم دخلوا في جملة غيرهم من المؤمنين المردودين فعّمهم اللفظ .

والثاني : أن المولى قد يعبر به عن الناصر تارة وعن السيد أخرى ، والله لا يكون ناصرًا للكافرين ، وهو سيد الكافرين والمؤمنين .

(١٠٧) وهذا السؤال وجوابه ذكره العلامة الطبري في التفسير (٤٠٩/١١ ، ٤١٠) وخلاصته أن الله تعالى يصدر الأمر بالتوفي والمباشر للأمر هو ملك الموت وأعوانه .

﴿ أَلْحَقَّ ﴾ هنا يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الحق هو من أسمائه تعالى .

والثاني : لأنه مستحق الرد عليه .

والثالث : لِحُكْمِهِ فِيهِمْ بِالرَّدِّ .

﴿ أَلَا لَهُ أَلْحُكْمُ ﴾ يعني القضاء بين عباده .

فإن قيل : فقد جعل لغيره الحكم ؟

فعنه جوابان :

أحدهما : أن له الحكم في يوم القيامة وحده .

والثاني : أن غيره يحكم بأمره فصار الحكم له .

ويحتمل قوله : ﴿ أَلَا لَهُ أَلْحُكْمُ ﴾ وجهاً ثانياً : أن له أن يحكم لنفسه فصار بهذا الحكم مختصاً .

﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعني سرعة الحكم بين العباد لتعجيل الفصل ، وعبر عن الحكم بالحساب من تحقيق المستوفي بهما من قليل وكثير .

والثاني : وهو الظاهر أنه أراد سرعة محاسبة العباد على أعمالهم .

ويحتمل مراده بسرعة حسابه وجهين .

أحدهما : إظهار قدرته بتعجيل ما يعجز عنه غيره .

والثاني : أنه يبين به تعجيل ما يستحق عليه من ثواب ، وتعجيل ما يستحق

على غيره من عقاب جمعاً بين إنصافه وانتصافه .

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَحَنَا مِنْ هَذِهِ

لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسَّكُمْ

شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن العذاب الذي من فوقهم الرجم ، والذي من تحت أرجلهم الخسف ، قاله ابن جبير ، ومجاهد ، وأبو مالك .

والثاني : أن العذاب الذي من فوقهم أئمة السوء ، والعذاب الذي من تحت أرجلهم عبيد السوء ، قاله ابن عباس .

والثالث : أن الذي من فوقهم الطوفان ، والذي من تحت أرجلهم الريح ، حكاه علي بن عيسى (١٠٨) .

ويحتمل أن العذاب الذي من فوقهم طوارق السماء التي ليست من أفعال العباد لأنها فوقهم ، والتي من تحت أرجلهم ما كان من أفعال العباد لأن الأرض تحت أرجل جميعهم .

﴿ أَوْ يَلْبِسْكُمْ شَيْعًا ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنها الأهواء الْمُخْتَلَفَة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنها الفتن والاختلاف ، قاله مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : أي يسلط عليكم أتباعكم الذين كانوا أشياعكم ، فيصيروا لكم أعداء بعدما كانوا أولياء ، وهذا من أشد الانتقام أن يستعلي الأصاغر على الأكابر .

روي أن موسى بن عمران عليه السلام دعا ربه على قوم فأوحى الله إليه : أو ليس هذا هو العذاب العاجل الأليم .

هذا قول المفسرين من أهل الظاهر ، وتَأَوَّلَ بعض المتعمقين في غوامض

(١٠٨) قال العلامة ابن جرير (٤١٨/١١) وأولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي قول من قال عنى بالعذاب من فوقهم الرجم أو الطوفان وما أشبه ذلك مما ينزل عليهم من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم ، الخسف وما أشبه وذلك أن المعروف في كلام العرب من معنى فوق وتحت الأرجل هو ذلك دون غيره وإن كان لما روي عن ابن عباس في ذلك وجه صحيح غير أن الكلام إذا تنوزع في تأويله فحملة على الأغلب الأشهر من معناه أحق وأولى من غيره ، ما لم تأت حجة مانعة من ذلك يجب التسليم لها اهـ .

المعاني ﴿عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ معاصي السمع والبصر^(١٠٩) واللسان ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ المشي إلى المعاصي حتى يواقعوها ، وما بينهما يأخذ بالأقرب منهما ﴿أَوْ يَلْسَكُمْ شَيْعاً﴾ يرفع من بينكم الألفة .

﴿وَيُذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ تكفير أهل الأهواء بعضهم بعضاً ، وقول الجمهور : ﴿وَيُذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يعني بالحروب والقتل حتى يفني بعضهم بعضاً ، لأنه لم يجعل الظفر لبعضهم فيبقى .

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فصل آيات العذاب وأنواع الانتقام .

والثاني : نصرف كل نوع من الآيات إلى قوم ولا يعجزنا أن نجتمعها على

قوم .

﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي يتعظون فينزعجون .

واختلف أهل التأويل في نزول هذه الآية على قولين :

أحدهما : أنها في أهل الصلاة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقادة . وأن نزولها شق على النبي ﷺ ، [فقام] فصلى صلاة الضحى^(١١٠) وأطالها فقل له : ما أطلت صلاة كالיום ، فقال : « إِنَّهَا صَلَاةُ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ ، إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُجِيرَنِي مِنْ أَرْبَعٍ فَأَجَارَنِي مِنْ خَصَلَتَيْنِ وَلَمْ يُجِرْنِي مِنْ خَصَلَتَيْنِ : سَأَلْتُهُ أَلَّا يَهْلِكَ أُمِّي بِعَذَابٍ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا فَعَلَ بِقَوْمِ نُوحٍ ، وَبَقَوْمِ لُوطٍ فَأَجَارَنِي ، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَهْلِكَ أُمِّي بِعَذَابٍ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ كَمَا فَعَلَ بِقَارُونَ فَأَجَارَنِي ، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُفَرِّقَهُمْ شَيْعاً فَلَمْ يُجِرْنِي ، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَلَمْ يُجِرْنِي » وَنَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿الَمْ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت : ٢٢١]

(١٠٩) وأنت خير بما في هذا التفسير الذي أبداه المتعمقة وقد مر الكثير من أمثال هذه الإشارات وقد حذرناك منها فليس ثمة دليل يدل عليها فكن على حذر .

(١١٠) وهذا السياق الذي أورده المؤلف روى نحوه ابن جرير (٤٢٨/١١) عن الحسن مطولاً وقد ورد الحديث مرفوعاً بروايات متعددة من حديث جابر بن عبد الله وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومعاذ بن جبل وأنس بن مالك وشداد بن أوس . وغيرهم راجع الطبري (٤٢٢/١١ - ٤٢٣) .

والقول الثاني : أنها نزلت في المشركين ، قاله بعض المتأخرين (١١١) .

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيِنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي
حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يَنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي
لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ وفيما كذبوا به قولان :

أحدهما : أنه القرآن ، قاله الحسن ، والسدي .

والثاني : تصريف الآيات ، قاله بعض المتأخرين (١١٢) .

﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ يعني ما كذبوا به ، والفرق بين الحق والصواب أن الحق قد
يُذَرَّكَ بغير طلب ، والصواب لا يُذَرَّكَ إلا بطلب .

﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه لست عليكم بحفيظ لأعمالكم لأجازيكم عليها ، وإنما أنا
منذر ، قاله الحسن .

والثاني : لست عليكم بحفيظ أمنعكم من أن تكفروا ، كما يمنع الوكيل على
الشيء من إلحاق الضرر به ، قاله بعض المتأخرين .

والثالث : معناه لست آخذكم بالإيمان اضطراراً وإيجاباً ، كما يأخذ الوكيل
بالشيء ، قاله الزجاج .

(١١١) وفي الآية قول آخر أنها نزل بعضها في المشركين وبعضها في المسلمين وهو قول الحسن كما في

الطبري (٤٣٠/١١) ولكن العلامة الألوسي لم يرتض ذلك فقال « ولا يخفى أنه تفكيك للنظم
الكريم ولعل مراد الحسن أن هذا يكون للمسلمين ويقع دون الأول اهـ روح المعاني (١٨٠/٧) .

(١١٢) وفيها قول ثالث أنه العذاب ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٦٠/٣) ولم يعزه لأحد واختار
القول الأول الألوسي في روح المعاني (١٨١/٧ ، ١٨٢) ونسبه للأزهري وهو اختيار ابن كثير
(٤٧/٢) عمدة التفسير .

﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه أن لكل خبير أخبر الله تعالى به من وعد أو وعيد مستقراً في مستقبل الوقت أو ماضيه أو حاضره في الدنيا وفي الآخرة ، وهذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : أنه وعيد من الله للكافرين في الآخرة لأنهم لا يقرون بالبعث ، قاله الحسن .

والثالث : أنه وعيد لهم بما ينزل بهم في الدنيا ، قاله الزجاج .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : وما على الذين يتقون الله في أوامره ونواهيه من حساب الكفار فيما فعلوه من الاستهزاء والتكذيب مآثم يؤاخذون بها ، ولكن عليهم أن يذكروهم بالله وآياته لعلهم يتقون ما هم عليه من الاستهزاء والتكذيب ، قاله الكلبي .

والثاني : وما على الذين يتقون الله من الحساب يوم القيامة ما على الكفار في الحساب من التشديد والتغليظ لأن محاسبة المتقين ذكرى وتخفيف ، ومحاسبة الكفار تشديد وتغليظ لعلهم يتقون إذا علموا ذلك .

والثالث : وما على الذين يتقون الله فيما فعلوه من رد وصد حساب ، ولكن اعدلوا إلى الذكرى لهم بالقول قبل الفعل ، لعلهم يتقون إذا علموا .

ويحتمل هذا التأويل وجهين :

أحدهما : يتقون الاستهزاء والتكذيب .

والثاني : يتقون الوعيد والتهديد .

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسُلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ

شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم الكفار الذين يستهزئون بآيات الله إذا سمعوها ، قاله علي بن

عيسى .

والثاني : أنه ليس قوم لهم عيد يلهون فيه إلا أمة محمد ﷺ ، فإن أعيادهم

صلاة وتكبير وبر وخير ، قاله الفراء .

﴿ وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : معناه وغرتهم الحياة الدنيا بالسلامة فيها ، ونيل المطلوب منها .

والثاني : معناه وغرتهم الدنيا بالحياة والسلامة منها ، فيكون الغرور على

الوجه الأول بالحياة ، وعلى الثاني بالدنيا .

﴿ وَذَكَّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ قيل معناه أن لا تبسل كما قال

تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ [النساء : ١٧٦] بمعنى أن لا تضلوا .

وفي قوله : ﴿ أَنْ تُبْسَلَ ﴾ ستة أوجه :

أحدها : أن تسلم ، قاله الحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، والسدي .

والثاني : أن تُحْبَس ، قاله قتادة .

والثالث : أن تُفْضَح ، قاله ابن عباس .

والرابع : أن تُؤْخَذَ بما كسبت ، قاله ابن زيد .

والخامس : أن تُجَزَى ، قاله الكلبي .

والسادس : أن تُرْتَهَنَ^(١١٣) ، قاله الفراء ، من قولهم أسد باسل لأن فريسته

مُرْتَهَنَةٌ معه لا تَقْلِتُ منه ، ومنه قول عوف بن الأحوص الكلابي^(١١٤) :

(١١٣) ولا مانع من أن يسأل عن كل هذه المعاني فهي معانٍ متقاربة . ولهذا قال العلامة الألوسي في روح

المعاني (١٨٧/٧) في تفسير الآية أي لثلاث تحبس وترهن كل نفس في الهلاك أو في النار أو تسلم إلى ذلك أو تفضح أو تحرم الثواب بسبب عملها السوء .

(١١٤) أنظر مجاز القرآن (١٩٤/١) وغريب القرآن ١٥٥ والمعاني الكبير لابن قتيبة ١١٤/٢ ونوادر ابن

زيد ص ١٥١ والطبري (٤٤٥/١١) وشواهد الكشاف ٢٠٠ واللسان « بسل » .

وإيسالي بني بغير جرم بعوناه ولا بدم مراق
وقوله : بعوناه أي جنيناه ، وأصل الإيسال التحريم من قولهم : شراب بَسْل
أي حرام ، قال الشاعر^(١١٥) :

بَكَرْتَ تَلُومُكَ بَعْدَ وَهْنٍ فِي النَّدَى بَسْلٌ عَلَيْكَ مَلَامَتِي وَعِتَابِي
أي حرام عليك .

وفي قوله تعالى : ﴿... وَإِنْ تَعَدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ تأويلان :
أحدهما : معناه وإن تفد كل فدية من جهة المال والثروة ، قاله قتادة ،
والسدي ، وابن زيد .

والثاني : من جهة الإسلام والتوبة ، قاله الحسن^(١١٦) .

واختلف في نسخها على قولين :

أحدهما : أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة : ٥] ، قاله قتادة .

والثاني : أنها ثابتة^(١١٧) على جهة التهديد كقوله تعالى : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ
وَحِيداً﴾ [المدرثر : ١١] ، قاله مجاهد .

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا
اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى
الْهُدَى أَتُتَنَاقَلُ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

(١١٥) الشاعر هو ضمرة بن ضمرة النهشلي والبيت في الأمالي ٢/ ٢٧٩ ، والشعر والشعراء ٢٥٠ نوادر ابن
زيد : ٢ ، اللسان بسل ، الوحشيات رقم ٤٤ .

(١١٦) وهذا القول لابي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ١٩٥ لكن العلامة ابن جرير تعقبه بقوله (٤٤٨/ ١١)
وليس لما قال من ذلك معنى وذلك أن كل تائب في الدنيا فإن الله تعالى ذكره يقبل توبته اه قلت
لعله أراد التوبة في الآخرة لما عابنوا العذاب فندموا على ما صنعوه في الدنيا وحينئذ لم يقبل الله
تعالى منهم هذه التوبة وبنحو هذا التأويل أورد الألوسي قولاً بهذا المعنى في روح المعاني
(١٨٤/ ٧) .

(١١٧) أي محكمة .

﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَقُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ
قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ
وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ يعني
الأصنام ، وفي دعائها في هذا الموضع تأويلان :
أحدهما : عبادتها .

والثاني : طلب النجاح منها .

فإن قيل : فكيف قال ولا يضرنا ؟ ودعاؤها لما يستحق عليه من العقاب
ضار ؟

قيل : معناه ما لا يملك لنا ضرراً ولا نفعاً .

﴿ وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ بالإسلام .

﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ... ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه استدعاؤها إلى قصدها واتباعها ، كقوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ
أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] أي تقصدهم وتتبعهم .
والثاني : أنها أمرها بالهوى .

وحكى أبو صالح عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وامراته
حين دعا ابنهما عبد الرحمن إلى الإسلام والهدى أن يأتيهما .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ في الحق
الذي خلق به السموات والأرض أربعة أقاويل :

أحدها : أنه الحكمة .

والثاني : الإحسان إلى العباد .

والثالث : نفس خلقها فإنه حق .

والرابع : يعني بكلمة الحق .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن يقول ليوم القيامة : كن فيكون ، لا يثنى إليه القول مرة بعد أخرى ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه يقول للسموات كوني صورا يُنفخ فيه لقيام الساعة ، فتكون صورا مثل القرآن ، وتبدل سماء أخرى ، قاله الكلبي .

وفي قوله تعالى : ﴿ ... وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ قولان :

أحدهما : أن الصور قرن^(١١٨) ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء ، والثانية للإنشاء علامة للانتهاء والابتداء ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨] .

والثاني : أن الصور جمع صورة تنفخ فيها روحها فتحيا^(١١٩) .

ثم قال تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ... ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه عائد إلى خلق السموات والأرض ، والغيب ما يغيب عنكم ، والشهادة ما تشاهدون .

والثاني : أنه عائد إلى نفخ الصور هو عالم الغيب والشهادة المتولي للنفخة^(١٢٠) .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ رَأَيْتَهُ تَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي

(١١٨) ولا ريب أن هذا القول هو الصواب لأن الحديث يدل عليه فروى أحمد (١٠/١٠، ١١) والترمذي (٢٩٥/٣) وصححه وأبو داود (٣٢٦/٤) والحاكم (٤٣٦/٢، ٥٠٦)، (٥٦٠/٤) وصححه ووافقه الذهبي من حديث عبد الله بن عمرو سئل رسول الله ﷺ عن الصور فقال هو قرن ينفخ فيه وصحح الحديث الألباني في السلسلة الصحيحة وهذا القول روجه غير واحد من المفسرين .

(١١٩) وهذا القول على قراءة قتادة والمراد بها الأبدان التي تقوم بعد نفخ الروح فيها لرب العالمين .

(١٢٠) والصواب أنه عائد إلى الله تعالى لأن سياق الآية يدل عليه فهو عالم ما غاب عن العباد يعلم ما يغيب عن حواسهم وأبصارهم وهو الحكيم في تدبيره وتصريفه الخبير بكل ما يعمل العباد .

ضَلَلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرَ . . . ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

- أحدها : أن آزر اسم أبيه ، قاله الحسن ، والسدي ، ومحمد بن إسحاق ، قال محمد : كان رجلاً من أهل كوتى قرية من سواد الكوفة .
والثاني : أن آزر اسم صنم ، وكان اسم أبيه تارح (١٢١) ، قاله مجاهد .
والثالث : أنه ليس باسم ، وإنما هو صفة سب بعب ، ومعناه معوج ، كأنه عابه باعوجاجه عن الحق ، قاله الفراء .
فإن قيل : فكيف يصح من إبراهيم - وهو نبي - سب أباه ؟
قيل : لأنه سبه بتضييعه حق الله تعالى ، وحق الوالد يسقط في تضييع حق الله (١٢٢) .

(١٢١) قال الشيخ أحمد شاكر : أما أن اسم والد إبراهيم آزر فإنه عندنا أمر قطعي الثبوت بصريح القرآن في هذه الآية بدلالة الالفاظ على المعاني وأما بالتأويل والتلاعب بالالفاظ فما هو إلا إنكار مقنع لمضمون الكلام ومعناه ، وسواء أكان اسمه في قول أهل النسب نقلاً عن الكتب السابقة تارح أو لم يكن فلا أثر له في وجوب الإيمان بصدعه ما نص عليه القرآن ، وبدلالة لفظ « لأبيه » على معناه الوضعي في اللغة والقرآن هو المهيمن على كل ما قبله من كتب الشرائع السابقة ثم يقطع كل شك ويذهب بكل تأويل الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (٢٧٦/٦) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغبرة ، فيقول له إبراهيم ألم أقل لك : لا تعصني » إلى آخر الحديث وليس بعد هذا النص مجال للتلاعب اهـ . قلت ومن هذا تعلم أن القول الأول هو الصواب والله أعلم .

(١٢٢) أقول إن المتبع لدعوة نبي الله إبراهيم لأبيه في القرآن يجد أنه كان يدعوه بطريقة كلها لطف ورقة

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ذلك
وذاك وذا : إشارات ، إلا أن ذا لما قُرْب ، وذلك^(١٢٣) لما بَعْد ، وذاك لتفخيم شأن
ما بَعْد .

وفي المراد بملكوت السموات والأرض خمسة أوجه :

أحدها : أنه خلق السموات والأرض ، قاله ابن عباس .
والثاني : مُلْك السموات والأرض .

واختلف من قال بهذا فيه على وجهين :

أحدهما : أن الملكوت هو المُلْك بالنبطية^(١٢٤) ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه المُلْك بالعربية ، يقال مُلْك وملكوت كما يقال رهبة ورهبوت ،
ورحمة ورحموت ، والعرب تقول : رهبوت خير من رحموت ، أي أن نُرْهَب خير
من أن نُرْحَم ، قاله الأخفش .

والثالث : معناه آيات السموات والأرض ، قاله مقاتل^(١٢٥) .

والرابع : هو الشمس والقمر والنجوم ، قاله الضحاك .

والخامس : أن ملكوت السموات : القمر ، والنجوم ، والشمس ، وملكوت
الأرض : الجبال ، والشجر ، والبحار ، قاله قتادة^(١٢٦) .

﴿ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من المؤمنين لوحداية الله تعالى وقدرته .

وبكلمات تسيل عذوبة واستعطاف وبر وخوف عليه من عذاب الله تعالى كما في سورة مريم فلم يمنع
كفر أبيه من بره والتلطف معه في القول والدعوة معه بالكلمة فعساك تتعلم أيها القارىء .

(١٢٣) هذا خطأ والصواب ذاك .

(١٢٤) والذي في الطبري (٤٧١/١١) والدر المنثور (٣٠١/٣) من قول عكرمة وليس من قول مجاهد .

(١٢٥) هذا القول قول مجاهد ومعنى قول السدي وسعيد بن جبير كما في الطبري (٤٧٢/١١) وليس قول
مقاتل .

(١٢٦) قال العلامة ابن جرير (٤٧٥/١١) وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال عن الله
تعالى ذكره بقوله ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أنه أراه ملك السموات
والأرض وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب وغير ذلك من عظيم
سلطانه فيهما وجلّى له بواطن الأمور وظواهرها هـ .

والثاني : من الموقنين نبوته وصحة رسالته (١٢٧) .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ مَجَاهِدٌ ^(١٢٨) : ذكر لنا أنه رأى الزهرة طلعت عشاءً .

﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ومعنى جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ، أي ستره ، ولذلك سمي البستان جَنَّةً لأن الشجر يسترها ، والجَنُّ لاستتارهم عن العيون ، والجُنُونُ لأنه يستر العقل ، والجَنِينُ لأنه مستور في البطن ، والمَجَنُّ لأنه يستر المترس ، قال الهذلي ^(١٢٩) :

وماء وردت قبيل الكرى وقد جنه السدف الأدهم

وفي قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ خمسة أقاويل :

أحدها : أنه قال : هذا ربي في ظني ، لأنه في حال تقلب واستدلال .

والثاني : أنه قال ذلك اعتقاداً أنه ربه ، قاله ابن عباس .

والثالث : أنه قال ذلك في حال الطفولية والصغر ^(١٣٠) لأن أمه ولدته في مغارة

حذراً عليه من نمرود ، فلما خرج عنه قال هذا القول قبل قيام الحجة عليه ، لأنها حال لا يصح فيها كفر ولا إيمان ، ولا يجوز أن يكون قال ذلك بعد البلوغ .

والرابع : أنه لم يقل ذلك قول معتقد ، وإنما قاله على وجه الإنكار لعبادة

(١٢٧) قال العلامة الألوسي في روح المعاني (١٩٨/٧) .. قوله « وليكون من الموقنين » أي من زمرة الراسخين في الإيقان البالغين درجة من اليقين من معرفة الله تعالى وهذا لا يقتضي سبق الشك كما لا يخفى اهـ .

(١٢٨) وهذا القول قول قتادة كما في الدر (٣٠٣/٣) وليس قول مجاهد كما قال المؤلف هنا وورد قول آخر عن السدي أن الكوكب هو المشتري وأنت خير أيها القارئ أنه لن يترتب على تعيين الكوكب كبير فائدة .

(١٢٩) ديوان الهذليين (٥٦/٣) واللسان (سدف) و (جنن) والشاعر هو عياض بن خويلد الخناعي وقيل هو عامر بن سدوس الخناعي .

(١٣٠) وهذا القول والذي قبله لم يرتض المحققون القول به قال العلامة ابن الجوزي (٧٤/٣) وهذا القول لا يرتضى والمتأهلون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال .. وراجع روح المعاني (١٩٩/٧) والطبري (٤٨٣/١١) وقال : وأنكر قوم من غير أهل الرواية هذا القول الذي روي عن ابن عباس وعمن روي عنه وقالوا غير جائز أن يكون من ابتعته بالرسالة أتى عليه وقت من الأوقات وهو بالغ إلا وهو الله موحد وبه عارف ومن كل ما يعبد من دونه بريء الخ .

الأصنام ، فإذا كان الكوكب والشمس والقمر وما لم تصنعه يد ولا عَمَلُهُ بشر لم تكن معبودة لزوالها ، فالأصنام التي هي دونها أولى ألا تكون معبودة .

والخامس : أنه قال ذلك توبيخاً على وجه الإنكار^(١٣١) الذي يكون معه ألف الاستفهام وتقديره : أهذا ربي ، كما قال الشاعر^(١٣٢) :

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع
بمعنى أهم هم ؟

﴿ فَلَمَّا أَفْلَ ﴾ أي غاب ، قال ذو الرمة^(١٣٣) :

مصاييح ليست باللواتي يقودها نجوم ولا بالآفلات الدوالك
﴿ قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ ﴾ يعني حُبُّ رَبِّ معبود ، وإلا فلا حرج في محبتهم

غير حب الرب .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أي طالعا ، وكذلك بزغت الشمس أي طلعت .

فإن قيل : فَلِمَ كان أفولها دليلاً على أنه لا يجوز عبادتها وقد عبدها مع العلم بأفولها خلق من العقلاء ؟ قيل لأن تغييرها بالأفول دليل على أنها مُدَبَّرَةٌ محدثة ، وما كان بهذه الصفة استحال أن يكون إلهاً معبوداً .

وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجَوْنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾
وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ

(١٣١) والقول الذي تطمئن إليه النفس في ذلك ما قاله العلامة الألوسي رحمه الله (١٩٨/٧) قال قوله « قال هذا ربي » استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام السابق وهذا منه عليه السلام على سبيل الغرض وإرضاء العنان مجازاة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فإن المستدل على فساد قول يحكيه ثم يكرّ عليه بالإبطال وهذا هو الحق الحقيق بالقبول اهـ قلت ولا مانع من القول بالقول الخامس وقد ذهب إليه جمع من المفسرين .

(١٣٢) هو أبو خراش الهذلي والبيت في ديوان الهذليين (١٤٤/٢) والخزانة ١ / ٢١١ واللسان (رفاً) و (رفو) .

(١٣٣) ديوانه : ٤٢٥ ومجاز القرآن لأبي عبيدة (١٩٩/١) واللسان (دلك) والطبري (٤٨٥/١١) وفيه « يقودها » .

بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾
 وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ
 حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ في الظلم ها هنا قولان :

أحدهما : أنه الشرك ، قاله ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، روى ابن مسعود (١٣٤) قال : لما نزلت هذه الآية شق على المسلمين فقالوا : ما منا من أحد إلا وهو يظلم نفسه ، فقال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ ، وَإِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لَقْمَانُ لِابْنِهِ : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

والثاني : أنه سائر أنواع الظلم .

ومن قال بهذا اختلفوا في عمومها وخصوصها على قولين :

أحدهما : أنها عامة (١٣٥) .

والثاني : أنها خاصة .

واختلف من قال بتخصيصها فيمن نزلت على قولين :

أحدهما : أن هذه الآية نزلت في إبراهيم خاصة وليس لهذه الأمة منها شيء ، قاله علي كرم الله وجهه (١٣٦) .

والثاني : أنها فيمن هاجر إلى المدينة ، قاله عكرمة .

(١٣٤) رواه الطبري برقم ١٣٤٧٩ واللفظ له وأحمد (٤٢٤٠) ورواه البخاري (٨١/١) بنحوه ومسلم (١٤٢/٢) والترمذي (١٣٢/٢) من حديث ابن مسعود وله طرق كثيرة في المسند فراجعه رقم ٤٢٤٠ ، ٤٠٣١ ، ٣٥٨٩ .

(١٣٥) ولا ريب أنه القول الراجح إذ لا دليل على التخصيص .

(١٣٦) وفي قول آخر له رضي الله عنه هذه الآية لإبراهيم وأصحابه كما في زاد المسير (٧٧/٣) قلت وقد روى هذه الرواية الحاكم في المستدرک (٣١٦/٢) وصححها وقد ضَعَفَ هذه الرواية والتي ذكرها المؤلف هنا في الطبري (٥٠٣/١١) الشيخ شاکر فراجعه .

واختلفوا فيمن كانت هذه الآية جواباً منه على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه جواب من الله تعالى فصل به القضاء بين إبراهيم ومن حاجّه من قومه ، قاله ابن زيد ، وابن إسحاق .

والثاني : أنه جواب قومه لما سألهم ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ ؟ فأجابوا بما فيه الحجة عليهم ، قاله ابن جريج .

والثالث : أنه جواب إبراهيم كما يسأل العالم نفسه فيجيبها ، حكاه الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ وفي هذه الحجة التي أوتيتها ثلاثة أقاويل :

أحدها : قوله لهم : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ﴾ أم تعبدون من يملك الضر والنفع ؟ فقالوا : مالك الضر والنفع أحق .

والثاني : أنه لما قال : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ عبادة إله واحد أم آلهة شتى ؟ فقالوا : عبادة إله واحد فأقروا على أنفسهم .

والثالث : أنهم لما قالوا لإبراهيم ألا تخاف أن تخيلك آلهتنا ؟ فقال : أما تخافون أن تخيلكم آلهتكم بجمعكم للصغير مع الكبير في العبادة .

واختلفوا في سبب ظهور الحجة لإبراهيم على قولين :

أحدهما : أن الله تعالى أخطرها بباله حتى استخرجها بفكره .

والثاني : أنه أمره بها ولقته إياها .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : عند الله بالوصول لمعرفته .

والثاني : على الخلق بالاصطفاء لرسالته .

والثالث : بالسخاء .

والرابع : بحسن الخلق .

وفيه تقديم وتأخير ، وتقديره : نرفع من نشاء درجات .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ

ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾
 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ
 آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾
 ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ
 فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ
 فِيهِدُهُمْ أَقْصَدَ قُلٍّ لَا أَشْكُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرَى
 لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

قوله عز وجل : ﴿...﴾ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا
 بِكَافِرِينَ ﴿...﴾ فيهم خمسة أقاويل :

أحدها : فَإِن تكفر بها قريش فقد وكلنا بها الأنصار ، قاله الضحاك .

والثاني : فَإِن يكفر بها أهل مكة فقد وكلنا بها أهل المدينة ، قاله ابن
 عباس .

والثالث : فَإِن تكفر بها قريش فقد وكلنا بها الملائكة ، قاله أبو رجاء .

والرابع^(١٣٧) : أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم الله تعالى من قبل
 بقوله : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ، قاله الحسن ، وقتادة .

والخامس : أنهم كل المؤمنين ، قاله بعض المتأخرين .

ومعنى قوله : ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا﴾ أي أقمنا بحفظها ونصرتها ، يعني : كتب
 الله وشريعة دينه .

(١٣٧) وهذا القول اختيار الزجاج كما في زاد المسير (٨١/٣) والطبري (٥١٨/١١) والشوكاني
 (١٣٧/٢) والبيضاوي (ص ١٨٣) والزمخشري (٢/٢٦) .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ
الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا
وَعِلِمَتُهُ مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾
وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : وما عظموه حق عظمتهم ، قاله الحسن ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : وما عرفوه حق معرفته ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : وما وصفوه حق صفته ، قاله الخليل .

والرابع : وما آمنوا بأن الله على كل شيء قدير ، قاله ابن عباس .

﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ يعني من كتاب من السماء .

وفي هذا الكتاب الذي أنكروا نزوله قولان :

أحدهما : أنه التوراة ، أنكر حبر اليهود فيما أنزل منها ما روي أن النبي (١٣٨)

ﷺ رأى هذا الحبر اليهودي سميناً ، فقال له : « أَمَا تَقْرَأُونَ فِي التَّوْرَةِ : أَنَّ اللَّهَ

يَغْضُضُ الْحَبْرَ السَّمِينَ » ، فغضب من ذلك وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء ،

فتبرأت منه اليهود ولعنته ، حكاه ابن بحر .

والقول الثاني : أنه القرآن أنكروه رداً لأن يكون القرآن مُنزَلاً .

وفي قائل ذلك قولان :

أحدهما : قريش .

والثاني : اليهود .

فرد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾

يعني التوراة لا عترافهم بنزولها .

(١٣٨) وهذا الأثر من مرسلات سعيد بن جبير كما رواه الطبري (٢٦٧/٧) وابن المنذر وابن أبي حاتم كما

في الدر (٣١٤/٣) .

ثم قال : ﴿ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ لأن المنزل من السماء لا يكون إلا نوراً وهدى .

ثم قال : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَارِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ يعني أنهم يخفون ما في كتابهم من نبوة محمد ﷺ ، وصفته وصحة رسالته .
قوله عز وجل : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ يعني القرآن ، وفي ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه العظيم البركة لما فيه من الاستشهاد به .
والثاني : لما فيه من زيادة البيان لأن البركة هي الزيادة .
والثالث : أن المبارك الثابت .
﴿ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فيه قولان :
أحدهما : الكتب التي قبله من التوراة ، والإنجيل ، وغيرهما ، قاله الحسن البصري .

والثاني : النشأة الثانية ، قاله علي بن عيسى .
﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ يعني أهل أم القرى ، فحذف ذكر الأهل إيجازاً كما قال : ﴿ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف : ٨٢] .
و ﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ مكة وفي تسميتها بذلك أربعة أقاويل : -
أحدها : لأنها مجتمع القرى ، كما يجتمع الأولاد إلى الأم .
والثاني : لأن أول بيت وضع بها ، فكان القرى نشأت عنها ، قاله السدي .
والثالث : لأنها معظمة كتعظيم الأم ، قاله الزجاج .
والرابع : لأن الناس يؤمنونها من كل جانب ، أي يقصدونها .
ثم قال : ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (١٣٩) قال ابن عباس : هم أهل الأرض كلها .

(١٣٩) وفي هذا النص الدليل القاطع على أن النبي ﷺ مبعوث للعرب والعجم وأهل الأرض جميعاً خلافاً لما ذهب إليه اليهود ومن تبعهم من أصحاب الأقلام المسمومة ممن يرشح النفاق من الستهم على صفحات الجرائد والمجلات فتبأ لهم وأضل أعمالهم .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وفيما ترجع إليه هذه الكناية قولان :

أحدهما : إلى الكتاب ، وتقديره : والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بهذا الكتاب ، قاله الكلبي .

والثاني : إلى محمد ﷺ ، وتقديره : والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بمحمد ﷺ لما قد أظهر الله تعالى من معجزته وأبانه الله من صدقه ، قاله الفراء .

فإن قيل : فيمن يؤمن بالآخرة من أهل الكتاب لا يؤمنون به ؟ قيل : لا اعتبار لإيمانهم بها لتقصيرهم في حقها ، فصاروا بمثابة من لم يؤمن بها .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكَنْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ فيمن نزل فيه ذلك قولان :

أحدهما : أنه مسيلمة الكذاب ، قاله عكرمة .

والثاني : مسيلمة والعنسي ، قاله قتادة (١٤٠) .

وقد روى معمر عن الزهري أن النبي ﷺ قال : « بَيْنَا (١٤١) أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ كَأَنَّ

(١٤٠) ولا ريب أن هذه الآية يدخل فيها كل مدعي النبوة من الدجالين الذين يزعمون أنهم يوحى إليهم فكان على حذر منهم .

(١٤١) والحديث هنا مرسل لكنه موصول وصحيح الإسناد فقد رواه البخاري (٧٠ ، ٦٩/٨) ومسلم (٣٤/١٥) وأما المرسل الذي ذكره المؤلف هنا فرواه الطبري برقم ١٣٥٥٩ .

فِي يَدَيِّ سَوَارِينَ مِنْ ذَهَبٍ ، فَكَبَّرَ عَلَيَّ ، فَأَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ أَنْفَخَهُمَا فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا ،
فَأَوَّلْتُ ذَلِكَ كَذَابَ الْيَمَامَةِ وَكَذَابَ صَنْعَاءَ الْعَنَسِيِّ .

﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : من تقدم ذكره من مدعي الوحي والنبوة .

والثاني : أنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، قاله السدي ، قال الفراء :
كان يكتب للنبي ﷺ فإذا قال النبي : ﴿ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ كتب ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾
و ﴿ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فيقول له النبي ﷺ : « هُمَا سَوَاءٌ » حتى أملى عليه ﴿ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ خَلَقْنَا آخَرَ ﴾ فقال ابن أبي
السرْح : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ تعجباً من تفصيل خلق الإنسان ، فقال
النبي ﷺ : « هَكَذَا نَزَلَتْ » ، فشك وارْتَد (١٤٢) .

والثالث : ما حكاه الحكم عن عكرمة : أنها نزلت في النضر بن الحارث ،
لأنه عارض القرآن ، لأنه قال : والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجنأ ، والخابزات
خبزأ ، فاللاقمات لقمأ .

وفي قوله : ﴿ وَالْمَلَأْنَاهُ بِأَسْطُورٍ أَيْدِيهِمْ ﴾ قولان :

أحدهما : باسطو أيديهم بالعذاب ، قاله الحسن ، والضحاك .

والثاني : باسطو أيديهم لقبض الأرواح من الأجساد ، قاله الفراء .

ويحتمل ثالثاً : باسطو أيديهم بصحائف الأعمال .

﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : من أجسادكم عند معاينة الموت إرهاباً لهم وتغليظاً عليهم ، وإن

كان إخراجها من فعل غيرهم (١٤٣) .

(١٤٢) رواه الطبري (٥٣٤ / ١١) بسنده عن السدي مطولاً ومن قول عكرمة أيضاً رقم (٣٥٥٥) بنحوه .

(١٤٣) قال الزمخشري في كشافه (٢٨ / ٢) « وهذه كناية عن العنف في السياق والإلحاح والتشديد في الإرهاب من غير تنفيس وإمهال وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يسطط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له أخرج إلي ما لي عليك الساعة ولا أريم مكاني حتى أنزعه من أحداقك » .

والثاني : أخرجوا أنفسكم من العذاب إن قدرتم ، تقرّيعاً لهم وتوبيخاً بظلم أنفسهم ، قاله الحسن .

ويحتمل ثالثاً : أن يكون معناه خلصوا أنفسكم بالاحتجاج عنها فيما فعلتم .
﴿ أَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ والهون بالضم الهوان ، قاله ذو الأصبغ العدواني :

أذهب إليك أُمي براعية ترعى المخاض ولا أغضي على الهون
وأما الْهُون بالفتح فهو الرفق ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ يعني برفق وسكينة ، قال الراجز^(١٤٤) :

هونكما لا يرد الدهر ما فاتا لا تهلكن أسي في أثر من ماتا
قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الفرادى
الوحدان ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : فرادى من الأعوان .
والثاني : فرادى من الأموال^(١٤٥) .
﴿ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ يعني ما ملكناكم من الأموال ،
والتخويل تملك المال ، قال أبو النجم^(١٤٦) :

أعطى فلم يبخل ولم يبخل كوم الذرى من خول المخول
﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفْعَاءَكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ألتهتهم التي كانوا يعبدونها ، قاله الكلبي .
والثاني : الملائكة الذين كانوا يعتقدون شفاعتهم ، قاله مقاتل .

(١٤٤) الشاعر هو ذو وجدن الحميري والبيت هنا في سيرة ابن هشام ٣٩/١ وتاريخ الطبري (١٠٧/٢) ومعجم ما استعجم ١٣٩٨ واللسان هون والأغاني (٧٠/١٦) والطبري (٥٤١/١١) والبيت في الطبري الشطر الثاني فيه لا تهلكا أسفاً في أثر من فاتا وهو الصواب وما هنا خطأ .
(١٤٥) ولا تنافي بين القولين فإنهم يأتون يوم القيامة مجردين من المال والخدم والأعوان وهذا توبيخ لهم لأنهم شغلوا بهذه الأشياء عن الآخرة في الدنيا .
(١٤٦) الطبري (٥٤٥/١١) والبيت من قصيدة لامية لأبي النجم في كتاب الطرائف كما قال الشيخ أحمد شاكر .

﴿ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني شفعاء ، قاله الكلبي .

والثاني : أي متحملين عنكم تحمل الشركاء عن الشركاء .

﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تفرق جمعكم في الآخرة .

والثاني : ذهب تواصلكم في الدنيا ، قاله مجاهد .

ومن قرأ ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ بالفتح ، فمعناه تقطع الأمر بينكم .

﴿ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من عدم البعث والجزاء .

والثاني : من شفعاءكم عند الله .

فإن قيل : فقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ خبر عن ماض ، والمقصود منه

الاستقبال ؟

فعن ذلك جوابان :

أحدهما : أنه يقال لهم ذلك في الآخرة فهو على الظاهر إخبار .

والثاني : أنه لتحقيقه بمنزلة ما كان ، فجاز ، وإن كان مستقبلاً أن يعبر عنه

بالماضي .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ ... فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني فالق الحبة عن السنبل والنواة عن النخلة ، قاله الحسن ،

وقتادة ، والسدي ، وابن زيد .

والثاني : أن الفلق الشق الذي فيهما ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه يعني خالق الحب والنوى ، قاله ابن عباس .

وذكر بعض أصحاب الغوامض قولاً رابعاً : أنه مُظْهِرُ ما في حبة القلب من الإخلاص ، والرياء (١٤٧).

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يخرج السنبلة الحية من الحبة الميتة ، والنخلة الحية من النواة الميتة ، ويعني بإخراج الميت من الحي أن يخرج الحبة الميتة من السنبلة الحية ، والنواة الميتة من النخلة الحية ، قاله السدي .

والثاني : أن يخرج الإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، قاله ابن عباس .

والثالث : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، قاله الحسن .
وقد ذكرنا فيه احتمالاً ، أنه يخرج الفِطْنَ الجَلْد من البليد العاجز ، ويخرج البليد العاجز من الفِطْنَ الجَلْد .

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَاَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي تصرفون عن الحق .

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : فالق الإصباح ، قاله قتادة (١٤٨).

والثاني : أنه إضاءة الفجر ، قاله مجاهد .

والثالث : أن معناه خالق نور النهار ، وهذا قول الضحاك .

والرابع : أن الإصباح ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل ، قاله ابن

عباس .

﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ فيه قولان :

(١٤٧) ولا وجه لهذا الذي قاله بعض أرباب الغوامض وكان ينبغي أن يتعقب المؤلف قبل هذا التفسير كما تعقب غيره .

(١٤٨) والذي في الطبري عن قتادة (٥٥٥/١١) فالق الصبح وكذا هو في الدر (٣/٣٢٥) من رواية عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر .

أحدهما : أنه سُمِّي سَكَنًا لأن كل متحرك بالنهار يسكن فيه .

والثاني : لأن كل حي يأوي فيه إلى مسكنه .

﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه يجريان في منازلهما بحساب وبرهان فيه بدء ورد إلى زيادة ونقصان ، قاله ابن عباس والسدي .

والثاني : أي جعلهما سبباً لمعرفة حساب الشهور والأعوام .

والثالث : أي جعل الشمس والقمر ضياء ، قاله قتادة ، وكأنه أخذه من قوله

تعالى : ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [الكهف : ٤٠] قال : ناراً .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَفْقَهُوهُوَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ

فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ

دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ أَنْظُرُوا إِلَىٰ

ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعني آدم عليه

السلام .

﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ فيه ستة تأويلات (١٤٩) :

أحدها : فمستقر في الأرض ومستودع في الأصلاب ، قاله ابن عباس .

والثاني : فمستقر في الرحم ومستودع في القبر ، قاله ابن مسعود .

والثالث : فمستقر في أرحام النساء ومستودع في أصلاب الرجال ، قاله

عطاء ، وقاتدة (١٥٠) .

(١٤٩) وأوصلها ابن الجوزي في زاد المسير إلى تسعة أقوال (٩٢/٣) .

(١٥٠) وهو قول لابن عباس ومجاهد والضحاك والنخعي والسدي وابن زيد وسعيد بن جبير راجع زاد

المسير (٩٢/٣) .

والرابع : فمستقر في الدنيا ومستودع في الآخرة ، قاله مجاهد .

والخامس : فمستقر في الأرض ومستودع في القبر ، قاله الحسن .

والسادس : أن المستقر ما خُلِقَ ، والمستودع ما لم يُخْلَقْ ، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً .

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معناه رزق كل شيء من الحيوان .

والثاني : نبات كل شيء من الثمار .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ يعني زرعاً أخضر رطباً بخلاف صفته عند بذرهِ .

﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًا مُتَرَاكِبًا ﴾ يعني السنبُل الذي قد تراكب حبه .

﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ القنوان جمع قنوفيه ثلاثة

تأويلات :

أحدها : أنه الطلع ، قاله الضحاك .

والثاني : أنه الجمار .

والثالث : هي الأعذاق ، قال امرؤ القيس (١٥١)

أنت أعالِيه وآدت أصوله ومال بقنوان من البسر أحمرًا

﴿ دَانِيَةٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : دانية من المجتني لقصر نخلها وقرب تناولها ، قاله ابن عباس .

والثاني : دانية بعضها من بعض لتقاربها ، قاله الحسن (١٥٢) .

﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ يعني بساتين من أعناب .

﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مشتبهًا ورقه مختلفًا ثمره ، قاله قتادة .

(١٥١) ديوانه ٦٧ واللسان (قنا) .

(١٥٢) وهذا القول يكاد يكون مثل الأول فإنه بمعناه .

والثاني : مشتبهاً لونه مختلفاً طعمه ، قاله الكلبي .

﴿ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالضم^(١٥٣)، وقرأ الباقون

بالتفتح ، وفي اختلافه بالضم والتفتح قولان :

أحدهما : أن الثمر بالضم جمع ثمار ، وبالتفتح جمع ثمرة ، قاله علي بن

عيسى .

والثاني : أن الثمر بالضم : المال ، وبالتفتح : ثمر النخل ، قاله مجاهد ،

وأبو جعفر الطبري^(١٥٤).

﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ يعني نضجه وبلوغه .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ

وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المجوس نسبت الشر إلى إبليس ، وتجعله بذلك شريكاً لله .

والثاني : أن مشركي العرب جعلوا الملائكة بنات الله وشركاء له ، قاله

قتادة ، والسدي ، وابن زيد كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ

عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ فَسَمَّى الملائكة لاختفائهم عن العيون جنة .

والثالث : أنهم أطاعوا الشيطان في عبادة الأوثان حتى جعلوها شركاء لله في

العبادة ، قاله الحسن ، والزجاج .

﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه خلقهم بلا شريك [له] ، فَلِمَ جعلوا له في العبادة شريكاً ؟ .

والثاني : أنه خلق من جعلوه شريكاً فكيف صار في العبادة شريكاً .

(١٥٣) وهي قراءة خلف أيضاً راجع المبسوط في القراءات العشر ص ١٩٩ .

(١٥٤) وقد اختار قراءة الضم وقال (٥٧٩ / ١١) وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأ

« أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ » بضم الثاء والميم ، ثم شرع يؤيد ما ذهب إليه فراجعه .

وقرأ يحيى بن يعمر ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ بتسكين اللام ، ومعناه أنهم جعلوا خلقهم الذي صنعوه بأيديهم من الأصنام لله شريكاً .

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في خرقوا قراءتان بالتخفيف والتشديد^(١٥٥) ، وفيه قولان :

أحدهما : أن معنى خرقوا كذبوا ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن زيد .

والثاني : معناه وخلقوا له بنين وبنات ، والخلق والخرق واحد ، قاله الفراء .

والقول الثاني : أن معنى القراءتين مختلف ، وفي اختلافهما قولان :

أحدهما : أنها بالتشديد على التكثير .

والثاني : أن معناها بالتخفيف كذبوا ، وبالتشديد اختلفوا .

والبنون قول النصارى في المسيح أنه ابن الله ، وقول اليهود أن عزيزاً ابن

الله .

والبنات قول مشركي العرب في الملائكة أنهم بنات الله .

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بغير علم منهم أن له بنين وبنات .

والثاني : بغير حجة تدلهم على أن له بنين وبنات .

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

قوله عز وجل : ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فيه لأهل التأويل

خمسة أقاويل :

(١٥٥) هي قراءة أبي جعفر ونافع كما في المبسوط . ص ١٩٩ .

أحدها : معناه لا تحيط به الأبصار ، وهو يحيط بالأبصار ، واعتل قائل هذا بقوله : ﴿ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ فوصف الله الغرق بأنه أدرك فرعون ، وليس الغرق موصوفاً بالرؤية ، كذلك الإدراك هنا ، وليس ذلك بمانع من الرؤية (١٥٦) بالإبصار ، غير أن هذا اللفظ لا يقتضيه وإن دل عليه قوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ .

والقول الثاني : معناه لا تراه الأبصار وهو يرى الأبصار (١٥٧) ، واعتل قائلو ذلك بأمرين :

أحدهما : أن الأبصار ترى ما بينها ولا ترى ما لاصقها ، وما بين البصر فلا بد أن يكون بينهما فضاء ، فلو رآته الأبصار لكان محدوداً ولخلا منه مكان (١٥٨) ، وهذه صفات الأجسام التي يجوز عليها الزيادة والنقصان .

والثاني : أن الأبصار تدرك الألوان كما أن السمع يدرك الأصوات ، فلما امتنع أن يكون ذا لون امتنع أن يكون مرئياً ، كما أن ما امتنع أن يكون ذا صوت امتنع أن يكون مسموعاً .

والقول الثالث : لا تدركه أبصار الخلق في الدنيا بدليل قوله : ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ وتدركه في الآخرة بدليل قوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٣] وهو يدرك الأبصار في الدنيا والآخرة .

والرابع : لا تدركه أبصار الظالمين في الدنيا والآخرة ، وتدركه أبصار المؤمنين ، وهو يدرك الأبصار في الدنيا والآخرة ، لأن الإدراك له كرامة تنتفي عن أهل المعاصي .

(١٥٦) والأولى أن يقال إن الإدراك هو الرؤيا على جهة الإحاطة فهذه هي التي نفاها الرب تبارك وتعالى هنا فهو سبحانه يرى ولكن لا يحاط به بصر كما أن العباد يعلمونه ولا يحيطون به علماً وقد فرق الله تعالى بين الإدراك والرؤية فقال « فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون » راجع تفسير الطبري (١٤/ ١٠ ، ١٢) .

(١٥٧) وهذا القول كله منقول من الطبري (١٦/ ١٢ ، ١٧) .

(١٥٨) وهذه في الحقيقة فلسفة عقيمة ولولوات لا طائل تحتها وكلها طريقة أهل الكلام المذمومة الذين أعرضوا عن الأدلة النقلية وركنوا إلى العقول واعتمدوا عليها كأصول يأخذون منها العقيدة وردوا كثيراً من الأحاديث بسبب هذا الأصل الذي اعتمدوه .

والقول الخامس : أن الأبصار لا تدركه في الدنيا والآخرة ، ولكن الله يحدث لأوليائه حاسة سادسة سوى حواسهم الخمس يرونها بها ، اعتيلاً بأن الله أخبر برؤيته ، فلو جاز أن يُرى في الآخرة بهذه الأبصار وإن زيد في قواها جاز أن يرى بها في الدنيا وإن ضعفت قواها بأضعف من رؤية الآخرة ، لأن ما خُلق لإدراك شيء لا يُعَدُّ إدراكه ، وإنما يختلف الإدراك بحسب اختلاف القوة والضعف ، فلما كان هذا مانعاً من الإدراك - وقد أخبر الله تعالى بإدراكه - اقتضى أن يكون ما أخبر به حقاً لا يدفع بالشبه ، وذلك بخلق حاسة أخرى يقع بها الإدراك .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ فاحتمل وجهين من التأويل :

أحدهما : لطيف بعباده في الإنعام عليهم ، خبير بمصالحهم .

والثاني : لطيف في التدبير خبير بالحكمة .

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يتلو بعضها بعضاً فلا ينقطع التنزيل .

والثاني : أن الآية تنصرف في معان متغايرة مبالغة في الإعجاز ومباينة لكلام

البشر .

والثالث : أنه اختلاف ما تضمنها من الوعد والوعيد والأمر والنهي ، ليكون

أبلغ في الزجر ، وأدعى إلى الإجابة ، وأجمع للمصلحة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ وفي الكلام حذف ، وتقديره : ولئلا

يقولوا درست ، فحذف ذلك إيجازاً كقوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَصَلُّوا ﴾

[النساء : ١٦٧] أي لئلا تصلوا .

وفي ﴿ دَرَسْتَ ﴾ خمس قراءات يختلف تأويلها بحسب اختلافها :

إحداهن : ﴿ دَرَسَتْ ﴾ بمعنى قرأت (١٥٩) وتعلمت ، تقول ذلك قريش للنبي ﷺ ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي .

والثانية : ﴿ دَارَسَتْ ﴾ بمعنى ذاكرت وقارات ، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومروي عن ابن عباس ، وهي قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو .

وفيها على هذه القراءة تأويل ثانٍ : أنها بمعنى خاصمت وجادلت .

والثالثة : ﴿ دَرَسَتْ ﴾ بتسكين التاء (١٦٠) بمعنى انمحت وتقادمت ، قاله ابن الزبير ، والحسن ، وهي قراءة ابن عامر .

والرابعة : ﴿ دُرِسَتْ ﴾ بضم الدال (١٦١) لما لم يسم فاعله تليت وقرئت ، قاله قتادة .

والخامسة : ﴿ دَرَسَ ﴾ بمعنى قرأ (١٦٢) النبي ﷺ وتلا ، وهذا حرف أبي بن كعب ، وابن مسعود (١٦٣) .

﴿ وَلَنُبَيِّنَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لقوم يعقلون .

والثاني : يعلمون وجوه البيان وإن لم يعلموا المبين .

أَتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا

(١٥٩) وهي قراءة نافع وابن جعفر وعاصم وخلف بجزم السين وفتح التاء المبسوطة ص ٢٠٠ .

(١٦٠) وهي قراءة يعقوب ص ٢٠٠ .

(١٦١) وهي قراءة ابن يعمر كما في زاد المسير (١٠١/٣) .

(١٦٢) وفيها قراءة أخرى برفع الدال وكسر الراء وتشديدها ساكنة السين هكذا دُرِسَتْ وهي قراءة معاذ القاري وأبي العالية زاد المسير (١٠١/٣) .

(١٦٣) وزاد ابن الجوزي في زاد المسير (١٠١/٣) طلحة بن مصرف وقال وروى عصمة عن الأعمش « دارس » بألف .

لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني اعتداء ، وقرأ أهل مكة عَدْوًا^(١٦٤) بالتشديد بمعنى أنهم اتخذوه عَدْوًا . وفيه قولان :

أحدهما : لا تسبوا الأصنام فتسب عبدة الأصنام من يسبها ، قاله السدي .
والثاني : لا تسبوها فيحملهم الغيظ والجهل على أن يسبوا من تعبدون كما سببتم ما يعبدون .

﴿ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : كما زينا لكم فعل ما أمرناكم به من الطاعات كذلك زينا لمن تقدم من المؤمنين فعل ما أمرناهم به من الطاعات ، قاله الحسن .

والثاني : كذلك شبهنا لكل أهل دين عملهم بالشبهات ابتلاء لهم حتى قادم الهوى إليها وعموا عن الرشد فيها .

والثالث : كما أوضحنا لكم الحجج الدالة على الحق كذلك أوضحنا لمن قبلكم من حجج الحق مثل ما أوضحنا لكم .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنْذِرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ هؤلاء قوم من مشركي أهل مكة حلفوا بالله لرسوله ﷺ لئن جاءتهم آية اقترحوا ليؤمنن بها ، قال ابن جريج : هم المستهزون .
واختلف في الآية التي اقترحوها على ثلاثة أقاويل :

(١٦٤) وهي قراءة بضم العين والبدال وتشديد الواو « عَدْوًا » وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وقتادة كما في المبسوط للأصبهاني ص ٢٠٠ .

أحدها : أن تجعل لنا الصفا ذهباً .

والثاني : ما ذكره الله في آخر : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَافاً ﴾ إلى قوله : ﴿ كِتَاباً نَقْرُؤُهُ ﴾ فأمر الله نبيه حين أفسموا له أن يقول لهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

والثالث : أنه لما نزل قوله تعالى في الشعراء : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ قال المشركون : أنزلها علينا حتى نؤمن بها إن كنت من الصادقين ، فقال المؤمنون : يا رسول الله أنزلها عليهم ليؤمنوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، قاله الكلبي :

وليس يجب على الله إجابتهم إلى اقتراحهم لا سيما إذا علم أنهم لا يؤمنون بها ، واختلف في وجوبها عليه إذا علم إيمانهم بها على قولين^(١٦٥) وقد أخبر أنهم لا يؤمنون بقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْسِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وهذا من الله عقوبة لهم ، وفيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها عقوبة من الله في الآخرة يقلبها في النار .

والثاني : في الدنيا بالحيرة حتى يزجج النفس ويغمها .

والثالث : معناه أننا نحيط علماً بذات الصدور وخاتمة الأعين منهم .

وفي قوله : ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ تاويلان :

أحدهما : أول مرة جاءتهم الآيات .

والثاني : أن الأول أحوالهم في الدنيا كلها ، ثم أكد الله تعالى حال عنتهم .

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

(١٦٥) والصواب أنه لا يجب على الرب شيء إلا ما أوجبه على ذاته هو تفضلاً منه وإحساناً .

فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ فيه قراءتان:

إحدهما: ﴿قُبُلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، قرأ بها نافع، وابن عامر، ومعنى ذلك معاناة ومجاهرة، قاله ابن عباس وقتادة.

والقراءة الثانية: بضم القاف والباء وهي قراءة الباقيين، وفي تأويلها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن القُبل جمع قبيل وهو الكفيل، فيكون معنى ﴿قُبُلًا﴾ أي كُفلاء.

والثاني: أن معنى ذلك قبيلة قبيلة وصفاً صفاً، قاله مجاهد.

والثالث: معناه مقابلة، قاله ابن زيد، وابن إسحاق.

ثم قال: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ يعني بهذه الآيات مع ما اقترحوها من قبل.

ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن يعينهم عليه.

والثاني: إلا أن يشاء أن يجبرهم عليه، قاله الحسن البصري.

ثم قال: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يجهلون فيما يقترحونه من الآيات.

والثاني: يجهلون أنهم لو أجيبوا إلى ما اقترحوا لم يؤمنوا طوعاً.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى

بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفْعِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا

هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي جعلنا للأنبياء أعداء كما

جعلنا لغيرهم من الناس أعداء.

وفي ﴿جَعَلْنَا﴾ وجهان:

أحدهما: معناه حكمتنا بأنهم أعداء (١٦٦).

والثاني: معناه تركناهم على العداوة، فلم نمنعهم منها.

وفي ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها: يعني شياطين الإنس الذين مع الإنس، وشياطين الجن الذين مع الجن، قاله عكرمة، والسدي (١٦٧).

والثاني: شياطين الإنس كفارهم، وشياطين الجن كفارهم، قاله مجاهد.

والثالث: أن شياطين الإنس والجن مردتهم، قاله الحسن، وقتادة.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ في يوحى ثلاثة أوجه:

أحدها: يعني يوسوس بعضهم بعضاً.

والثاني: يشير بعضهم إلى بعض، فعبر عن الإشارة بالوحي كقوله:

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

و﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ﴾ ما زينوه لهم من الشبه في الكفر وارتكاب المعاصي.

والثالث: يأمر بعضهم بعضاً كقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:

١٢] أي أمر..

ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: ما فعلوه من الكفر.

والثاني: ما فعلوا من زخرف القول.

وفي تركهم على ذلك قولان:

أحدهما: ابتلاء لهم وتمييزاً للمؤمنين منهم.

والثاني: لا يلجئهم إلى الإيمان فيزول التكليف.

(١٦٦) وهذا القول من تأويلات المعتزلة وكذا الثاني والصواب أن الآية حجة لأهل السنة في أن الله تعالى خالق

الشر كما أنه خالق الخير وأن الشر في مفعولاته لا في أفعاله إنما سمي الشر شراً لانقطاع نسبته إليه

راجع شفاء العليل ص ١٧٨ وما بعدها وروح المعاني (٥٢٤/٨).

(١٦٧) وقد تعقب هذا القول العلامة ابن جرير (٥٢/١٢) وقال: وليس لهذا التأويل وجه مفهوم ثم شرع في الرد

عليه.

قوله عز وجل: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي تميل إليه قلوبهم، والإصغاء: الميل، قال الشاعر: (١٦٨)

ترى السفيه به عن كل محكمة زينغ وفيه إلى التشبيه إصغاء
وتقدير الكلام: يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ليغروهم
ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، وقال قوم: بل هي لام أمر ومعناها
الخبر.

﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأن من مآل قلبه إلى شيء رضى به وإن لم يكن مرضياً.

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: وليكتسبوا من الشرك والمعاصي ما هم مكتسبون، قاله جوير.

والثاني: وليكذبوا على الله ورسوله ما هم كاذبون، وهو محتمل.

أَفْغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ
ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ
﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

قوله عز وجل: ﴿أَفْغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: معناه هل يجوز لأحد أن يعدل عن حكم الله حتى يعدل عنه.

والثاني: هل يجوز لأحد أن يحكم مع الله حتى أحكم إليه.

والفرق بين الحكم والحاكم، أن الحكم هو الذي يكون أهلاً للحكم فلا يحكم
إلا بحق، والحاكم قد يكون من غير أهله فيحكم بغير حق، فصار الحكم من صفات
ذاته، والحاكم من صفات فعله، فكان الحكم أبلغ في المدح من الحاكم.

(١٦٨) الطبري (٥٨/١٢) والقرطبي (٦٩/٧) واللسان (صفا) وتفسير ابن حبان (٢٠٥/٤) وفي القرطبي
واللسان وعن كل مكربة، وقال محقق الطبري والصواب ما في ابن جرير.

ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ في المفصل أربعة تأويلات:

أحدها: تفصيل آياته لتبيان معانيه فلا تُشْكِل.

والثاني: تفصيل الصادق من الكاذب.

والثالث: تفصيل الحق من الباطل، والهدى من الضلال، قاله الحسن.

والرابع: تفصيل الأمر من النهي، والمستحب من المحذور، والحلال من الحرام.

وسبب نزول هذه الآية أن مشركي قريش قالوا للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَمًا إن شئت من أحبار اليهود وإن شئت من أحبار النصارى، ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك، فنزلت عليه هذه الآية.

قوله عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ يعني القرآن، وفي تمامه أربعة أوجه محتملة:

أحدها: تمام حُجَجِهِ ودلائله.

والثاني: تمام أحكامه وأوامره.

والثالث: تمام إنذاره بالوعد والوعيد.

والرابع: تمام كلامه واستكمال صورته.

وفي قوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ وجهان:

أحدهما: صدقاً في وعده ووعده، وعدلاً في أمره ونهيه، قاله ابن بحر.

والثاني: صدقاً فيما حكاه، عدلاً فيما قضاه، وهو معنى قول قتادة.

وقد مضى تفسير ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾.

وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْهُ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا

حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطَرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ فيه أربعة تأويلات.

أحدها: سره وعلانيته، قاله مجاهد، وقتادة.

والثاني: ظاهر الإثم: ما حرم من نكاح ذوات المحارم بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...﴾ الآية. وباطنه الزنى، قاله سعيد بن جبير.

والثالث: أن ظاهر الإثم أولات الرايات^(١٦٩) من الزواني، والباطن ذوات الأخدان، لأنهن كن يستحللنه سرا، قاله السدي، والضحاك.

والرابع: أن ظاهر الإثم العرية^(١٧٠) التي كانوا يعملون بها حين يطوفون بالبيت عرا، وباطنه الزنى، قاله ابن زيد.

ويحتمل خامساً: أن ظاهر الإثم ما يفعله بالجوارح، وباطنه ما يعتقده بالقلب.

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فيه أربعة تأويلات:

أحدها: المراد بها ذبائح كانت العرب تذبيحها لأوثانها، قاله عطاء.

والثاني: أنها الميتة، قاله ابن عباس.

والثالث: أنه صيد المشركين الذين لا يذكرون اسم الله، ولا هم من أهل التسمية، يحرم على المسلمين أن يأكلوه حتى يكونوا هم الذين صادوه، حكاه ابن بحر.

(١٦٩) وأولات الرايات هن البغايا اللاتي كن في الجاهلية يضعن الرايات على بيوتهن يعرفن بها أنهن زواني حتى يرتكب الرجال معهن الفحشاء.

(١٧٠) وضبطها القرطبي بضم العين وسكون الراء مصدر «عرى يعرى عرياً وعرية».

والرابع : أنه ما لم يُسَمَّ الله عند ذبحه .

وفي تحريم أكله ثلاثة أقاويل :

أحدها : لا يحرم [سواء] تركها عامداً أو ناسياً، قاله الحسن، والشافعي .

والثاني : يحرم إن تركها عامداً، ولا يحرم إن تركها ناسياً، قاله أبو حنيفة .

والثالث : يحرم سواء تركها عامداً أو ناسياً، قاله ابن سيرين، وداود .

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أن المراد به المعصية، قاله ابن عباس .

والثاني : المراد به الإثم .

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يعني المجادلة في الذبيحة،

وفيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه عني بالشياطين قوماً من أهل فارس كتبوا إلى أوليائهم من قريش أن

محمدأ وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ولا يأكلون ما ذبح الله يعني الميتة،

ويأكلون ما ذبحوه لأنفسهم، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية، قاله عكرمة .

والثاني : أن الشياطين قالوا ذلك لأوليائهم من قريش، قاله ابن عباس .

والثالث : أن قوماً من اليهود قالوا ذلك للنبي ﷺ، وهذا مروى عن ابن عباس .

وفي وحيهم إليهم وجهان :

أحدهما : أنها إشارتهم .

والثاني : رسالتهم .

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ يعني في أكل الميتة، إنكم لمشركون إن

استحللتموها (١٧١) :

أَوْ مَنْ كَانَ مِيَّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي

الْأُظْلَمَتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

(١٧١) قال العلامة الألوسي (١٧/٨) قوله «إن أطعتموهم» في استحلالات الحرام «إنكم لمشركون» ضرورة أن من

ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره واستحل الحرام واتبعه في دينه فقد أشركه به تعالى بل أثره عليه

سبحانه .

قوله عز وجل: ﴿أَوْ مِّنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: كان ميتاً حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح [فيه]، حكاه ابن بحر.

والثاني: كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالهداية إلى الإيمان، حكاه ابن عيسى.

والثالث: كان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم، أنشدني بعض أهل العلم ما يدل

على صحة هذا التأويل لبعض شعراء البصرة.

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرءاً لم يحيى بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور

﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن النور القرآن، قاله الحسن.

والثاني: أنه العلم الذي يهدي إلى الرشد.

والثالث: أنه حُسْنُ الإيمان.

وقوله: ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: ينشر به ذكر دينه بين الناس في الدنيا حتى يصير كالماشي.

والثاني: يهتدي به بين الناس إلى الجنة فيكون هو الماشي.

﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن الظلمات الكفر.

والثاني: الجهل، وشبهه بالظلمة لأن صاحبه في حيرة تفضي به إلى الهلكة

كحيرة الماشي في الظلمة.

واختلفوا في هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها على العموم في كل مؤمن وكافر، قاله الحسن وغيره من أهل

العلم.

والثاني: أنها على الخصوص في مُعَيَّن.

وفيمن تعين نزول ذلك فيه قولان:

أحدهما: أن المؤمن عمر بن الخطاب، والكافر أبو جهل، قاله الضحاك،

ومقاتل.

والثاني : أن المؤمن عمار بن ياسر، والكافر أبو جهل، قاله عكرمة، والكلبي .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمَّكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله عز وجل : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ يعني علامة تدل على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته .

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لن نؤمن بالآية .

والثاني : لن نؤمن بالنبي ﷺ .

﴿حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : مثل ما أُوتِيَ رسل الله من الكرامة .

الثاني : مثل ما أُوتوا من النبوة .

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ قصد بذلك أمرين :

أحدهما : تفرد الله تعالى بعلم المصلحة فيمن يستحق الرسالة .

والثاني : الرد عليهم في سؤال ما لا يستحقونه، والمنع مما لا يجوز أن يسألوه .

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الصَّغَارُ: الذل سمي صَغَاراً لأنه يصغر إلى الإنسان نفسه .

وفي قوله : ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : من عند الله، فحذف «من» إيجازاً .

والثاني : أن أنفثهم من اتباع الحق صَغَارَ عند الله وذل إن كان عندهم تكبراً وعزاً، قاله الفراء .

والثالث : صَغَارٌ في الآخرة، قاله الزجاج .

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ
صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يهديه إلى نيل الثواب واستحقاق الكرامة.

والثاني: يهديه إلى الدلائل المؤدية إلى الحق.

﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يعني بشرح الصدر سعته لدخول الإسلام إليه وثبوته

فيه كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. [الشرح: ١].

روى عمرو بن مرة عن أبي جعفر قال^(١٧٢): سئل رسول الله ﷺ أي المؤمنين

أكيس؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا».

قال: وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ

لِلْإِسْلَامِ﴾، قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: «نُورٌ يُقَذَّفُ فَيَنْشَرُ لَهُ

وَيَنْفَسُخُ» قالوا: فهل لذلك أمانة يُعَرَفُ بها؟ قال: «الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالتَّجَافِي

عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْمَوْتِ»، وروى ابن مسعود مثل

ذلك^(١٧٣).

ثم قال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يضلّه عن الهداية إلى الحق.

والثاني: عن نيل الثواب واستحقاق الكرامة.

(١٧٢) رواه الطبري برقم ١٣٨٥٥ وسنده ضعيف جداً من أجل ابن جعفر واسمه عبد الله بن المسور قال الإمام

أحمد فيه يضع ويكذب وضعفه أبو حاتم راجع الميزان (٧٨/٢) والجرح والتعديل (١٦٩/٢/٢) وقد
ورد الحديث بنحوه من حديث ابن عمر ورواه ابن ماجه (٤٢٥٩) وسنده ضعيف أيضاً ومن حديث
أنس بن مالك أخرجه رزين كما في جامع الأصول لابن الأثير (٦٩٥/١١).

(١٧٣) رواه ابن جرير (١٣٨٥٥) والحاكم (٣١١/٤) وزاد السيوطي في الدرر (٣٥٥/٣) نسبه لابن أبي شيبة

وابن أبي الدنيا وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن مسعود رضي الله عنه
واسناد الطبري ضعيفان ففي الأول انقطاع وفي الثاني ضعيف راجع ما كتب في الحاشية (٩٩/١٢)،

(١٠٢) الطبري.

﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾ يعني ضيقاً لا يتسع لدخول الإسلام .
﴿حَرَجًا﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يكون شديد الصلابة حتى لا يثبت فيه شيء .

والثاني : شديد الضيق حتى لا يدخله شيء .

والثالث : أن موضعه مُبَيِّضٌ^(١٧٤) .

﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : كأنه كُلف الصعود إلى السماء في امتناعه عليه وبعده منه .

والثاني : كأنه لا يجد مسلكاً لضيق المسالك عليه إلا صعوداً في السماء يعجز

عنه .

والثالث : كأنه قلبه بالنبو عنه والنفور منه صاعداً إلى السماء .

والرابع : كأن قلبه يصعد إلى السماء بمشقة عليه وصعوبته عنده .

ثم قال تعالى ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٧٥) في

الرجس خمسة تأويلات :

أحدها : أنه ما لا خير فيه ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه العذاب ، قاله ابن زيد .

والثالث : السخط ، قاله ابن بحر .

والرابع : أنه الشيطان ، قاله ابن عباس .

والخامس : أن الرجس والنجس واحد ، وهو قول بعض نحويي الكوفة ، وحكاه

علي بن عيسى .

وقد روى قتادة عن أنس عن النبي ﷺ^(١٧٦) أنه كان إذا دخل الخلاء قال :

(١٧٤) وفي نسخة والثالث أي شديد لا يثبت فيه «بدلاً من أن موضعه مبيض» .

(١٧٥) قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله في زاد المسير (١٢١/٣) وهذه الآية تقطع كلام القدرية إذ قد صرح بآن الهداية والاضلال متعلقة بإرادة الله تعالى .

(١٧٦) رواه الطبري (١١٢/١٢) وابن السني ص ٩ وفيه عنده الحسن ورواه ابن ماجه (٢٩٩) من حديث أبي أمامة وفي سننه عبيد الله بن زهر وهو صدوق يخطيء وعلي بن يزيد الألهماني وهو ضعيف ورواه ابن السني ص ١١ من حديث ابن عمر وفي سننه حبان بن علي العنزي وإسماعيل بن رافع وفيهما ضعف وللحديث شواهد كما قدم الحافظ ابن حجر راجع شرح ابن علان للأذكار .

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الرَّجْسِ وَالنَّجَسِ الْهَيْثِ الْخَبِيثِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» .
 وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ هُمْ دَارُ
 السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ قد ذكرنا أن الصراط هو الطريق، ومنه قول عامر بن الطفيل (*) :

شحننا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذل من الصراط
 وفيه ما هنا قولان :

أحدهما : يريد أن الإسلام هو الصراط المستقيم إلى الله تعالى، قاله الكلبي .
 والثاني : يريد أن ما في القرآن من البيان هو الصراط المستقيم .
 ﴿قَدْ فَضَّلْنَا﴾ يحتمل وجهين :
 أحدهما : بينا .
 والثاني : ميزنا .

قوله عز وجل: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وهي الجنة، وفي تسميتها دار السلام وجهان :

أحدهما : لأنها دار السلامة الدائمة من كل آفة، قاله الزجاج .
 والثاني : أن السلام هو الله، والجنة داره، فلذلك سُمِّيَتْ دار السلام، وهذا معنى قول الحسن، والسدي .
 وفي قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وجهان :

أحدهما : أن دار السلام عند ربهم في الآخرة لأنها أخص به .
 والثاني : معناه أن لهم عند ربهم أن ينزلهم دار السلام .
 ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يحتمل وجهين :
 أحدهما : وهو ناصرهم في الدنيا على إيمانهم .
 والثاني : وهو المتولي لثوابهم في الآخرة على أعمالهم .

(*) تقدم تخريج هذا البيت وسيأتي عدة مرات .

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ
أُولِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ
لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني يحشر الجن والإنس جميعاً يوم
القيامة.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: قد استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم، قاله ابن عباس، والحسن،
وقتادة، ومجاهد.

والثاني: قد استكثرتم من الإنس بإغوائكم لهم.

﴿وَقَالَ أُولِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: معناه استمتع بعضنا بصحبة بعض في التعاون والتعاقد.

والثاني: استمتع بعضنا ببعض فيما زينوه من اتباع الأهواء وارتكاب المعاصي.

والثالث: أن الاستمتاع بهم ما كانوا عليه من التعوذ بهم كقوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ
رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾، قاله الحسن، وابن جريج.

ثم فيه وجهان:

أحدهما: أنه استمتع الإنس بالجن.

والثاني: أنه استمتع الإنس بعضهم ببعض.

وفيه وجه ثالث: أن الإنس استمتعوا بالجن، والجن استمتعوا بالإنس في

اعتقادهم أنهم يقدرُونَ على النفع.

﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه الموت، قاله الحسن، والسدي.

والثاني: الحشر.

﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ أي منزل إقامتكم، لأن المَثْوَى الإقامة، ومنه قول الشاعر:

لقد كان في حول ثواء ثويته تقضي لبانات وتسأم سائم

﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ في ﴿إِلَّا﴾ في هذا الموضوع ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها بمعنى لكن، قاله سيبويه.

والثاني: أنها بمعنى سوى، قاله الفراء.

والثالث: أنها مستعملة على حقيقتها، وهو قول الجمهور.

وفي هذا الاستثناء^(١٧٧) ثلاثة أقاويل.

أحدها: أن مدة الاستثناء هي مدة العرض في القيامة وذلك ما بين بعثهم من قبورهم إلى حين مصيرهم إلى جهنم، فكأنه قال: النار مثواكم خالدين فيها إلا هذه المدة التي ذكرها، فإنهم فيها غير خالدين في النار^(١٧٨).

والثاني: معناه خالدين فيها إلا ما شاء الله من تجديد جلودهم بعد إحراقها وتصريفهم في أنواع العذاب أو تركهم فيها على حالتهم الأولى، فيكون الاستثناء في صفة العذاب لا في الخلود في النار^(١٧٩).

والثالث: أنه جعل أمرهم في مبلغ عذابهم ومدته إلى مشيئته تعالى، قاله ابن عباس، قال: ولا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا يترلهم جنة ولا ناراً.

وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ فيه خمسة تأويلات:

أحدها: معناه وكذلك نكل بعضهم إلى بعض، فلا نعينهم، ومن سلب معونة الله كان هالكا.

(١٧٧) أقول وقد ثبت خلود الكفار في النار خلوداً قطعياً وأما الاستثناء في هذه الآية هنا وفي سورة هود فقد اختلف فيه العلماء وحكى هنا الماوردي بعض الأقوال وليس كلها وبقيتها عند ابن الجوزي في زاد المسير (٤/١٦٠) فذهب بعض المفسرين إلى أن الآية شاملة للكفار وعصاة الموحدين والمستثنى العصاة لأنهم لا يخلدون وهو قول ابن عباس والضحاك وقد سل الزمخشري سيف البغي والاعتزال وطعن في عبد الله بن عمرو بن العاص الذي روى الحديث المؤيد لذلك. ولكن العلامة ابن ناصر كثر على قوله وكذا الطيبي وأما الشوكاني رحمه الله فقد كال له الصاع بصاعين ولعلنا نوفق في بسط هذه المسألة في سورة هود فإلى هناك والله المستعان.

(١٧٨) وهذا القول هو قول أبي جعفر الطبري (١٢/١١٨).

(١٧٩) وقد مال إلى هذا القول الزمخشري في الكشاف (٢/٣٩) وتعقبه العلامة الطيبي كما حكاه الألوسي في روح المعاني (٨/١٤٣).

والثاني : وكذلك نجعل بعضهم لبعض ولياً على الكفر.

والثالث : وكذلك نولي بعضهم عذاب بعض في النار.

والرابع : معناه أن بعضهم يتبع بعضاً في النار من الموالاة وهي المتابعة، قاله

قتادة .

والخامس : تسليط بعضهم على بعض بالظلم والتعدي، قاله ابن زيد .

يَمَعَّشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلْمَيَاتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾

قوله عز وجل : ﴿يَا مَعَّشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ المعشر : الجماعة التامة من القوم

التي تشتمل على أصناف الطوائف، ومنه قيل للعشرة لأنها تمام العقد .

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ اختلفوا في الرسالة إلى الجن

على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الله بعث إلى الجن رسلاً منهم، كما بعث إلى الإنس رسلاً منهم،

قاله الضحاك وهو ظاهر الكلام .

والثاني : أن الله لم يبعث إليهم رسلاً منهم، وإنما جاءتهم رسل الإنس، قاله

ابن جريج، والفراء، والزجاج، ولا يكون الجمع في قوله : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ﴾

مانعاً من أن يكون الرسل من أحد الفريقين، كقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُو

وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن : ٢٢] وإنما هو خارج من أحدهما .

والثالث : أن رسل الجن هم الذين لما سمعوا القرآن ﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ

مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٢٩]، قاله ابن عباس .

وفي دخولهم الجنة قولان :

أحدهما : قاله الضحاك (١٨٠) .

(١٨٠) وقول الضحاك نصه الجنة يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون كما أورده السيوطي في الدر (٣/٣٦٠)

ونسبه لابن المنذر وإبي الشيخ في العظمة ولعل قول الضحاك سقط من النسخ .

والثاني: أن ثوابهم أن يجاروا من النار، ثم يُقال لهم كونوا تراباً كالبهائم، حكاه سفيان عن ليث (١٨١).

﴿وَيُنذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: ينذرونكم خذلان بعضكم لبعض وتبرؤ بعضكم من بعض في يوم القيامة.

والثاني: ينذرونكم ما تلقونه فيه من العذاب على الكفر، والعقاب على المعاصي.

﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: إقرارهم على أنفسهم بأن الرسل قد أنذروهم.

والثاني: شهادة بعضهم على بعض بإنذار الرسل لهم.

﴿وَوَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: وغرتهم زينة الحياة الدنيا.

والثاني: وغرتهم الرياسة في الدنيا.

ويحتمل ثالثاً: وغرتهم حياتهم في الدنيا حين أمهلوا.

﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ وفي هذه الشهادة أيضاً الوجهان المحتملان (١٨٢) إلا

أن تلك شهادة بالإنذار وهذا بالكفر.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ

دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ فيه

وجهان:

(١٨١) ولا شك أن قول الضحاك أرجح لأدلة كثيرة منها قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ولكل درجات مما عملوا

وما ربك بغافل عما يعملون﴾ فظاهرها يدل على أن المطيع من الجن له الجنة والمعاصي في النار

وكذلك قوله في سورة الرحمن والخطاب كان للأنس والجن ﴿ولمن خاف مقام ربه جتان﴾ راجع فتح

القدير (١٦٣/٢).

(١٨٢) يعني اللذين تقدما.

أحدهما: وما كان ربك مهلك القرى بظلم منه ولكن بحق استوجبوا به الهلكة، وهو معنى قول مقاتل.

والثاني: وما كان ربك مهلك القرى بظلم أهلها حتى يقدم إنذارهم ويرفع أعذارهم ويخرجوا من حكم الغافلين فيما ينزل بهم، وهو معنى قول مجاهد.

قوله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ معناه ولكل عامل بطاعة الله أو معصيته درجات، يعني منازل، وإنما سُميت درجات لتفاضلها كتفاضل الدَرَج في الارتفاع والانحطاط.

وفيها وجهان:

أحدهما: أن المقصود بها الأعمال المتفاضلة.

والثاني: أن المقصود بها الجزاء المتفاضل.

ويحتمل هذا التفضيل بالدرجات على أهل الجنة وأهل النار، لأن أهل النار يتفاضلون في العقاب بحسب تفاضلهم في السيئات، كما يتفاضل أهل الجنة في الثواب لتفاضلهم في الحسنات، لكن قد يعبر عن تفاضل أهل الجنة بالدرج، وعن تفاضل أهل النار بالدرك، فإذا جمع بينهما بالتفاضل عبر عن تفاضلهما بالدرج تغليبا لصفة أهل الجنة.

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ﴾ فيه خمسة تأويلات:

أحدها: على طريقتكم.

والثاني: على حالتكم.

والثالث: على ناحيتكم، قاله ابن عباس، والحسن.

والرابع: على تمكنتكم، قاله الزجاج.

والخامس: على منازلكم، قاله الكلبي.

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ يعني أُنذركم من جزاء المطيع بالثواب، والعاصي بالعقاب.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: تعلمون ثواب الآخرة بالإيمان، وعقابها بالكفر ترغيباً منه في ثوابه وتحذيراً من عقابه.

والثاني: تعلمون نصر الله في الدنيا لأوليائه، وخذلانه لأعدائه، قاله ابن بحر.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾.

﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ مما خلق، مأخوذ من الظهور، ومنه قيل ملح ذُرَّ أي لبياضه، وقيل لظهور الشيب ذُرَّةً، والحرث: الزرع، والأنعام: لإبل والبقر والغنم، مأخوذ من نعمة الوطاء.

وهذا إخبار منه عن كفار قريش ومن تابعهم من مشركي العرب، كانوا يجعلون لله في زروعهم ومواشيهم نصيباً، ولأوثانهم وأصنامهم نصيباً، فجعل الله أوثانهم شركاءهم؛ لأنهم قد أشركوهم في أموالهم بالنصيب الذي قد جعلوه فيها لهم، ونصيبهم في الزرع جزء منها يجعلونه مصروفاً في النفقة عليها وعلى خدامها. وفي نصيبهم من الأنعام ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه كنصيبهم من الزرع مصروف في النفقة عليها وعلى خدامها.

والثاني: أنه قربان لأوثانهم كانوا يتقربون به إليها.

والثالث: أنه البحرية، والسائبة، والوصيلة، والحام.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ فاختلف أهل التأويل في المراد بذلك على أربعة أوجه:

أحدها: أنه كان إذا اختلط بأموالهم شيء مما جعلوه لأوثانهم ردوه، وإذا اختلط بها ما جعلوه لله لم يردوه، قاله ابن عباس، وقتادة.

والثاني: أنه كان إذا هلك ما لأوثانهم غرموه، وإذا هلك ما لله لم يغرموه، قاله الحسن، والسدي.

والثالث: أنهم كانوا يصرفون بعض ما جعلوه لله في النفقة على أوثانهم ولا يفعلون مثل ذلك فيما جعلوه لأوثانهم، قاله بعض المتأخرين.

والرابع: أن كل شيء جعلوه لله من ذبائحهم لم يأكلوه حتى يذكروا عليه اسم أوثانهم، ولا يذكرون اسم الله فيما جعلوه لأوثانهم، قاله ابن زيد.

وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ^ط وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ﴾ أما شركائهم ها هنا ففيهم أربعة أقاويل:

أحدها: الشياطين، قاله الحسن، ومجاهد، والسدي.

والثاني: أنهم قوم كانوا يخدمون الأوثان، قاله الفراء، والزجاج.

والثالث: أنهم شركائهم في الشرك، قاله قتادة.

والرابع: أنهم الغواة من الناس.

وفي الذي زينوه لهم من قتل أولادهم قولان:

أحدهما: أنه كان أحدهم يحلف إن ولد له كذا وكذا غلام أن ينحر أحدهم كما

(١٨٣) ورجحه ابن جرير (١٣٤/١٢) وذهب إليه الشوكاني (١٦٥/٢) فتح القدير واختاره ابن كثير راجع عمدة التفسير (١٠٨/٢).

حلف عبد المطلب في نحر ابنه عبدالله ، قاله الكلبي .

والثاني : أنه وأد البنات أحياء خيفة الفقر ، قاله مجاهد .

﴿لِيرُدُّوهُمْ﴾ أي ليهلكوهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾

[الليل : ١١] يعني إذا هلك .

وفي ذلك وجهان :

أحدهما : أنهم قصدوا أن يردوهم بذلك كما قصدوا إغواءهم .

والثاني : أنهم لم يقصدوا ذلك وإنما آل إليه (*) فصارت .

هذه لام العاقبة كقوله : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْنًا﴾

[القصص : ٨] لأن عاقبته صارت كذلك وإن لم يقصدوها .

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ
وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ



سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

قوله عز وجل : ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا﴾ أي ومنه قوله تعالى :

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان : ٢٢] أي حراماً محرماً ، قال الشاعر (١٨٤) :

فبت مرتفقاً والعين ساهرة كأن نومي عليّ الليل محجور

﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ قال الكلبي : جعلوها للرجال دون النساء .

وفي الأنعام والحرث التي قالوا إنه لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم قولان .

أحدهما : أن الأنعام التي يحكمون فيها بهذا الحكم عندهم هي البجيرة والهام

خاصة ، والحرث ما جعلوه لأوثانهم ، قاله الحسن ، ومجاهد .

والثاني : أن الأنعام هي ذبائح الأوثان ، والحرث ما جعلوه لها .

ثم قال تعالى : ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ فيها قولان :

(*) راجع ما كتبه العلامة ابن القيم في شفاء العليل حول هذه الآية .

(١٨٤) اللسان (رفق) وينسب هذا البيت لأعشى باهله .

أحدهما: أنها السائبة.

والثاني: أنها التي لا يحجون عليها، قاله أبو وائل.

﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ وهي قربان أوثانهم يذكرون عليها اسم الأوثان، ولا يذكرون عليها اسم الله تعالى.

﴿أَفْتَرَاءٌ عَلَيْهِ﴾ أي على الله وفيه قولان:

أحدهما: أن إضافتهم ذلك إلى الله هو الافتراء عليه.

والثاني: أن ذكرهم أسماء أوثانهم عند الذبيحة بدلاً من اسم الله هو الافتراء عليه.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾، قرأ الأعمش^(١٨٥) ﴿خَالِصٌ﴾، وفي ﴿خَالِصَةٌ﴾ وفي ﴿خَالِصٌ﴾ وجهان:

أحدهما: أن ﴿خَالِصَةٌ﴾ أبلغ من ﴿خَالِصٌ﴾ وإن كانت في معناه فدخلت الهاء للمبالغة كقولهم: علامة، ونسابة، قاله الكسائي.

والثاني: أن دخول الهاء يوجب عوده إلى الأنعام لتأنيثها، وحذف الهاء، يوجب عوده إلى ما في بطونها لتذكيره، قاله الفراء.

وفي ذلك ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن ما في بطونها الأجنة، قاله: مجاهد.

والثاني: الألبان، قاله قتادة.

(١٨٥) وهي قراءة ابن مسعود وأبي العالية والضحاك وابن أبي عبيدة وفيها قراءة ثالثة برفع الصاد والهاء على ضمير مذكر هكذا «خالصة» وهي قراءة ابن عباس وأبي رزين وعكرمة وابن يعمر وفيها قراءة أخرى بالنصب «خالصة» وهي قراءة قتادة راجع زاد المسير (٣/٣٦٧).

والثالث: الجميع: الأجنة والألبان، قاله مقاتل (١٨٦).

وفي جعلهم ذلك لذكورهم دون إناثهم وأزواجهم قولان:

أحدهما: لأن الذكور هم خدام الأوثان.

والثاني: تفضيلاً للذكور على الإناث.

وأصل الذكور من الذَّكَر، وفي أخذه من الذَّكَر وجهان:

أحدهما: لأنه المذكور بين الناس فكان أنبه ذكراً من الأنثى.

والثاني: لأنه أشرف، والذَّكَر هو الشرف، قاله الله تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي شرف.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا
أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ
إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ
﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ...﴾ أما

الجنات فهي البساتين يحفها الشجر، وأما الروضة فهي الخضراء بالنبات، وأما الزهرة
فهي باختلاف الألوان الحسنة.

وفي قوله: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ أربعة أقاويل:

أحدها: أنه تعريش الناس الكروم وغيرها، بأن ترفع أغصانها، قاله ابن عباس،

والسدي.

والثاني: أن تعريشها هو رفع حظارها وحيطانها.

(١٨٦) وقد اختار هذا القول الطبري (١٢ / ١٤٨) وقال، ولم يخص الله بالخبر عنهم أنهم قالوا بعض ذلك
حرام عليهم دون بعض وإذا كان ذلك كذلك فالواجب أنه يقال أنهم قالوا ما في بطون تلك الأنعام من لبن
وجنين حل لذكورهم خالصة دون إناثهم... الخ.

والثالث: أنها المرتفعة عن الأرض لعلو شجرها، فلا يقع ثمرها على الأرض، لأن أصله الارتفاع ولذلك سُمِّيَ السرير عرشاً لارتفاعه، ومنه قوله تعالى: ﴿خاوية على عروشها﴾ [الكهف: ٤٢] و[الحج: ٤٥] أي على أعاليها وما ارتفع منها.
والرابع: أن المعروشات ما عرشه الناس، وغير المعروشات ما نبت في البراري والجبال^(١٨٧).

﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وإنما قدم ذكر الأكل لأمرين: أحدهما: تسهيلاً لإيتاء حقه.

والثاني: تغليلاً لحقهم وافتاحاً بنفعهم بأموالهم.

وفي قوله: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها: الصدقة المفروضة فيه: العُشْر فيما سقي بغير آله، ونصف العشر فيما سقي بآله، وهذا قول الجمهور.

والثاني: أنها صدقة غير الزكاة، مفروضة يوم الحصاد والصرام^(١٨٨) وهي إطعام من حضر وترك ما تساقط من الزرع والثمر، قاله عطاء ومجاهد.

والثالث: أن هذا كان مفروضاً قبل الزكاة ثم نسخ بها، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإبراهيم.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: أن هذا الإسراف المنهي عنه هو أن يتجاوز رب المال إخراج القدر المفروض عليه إلى زيادة تجحف به، قاله أبو العالية، وابن جريج.

وقد روى سعد بن سنان عن أنس قال^(١٨٩): قال رسول الله ﷺ: «الْمُعْتَدِي فِي

(١٨٧) وهو قول ابن عباس رضي الله عنه الطبري (١٢ / ١٥٦) وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر (٣ / ٣٦٧).

(١٨٨) الصرام هو قطع ثمر النحل وجدّاده في وقته.

(١٨٩) رواه الترمذي (٦٤٦) وأبو داود (١٥٨٥) والبغوي (٧٨/٦) وأبو عبيد في الأموال ص ٤٠١ وحسنه الأرنؤوط في شرح السنة.

تنبيه رجب الناري أن اسم سعد بن سنان هو سنان بن سعد كما نقله الترمذي عنه من السنة والحديث صممه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٦٧١٩ ونقل تصحيح ابن خزيمة له.

الصَّدَقَةِ كَمَا نِعَمَهَا» وقيل : إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقد تصدق بجميع ثمرته حتى لم يبق فيها ما يأكله .

والثاني : هو أن يأخذ السلطان منه فوق الواجب عليه ، قاله ابن زيد .

والثالث : هو أن يمنع رب المال من دفع القدر الواجب عليه ، قاله سعيد بن المسيب .

والرابع : أن المراد بهذا السرف ما كانوا يشركون آلهتهم فيه من الحرث والأنعام ، قاله الكلبي .

والخامس : هو أن يسرف في الأكل منها قبل أن يؤدي زكاتها ، قاله ابن بحر .

قوله عز وجل : ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءٌ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الحمولة كبار الإبل التي يُحْمَلُ عليها ، والفرش صغارها التي لا يحمل عليها ، مأخوذ من افتراش الأرض بها على الاستواء كالفرش .

وقال ابن بحر الافتراش الإضجاع للنحر ، فتكون الحمولة كبارها ، والفرش صغارها ، قال الرازي :

أورثني حمولة وفرشا أمشها في كل يوم مشا

أي أمسحها ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد .

والثاني : أن الحمولة ما حُمِلَ عليه من الإبل والبقر ، والفرش : الغنم ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، ومنه قول ابن مسلمة :

وحوينا الفرش من أنعامكم والحمولات وربات الحجل

والثالث : أن الحمولة ما حمل من الإبل ، والبقر ، والخيول ، والبغال ، والحمير ، والفرش ما خلق لهم من أصوافها وجلودها .

﴿كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من الحمولة ليبين أن الانتفاع بظهرها لا يمنع من جواز أكلها .

والثاني : أنه إذن منه في عموم أكل المباح من أموالهم ، ونهى عن أكل ما لا يملكونه .

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ فيها قولان:

أحدهما: أنها طريقه التي يدعوكم إليها من كفر وضلال.

والثاني: أنها تخطيه إلى تحريم الحلال وتحريم الحرام^(١٩٠)، وقد ذكرنا ما في ذلك من زيادة التأويل ومن الاحتمال، وأنه الانتقال من معصية إلى أخرى حتى يستوعب جميع المعاصي، مأخوذ من خطو القدم: انتقالها من مكان إلى مكان.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه ما بان لكم من عداوته لأبيكم آدم.

والثاني: ما بان لكم من عداوته لأوليائه من الشياطين، قاله الحسن.

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالْذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَا أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثَيْنِ نَعُوذُ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالْذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَا أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

قوله عز وجل: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أما الزوج فاسم ينطلق على الواحد وعلى الإثنين، يقال للثنين زوج، ويقال للواحد زوج لأنه لا يكون زوجاً إلا ومعه آخر له مثل اسمه، قال لبيد^(١٩١):

من كل محفوف يظل عصبه زوج عليه كلة وقرامها

فلذلك قال: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ لأنها ثمانية أحاد.

ثم فسرهما فقال: ﴿مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني ذكرأ وأنثى.

﴿وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ﴾ يعني ذكرأ وأنثى.

(١٩٠) لعله وتحليل الحرام فإن السياق يقتضي ذلك هو الصواب فإن ما ذكر هنا في النسخة لا معنى له.

(١٩١) والبيت من قصيدة لبيد المعلقة راجع الطبري (١٨٤ / ١٢).

﴿قُلْ أَلَذَكَّرِينَ حَرَّمَ أَمْ الْأَنْثَيْنِ﴾ إبطالاً لما حرّمته الجاهلية منها في البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام.

﴿أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثَيْنِ﴾ يعني قولهم : ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَرْحَامِ خَالِصَةٌ لِّذِكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَرْوَاجِنَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ يريد به ما أَرادَه في الضأن والمعز وأن هذه الثمانية أزواج حلال لا يحرم منها شيء بتحريمكم.

حكى أبو صالح عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين أتاه عوف بن مالك، فقال له: أَحَلَّلْتَ ما حرّمه أبائنا، يعني من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال: ﴿أَلَذَكَّرِينَ حَرَّمَ أَمْ الْأَنْثَيْنِ﴾ فسكت عوف لظهور الحجة عليه.

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ يعني أن ما حرّمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام لم يحرمه الله تعالى ولا أوحى إليّ بتحريمه، ثم بيّن المحرّم على وجه الاستثناء لأن نفي التحريم خرج مخرج العموم، فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ وهي التي خرجت روحها بغير ذكاة.

﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ يعني مهراقاً مصبوباً ومنه سمي الزنا سفاحاً لصب الماء فيه ضائعاً، وقال طرفة بن العبد (١٩٢):

إني وجدك ما هجوتك والأذ صاب يسفح فوقهن دم

فأما الدم غير مسفوح فإن كان ذا عروق يجمد عليها كالكبِد والطحال فهو حلال

لقوله ﷺ (١٩٣): «أُحِلَّتْ لَنَا مِيتَتَانِ وَدَمَانِ، فَالْمِيتَتَانِ: الْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَالدَّمَانِ: الْكَبِدُ وَالطَّحَالُ».

وإن كان غير ذي عروق يجمد عليها وإنما هو مع اللحم وفيه، ففي تحريمه قولان:

أحدهما: لا يحرم لتخصيص التحريم بالمسفوح، وهو قول عائشة، وعكرمة، وقتادة، قال عكرمة: لولا هذه الآية لتتبع المسلمون عروق اللحم كما تتبعها اليهود.

والثاني: أنه حرام لأنه من جملة المسفوح وبعضه، وإنما ذكر المسفوح لاستثناء الكبد والطحال منه.

«أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ» يعني نجساً حراماً.

«أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» يعني ما ذبح للأوثان والأصنام، سماه فسقاً لخروجه عن أمر الله.

فإن قيل: لم اقتصر هنا على تحريم هذه الأربعة وقد ذكر في المائدة غيرها من المنخنقة والموقوذة والمتردية؟ قيل: لأن هذا كله من جملة الميتة فذكره هناك مفصلاً وها هنا في الجملة.

وفي هذه الآية قولان:

أحدهما: أنها مشتملة على جميع المحرمات فلا يحرم من الحيوان ما عدا هذا المذكور فيها، وهذا قول ابن عباس، وعائشة.

والثاني: أنها (١٩٤) تشتمل على تحريم ما تضمنها وليست مستوعبة لجميع

(١٩٣) رواه أحمد (٢/ ٩٧) وابن ماجه (٣٣١٤) والشافعي (٢/ ٤٢٥) من حديث ابن عمر مرفوعاً وفي سننه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه البيهقي (١/ ٢٥٤) عن ابن عمر موقوفاً وقال هذا إسناد صحيح وهو في المسند.

قلت وللحديث حكم الرفع لأنه قول الصحابي أحل لنا كذا وحرم علينا كذا من قبيل المرفوع حكماً وقد صحح الحديث العلامة الألباني في الإرواء.

(١٩٤) ولا ريب أن هذا القول هو المتعين لأن السنة متى ثبتت عن رسول الله ﷺ فعلى العين والرأس فالقول بها لازم.

المحرمات لما جاءت به السنة من تحريم^(١٩٥) كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير، وهذا قول الجمهور.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا
اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ هذا التحريم على الذين هادوا إنما هو تكليف بلوى وعقوبة، فأول ما ذكره من المحرمات عليهم ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ وفيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه ما ليس بمنفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط، قاله ابن عباس^(١٩٦)، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والسدي.
والثاني^(*): أنه عنى أنواع السباع كلها.

والثالث: أنه كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي حافر من الدواب.
ثم قال: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾
فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها شحوم الثرب^(١٩٧) خاصة، قاله قتادة.

والثاني: أنه كل شحم لم يكن مختلطاً بعظم ولا على عظم، قاله ابن جريج.

والثالث: أنه شحم الثرب والكلى، قاله السدي وابن زيد.

(١٩٥) رواه البخاري (٢١٢ / ١٠) ومسلم (٨٢ / ٥) وأبو داود (٣٨٠٢) والترمذي (١٥٠٤) والنسائي (٧ / ٢٠١، ٣٠٤) وابن ماجه (٣٢٣٢) من حديث أبي ثعلبة الخشني ولفظه نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع.

(١٩٦) رواه ابن أبي حاتم بسنده عنه قال الحافظ في الفتح (٢٩٥ / ٨) وأسناد حسن وأخرجه ابن جرير من طريق سعيد بن جبير مثله مرفقاً وليس فيه ابن عباس.

(*) وفي نسخة والثاني: أنه كل ما صاد بظفره من الطير.

(١٩٧) جمع ثروب والثرب بفتح المثناة وسكون الراء المهملة هو شحم رقيق يغطي الكرش والأمعاء.

ثم قال: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ يعني شحم الجنب وما علق بالظهر فإنه لم يحرم عليهم.

ثم قال: ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ وفيها أربعة تأويلات:

أحدها: أنها المباعر، قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومجاهد، والسدي.

والثاني: أنها بنات اللبن(*)، قاله عبد الرحمن بن زيد.

والثالث: أنها الأمعاء التي عليها الشحم من داخلها، قاله بعض المتأخرين.

والرابع: أنها كل ما تحوى في البطن واجتمع واستدار، قاله علي بن عيسى.

﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه شحم الجنب.

والثاني: أنه شحم الجنب والألية، لأنه على العصعص، قاله ابن جريج، والسدي.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: ببغيهم على موسى عليه السلام فيما اقترحوه وعلى ما خالفوه.

والثاني: ببغيهم على أنفسهم في الحلال الذي حرموه.

﴿وَأَنَا لَصَادِقُونَ﴾ فيما حكاه عنهم وحرمه عليهم.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ

الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا

وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا

قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ

هَلَمْ شَهِدَآءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ

(*) كذا في أصول المخطوطة وفي القرطبي خزائن اللبن.

مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَعَايَدِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ
أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ
نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا أمر من الله لنبيه ﷺ، أن يدعو الناس إليه ليتلو عليهم ما حرمه الله عليهم، وما أحله لهم ليقبلوا عما كانت الجاهلية عليه من تحريم المباح وإباحة الحرام.

والتلاوة: هي القراءة، والفرق بين التلاوة والتمتو، والقراءة والمقروء أن التلاوة والقراءة للمرة الأولى، والتمتو والمقروء للثانية وما بعدها، ذكره علي بن عيسى، والذي أراه من الفرق بينهما أن التلاوة والقراءة يتناول اللفظ، والتمتو والمقروء يتناول الملفوظ.

ثم إن الله أخذ فيما حرم فقال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: ألا تشركوا بعبادته عبادة غيره من شيطان أو وثن.

والثالث: أن يحمل الأمرين معاً (١٩٨).

ثم قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ تقديره: وأوصيكم بالوالدين إحساناً، والإحسان تأدية حقوقهما ومجانبة عقوقهما والمحافظة على برهما.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق.

وفي الإملاق قولان:

(١٩٨) لاحظ أن القول الثاني لم يذكره المؤلف فلعله سقط من الناسخ.

أحدهما: أنه الإفلاس، ومنه الملق لأنه اجتهد المفلس في التقرب إلى الغنى طمعاً في تأجيله.

والثاني: أن الإملاق^(١٩٩) ومعناها قريب وإن كان بينهما فرق، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والسدي، والضحاك، وابن جريج.

ثم ذكر فساد اعتقادهم في الإملاق بأن قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأن رزق العباد كلهم، من كفيل ومكفول، على خالقهم،

ثم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وفيها أربعة تأويلات:

أحدها: أن ذلك عام في جميع الفواحش سرها وعلانيتهما، قاله قتادة.

والثاني: أنه خاص في الزنى، ما ظهر منها: ذوات الحوانيت، وما بطن: ذوات الاستسرار، قاله ابن عباس، والحسن، والسدي.

والثالث: ما ظهر منها: نكاح المحرمات، وما بطن: الزنى، قاله مجاهد، وابن

جبير.

والرابع: أن ما ظهر منها: الخمر، وما بطن منها: الزنى، قاله الضحاك.

وقد ذكرنا فيه احتمال تأويل خامس: أن ما ظهر منها أفعال الجوارح، وما بطن منها اعتقاد القلوب.

ثم قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والنفوس المحرمة: نفس مسلم، أو معاهد، والحق الذي تقتل به النفس ما بينه النبي ﷺ بقوله^(٢٠٠): «لَا يَحِلُّ دَمُ آمَرٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ: كُفْرٌ بَعْدَ إِيْمَانٍ، أَوْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتَلَ نَفْسٍ بِغَيْرِ نَفْسٍ».

ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ يعني أن الله وصى عباده بذلك، ووصية الله واجبة.

(١٩٩) بياض في الأصل وقد رجعنا إلى الروايات الواردة عن ذكرهم المؤلف هنا فوجدناهم فسروها بالفقر وعليه فال تفسير الثاني يكون (الفقر).

(٢٠٠) رواه الترمذي (٢١٥٨) وابن ماجه (٢٥٣٣) وأحمد (٤٦٨، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٥٢، ٥٠٩) من حديث عثمان بن عفان وقال الترمذي هذا حديث حسن وورد في حديث عبدالله بن مسعود وعائشة رضي الله عنهما.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: تعقلون تحريم ذلك عليكم وتعلمونه.

والثاني: تعملون عمل من يعقل وهو ترك ما أوجب العقاب من هذه

المحرمات.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ
وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَأَنْكَفَ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ
ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ
هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ
ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إنما خص مال

اليتيم بالذكر وإن كان مال غيره في التحريم بمثابه، لأن الطمع فيه لقلة مراعيه أقوى، فكان بالذكر أولى.

وفي قوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أربعة تأويلات:

أحدها: حفظ ماله عليه إلى أن يكبر ليتسلمه، قاله الكلبي.

والثاني: أن ذلك هو التجارة به، قاله مجاهد.

والثالث: هو ألا يأخذ من الربح إذا اتجر له بالمال شيئاً، قاله الضحاك.

والرابع: هو أن يأكل الولي بالمعروف من ماله إن افتقر، ويترك إن استغنى، ولا

يتعدى من الأكل إلى لباس ولا غيره، قاله ابن زيد.

ويحتمل خامساً: أن التي هي أحسن: حفظ أصوله وتشمير فروعه.

ثم قال: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ والأشد استحكام القوة والشباب (*).

وفي حدها ثلاثة أقاويل:

(*) هنا كلمة مطموسة من الأصل.

أحدها: أنه الحلم حين تكتب له الحسنات وعليه السيئات، قاله ربعة، وزيد بن أسلم، ومالك.

والثاني: أن الأشد ثلاثون سنة، قاله السدي.

والثالث: أن الأشد ثمانى عشرة سنة، ذكره علي بن عيسى وفيه وجوه أخر نذكرها من بعد.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يعني بالعدل، أمر في مال البائع من تأدية بمثل ما أمر به في مال اليتيم.

ثم قال: ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يعني أنه لما كان العدل في الوزن والكيل مستحقاً، وكان تحديد أقل القليل متعذراً، كان ذلك عفواً، لأنه لا يدخل في الوسع فلم يكلفه.

ثم قال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: إذا حكمتم فأنصفوا.

الثاني: إذا شهدتم فاصدقوا.

الثالث: إذا توسطتم فلا تميلوا.

ثم قال: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن عهد الله كل ما أوجبه الإنسان على نفسه من نذر وغيره.

الثاني: أنه الحلف بالله أن يلزم الوفاء به إلا في معصية.

﴿ذَالِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ فيه وجهان.

أحدهما: أنه راجع إلى الذين هادوا وما أوصاهم به في التوراة.

والثاني: أنه راجع إلى المسلمين وما وصاهم به في القرآن.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: القرآن.

والثاني: الشرع وسُمِّيَ ذلك صراطاً، والصراط هو الطريق لأنه يؤدي إلى الجنة فصار طريقاً إليها.

﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ يعني في العمل به.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ما تقدم من الكتب المنزلة نسخها بالقرآن ، وهو محتمل .

والثاني : ما تقدم من الأديان المتقدمة نسخها بالإسلام وهو محتمل .

والثالث : البدع والشبهات .

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني عن طريق دينه .

ويحتمل وجهاً ثانياً : أن يكون سبيله نصره دينه وجهاد أعدائه ، فنهى عن التفرق وأمر بالاجتماع .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ
وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ
فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

قوله عز وجل : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾

وفي قوله : ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ خمسة أقاويل :

أحدها : تماماً على إحسان موسى بطاعته ، قاله الربيع ، والفراء .

والثاني : تماماً على المحسنين ، قاله مجاهد ، وكان ابن مسعود . يقرأ : ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ .

والثالث : تماماً على إحسان الله إلى أنبيائه ، قاله ابن زيد .

والرابع : تماماً لكرامته في الجنة على إحسانه في الدنيا ، قاله الحسن وقتادة .

والخامس : تماماً لنعمة الله على إبراهيم لأنه من ولده ، قاله ابن بحر .

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ
لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ
جَاءَ كُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ
اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا

يَصْدُقُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ
 آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ
 أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة رسلاً، يعني الكفار الذين يتوقفون عن الإيمان مع ظهور الدلائل.

والثاني: هل ينظرون يعني في حُجَجِ الله ودلائله إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، قاله جوير.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أمر ربك بالعذاب (٢٠١)، قاله الحسن.

والثاني: قضاء ربك في القيامة، قاله مجاهد.

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه طلوع الشمس من مغربها، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي، قال ابن مسعود: مع القمر في وقت واحد وقرأ: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾. [القيامة: ٩].

والثاني: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض، قاله أبو هريرة (٢٠٢).

(٢٠١) والصواب أن الإتيان هو إتيان الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء بين عباده يوم القيامة على الوصف اللائق به دون تأويل أو تعطيل وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في سورة البقرة. فراجع.

(٢٠٢) وقد ورد مرفوعاً من حديث أبي هريرة رواه البخاري (٢٩٧ / ٨) ومسلم (١٩٤ / ٢) وأبو داود (٤ / ١٦٣) وابن ماجه (٢ / ٢٣٥٢) وأحمد (٧١٦١) واللفظ للبخاري ولا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون به وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ثم قرأ الآية... م هـ ورجع ابن الجوزي القول الأول في زاد المسير (١٥٧ / ٣) قلت ولا تنافي بين القولين فإن القول الأول ذكر آية من الآيات الثلاثة المذكورة في القول الثاني وقد ورد مرفوعاً أيضاً من حديث أبي هريرة وثلاثة إذا خرجت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض رواه البخاري (٢٢٣ / ٨) ومسلم (٣٠٤ / ١١) (٢ / ١٩٤) وأحمد

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ...﴾ في أول آيات الساعة وآخرها قولان:

أحدهما: أن أولها الدجال، ثم الدخان، ثم يأجوج ومأجوج، ثم الدابة، ثم طلوع الشمس من مغربها، ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، هذا قول معاذ بن جبل.

والثاني: أن أولها خروج الدجال، ثم خروج يأجوج ومأجوج، ثم طلوع الشمس من مغربها ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ ثم خروج الدابة، وهذا قول حذيفة بن اليمان ورواه مرفوعاً.

ثم اختلفوا في ألا ينفعها إيمانها بظهور أول الآيات أو بظهور آخرها على قولين:

أحدهما: إذا خرج أول الآيات، طرحت الأقلام، وجلست الحفظة، وشهدت الأجساد على الأعمال.

والقول الثاني: أن ذلك يكون بخروج آخر الآيات ليكون لنا فيها أثر في الإنذار.

ثم قال: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ أما إيمانها قبل هذه الآيات فمُعْتَدُّ به، وأما بعدها فإن لم تكسب فيه خيراً لم يُعْتَدَّ به، وإن كسبت فيه خيراً ففي الاعتداد به قولان:

أحدهما: يُعْتَدُّ به، وهو ظاهر الآية أن يكون قبل الآيات أو بعده.

والثاني: لا يُعْتَدُّ به، ويكون معناه: لم تكن آمنت من قبل وكسبت في إيمانها خيراً، وهذا قول السدي.

وفي الخير الذي تكسبه وجهان:

أحدهما: تأدية الفروض على أكمل أحوالها.

والثاني: التطوع بالنوافل بعد الفروض (٢٠٣).

(٧١٦١) وأبو داود (٤ / ١٦٣) والطبري (١٢ / ٢٦٥) واللفظ له وزاد السيوطي في الدر (٣ / ٥٧) نسبته لعبد بن حميد وعبد الرزاق والنسائي وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في البعث والطبراني وابن أبي عدي.

(٢٠٣) والأولى أن يفسر الخير بالعمل الصالح بشموله بما في ذلك الفرائض والنوافل قال العلامة ابن الجوزي

روى مجاهد عن عبد الله بن عمر قال (٢٠٤): قال رسول الله ﷺ: «بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ، فَالتَّوْبَةُ مَقْبُولَةٌ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: مِنْ إِبْلِيسَ رَأْسِ الْكُفْرِ، وَمِنْ قَابِلِ قَاتِلِ هَابِيلَ، وَمَنْ قَتَلَ نَبِيًّا لَا تَوْبَةَ لَهُ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ كَالْعَكْرِ الْأَسْوَدِ لَا نُورَ لَهَا حَتَّى تَتَوَسَّطَ السَّمَاءَ ثُمَّ تَرْجِعُ فَيُغْلَقُ الْبَابُ وَتُرَدُّ التَّوْبَةُ فَلَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا، ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى مَسَارِقِهَا، فَتَطْلُعُ بَعْدَ ذَلِكَ عِشْرِينَ وَمِائَةً سَنَةً إِلَّا أَنَّهَا سُنُونَ تَمُرُّ مَرًّا».

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ فيهم أربعة أقاويل: أحدها: أنهم اليهود خاصة، قاله مجاهد.

والثاني: اليهود والنصارى، قاله قتادة.

والثالث: أنهم جميع المشركين (٢٠٥)، قاله الحسن.

والرابع: أهل الضلالة من هذه الأمة، قاله أبو هريرة.

وفي تفريقهم الذي فرقوه قولان:

أحدهما: أنه الدين الذي أمر الله به، فرقوه لاختلافهم فيه باتباع الشبهات.

والثاني: أنه الكفر الذي كانوا يعتقدونه ديناً لهم.

ومعنى قوله: ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ يعني فرقاً.

ويحتمل وجهاً آخر: أن يكون الشيع المتفقيين على مشايعة بعضهم لبعض،

وهو الأشبه (٢٠٦)، لأنهم يتماثلون على أمر واحد مع اختلافهم في غيره.

في زاد المسير (٣/ ١٥٧). والمراد بالخبر هنا العمل الصالح وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان.

(٢٠٤) لم اهتد إلى تخريجه وقد أورد السيوطي رحمه الله في الدر (٣/ ٥٧ - ٥٨) أحاديث عقباه فراجعها.

(٢٠٥) وكذلك هي في أهل البدع وطوائف أهل الكتاب المشركين قال الشوكاني رحمه الله في فتح القدير (٣/ ١٨٣).

وقيل الآية عامة في جميع الكفار وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله وهذا هو الصواب لأن

اللفظ يفيد العموم فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب وطوائف المشركين وغيرهم ممن ابتدع من أهل

الإسلام أهد واختار القول بالعموم ابن جرير رحمه الله (١٢/ ٢٧١).

(٢٠٦) قال الشوكاني (٣/ ١٨٣). ومعنى شيعاً وأحزاباً فتصدق على كل قوم كان أمرهم في الدين واحداً

مجتمعاً ثم اتبع كل جماعة منهم رأي كبير من كبرائهم يخالف الصواب ويبين الحق أهد.

وفي أصله وجهان:

أحدهما: أصله الظهور، من قولهم شاع الخبر إذا ظهر.

والثاني: أصله الاتباع، من قولهم شايعه على الأمر إذا اتبعه، قاله الزجاج.

ثم قال تعالى: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: لست من قتالهم في شيء، ثم نسخها بسورة التوبة، قاله الكلبي.

والثاني: لست من مخالطتهم في شيء، نَهَى لنبية ﷺ عن مقاربتهم، وأمر له

بمباعدتهم، قاله قتادة، كما قال النابغة (٢٠٧):

إذا حاولت في أسد فجوراً فإني لست منك ولست مني.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ

لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

قوله عز وجل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى

إِلَّا مِثْلُهَا﴾ في الحسنة والسيئة هنا قولان:

أحدهما: أن الحسنة الإيمان، والسيئة الكفر، قاله أبو صالح.

والثاني: أنه على العموم في الحسنات والسيئات أن جعل جزاء الحسنة عشر

أمثالها تفضلاً، وجعل جزاء السيئة مثلها عدلاً، قال رسول الله ﷺ (٢٠٨): «أَبْعَدَ اللَّهُ

مَنْ غَلَبَتْ وَاحِدَتُهُ عَشْرًا».

ثم في ذلك قولان:

أحدهما: أنه عام في جميع الناس.

والثاني: أنه خاص في الأعراب (٢٠٩) إذا جاء أحدهم بحسنة فله عشر أمثالها،

فأما غيرهم من المهاجرين فلمن جاء منهم بحسنة سبعمائه، قاله ابن عمر، وأبو سعيد الخدري.

(٢٠٧) ديوانه: ١٢٧.

(٢٠٨) لم أهتم إليه والله أعلم.

(٢٠٩) والصواب أنها عامة في جميع الناس كما في القول الأول راجع فتح القدير (٢/ ١٥٣) وروح المعاني

للألويسي (٨/ ٦٩).

فأما مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها فلأن الله فرض عُشر أموالهم، وكانوا يصومون في كل شهر ثلاثة أيام وهي البيض منه، فكان آخر العُشر من المال آخر جميع المال، وآخر الثلاثة الأيام آخر جميع الشهر.

وأما مضاعفة ذلك بسبعمئة ضعف فلقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فضاعف الله الحسنة بسبعمئة ضعف، وكان الحسن البصري يقرأ: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ بالتنوين^(٢١٠)، وَوَجْهُهُ في العربية صحيح.

وحكى ابن بحر في الآية تأويلاً يخرج عن عموم الظاهر، وهو أن الحسنة اسم عام يطلق على كل نوع من الإيمان وينطلق على عمومه، فإن انطلقت الحسنة على نوع واحد منه، فليس له عليها من الثواب إلا مثل واحد، وإن انطلقت على حسنة تشتمل على نوعين، كان الثواب عليها مثلين كقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَعَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]، والكفل: النصيب كالمثل، فجعل لمن اتقى وأمن بالرسول نصيبين، نصيباً لتقوى الله، ونصيباً لإيمانه برسوله، فدل على أن الحسنة التي جعلت لها عشر أمثالها هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات، وهو الإيمان الذي جمع الله في صفته عشرة أنواع بقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فكانت هذه الأنواع العشرة التي ثوابها عشرة أمثالها، فيكون لكل نوع منها مثل، وهذا تأويل فاسد، لخروجه عن عموم الظاهر، لما لا يحتمله تخصيص العموم، لأن ما جمع عشرة أنواع فهو عشر حسنات، فليس يجزي عن حسنة إلا مثلها، وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها.

وذكر بعض المفسرين تأويلاً ثالثاً: أن له عشر أمثالها في النعيم والزيادة لا في عظيم المنزلة، لأن منزلة التعظيم لا تنال إلا بالطاعة، وهذه مضاعفة تفضيل كما قال: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٠].

قُلْ إِنِّي هَدَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

(٢١٠) وفي قراءة يعقوب والقزاز عن عبد الوارث زاذ المسير (٣/ ١٥٩).

﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾
لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
هذا أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يذكر للناس حال عبادته ومن له الأمر في حياته
ومماته.

فقال ﴿إِنْ صَلَاتِي﴾ وهي الصلاة المشروعة ذات الركوع والسجود المشتملة
على التذلل والخضوع لله تعالى دون غيره من وثن أو بشر.

ثم قال: ﴿وَنُسُكِي﴾ وفيه هنا ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه الذبيحة في الحج والعمرة، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد وقتادة
والسدي والضحاك.

والثاني: معناه ديني، قاله الحسن.

والثالث: معناه عبادتي، قاله الزجاج، من قولهم فلان ناسك أي عابد، والفرق
بين الدين والعبادة: أن الدين اعتقاد، والعبادة عمل.

قوله تعالى: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن حياته ومماته بيد الله تعالى لا يملك غيره له حياة ولا موتاً، فلذلك
كان له مصلياً وناسكاً.

والثاني: أن حياته لله في اختصاصها بطاعته، ومماته له في رجوعه إلى
مجازاته.

ووجدت فيها وجهاً ثالثاً: أن عملي في حياتي ووصيتي عند مماتي لله.

ثم قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ صفة الله تعالى أنه مالك العالم دون غيره، فلذلك
كان أحق بالطاعة والتعبد من غيره.

ثم قال تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: لا شريك له في ملك العالمين.

والثاني: لا شريك له في العبادة.

﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ يعني ما قدم ذكره .

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني من هذه الأمة حثاً على اتباعه والمسايرة بالإسلام .

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

قوله عز وجل : ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وسبب [نزول] ذلك أن كفار قريش دعوا رسول الله ﷺ إلى ملة آبائه في عبادة اللات والعزى ، وقالوا : يا محمد إن كان وزراً فهو علينا دونك ، فنزلت هذه الآية عليه .

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ يعني إلا عليها عقاب معصيتها ولها ثواب طاعتها .

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا يتحمل أحد ذنب غيره فيأثم به ويعاقب عليه ، ولا يحمل ذنبه غيره ، فيبرأ منه ويسلم من عقابه . وفي أصل الوزر وجهان :

أحدهما : أصله الثقل ، من قوله : ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح : ٢ - ٣] ومنه سمي وزير الملك لتحمله الثقل عنه .

والثاني : أن أصله الملجأ من قوله : ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة : ١١] ومنه سمي وزير المَلِكِ لأنه يلجأ إليه في الأمور .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

قوله عز وجل : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه جعلهم خلفاً من الجن سكاناً للأرض ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن أهل كل عصر يخلف أهل العصر الذي قبله ، كلما مضى أهل عصر خلفه أهل عصر بعده على انتظام ، حتى تقوم الساعة على العصر الأخير فلا

يخلق عصر، فصارت هذه الأمة خلفاً للأمم الماضية.

والثالث: جعل بعضهم خليفة لبعض ليتألفوا بالتعاون.

والرابع: لأنهم آخر الأمم وكانوا خلفاً لمن تقدمهم، قال الشماخ^(٢١١):

تصبيكم وتخطئني المنايا وأخلق في ربوع عن ربوع

﴿وَرَفَعَ بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ يعني ما خالف بينهم في الغنى بالمال وشرف الآباء وقوة الأجسام، وهذا، وإن ابتدأه تفضلاً من غير جزاء ولا استحقاق، لحكمة منه تضمنت ترغيباً في الأعلى وترهيباً من الأدنى، لتدم له الرغبة والرغبة.

وقد نبه على ذلك بقوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِيمَا أُنْكُمُ﴾ يعني من الغنى والقوة وفيه

وجهان:

أحدهما: ليختبركم بالاعتراف^(٢١٢).

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ فإن قيل: فكيف جعله سريعاً وهو في الآخرة؟،

فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن كل آت قريب، كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ

أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

والثاني: إن ربك سريع العقاب في الدنيا لمن استحق منه تعجيل العقاب

فيها.

والثالث: أنه إذا شاء عاقب، فصار عقابه سريعاً لأنه يقترب بمشيئته، وهذا قول

ابن بحر.

﴿وَأَنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ جمعاً منه بين ما يقتضي الرحمة من سرعة العقاب وبين ما

يقتضي الرغبة من الغفران والرحمة، لأن الجمع بين الرغبة والرغبة أبلغ في الانقياد

إلى الطاعة والإقلاع عن المعصية، والله عز وجل أعلم.

(٢١١) ديوانه: ٥٨ ومجاز القرآن (١/ ٢٠٩) والطبري (١٢/ ٢٨٨).

(٢١٢) ويلاحظ هنا أن الوجه الثاني سقط ولم يذكر فلعل السقط كان من الناسخ.

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

مكية كلها في قول الحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر، وقال ابن عباس، وقتادة: مكية إلا خمس آيات وهي قوله: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] إلى آخر الخمس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ١ كَتَبُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذَكَرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ٣

قوله عز وجل ﴿الْمَصَّ﴾ فيه لأهل التأويل تسعة أقاويل:
أحدها: معناه: أنا الله أفضّل، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير.
والثاني: أنه [حرف] هجاء [من] المصور، قاله السدي.
والثالث: أنه اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة.
والرابع: أنه اسم السورة ومفتاح لها، قاله الحسن.
والخامس: أنه اختصار من كلام يفهمه النبي ﷺ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً.

والسادس: هي حروف هجاء مقطعة نبه بها على إعجاز القرآن.

والسابع: هي من حساب الجمل المعداد استأثر الله بعلمه.

والثامن: هي حروف تحوي معاني كثيرة دل الله تعالى خلقه بها على مراده من كل ذلك.

والتاسع: هي حروف اسم الله الأعظم.

ويحتمل عندي قولاً عاشراً^(٢١٣): أن يكون المراد به: المصير إلى كتاب أنزل إليك من ربك، فحذف باقي الكلمة ترخيماً وعبر عنه بحروف الهجاء لأنها تذهب بالسامع كل مذهب، وللعرب في الاختصار على الحروف مذهب كما قال الشاعر^(٢١٤):
قلت لها قفي فقالت قاف
أي وقفت.

قوله عز وجل ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن.

﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ وفي الحرج ها هنا ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه الضيق، قاله الحسن، وهو أصله.

قال الشماخ بن ضرار:

ولو ردت المعروف عندي رددتها لحاجة لا العالي ولا المتحرج
ويكون معناه: فلا يضيق صدرك خوفاً ألا تقوم بحقه.

والثاني: أن الحرج هنا الشك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي.

قال الراجز:

آليت لولا حرج يعروني ما جئت أغزوك ولا تغزوني

ومعناه: فلا تشك فيما يلزمك فيه فإنما أنزل إليك لتتذبر به.

والثالث: فلا يضيق صدرك بأن يكذبوك، قاله الفراء.

ثم قال: ﴿لَتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرِي لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فجعله إنذاراً للكافرين وذكرى للمؤمنين

ليعود نفعه على الفريقين.

(٢١٣) وقد عرفت أن ما سبق القول الراجح عند الكلام على أوائل السور في سورة البقرة وذكرنا أقوال العلماء وما عليه أكثرهم.

(٢١٤) من رجز الوليد بن عقبة وبقية الرجز لا تحسبن أنا نسينا الإيخاف. والبيت من الأغاني (٥ / ١٣١)، شرح شواهد الشافعية، ٢٧١، مشكل القرآن ٢٣٨ والطبري (١ / ٢١٢) وسيأتي في الشطر البيت في سورة ق وقد وقع هنا في شطر البيت نقص وصوابه من الطبري هكذا:

قلنا لها قفي لنا قالت: قاف لا تحسبن أنا نسينا الإيخاف

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ الآية. هذا إخبار من الله تعالى عن حال من أهلكه بكفر تحذيراً للمخاطبين به عن مثله، وقوله: ﴿وَكَمْ﴾ هي كلمة توضع للتكثير، «وَرُبَّ» موضوعة للتقليل، وذلك هو الفرق بين كم ورب. قال الفرزدق (٢١٥):

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشاري
فدل ذلك على تكثير العمات والخالات :
وفي قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وإنما الهلاك بعد مجيء البأس أربعة أوجه:

أحدها: معناه أهلكناها حكماً فجاءها بأسنا فعلاً.
والثاني: أهلكناها بإرسال الملائكة إليها بالعذاب فجاءها بأسنا بوقوع العذاب لهم.

والثالث: أهلكناها بخذلاننا لها عن الطاعة فجاءها بأسنا عقوبة على المعصية.
والرابع: أن البأس والهلاك وقعا معاً في حال واحدة، لأن الهلاك كان بوقوع البأس فلم يفترقا، وليس دخول الفاء بينهما موجبة لافتراقهما بل قد تكون بمعنى الواو كما يقال أعطيت وأحسن، فكان الإحسان بالعطاء ولم يكن بعد العطاء، قاله الفراء.

وقوله: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ يعني في نوم الليل.
﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ يعني في نوم النهار وقت القائلة.
فإن قيل: فلم جاءهم بالعذاب في وقت النوم دون اليقظة؟ قيل: لأمرين:
أحدهما: لأن العذاب في وقت الراحة أشد وأغلظ.

والثاني: لثلا يتحرزوا منه ويهربوا عنه، لاستسلام النائم وتحرز المستيقظ، والبأس: شدة العذاب، والبؤس: شدة الفقر.

قوله عز وجل: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لنسأل الذين أرسل إليهم عن قبول الرسالة والقيام بشروطها، ولنسأل المرسلين عن أداء الرسالة والأمانة فيها.

والثاني: لنسأل الذين أرسل إليهم عن حفظ حرمان الرسل، ولنسأل المرسلين عن الشفقة على الأمم.

وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ

خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الوزن ها هنا هو القضاء بالحق، أي بالعدل، قاله مجاهد.

والثاني: أنه موازنة الحسنات والسيئات بعلامات يراها الناس يوم القيامة.

والثالث^(٢١٦): أنه موازنة الحسنات والسيئات بميزان له كفتان، قاله الحسن

وطائفة.

واختلف من قال بهذا في الذي يوزن على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الذي يوزن هو الحسنات والسيئات بوضع إحداهما في كفة

والأخرى في كفة، قاله الحسن والسدي.

والثاني: أن الذي يوزن صحائف الأعمال، فأما الحسنات والسيئات فهي

أعمال، والوزن إنما يمكن في الأجسام، قاله عبدالله بن عمر.

والثالث: أن الذي يوزن هو الإنسان، قال عبيد بن عمير، قال يؤتى بالرجل

العظيم الجثة فلا يزن جناح بعوضة^(٢١٧).

(٢١٦) ولا شك في أرجحية هذا القول لأن السنة المتواترة على إثبات الميزان ولا شك أن الله تعالى حكم عدل

فهو يقيضي بالحق ويحكم بالقسط ولا يظلم الناس شيئاً ورجح هذا القول الطبري (١٢ / ٣١١) وفتح

القدر للشوكاني (٢ / ١٩٠) وكّر الشوكاني على من خالف هذا القول بكلام رصين فراجع.

(٢١٧) ولا مانع من كون الأعمال تارة توزن وتارة يوزن الشخص وعمله والمسألة مبسطة في كتب العقيدة

راجع شرح الطحاوية ص ٤٧٢ ولوامع الأنوار البهية (٢ / ١٨٤).

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :
أحدها : معناه فمن قضي له بالطاعة .

والثاني : معناه فمن كانت كفة حسناته أثقل من كفة سيئاته ^(٢١٨) .

والثالث : معناه فمن زادت حسناته على سيئاته .

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني بما لهم من الثواب ، وبضده إذا خفت .

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

قوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : سهلنا عليكم التصرف فيها حتى وصلتم إلى مرادكم منها .

والثاني : ملكناكم إياها حتى صرتم أحق بها .

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما تعيشون به من نبات وحيوان .

والثاني : ما تتوصلون به إلى معاشكم فيها من زراعة أو عمل .

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾

قوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ فيه لأهل التأويل أربعة أقاويل :

أحدها : ولقد خلقناكم في أصلاب الرجال ثم صورناكم في أرحام النساء ، قاله
عكرمة .

والثاني : ولقد خلقناكم يعني آدم ثم صورناكم في ظهره ، قاله مجاهد .

والثالث : خلقناكم نطفاً في أصلاب الرجال وترائب النساء ، ثم صورناكم عند

اجتماع النطفتين في الأرحام ، وهو معنى قول الكلبي .

(٢١٨) ويدل على ثقل الكفة حديث البطاقة المشهور وهو حديث صحيح صححه غير واحد من العلماء راجع
شرح السنة للبخاري .

والرابع: خلقناكم في بطون امهاتكم، ثم صورناكم فيها بعد الخلق بشق السمع والبصر، قاله معمر (٢١٩).

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فإن قيل فالسجود عبادة لا تجوز إلا لله تعالى، فكيف أمر به لآدم عليه السلام؟ قيل: فيه لأهل العلم قولان: أحدهما: أنه أمرهم بالسجود له تكرامة وهو لله تعالى عبادة. والثاني: أنه جعله قبلة سجودهم لله تعالى (٢٢٠):

فإن قيل: فالأمر بالسجود لآدم قبل تصوير ذريته، فكيف قال: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾؟ فعن ذلك ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه صورهم في صلب آدم ثم قال للملائكة: اسجدوا. والثاني: معناه ثم صورناكم ثم أخبرناكم بأننا قلنا للملائكة: اسجدوا. والثالث: أي في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وتقديره: ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ثم صورناكم.

وفيه جواب رابع أنكره بعض النحويين وهو: أن ﴿ثُمَّ﴾ هنا بمعنى الواو، قاله الأخفش.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾
قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ
أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

(٢١٩) والذي في الطبري (١٢ / ٣٢٠) أن هذا القول نقله معمر عن رجل ولم يصرح باسمه فليس هذا القول من قول معمر وإليك ما في الطبري قال حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن ذكره قال «خلقناكم ثم صورناكم» قال خلق الله الإنسان في الرحم ثم صورته فشق سمعه وبصره وأصابعه اهـ.

(٢٢٠) كان السجود للأشخاص في الشرائع السابقة إنما كان للتعظيم وليس على وجه العبادة ثم نسخ بعد ذلك وقد سجد معاذ بن جبل بين يدي رسول الله ﷺ إلا أن الرسول نهى عن ذلك وقال: «لو كنت أمر أحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

قوله عز وجل: ﴿قَالَ فَأَهِيطَ مِنْهَا﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه أْهِيطَ من السماء لأنه كان فيها، قاله الحسن.

والثاني: من الجنة.

والثالث: أنه أْهبط من المنزل الرفيعة التي استحقها بطاعة الله إلى المنزل

الدُّنْيَا التي استوجبها لمعصيته، قاله ابن بحر.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وليس لأحد من المخلوقين أن يتكبر فيها ولا في

غيرها، وإنما المعنى: فما لمن يتكبر أن يكون فيها وإنما المتكبر في غيرها.

وفي التكبر وجهان:

أحدهما: تكبر عن الله أن يمثل له.

والثاني: تكبر عن آدم أن يسجد له.

﴿فَأَخْرُجْ﴾ فيها قولان:

أحدهما: من المكان الذي كان فيه من السماء أو الجنة.

والثاني: من جملة الملائكة الذين كان منهم (٢٢١) أو معهم.

﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: بالمعصية في الدنيا لأن العاصي ذليل عند من عصاه.

والثاني: بالعذاب في الآخرة لأن المعذب ذليل بالعذاب.

وفي هذا القول من الله تعالى لإبليس وجهان:

أحدهما: أنه قال ذلك على لسان بعض الملائكة (٢٢٢).

والثاني: أنه أراه معجزة تدله على ذلك.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه سأله الإنظار بالعقوبة إلى البعث وهو يوم القيامة.

والثاني: أنه سأله الإنظار بالحياة إلى يوم يبعثون وهو يوم القيامة لثلا يذوق

(٢٢١) وقد عرفت فيما سبق أن القول الراجح أن إبليس لم يكن من الملائكة إنما دخل معهم في الخطاب.

(٢٢٢) وسياق الآيات يدل على الله مقام هو القاتل له.

الموت، فَأَجِيبْ بِالْإِنْظَارِ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ وهي النفخة الأولى لِيَذُوقَ الْمَوْتَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ وهو أربعون سنة، قاله الكلبي.

فإن قيل: فكيف قدر الله مدة أجله وفي ذلك إغواؤه بفعل المعاصي تعويلاً على التوبة في آخر الأجل؟

قيل: قد علم الله من حاله أنه لا يتوب من معصيته بما أوجبه من لعنته بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الَّذِينَ﴾ فجاز مع علمه بهذه أن يقدر له مدة أجله ولو كان كغيره ما قدرت له مدة أجله.

فإن قيل: كيف أقدم إبليس على هذا السؤال مع معصيته؟ قيل: كما ينسبط الجاهل في سؤال ما لا يستحقه.

فإن قيل: فكيف أجاب الله سؤاله مع معصيته؟ قيل: في إجابته دعاء أهل المعاصي قولان:

أحدهما: لا تصح إجابتهم لأن إجابة الدعاء تكرمة للداعي وأهل المعاصي لا يستحقون الكرامة، فعلى هذا إنما أنظره الله تعالى وإن كان عقيب سؤاله ابتداء منه لا إجابة له.

والثاني: أنه قد يجوز أن تجاب دعوة أهل المعاصي على وجه البلوى وتأکید الحجة، فتكون إجابة المطيعين تكرمة، وإجابة العصاة بلوى.

فإن قيل: فهل ينظر غير إبليس إلى الوقت الذي سأل وقد قال من المنظرين؟ قيل: نعم وهو من لم يقض الله تعالى عليه الموت من عباده الذين تقوم عليهم الساعة.

قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ اختلف أهل العربية في معنى قوله: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ على قولين:

أحدهما: أنه على معنى القسم وتقديره: فبإغوائك لي لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

والثاني: أنه على معنى المجازاة، تقديره: فلأنك أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم (٢٢٣).

واختلف أهل العلم في قوله: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ على أربعة أقاويل:
أحدها: معناه أضللتني، قاله ابن عباس وابن زيد.

والثاني: معناه خيبتني من جنتك، ومنه قول الشاعر (٢٢٤):

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغولاً يعدم على الغي لائماً
أي ومن يخب.

والثالث: معناه عذبتني كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] أي عذاباً، قاله الحسن.

والرابع: معناه أهلكني بلعنك لي، يقال غوى الفصيل إذا أشفى على الهلاك بفقد اللبن، قال الشاعر (٢٢٥):

معطفة الأثناء ليس فصيلها برازئها درأ ولا ميّت غوى
وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي على صراطك المستقيم، وفيه تأويلان:

أحدهما: طريق مكة ليصد عن قصدها في الحج والعمرة، قاله ابن مسعود.
والثاني: طريق الحق ليصد عنها بالإغواء، قاله مجاهد.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ...﴾ الآية. فيه أربعة تأويلات:

أحدها: ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي أشكهم في آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾

(٢٢٣) قال الإمام أبو جعفر الطبري (١٢ / ٣٣٤) وفي هذا بيان واضح على فساد ما يقوله القدرية (هم نفاة القدر الكافرون به). من أن كل من كفر أو آمن فبتفويض الله أسباب ذلك إليه وأن السبب الذي به يصل المؤمن إلى الإيمان هو السبب الذي يصل الكافر إلى الكفر هـ.

(٢٢٤) اللسان (غوى) والبيت للمرقد روح المعاني (٨ / ٩٤).

(٢٢٥) الشاعر هو عامر بن مجنون والبيت في المعاني الكبير (١٠٤٧) والمخصص (٧ / ٤١)، (١٨٠). وتهذيب إصلاح المنطق ٢ / ٥٤، واللسان (غوى).

أرغبهم في دنياهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي من قبل حسناتهم، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ من قبل سيئاتهم، قاله ابن عباس.

والثاني: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ : من قبل، دنياهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ : من قبل آخرتهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ : الحق أشككهم فيه، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ : الباطل أرغبهم فيه، قاله السدي وإبراهيم.

والثالث: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ : من حيث ينظرون، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ : من حيث لا يبصرون، قاله مجاهد.

والرابع: أراد من كل الجهات التي يمكن الاحتيال عليهم منها، ولم يذكر من فوقهم لأن رحمة الله تصده، ولا من تحت أرجلهم لما فيه من التنفير، قاله بعض المتأخرين.

ويحتمل تأويلاً خامساً: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ : فيما بقي من أعمارهم فلا يقدمون على طاعة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ : فيما مضى من أعمارهم فلا يتوبون عن معصية، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ : من قبل غناهم فلا ينفقونه في مشكور، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ : من قبل فقرهم فلا يمتنعون فيه عن محذور.

ويحتمل سادساً: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ : بسط أملهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ تحكيم جهلهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ : فيما يسر لهم، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ : فيما تعسر عليهم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: شاكرين لنعمك.

والثاني: مقيمين على طاعتك.

فإن قيل: فكيف علم إبليس ذلك؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنه ظن ذلك فصدق ظنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠] وسبب ظنه أنه لما أغوى آدم واسترله قال: ذرية هذا أضعف منه، قاله الحسن.

والثاني: أنه يجوز أن يكون علم ذلك من جهة الملائكة بخبر من الله (٢٢٦).

(٢٢٦) وهذا القول للجائي من أئمة المعتزلة ولا دليل عليه وهناك قول ثالث أنه رآه في اللوح المحفوظ وهذا =

قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: من حيث كان من جنة أو سماء.

والثاني: من الطاعة، على وجه التهديد.

﴿مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾. في قوله: ﴿مَذْمُومًا﴾ خمسة تأويلات:

أحدها: يعني مذمومًا، قاله ابن زيد، وقرأ الأعمش ﴿مذومًا﴾.

والثاني: لثيماً، قاله الكلبي.

والثالث: مقيتاً، قاله ابن عباس.

والرابع: منفيًا، قاله مجاهد.

والخامس: أنه شدة العيب وهو أسوأ حالاً من المذموم، قاله الأخفش، قال

عامر بن جذامة:

جذامة لم يأخذوا الحق بل زأغت قلوبهم قبل القتال ذاماً

وأما المدحور ففيه قولان:

أحدهما: المدفوع.

الثاني: المطرود، قاله مجاهد والسدي.

وَيَتَنَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا

مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَهُمَا

وَقَالَ مَا نَهَىٰ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ

﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَتَنَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ يعني حواء، وفي الجنة

التي أمر بسكنها قولان:

= أيضاً لا دليل عليه بل من أفحش الأقوال لأنه لم يطلع على اللوح المحفوظ إلا الله تعالى راجع روح

المعاني (٨/ ٩٦).

أحدهما : في جنة الخلد التي وعد المتقون ، وجاز الخروج منها لأنها لم تجعل ثواباً فيخلد فيها ولا يخرج منها .

والثاني : أنها جنة من جنات الدنيا لا تكليف فيها وقد كان مكلفاً .

﴿فَكُلَا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من حيث شئتما من الجنة كلها .

والثاني : ما شئتما من الثمار كلها لأن المستثنى بالنهي لما كان ثمرأ كان المأمور به ثمرأ .

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قد ذكرنا (٢٢٧) اختلاف الناس فيها على ستة أقاويل :

أحدها : أنه البرّ ، قاله ابن عباس .

والثاني : الكرّم ، قاله السدي .

والثالث : التين ، قاله ابن جريج .

والرابع : شجرة الكافور ، قاله علي بن أبي طالب .

والخامس : شجرة العلم ، قاله الكلبي .

والسادس : أنها شجرة الخلد التي كانت تأكل منها الملائكة ، قاله ابن جدعان .

وحكى محمد بن إسحاق عن أهل الكتابين أنها شجرة الحنظل ولا أعرف لهذا وجهاً .

إذا قيل : فما وجه نهيهما عن ذلك مع كمال معرفتهما؟

قيل : المصلحة في استدامة المعرفة ، والابتلاء بما يجب فيه الجزاء .

قوله عز وجل : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا...﴾ أما الوسوسة فهي

إخفاء الصوت بالدعاء ، يقال وسوس له إذا أوهمه النصيحة ، وسوس إليه إذا ألقى

إليه المعنى ، وفي ذلك قول رؤبة بن العجاج (٢٢٨) :

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق سراً وقد أَوَّنْ تأوين العقق

(٢٢٧) وقد ذكر المؤلف الأقوال في ذلك في تفسير سورة البقرة إلا أنه لم يذكر القولين الأخيرين .

(٢٢٨) ديوان : ١٠٨ واللسان (وسس) .

فإن قيل : فكيف وسوس لهما وهما في الجنة وهو خارج عنها؟ فعنه ثلاثة أجوبة هي أقاويل اختلف فيها أهل التأويل :

أحدها : أنه وسوس إليهما وهما في الجنة في السماء ، وهو في الأرض ، فوصلت وسوسته بالقوة التي خلقها الله له إلى السماء ثم الجنة ، قاله الحسن .

والثاني : أنه كان في السماء وكانا يخرجان إليه فيلقاهما هناك .

والثالث : أنه خاطبهما من باب الجنة وهما فيها .

﴿ . . . وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ وهذا هو الذي ألقى به من الوسوسة إليهما استغواء لهما بالترغيب في فضل المنزلة ونعيم الخلود .

فإن قيل : هل تصورا ذلك مع كمال معرفتهما؟

قيل : إنما كملت معرفتهما بالله تعالى لا بأحكامه .

وفي قول إبليس ذلك قولان :

أحدهما : أنه أوهمهما أن ذلك في حكم الله جائز أن يقلب صورتهما إلى صور الملائكة وأن يخلدهما في الجنة .

والثاني : أنه أوهمهما أنهما يصيران بمنزلة الملائكة في علو المنزلة مع علمهما بأن قلب الصور لا يجوز .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أي حلف لهما على صدقه في خبره ونصحه في مشورته ، فقبلا قوله وتصورا صدقه لأنهما لم يعلما أن أحدا يجترئ على الحلف بالله كاذباً .

ويحتمل وجهاً آخر : أن يكون معنى قوله : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أي قال لهما : إن كان ما قلته خيراً فهو لكما دوني وإن كان شراً فهو عليّ دونكما ومن فعل ذلك معكما فهو من الناصحين لكما ، فكانت هذه مقاسمتهم أن قسم الخير لهما والشر له على وجه الغرور لتنتفي عنه التهمة ويسرع إليه القبول (٢٢٩) .

(٢٢٩) ولا شك أن هذا القول أرجح لأن اللعين دخل عليهما من باب الركون والخلود والمسلم يصدق من يحلف له بالله ولا يصدق أن أحداً يحلف بالله كاذباً كإبليس ولهذا كان قسم إبليس هذا بمثابة شراكاً نصبه اللعين للأبوين فأوقعهما فيه ودلاهما بغرور .

فَدَلَّهِمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ
وَرَقٍ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ
لَكُمْ آدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

قوله عز وجل: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ معناه فحطهما بغرور من منزلة الطاعة إلى حال المعصية.

فإن قيل: فهل علما عند أكلهما أنها معصية؟

قيل: لا، لأن إقدامهما عليها مع العلم بأنها معصية يجعلها كبيرة، والأنبياء معصومون من الكبائر، وإنما أقدما عليها لشبهة دخلت عليهما بالغرور.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ فإن قيل:

فلم بدت لهما سواتهما ولم تكن بادية لهما من قبل؟
ففي ذلك ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنهما كانا مستورين بالطاعة فانكشف الستر عنهما بالمعصية.

والثاني: أنهما كانا مستورين بنور الكرامة فزال عنهما بذل المهانة.

والثالث: أنهما خرجا بالمعصية من أن يكونا من ساكني الجنة، فزال عنهما ما كانا فيه من الصيانة.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقٍ الْجَنَّةِ﴾ في ﴿وَطَفِقَا﴾ وجهان:

أحدهما: قاما يخصفان، قاله ابن بحر.

والثاني: جعلوا يخصفان، أي يقطعان.

﴿مِنْ وَرَقٍ الْجَنَّةِ﴾ وفيه قولان:

أحدهما: ورق الموز.

والثاني: ورق التين، قاله ابن عباس.

قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فإن قيل:

فالمأمور بالهبوط آدم وحواء لأن إبليس قد كان أهبط من قبل حين امتنع عن السجود لآدم، فكيف عبر عنهما بلفظ الجمع؟
فغن ذلك ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه خبر عن هبوطهم مع تفرقهم وإن خرج مخرج الأمر، قاله السدي.

والثاني: أنهم آدم وحواء والحية، فكانوا جماعة، قاله أبو صالح (٢٣٠).

والثالث: أنهم آدم وحواء والوسوسة، قاله الحسن.

فهبط آدم بأرض الهند على جبل يقال له واسم، وهبطت حواء بجدة، وهبطت الحية بأصفهان.

وفي مهبط إبليس قولان.

أحدهما بالأبلة.

والثاني: بالمدار.

وقيل أسكنهما الجنة ثلاث ساعات خلت من يوم الجمعة، وأخرجهما لتسع ساعات خلت من ذلك اليوم.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أما المستقر ففيه وجهان:

أحدهما: أنه فعل الاستقرار.

والثاني: أنه موضع الاستقرار، قاله أبو صالح.

وأما المتاع فهو المتفع به من عروض الدنيا التي يستمتع بها.

وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني إلى انقضاء الدنيا، والحين وقت مجهول القدر

ينطلق على طويل الزمان وقصيره وإن كان موضوعاً في الأغلب للتكثير.

(٢٣٠) وهذا القول لا دليل عليه كما قال ابن القيم في حادي الأرواح ص ٢٦ ولفظه «وقد قيل إن الخطاب لهما وللحية وهذا ضعيف جداً إذ لا ذكر للحية في شيء من قصة آدم ولا في السياق ما يدل عليه م هـ والصواب أن الخطاب لآدم وحواء وإبليس.

قال الشاعر (٢٣١).

وما مزاحك بعد الحلم والدين وقد علاك مشيب حين لا حين
أي وقت لا وقت.

يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ
ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٦٦﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ اتِكُمْ﴾ نزلت
هذه الآية في قوم من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويرون أن ذلك أبلغ في الطاعة
وأعظم في القربة.

وفي دخول الشبهة عليهم في ذلك وجهان:
أحدهما: أن الثياب قد دنستها المعاصي فخرجوا عنها.
والثاني: تفاؤلاً بالتعري من الذنوب فقال الله تعالى:
﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي ما تلبسون من الثياب.
فإن قيل: فليس ذلك بمنزل من السماء.
فعنه جوابان:

أحدهما: أنه لما كان ينبت من المطر الذي ينزل من السماء صار كالمنزل من
السماء، قاله الحسن.

والثاني: أن هذا من بركات الله، والبركة تنسب إلى أنها تنزل من السماء، كما
قال تعالى. ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥].

ثم قال: ﴿يُؤَارِي سَوْءَ اتِكُمْ﴾ أي يستر عوراتكم، وسميت العورة سؤءاً لأنه
يسوء صاحبها انكشافها.

ثم قال: ﴿وَرِيشًا﴾ وهذه قراءة أهل الأمصار وكان الحسن يقرأ:
﴿وَرِيَاشًا﴾ (٢٣٢) وفيه أربعة تأويلات:

(٢٣١) والبيت لجبريل الشاعر ديوانه: ٥٨٦ ومجاز القرآن لأبي عبيدة (١/ ٢) والخزانة ٢/ ٩٤ والطبراني (١٢/ ٣٥٩) والبيت فيه:

وما مزاحك بعد الحلم والدين وقد علاك مشيب حين لا حين
(٢٣٢) وهي قراءة ابن عباس وزر بن حبيش وقتادة والمفضل وأبان عن عاصم راجع زاد المسير (٣/ ١٨١).

أحدهما: أنه المعاش، قاله معبد الجهني .

والثاني: أنه اللباس والعيش والنعيم، قاله ابن عباس .

والثالث: أنه الجمال والزينة، قاله ابن زيد . ومنه قوله رؤية:

إليك أشكو شدة المعيش وجهد أعوام نتفن ريشي
يريد أذهين جمالي وزيتي .

والرابع: أنه المال، قاله ابن الزبير ومجاهد، قال الشاعر^(٢٣٣):

فريشي منكم وهواي معكم وإن كانت زيارتكم لماما
وفي الريش والرياش وجهان:

أحدهما: أن معناهما واحد^(٢٣٤) وإن اختلف لفظهما .

والوجه الثاني: أن معناهما مختلف، فالريش ما بطن، والرياش ما ظهر .

ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ وفي لباس التقوى سبعة تأويلات^(٢٣٥):

أحدها: أنه الإيمان، قاله قتادة والسدي .

الثاني: الحياة^(٢٣٦)، قاله معبد الجهني .

والثالث: أنه العمل الصالح، قاله ابن عباس .

والرابع: أنه السمات الحسن، قاله عثمان بن عفان .

والخامس: خشية الله، قاله عروة بن الزبير .

السادس: ستر العورة للصلاة التي هي التقوى، قاله ابن زيد .

والسابع: لبس ما يُتَّقَى به الحر والبرد^(٢٣٧)، قاله ابن بحر .

(٢٣٣) والشاعر هو جرير والبيت في ديوانه ٥٠٦ وفي كتاب سيبويه ٢ / ٤٥ ونسبه للراعي .

(٢٣٤) وحكاه ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ١٨٢) عن الأكثرين من المفسرين .

(٢٣٥) وجمع فيها ابن الجوزي عشرة أقوال (٣ / ١٨٢ ، ١٨٣) .

(٢٣٦) كذا هنا والصواب الحياء والتصويب من زاد المسير (٣ / ١٨٣) وزاد نسبة القول لابن الأنباري والطبري .

(٢٣٧) ولا تنافي بين هذه الأقوال فهي مندرجة تحت تقوى الله ولهذا قال ابن جرير رحمه الله (١٢ / ٣٧١)

وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ استشعار النفوس تقوى الله في الانتهاء عما نهى الله عنه عن معاصيه والعلم بما أمر به من طاعته وذلك بجمع الإيمان والعمل الصالح والحياء وخشية الله والسمت الحسن فإن من اتقى الله كان به مؤمناً وبما أمره به عاملاً ومنه خائفاً وله مراقباً ومن أن يرى عنه ما يكرهه من عباده مستجبياً ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه فحسن سمته وهديه ورئيت عليه بهجة الإيمان ونوره أهـ .

وفي قوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه راجع إلى لباس التقوى ومعنى الكلام أن لباس التقوى خير من الرياش واللباس، قاله قتادة والسدي.

والثاني: أنه راجع إلى جميع ما تقدم من ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءًا تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرته هو ﴿خَيْرٌ﴾ كله.

يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا إِنَّهُ يَرَئَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ وهذا خطاب توجه إلى من كان من العرب يطوف بالبيت عريانا، فقليل لهم لا يفتننكم الشيطان بغروره كما فتن أبويكم من قبل حتى أخرجهما من الجنة، ليكون إشعارهم بذلك أبلغ في الزجر من مجرد النهي.

﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن لباسهما كان أظفارا تستر البدن فنزعت عنهما وتركت زينة وتبصرة، قاله ابن عباس.

الثاني: أن لباسهما كان نوراً، قاله وهب بن منبه.

والثالث: أنه نزع عنهما لباسهما من تقوى الله وطاعته، قاله مجاهد.

﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أجسادهما من العورة حين خرجا من لباسهما، وهو مقتضى قول ابن عباس.

والثاني: سؤا معصيتهما حتى خرجا من تقوى الله وطاعته، وهو معنى قول مجاهد.

﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: قومه، وهو قول الجمهور.

والثاني : جيلُهُ (٢٣٨) ، قاله السدي .

﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من حيث لا تبصرون أجسادهم .

والثاني : من حيث لا تعلمون مكرهم وفتنتهم .

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا
وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ
﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

قوله وعز وجل : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ في هذه الآية

ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها وردت في العرب الذين كانوا يطوفون عراة ، والفاحشة التي فعلوها كشف العورة ، وهذا قول أكثر المفسرين .

والثاني أنها في عبدة الأوثان ، والفاحشة التي فعلوها الشرك ، قاله الحسن .

والثالث أنها اتخاذ البَحِيرَةِ والسائبة والوصيلة والحام ، قاله الكلبي .

قوله عز وجل : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالصدق .

والثاني : بالعدل .

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : معناه توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة ، قاله مجاهد .

والثاني : معناه اجعلوا سجودكم خالصاً لله تعالى دون ما سواه من الأوثان

والأصنام ، قاله الربيع بن أنس .

والثالث: معناه اقصدا المسجد في وقت كل صلاة، أمراً بالجماعة لها، ندباً عند الأكثرين، وحثماً عند الأقلين.

والرابع: أن أي موضع أدركت فيه وقت الصلاة فصل فيه فإنه مسجد ولا تؤخرها إلى حضور المسجد.

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: يعني أقروا له بالوحدانية وإخلاص الطاعة.

والثاني: ارغبوا إليه في الدعاء بعد إخلاصكم له الدين.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: كما بدأكم شقياً وسعيداً، كذلك تبعثون يوم القيامة، قاله ابن عباس.

الثاني: كما بدأكم فأمّن بعضكم وكفر بعضكم، كذلك تبعثون يوم القيامة، روى أبو سفيان عن جابر^(٢٣٩) عن النبي ﷺ قال: «تُبْعَثُ كُلُّ نَفْسٍ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ».

والثالث: كما خلقكم ولم تكونوا شيئاً، كذلك تعودون بعد الفناء أحياء، قاله

الحسن، وابن زيد.

والرابع: كما بدأكم لا تملكون شيئاً، كذلك تبعثون يوم القيامة.

روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن^(٢٤٠) النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١)

قوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: أن ذلك وارد في ستر العورة في الطواف على ما تقدم ذكره، قاله ابن

(٢٣٩) رواه الطبري (١٢ / ٣٨٤) واللفظ له ورواه مسلم (١٧ / ٢١٠) نووي وابن ماجه (١٤١٤) و(٤٢٣٠) ولفظه يحشر الناس على نياتهم.

(٢٤٠) رواه الطبري (١٢ / ٣٨٦) واللفظ له والبخاري (٨ / ٣٣٢)، (١١ / ٣٣١) ومسلم (١٧ / ١٩٣، ١٩٤) نووي وأحمد برقم (١٩٥٠، ٢٠٢٧)، والنسائي (٤ / ١١٧). وسيأتي هذا الحديث مرة أخرى.

عباس، والحسن، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جبير، وإبراهيم.

والثاني: أنه وارد في ستر العورة في الصلاة، قاله مجاهد، والزجاج.

والثالث: أنه وارد في التزين بأجمل اللباس في الجمع والأعياد.

والرابع: أنه أراد به المشط لتسريح اللحية.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ يعني ما أحله الله لكم.

ويحتمل أن يكون هذا أمر بالتوسع في الأعياد.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: لا تسرفوا في التحريم، قاله السدي.

والثاني: معناه لا تأكلوا حراماً فإنه إسراف، قاله ابن زيد.

والثالث: لا تسرفوا في أكل ما زاد على الشبع فإنه مضر، وقد جاء في الحديث: «أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبُرْدَةُ» (٢٤١)، يعني التخمّة.

ويحتمل تأويلاً رابعاً: لا تسرفوا في الإنفاق.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: لا يحب أفعالهم في السرف.

والثاني: لا يحبهم في أنفسهم لأجل السرف.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ يعني ستر العورة رداً على تركها من العرب في الطواف.

ويحتمل ثانياً: أن يريد زينتها في اللباس.

ثم قال: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم كانوا يحرمون في الإحرام (٢٤٢) أكل السمن واللبن، قاله ابن زيد، والسدي.

(٢٤١) رواه ابن السبي وأبو نعيم عن أنس مرفوعاً ورواه أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري مثله كما في الدر المنثور (٣/ ٤٤٥) والله أعلم بحال سنديهما.

(٢٤٢) قال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٠٠)، وما أحسن ما قال ابن جرير الطبري ولقد أخطأ من أثر لباس

والثاني: أنها البَحِيرَةُ والسائبة التي حرموها على أنفسهم، قاله الحسن، وقتادة.

وفي طيبات الرزق قولان:

أحدهما: أنه المستلذ.

والثاني: أنه الحلال.

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني أن الذين آمنوا في الحياة الدنيا لهم الطيبات من الرزق يوم القيامة لأنهم في القيامة يختصون بها وفي الدنيا قد يشركهم الكفار فيها.

وفي قوله: ﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وجهان:

أحدهما: خالصة لهم من دون الكفار.

والثاني: خالصة من مضرة أو مآثم.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ (٣٣)

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن الفواحش: الزنى خاصة، وما ظهر منها: المناكح الفاسدة، وما بطن: الزنى الصريح.

والثاني: أن الفواحش: جميع المعاصي، وما ظهر منها: أفعال الجوارح، وما بطن: اعتقاد القلوب.

﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن الإثم الخيانة في الأمور، والبغي: التعدي في النفوس.

الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حله ومن أكل البقول العدس واختاره على خبز البر ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة أهد.

والثاني : الإثم (٢٤٣) : الخمر، والبغي : السكر، قال الشاعر: (٢٤٤).

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول
وسمي الخمر بالإثم، والسكر بالبغي لحدوثة عنهما.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْنِي
ءَادَمُ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾

قوله عز وجل : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ولكل أمة كتاب فيما قضاه الله عليهم من سعادة أو شقاوة، من عذاب
أو رحمة، قاله جوير.

الثاني : ولكل نبي يدعوهم إلى طاعته وينهاهم عن معصيته، قاله معاذ بن
جبل.

والثالث : لكل أمة أجل فيما قدره الله من حياة، وقضاه عليهم من وفاة.

ويحتمل رابعاً : ولكل أمة مدة يبقون فيها على دينهم أن يحدثوا فيه الاختلاف.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أجل موتهم.

الثاني : أجل عذابهم، قاله جوير.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يزيد أجل حياتهم ولا ينقص.

والثاني : لا يتقدم عذابهم ولا يتأخر.

(٢٤٣) قال الشوكاني رحمه الله (٢ / ٢٠١) وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الإثم خاصاً بالخمر

قال النحاس فاما أن يكون الإثم بالخمر فلا يعرف ذلك وحقيقته أنه جميع المعاصي م ه راجع زاد

المسير (٣ / ١٩١) وروح المعاني (٨ / ١١٢).

(٢٤٤) زاد المسير (٣ / ١٩٢) وفتح القدير (٢ / ٢٠١) وروح المعاني (٨ / ١١٢).

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ
الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

قوله عز وجل: ﴿...﴾ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ﴿...﴾ فيه خمسة

تاويلات:

أحدها: هو عذاب الله الذي أعده لمن أشرك، قاله الحسن، والسدي.

والثاني: ما سبق لهم من الشقاء والسعادة، قاله ابن عباس.

والثالث: نصيب من كتابهم الذي كتبنا لهم أو عليهم بأعمالهم التي عملوها في
الدنيا من خير أو شر، قاله قتادة.

والرابع: نصيبهم مما كتب لهم من العمر والرزق والعمل، قاله الربيع بن

أنس، وابن زيد.

والخامس: نصيبهم مما وعدوا في الكتاب من خير أو شر، قاله الضحاك.

﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ في توفي الرسل لهم هنا قولان:

أحدهما: أنها وفاة الموت في الدنيا التي توبخهم عندها الملائكة.

والثاني: أنها وفاة الحشر إلى النار يوم القيامة، قاله الحسن.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ
أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبُهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا
هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ
﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُم لَأُخْرَبُهُمْ فَمَا كَان لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ

بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

قوله عز وجل: ﴿... حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ يعني في النار أدرك

بعضهم (٢٤٥) بعضاً حتى استكملوا فيها.

(٢٤٥) أي اجتمع فيها الأولون والآخرين من الكافرين من أهل الملل يقال أدركوا وتداركوا أي اجتمعوا مجاز

القرآن لأبي عبيدة (١/ ٢١٤).

﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمُ لِأَوْلَاهُمْ﴾ يعني الأتباع للقادة لأنهم بالاتباع لهم متأخرون عنهم، وكذلك في دخول النار تقدم القادة على الأتباع.
 ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَثَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ يريد بأحد الضعفين عذابهم على الكفر، وبالأخر عذابهم على الإغواء.
 ويحتمل هذا القول من الأتباع وجهين:
 أحدهما: تخفيف العذاب عنهم.

والثاني: الانتقام من القادة بمضاعفة العذاب عليهم.
 فأجابهم الله قال: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ يعني أنه وإن كان للقادة ضعف العذاب، لأن أحدهما بالكفر، والآخر بالإغواء، فلكم أيها الأتباع ضعف العذاب، وهذا قول الجمهور، وإن ضعف الشيء زيادة مثله.
 وفيه وجه ثان: قاله مجاهد: أن الضعف من أسماء العذاب.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ هُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾
 قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ فيه خمسة أقاويل:
 أحدها: أي لا تفتح لأرواحهم^(٢٤٦) لأنها لا تفتح لروح الكافر وتفتح لروح المؤمن، قاله ابن عباس، والسدي.

والثاني: لا تفتح لدعائهم، قاله الحسن.
 والثالث: لا تفتح لأعمالهم، قاله مجاهد، وإبراهيم.
 والرابع: لا تفتح لهم أبواب السماء لدخول الجنة لأن الجنة في السماء، وهذا قول بعض المتأخرين.
 والخامس: لا تفتح لهم أبواب السماء لنزول الرحمة عليهم، قاله ابن بحر.

(٢٤٦) ويتأيد هذا القول بما ثبت في حديث البراء بن عازب الطويل الذي يشرح فيه قبض روح الكافر والمؤمن وهو حديث صحيح جمع طرقه وزوائده العلامة الألباني في أحكام الجنائز ص.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: سم الخياط: ثقب الإبرة، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، والسدي.

والثاني: أن سم الخياط هو السم القاتل الداخل في مسام الجسد أي ثقبه.

وفي ﴿الْجَمَلُ﴾ قراءتان:

إحداهما: وعليها الجمهور، الجَمَل بفتح الجيم وتخفيف الميم وهو ذو القوائم

الأربع.

والثانية الجُمْل بضم الجيم وتشديد الميم وهو القلس^(٢٤٧) الغليظ، وهذه قراءة

سعيد بن جبير^(٢٤٨)، وإحدى قراءتي ابن عباس، وكان ابن عباس يتأول أنه حبل السفينة.

ومعنى الكلام أنهم لا يدخلون الجنة أبداً كما لا يدخل الجمل في سم الخياط

أبداً، وضرب المثل بهذا أبلغ في إيأسهم من إرسال الكلام وإطلاقه في النفي،
والعرب تضرب هذا للمبالغة، قال الشاعر: (٢٤٩).

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وعاد القادر كاللبن الحليب

قوله عز وجل: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال الحسن: فراش من نار، والمهاد:

الوطء، ومنه أخذ مهد الصبي.

﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها اللحف.

والثاني: اللباس.

والثالث: الظلل، قاله الحسن.

(٢٤٧) هو الحبل الغليظ من حبال السفن وسيأتي تفسيره فيما بعد.

(٢٤٨) قال ابن الجوزي رحمه الله في زاد المسير (٣/ ١٩٧) «وهي قراءة أبي رزين ومجاهد وابن محيص وأبي

مجلز وابن يعمر وإبان عن عاصم وروى مجاهد عن ابن عباس» حتى يلج الجمل بضم الجيم وفتح

الميم وتخفيفها فقال هي قراءة قتادة وقد رويت عن سعيد بن جبير وأنه قرأ حتى يلج الجمل بضم

الجيم وتسكين الميم وهي قراءة عكرمة أيضاً م هـ.

(٢٤٩) في شطر البيت الثاني خطأ هنا لعله من الناسخ وصوابه:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وعاد القادر كاللبن الحليب

والمراد بذلك أن النار من فوقهم ومن تحتهم، فعبّر عما تحتهم بالمهاد، وعما فوقهم بالغواش (٢٥٠).

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَفْضَلِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: الأهواء والبدع، قاله سهل بن عبد الله.

والثاني: التباغض والتحاسد.

والثالث: الحقد.

والرابع: نزع من نفوسهم أن يتمنوا ما لغيرهم.

وفي نزعه وجهان:

أحدهما: أن الله نزع ذلك من صدورهم بلطفه.

والثاني: أن ما هداهم إليه من الإيمان هو الذي نزع من صدورهم.

وفي هذا الغل قولان:

أحدهما: أنه غل الجاهلية، قاله الحسن.

والثاني أنهم لا يتعادون ولا يتحاقدون بعد الإيمان، وقد روي عن علي بن أبي

طالب كرم الله وجهه أنه (٢٥١) قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير ممن

قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾.

(٢٥٠) قال العلامة الألوسي (٨ / ١١٩) «ولا يخفى على المتأمل في لطائف القرآن العظيم ما في إعداد

المهاد والغواش لهؤلاء المستكبرين عن الآيات ومنعهم من العروج إلى الملكوت وتقيد عدم دخولهم الجنة بدخول البعير يخرق الإبرة من اللطافة فتأمل أهد.

(٢٥١) رواه ابن جرير (١٢ / ٤٣٨).

وقيل : إنها نزلت في أهل بدر.

ويحتمل قوله : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ وجهين :

أحدهما : هداانا لتزعم الغل من صدورنا .

والثاني : هداانا لثبوت الإيمان في قلوبنا حتى نزع الغل من صدورنا .

وفيه وجه ثالث : قال جوير : هداانا لمجاوزة الصراط ودخول الجنة .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله عز وجل : ﴿... وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أما

الأعراف فسور بين الجنة والنار، قاله مجاهد، والسدي، وهو جمعٌ واجدهُ عُرْفٌ وهو ما ارتفع عن غيره، ومنه عرف الديك وعرف الفرس، قال الراجز.

كل كتاب لجمعه موافى كالعلم الموفى على الأعراف (٢٥٢).

وفي الذين على الأعراف خمسة أقاويل :

أحدها : أنهم فضلاء المؤمنين وعلمائهم، قاله الحسن، ومجاهد، قال أمية بن

أبي الصلت :

وآخرون على الأعراف قد طمعوا بجنة حفها الرمان والخضر

(٢٥٢) كذا قال وهو خطأ والصواب .

كل كناية لحمه يناف كالعلم الموفى على الأعراف والتصويب من الطبري (٤٥٠/٢) وغيره والبيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢١٥/١) واللسان (نوف) وغريب القرآن : ١٦٨ وزاد المسير (٢٠٥ / ٣).

وهذا وإن كان شعراً جاهلياً وحال الأعراف منقول عن خبر يروى فيحتمل أمرين :

أحدهما : أن يكون أمية قد وصل إلى علمه من الصحف الشرعية .
والثاني : أن يكون الله قد أنطق به أمية إلهاماً لتصديق ما جاء به القرآن .
والثاني : أنهم ملائكة يرون في صور الرجال ، قاله أبو مجلز (٢٥٣) .
والثالث : أنهم قوم بطأت بهم صفائهم إلى آخر الناس ، قاله حذيفة .
والرابع : أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فجعلوا هنالك حتى يقضي الله من أمرهم ما يشاء ثم يدخلهم الجنة ، قاله ابن مسعود .
والخامس : أنهم قوم قتلوا في سبيل الله وكانوا عصاة لأبائهم قيل إنهم غزوا بغير إذنتهم ، وقد روى محمد بن عبد الرحمن عن أبيه (٢٥٤) قال :

سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ فَقَالَ : « هُمْ قَوْمٌ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَعْصِيَةِ آبَائِهِمْ ، فَمَنْعَهُمْ قَتْلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَنِ النَّارِ وَمِنْهُمْ مَعْصِيَةُ آبَائِهِمْ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ » .

ومعنى قوله : « يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ » يعني يعرفون أهل النار وأهل الجنة بعلامتهم التي يتميزون بها ، وعلامتهم في وجوههم وأعينهم ، قال الحسن البصري : علامة أهل النار سواد الوجوه وزرقة العيون ، وعلامة أهل الجنة بياض الوجوه وحسن العيون .

فإن قيل في أصحاب الأعراف : إنهم فضلاء المؤمنين كان ذلك زيادة في ثوابهم ومبالغة في كرامتهم لأنهم يرون منازلهم في الجنة فيستمعون بها ، ويرون عذاب النار فيفرحون بالخلاص منها .

(٢٥٣) قال الطبري معقبا على هذا القول (١٢ / ٤٦١) « قول لا معنى له » .

(٢٥٤) رواه الطبري (١٢ / ٤٥٨) من حديث عبد الرحمن المزني .

وزاد السيوطي في الدر (٣ / ٤٦٤) نسبه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في البعث والخراطي في مساوىء الأخلاق وابن الأنباري في الأضداد وأحمد بن منيع والحاثر بن أبي أسامة وسعيد بن منصور .

وفي سند الحديث أبو معشر نجيع بن عبد الرحمن السندي المدني وهو ضعيف راجع التعليق على الخبر في الطبري (١٢ / ٤٥٨) .

وإن قيل: إنهم المفضلون وأصحاب الصغائر من المؤمنين كان ذلك لنقص ثوابهم عن استحقاق الدخول للجنة.

وإن قيل: إنهم الملائكة، احتمل أمرهم ثلاثة أوجه:
أحدها: أن يؤمروا بذلك حمداً لأهل الجنة وذمّاً لأهل النار وزيادة في الثواب والعقاب.

والثاني: أن يكونوا حفظة الأعمال في الدنيا شاهدين بها عند الله في الآخرة أمروا بذلك، ما أدوه من الشهاد تبشيراً لأهل الجنة وتوبيخاً لأهل النار.
والثالث: أن يكونوا خزنة الجنة والنار، فإن من الملائكة من أفرد لخزنة الجنة، ومنهم من أفرد لخزنة النار، ويكون هؤلاء قد جمع لهم بين الأمرين، والله أعلم بغير ذلك.

وحكى ابن الأنباري أن قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رَجَالٌ﴾ معناه على معرفة أهل الجنة والنار رجال، وأن قوله: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية. من قول أصحاب الأعراف، وهو مخالف لقول جميع المفسرين.

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

وفي قوله: ﴿وَنَادَىٰ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه بمعنى ينادي، لأنه في المستقبل.

والثاني: أنه على الحذف وتقديره: إذا كان يوم القيامة نادى أصحاب الأعراف.

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

قوله عز وجل: ﴿... أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: من ماء الرحمة ومما رزقكم الله من القربة.
والثاني: من ماء الحياة ومما رزقكم الله من النعم.

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ يعني القرآن.
﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: بيئنا ما فيه من الحلال والحرام على علم بالمصلحة.
والثاني: ميزنا به الهدى من الضلالة على علم بالثواب والعقاب.
﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ يحتمل وجهين:
أحدهما: أن الهدى البرهان.

والثاني: أن الهدى الإرشاد، والرحمة: اللطف.

قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي هل ينظرون، فعبر عن الانتظار بالنظر، ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي تأويل القرآن، وفيه وجهان:
أحدهما: عاقبته من الجزاء، قاله الحسن.

والثاني: ما فيه من البعث والنشور والحساب.
﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: القضاء به، قاله الحسن.

الثاني: عاقبة ما وعدهم الله به في الدنيا والآخرة، قال الكلبي.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: معنى نسوه أعرضوا عنه فصار كالمنسي، قاله أبو مجلز.

والثاني : تركوا العمل به ، قاله الزجاج .

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنبياء الله في الدنيا بكتبه المنذرة .

والثاني : الملائكة عند المعاينة بما بشروهم به من الثواب والعقاب .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ اللَّهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

قوله عز وجل : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾

وفي ترك تعجيل خلقها في أقل الزمان مع قدرته على ذلك أربعة أوجه :

أحدها : أن إنشاءها شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال أبلغ في الحكمة وأدل على

صحة التدبير ليتوالى مع الأوقات بما ينشئه من المخلوقات تكرار المعلوم بأنه عالم قادر يصرف الأمور على اختياره ويجريها على مشيئته .

والثاني : أن ذلك لا اعتبار الملائكة ، خلق شيئاً بعد شيء .

والثالث : أن ذلك ترتب على الأيام الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس

والجمعة وهي ستة أيام فأخرج الخلق فيها ، قاله مجاهد .

والرابع : ليعلمنا بذلك : الحساب كله من ستة ومنه يتفرع سائر العدد قاله ابن

بحر .

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معناه استوى أمره على العرش ، قاله الحسن .

والثاني استولى على العرش (٢٥٥) ، كما قال الشاعر :

قَدْ اسْتَوَىٰ بِشَرِّ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُّهْرَاقِ

(٢٥٥) قال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن الله خلق العرش إظهاراً لقدرته ولم يتخذه مكاناً لذاته

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : «استوى كما أخبر لا كما يخطر للبشر» . ومذهب السلف

الصالح أن الله تعالى استوى على العرش استواءً يليق بكماله وجماله من غير كيف ولا مماسة ولا

استقرار .

وفي ﴿الْعَرْشِ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه المَلِكُ كني عنه بالعرش والسرير كعادة ملوك الأرض في الجلوس على الأسرة، حكاه ابن بحر.

والثاني : أنه السموات كلها لأنها سقف^(٢٥٦)، وكل سقف عند العرب هو عرش، قال الله تعالى : ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الكهف : ٤٢] [الحج : ٤٥] أي على سقوفها.

والثالث : أنه موضع في السماء في أعلاها وأشرفها، محجوب عن ملائكة السماء.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي يغشي ظلمة الليل ضوء النهار.

﴿يُطَلِّبُهُ حَيْثُا﴾ لأن سرعة تعاقب الليل والنهار تجعل كل واحد منهما كالطالب لصاحبه.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : مذللات بقدرته.

والثاني : جاريات بحكمه.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه مالك الخلق وتدبيرهم.

والثاني : إليه إعادتهم وعليه مجازاتهم.

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

قوله عز وجل : ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في الرغبة والرغبة، قاله ابن عباس.

(٢٥٦) والصواب أن العرش هو مخلوق عظيم من مخلوقات الرب تبارك وتعالى ويطلق على سرير الملك وقد وردت فيه أحاديث كثيرة راجعها في الرسالة العريشية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

والثاني: التضرع: التذلل والخضوع، والخفية: إخلاص القلب.
ويحتمل أن التضرع بالبدن، والخفية إخلاص القلب.
﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يعني في الدعاء، والاعتداء فيه ثلاثة أقاويل:
أحدها: أن يسأل ما لا يستحقه من منازل الأنبياء، قاله أبو مجلز.
والثاني: أنه يدعو باللعة والهلاك على من لا يستحق، قاله مقاتل.
والثالث: أن يرفع صوته بالدعاء^(٢٥٧)، روى أبو عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري قال^(٢٥٨): كنا مع النبي ﷺ في غزاة فأشرفوا واد، فجعل الناس يكبرون ويهللون ويرفعون أصواتهم، فقال النبي ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبُعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ».
قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فيه أربعة أقاويل:
أحدها: لا تفسدوها بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان.
والثاني: لا تفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل.
والثالث: لا تفسدوها بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة، قاله الكلبي.
والرابع: لا تفسدوها بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه، قاله الحسن.
﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يحتمل وجهين:
أحدهما: خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه.
والثاني: خوفاً من الرد وطمعاً في الإجابة.
﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن قيل: فلم أسقط الهاء من قريب والرحمة مؤنثة؟
فعن ذلك جوابان^(٢٥٩):
أحدهما: أن الرحمة من الله إنعام منه فذكر على المعنى، وهو أن إنعام الله قريب من المحسنين، قاله الأخفش.

(٢٥٧) ولا شك في دخول هذه الأقوال الثلاثة في الاعتداء في الدعاء قال الحافظ ابن حجر (٢٩٨ / ٨) فتح
«والاعتداء في الدعاء يقع بزيادة الرفع فوق الحاجة أو يطلب ما يستحيل حصوله شرعاً أو يطلب معصية
أو يدعو بما يؤثر خصوصاً وما وردت كراهته كالسجع المتكلف وترك المأمور».
(٢٥٨) رواه الطبري (٤٨٦ / ١٢) واللفظ له البخاري (٩٤ / ٦) ومسلم (٤٠٧٦ / ٤).
(٢٥٩) وقد جمع العلامة ابن القيم مسالك الناس في توجيه ذلك والإجابة عليها مسلماً مسلماً في كتابه بدائع
الفوائد.

والثاني: أن المراد به مكان الرحمة، قاله الفراء، كما قال عروة بن حزام (٢٦٠):
عَشِيَّةٌ لَا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبَةً فَتَدْنُو وَلَا عَفْرَاءَ مِنْكَ بَعِيدَةً
فأراد بالبعد مكانها فأسقط الهاء، وأرادها هي بالقريبة فأثبت الهاء.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سَقَفْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ
نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ
وَالَّذِي خُبْتُ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ يعني طيب التربة.

﴿يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ يعني يخرج نباته حسناً جيداً.

﴿وَالَّذِي خُبْتُ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن النكد القليل الذي لا ينتفع به، قاله السدي.

والثاني: أنه العسر بشدته المانع من خيره، قال الشاعر: (٢٦١).

وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَهُ طَيِّبًا لَا خَيْرَ فِي الْمُنْكَودِ وَالنَّكَدِ

وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فجعل المؤمن كالأرض الطيبة
والكافر كالأرض الخبيثة السبخة، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة،
والسدي.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(٢٦٠) ديوانه: الطبري (١٢ / ٤٨٨) ومعاني القرآن للفراء (١ / ٣٨١) وسقط اللآلي (١ / ٤٠١) وتزيين

الأسواق (١ / ٨٤). والبيت في الديوان:

عشية لا عفرَاء منك بعيدة فتسلو ولا عفرَاء منك قريب

(٢٦١) اللسان (نكد) والطبري (١٢ / ٤٩٥).

﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
 أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ
 تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْنَوم
 أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن
 قَوْمِهِ إِنِّي لَأَنذِرُكُم فِي سَفَاهَةٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكُم مِّنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ
 يَبْنَوم لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ
 رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ
 رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ
 وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَأَذْكُرُوا لَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

قوله عز وجل: ﴿... وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ فيها قولان:

أحدهما: القوة، قاله ابن زيد.

والثاني: بسط البدن وطول الجسد، قيل: إنه كان أقصرهم طولاً اثني عشر ذراعاً.

﴿فَأَذْكُرُوا لَآءَ اللَّهِ﴾ معناه نعم الله، وقال الشاعر: (٢٦٢).

أَبْيَضُ لَا يَرْهَبُ الْهَزَالَ وَلَا يَقْطَعُ رَجَمًا وَلَا يَخُونُ إِلَى

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنَبِّئُكُمْ
 نَعِدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ
 رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا

نَزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾
فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا
كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ في الرجس ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه العذاب، قاله زيد بن أسلم.

والثاني: السخط، قاله ابن عباس.

والثالث: أن الرجس والرجز بمعنى واحد إلا أن الزاي قلبت سيناً كما قلبت السين تاء في قول الشاعر: (٢٦٣).

أَلَا لِحَى اللَّهِ بَنِي السُّعْلَةِ عَمْرُو بْنُ يَرْبُوعٍ لِشَامِ النَّاتِ
لَيْسُوا بِأَعْفَافٍ وَلَا أَكْيَافِ

يريد الناس، وأكياس.

قوله عز وجل: ﴿... فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ يعني الأصنام، وفي مراده بتسميتهم وجهان:

أحدهما: في تسميتها آلهة يعبدونها.

والثاني: أنه تسميتهم لبعضها أنه يسقيهم المطر، والآخر أنه يأتيهم بالرزق، والآخر أنه يشفي المريض، والآخر يصحبهم في السفر.

وقيل: إنه ما أمرهم هود إلا بتوحيد الله والكف عن ظلم الناس فأبوا وقالوا: من أشد منا قوة، فأهلكوا.

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقُومُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ
قَدْ جَاءَ تَكْثُفُكُمْ بِئِنَّهُ مِّنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ مَا يَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا

إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ الْآلَاءَ وَاللَّهُ لَا يَنْعَتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لَهُمْ أَمِنْهُمْ أَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَعْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٧٨﴾

قوله عز وجل: ﴿... هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ في الآية هنا وجهان:

أحدهما: أن الآية الفرض كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ﴾ [النور: ١] أي فرضاً، ويكون معنى الكلام هذه ناقة الله عليكم فيها فرض أن تذروها ﴿تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ أي لا تعقروها.
والثاني: أنها العلامة الدالة على قدرته.

والآية فيها آيتان:

إحداهما: أنها خرجت من صخرة ملساء تمخضت بها كما تتمخض المرأة ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها.

والثانية: أنه كان لها شرب يوم، ولهم شرب يوم يخصهم لا تقرب فيه ماءهم، حكى ذلك عن أبي الطفيل والسدي وابن إسحاق.

قوله عز وجل: ﴿... وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني أنزلكم في الأرض وهي أرض الحجر بين الشام والمدينة.
والثاني: فيها من منازل تأوون إليها، ومنه قولهم: بؤاته منزلاً، إذا أمكنته منه ليأوي إليه، قال الشاعر (٢٦٤):

وَبُؤْتُ فِي صَمِيمٍ مَعْشَرَهَا فَتَمَّ فِي قَوْمِهَا مَبُوءُهَا

(٢٦٤) هو إبراهيم بن هزرة كما في مجاز القرآن (١/ ٢١٨) وشواهد المغني (٢٨٠) واللسان (بوا).

أي مكنت من الكرم في صميم النسب.
﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا﴾ والقصور ما شيد وعلا من المنازل اتخذوها في
سهول الأرض ليصيفوا فيها.
﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ لتكون مساكنهم في الشتاء لأنها أحصن وأبقى وأدفاً
فكانوا طوال الأمال طوال الأعمار.

﴿فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ فيه ما قدمنا، أي نعمه أو عهده.

﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لا تعملوا فيها بالمعاصي.

والثاني: لا تدعوا إلى عبادة غير الله.

وفي العبث وجهان:

أحدهما: أنه السعي في الباطل.

والثاني: أنه الفعل المؤدي لضير فاعله.

قوله عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فيها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها حركة الأرض تضطرب من تحتهم.

والثاني: أنها الصيحة، قاله مجاهد، والسدي.

والثالث: أنها زلزلة أهلكوا بها، قاله ابن عباس.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ قال محمد بن مروان السدي: كل ما في

القرآن من ﴿دَارِهِمْ﴾ فالمراد به مدينتهم، وكل ما فيه من ﴿دِيَارِهِمْ﴾ فالمراد به

مساكنهم، وفي الجائهم قولان:

أحدهما: أنه البارك على ركبته (٢٦٥) لأنهم أصبحوا موتى على هذه الحال.

والثاني: معناه أنهم أصبحوا كالرماد الجائهم لأن الصاعقة أحرقتهم.

وقيل: إنه كان بعد العصر.

﴿فَقَتَلَىٰ عَنْهُمْ﴾ أي خرج من بين أظهرهم، وقيل إن صالحاً خرج عنهم إلى

رملة فلسطين بمن آمن معه من قومه وهم مائة وعشرة، وقيل إنه لم تهلك أمة ونبينا

بين أظهرها.

(٢٦٥) ومنه قول جرير في ديوانه: ٥٠٧.

عرفت المنتأى وعرفت منها مطايا القدر كالجدد الجشوم

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَجِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله عز وجل: ﴿...﴾ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٢٦٦﴾ فيه وجهان:
أحدهما: من إتيان الأدبار.

والثاني: يتطهرون بإتيان النساء في الأطهار، قال الشاعر:

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا سَدُّوا مَا زَرَهُمْ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَانَتْ بِأَطْهَارِ
فَأَنْجَيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَ أَنَّهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
مَطَرًا فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ فيه وجهان:

أحدها: فخلصناه.

والثاني: على نجوة من الأرض، وقيل: إن أهله ابتاه واسمهما زينا ورميا.
﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: من الباقيين في الهلكى، والغابر الباقي، ومنه قول الراجز ﴿٢٦٧﴾:

فَمَا وَنَى مُحَمَّدٌ مَّدْ أَنْ غَفَرَ لَهُ الْإِلَهُ مَا مَضَى وَمَا غَبَرَ

(٢٦٦) قال العلامة الألوسي في روح المعاني (٨ / ١٧١) «ومقصود الأشقياء بهذا الوصف السخرية بلوط ومن معه ويتطهروهم من الفواحش وتباعدهم عنها وتنزههم عما في المحاش والافتخار بما كانوا فيه من القدرة كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم أخرجوا عنا هذا المتكشف أريحونا من هذا المتزهة أه قلت وما أكثر الشطار في زماننا الذين يبايرون أهل السنة العداء ويصبون عليهم السباب والشتائم.

(٢٦٧) هو رؤية بن العجاج والبيت من أرجوزة في ديوانه ص ٤، ٢٨.

والثاني: من الغابرين في النجاة، من قولهم: قد غبر عنا فلان زماناً إذا غاب، قال الشاعر: (٢٦٨)

أَفْبَعَدْنَا أَوْ بَعَدَهُمْ يُرْجَى لِغَابِرِنَا الْفَلَاحُ

والثالث: من الغابرين في الغم، لأنها لقيت هلاك قومها، قاله أبو عبيدة.

وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثِيرُهُ مِّن رَّبِّكُمْ فَآوُوا إِلَى الْكَيْلِ وَالْإِمِزَاتِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنۢ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَّاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ الصراط: الطريق، قال الشاعر: (٢٦٩).

شَحْنَا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى تَرْكَنَاهُمْ أَذَلَّ مِنَ الصَّرَاطِ

وفي المراد به ثلاثة أقاويل:

أحدهما: أنهم كانوا يقعدون على الطريق إلى شعيب يؤذون من قصده للإيمان به ويخوفونه بالقتل، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة.
والثاني: أنه نهاهم عن قطع الطريق، قاله أبو هريرة.
والثالث: أنهم العشارون نهاهم عن تعشير أموال الناس.

(٢٦٨) هو طرفه بن العبد.

(٢٦٩) هو عامر بن الطفيل وقد تقدم تخريج البيت.

﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ ويحتمل وجهين :

أحدهما : تصدون المؤمنين عن طاعة الله وعبادته .

والثاني : تصدون من أراد الإيمان بإغوائه ومخادعته .

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ قال قتادة : يعني تبغون السبيل عوجاً عن الحق .

والفرق بين العوج بالكسر وبالفتح أن العوج بكسر العين ما كان في الدين ، ولا

يُرَى ، والعوج بفتح العين ما كان في العود ، وما يرى .

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ﴾ حكى الزجاج فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : كثر عددكم بعد القلة قال ابن عباس : وذلك أن مدين بن إبراهيم تزوج

زينا بنت لوط وولد آل مدين منها .

والثاني : كثركم بالغنى بعد الفقر .

والثالث : كثركم بالقوة بعد الضعف .

وذكر بعض المفسرين وجهاً رابعاً : أنه كثرهم بطول الأعمار بعد قصرها من

قبل .

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ

مِنْ قَرِينَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَانُوا فِي سَكِينٍ ۝٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا

بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ۝٨٩﴾

قوله عز وجل : ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ

مِنْهَا﴾ والفرق بين الملة والدين أن الملة ما شرعه الله ، والدين ما اعتقده الناس تقرباً

إلى الله ، فصار كل دين ملة وليس كل ملة ديناً .

فإن قيل : فالعود إلى الشيء الرجوع إليه بعد الخروج منه فهل كان شعيب على

ملة قومه من الكفر حتى يقول : ﴿ إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ .

في الجواب عنه ثلاثة أوجه :

أحدها: أن هذه حكاية عمن اتبع شعبياً من قومه الذين كانوا قبل اتباعه على ملة الكفر.

الثاني: أنه قال ذلك على التوهم أنه لو كان عليها لم يعد إليها.

والثالث: أنه يطلق ذكر العود على المبتدئ بالفعل وإن لم يسبق منه فعل مثله من قولهم: قد عاد عليّ من فلان مكروه وإن لم يسبقه بمثله كقول الشاعر:

لَئِنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ أَحْسَنَ مَرَّةً إِلَيَّ فَقَدْ عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ
أَتَى دُونَ حُلُوِّ الْعَيْشِ شَيْءٌ أَمِيرُهُ كُرُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ كُرُوبُ
ثم قال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن نعود في القرية إلا أن يشاء الله، قاله بعض المتكلمين.

والثاني: وهو قول الجمهور أن نعود في ملة الكفر وعبادة الأوثان.
فإن قيل فالله تعالى لا يشاء عبادة الأوثان فما وجه هذا القول من شعيب؟
فالجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه قد كان في ملتهم ما يجوز التعبد به.

والثاني: أنه لو شاء عبادة الوثن لكانت عبادته طاعة لأنه شاءه كتعبده بتعظيم الحجر الأسود.

والثالث: أن هذا القول من شعيب على التعبد والامتناع كقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وكقولهم: حتى يشيب الغراب.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ فيه وجهان:
أحدهما: اكشف بيننا وبين قومنا، قاله قتادة.

والثاني: احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين. وذكر الفراء، أن أهل عُمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح. وقال غيره: إنه لغة مراد، قال الشاعر (٢٧٠).
أَلَا أَبْلِغُ بَنِي عُصَمَ رَسُولًا بِأَنِّي عَنْ فَتَاحِكُمْ غَنِي

(٢٧٠) تقدم تخريج هذا البيت ونزيد هنا أن من اصلاح المنطق ١١٢ والطبري (٥٦٤/١٢) والقرطبي (٩٤/١٣) واللسان (فتح) والشرط الثاني، من البيت.

بأنني عن فتاحكم غني.

وقد قال ابن عباس: كنت لا أدري ما قوله: ﴿رَبَّنَا آفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ حتى سمعت بنت ذي يزن تقول: تعالني أفاتحك، يعني أقاضيك. وقيل: إنه سمي بذلك لأنه يفتح باب العلم الذي قد انغلق على غيره. فإن قيل: فما معنى قوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ ومعلوم أن الله لا يحكم إلا بالحق؟ ففي الجواب عنه أربعة أوجه:

- أحدها: أنه قال ذلك صفة لحكمه لا طلباً له.
والثاني: أنه سأل الله أن يكشف لمخالفه من قومه أنه على حق.
الثالث: أن معناه احكم بيننا الذي هو الحق، قاله ابن بحر.
الرابع: احكم في الدنيا بنصر الحق، قاله السدي.

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾
فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ فيه أربعة تأويلات:
أحدها: كأن لم يقيموا فيها، قاله ابن قتيبة.
والثاني: كأن لم يعيشوا فيها، قاله الأخفش.
والثالث: كأن لم ينعموا فيها، قاله قتادة (٢٧١).
والرابع: كأن لم يعمرها فيها، قاله ابن عباس.
﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ فيه وجهان:
أحدهما: بالكفر.

والثاني: بالهلاك، قاله ابن عباس.

فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا

(٢٧١) والذي في الطبري (٥٧٠/١٢) كان لم يعيشوا كان لم ينعموا، وفي الدار (٥٠٢/٣) زاد نسبه لعبد بن حميد. واقتصر على الجملة الأولى فقط.

يَا بَاسَاءَ وَالضَّرَّاءَ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ
حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: أن البأساء: القحط. والضراء: الأمراض والشدائد. قاله الحسن.

والثاني: أن البأساء الجوع. والضراء: الفقر، قاله ابن عباس.

والثالث: أن البأساء: البلاء، والضراء الزمانة.

والرابع: أن البأساء: ما نالهم من الشدة في أنفسهم. والضراء: ما نالهم في
أموالهم، حكاه علي بن عيسى.

ويحتمل قولاً خامساً: أن البأساء الحروب.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يتوبون.

الثاني: يدعون، قاله ابن عباس.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: مكان الشدة الرخاء، قاله ابن عباس، والحسن، وفتادة، ومجاهد.

والثاني: مكان الخير والشر.

﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: حتى كثروا، قاله ابن عباس، ومجاهد، والسدي، قال لبيد (٢٧٢):

وَأَنَاسٌ بَعْدَ قَتْلِ قَدْ عَفَوْا وَكَثِيرٌ زَالَ عَنْهُمْ فَانْتَقَلَ

والثاني: حتى أعرضوا، قاله ابن بحر.

والثالث: حتى سُرّوا، قاله فتادة.

والرابع: حتى سمّوا، قاله الحسن، ومنه قول بشر بن أبي حازم:

فَلَمَّا أَنْ عَفَا وَأَصَابَ مَالاً تَسَمَّنَ مَعْرِضاً فِيهِ أَرْوَارُ

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضُّرُّ وَالسَّرَّاءُ﴾ أي الشدة والرخاء يعنون ليس البأساء والضراء عقوبة على تكذيبك وإنما هي عادة الله في خلقه أن بعد كل خصب جدباً وبعد كل جدب خصباً.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾

قوله عز وجل: ﴿... لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لرزقنا ، قاله السدي .

والثاني: لوسعنا .

﴿بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: (بركات السماء: القطر . وبركات الأرض:

النبات والثمار ويحتمل أن تكون بركات السماء قبول الدعاء . وبركات الأرض: تسهيل الحاجات .

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

وفي قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يقبلون، كما قال في الصلاة: سمع

الله لمن حمده، أي قبل الله ممن حمده، وقال الشاعر: (٢٧٣)

دَعَوْتُ اللَّهَ حَتَّى خِفْتُ أَلَّا يَكُونَ اللَّهُ يَسْمَعُ مَا أَقُولُ

أي يقبل .

تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا

لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ
 ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ في قوله: ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾ قولان:

أحدهما: أن العهد الطاعة، يريد: ما وجدنا لأكثرهم من طاعة لأنبيائهم، لأنه قال بعده ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ وتكون ﴿مِنْ﴾ في هذا الموضع على هذا التأويل زائدة.

والثاني: أنه محمول على ظاهر العهد أي من وفاء بعهده.

وفي المراد بالعهد هنا ثلاثة أقاويل.

أحدها: الميثاق الذي أخذه الله عليهم في ظهر آدم قاله أبو جعفر الطبري.

والثاني: ما جعله الله في عقولهم من وجوب شكر النعمة، وأن الله هو

المنعم، قاله علي بن عيسى.

والثالث: أنه ما عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، قاله

الحسن ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ في قوله ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ وجهان:

أحدهما: خارجين عن طاعته.

والثاني: خائنين في عهده، وهذا يدل على أن العصاة أكثر من المطيعين.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْزَلْنَاهُ كَيْفَ
 كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرْ عَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ
 مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ
 فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله عز وجل: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ في ﴿حَقِيقٌ﴾ وجهان:

أحدهما: حريص، قاله أبو عبيدة.
والثاني: واجب، مأخوذ من وجوب الحق.
وفي قوله: ﴿إِلَّا الْحَقُّ﴾ وجهان:
أحدهما: إلا الصدق.

والثاني: إلا ما فرضه الله عليّ من الرسالة.

قَالَ الْمَلَأَمِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكَّ
بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا
نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: معناه أخيه، قاله ابن عباس والحسن.

والثاني: أحبسه، قاله قتادة والكلبي.

﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هم أصحاب الشرط وهو قول الجماعة أرسلهم في حشر السحرة وكانوا اثنين وسبعين رجلاً (٢٧٤).

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا
أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ
الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فغلبوا هنالك وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى
السَّحَرَةُ سِحْرَ دِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾

(٢٧٤) وفي عددهم أقوال أخرى تصل إلى ثلاثة عشر ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٤٠).

قوله عز وجل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ قال ابن عباس: العصا أول آيات موسى وكانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع بطول موسى، قصد باب فرعون فألقى عليه الفزع، فشاب فخضب بالسواد استحياء من قومه، فكان فرعون أول من خضب بالسواد.

﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ معنى تلقف هو سرعة التناول إلا أن المراد هنا سرعة ابتلاعه بالفم. قال أبو حاتم: وهي في بعض القراءات تلقم بالميم والتشديد، قال الشاعر:
 أَنْتَ عَصَا مُوسَى الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَلْقَمُ مَا يَأْفِكُهُ السَّاحِرُ
 وفي قوله: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ وجهان:

أحدهما: معناه يقلبون، ومنه المؤتفكات أي المنقلبات، قاله ابن عيسى.

والثاني: معناه يكذبون لأن الإفك هو الكذب، قاله مجاهد.

فإن قيل: فلم أمر موسى السحرة أن يلقوا وذلك منهم كفر ولا يجوز أن يأمر به نبي؟
 قيل عن ذلك جوابان.

أحدهما: أن مضمون أمره إن كنتم محقين فآلقوا.

والثاني: القول على ما يصح ويجوز لا على ما يفسد ويستحيل.

قوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ أي ظهر الحق، قاله الحسن، ومجاهد، وفي الحق الذي ظهر فيه قولان:

أحدهما: ظهرت عصا موسى على جبال السحرة.

والثاني: ظهرت نبوة موسى على ربوبية فرعون.

قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ في سجودهم قولان:

أحدهما: أنهم سجدوا لموسى تسليماً له وإيماناً به.

والثاني: أنهم سجدوا لله إقراراً بربوبيته، لأنهم ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

وفي سجودهم قولان:

أحدهما: أن الله ألهمهم ذلك لطفاً بهم.

والثاني: أن موسى وهارون سجداً شكراً لله عند ظهور الحق على الباطل فاق্তدوا بهما في السجود لله طاعة.

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ
لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ
لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنقُمُ مِنَّا إِلَّا أَن
ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَجَاءٍ تَتَّارِبْنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ
مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْهَتَّكَ قَالَ
سَنُقْذِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوِذِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ
مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ...﴾ الآية: ﴿الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ
فِرْعَوْنَ﴾ فيهم ثلاثة أقاويل:
أحدها: أنهم أشرافهم.
والثاني: رؤساؤهم.
والثالث: أنهم الرهط والنفر الذين آمنوا معهم.
والفرق بين الرهط والنفر من وجهين:
أحدهما: كثرة الرهط وقلة النفر.
والثاني: قوة الرهط وضعف النفر، وفي تسميتهم بالملأ وجهان:
أحدهما: أنهم مليئون بما يراد منهم.
والثاني: لأنهم تملأ النفوس هيبتهم.
وفيه وجه ثالث: لأنهم يملأون صدور المجالس.
فإن قيل: فما وجه إقدامهم على الإنكار على فرعون مع عبادتهم له؟ قيل:

لأنهم رأوا منه خلاف عادته وعادة الملوك في السطوة بمن أظهر العناد وخالف، وكان ذلك من لطف الله بموسى .

وفي قوله: ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وجهان:

أحدهما: ليفسدوا فيها بعبادة غيرك والدعاء إلى خلاف دينك.

والثاني: ليفسدوا فيها بالغلبة عليها وأخذ قومه منها.

ثم قالوا: ﴿وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ فإن قيل: فما وجه قولهم ذلك له وهم قد صدقوه على قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾؟ [النازعات: ٢٤].

قيل الجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه كان يعبد الأصنام وكان قومه يعبدونه، قاله الحسن.

والثاني: أنه كان يعبد ما يستحسن من البقر ولذلك أخرج السامري عجلاً جسداً له خوار وقال هذا إلهكم وإله موسى، وكان معبوداً في قومه، قاله السدي.

والثالث: أنها كانت أصناماً يعبدها قومه تقريباً إليه، قاله الزجاج.

وقرأ ابن عباس ﴿وَيَذَرُكَ وَإِلَٰهَتَكَ﴾ أي وعبادتك.

قال الحسن: وكان فرعون يَعْبُدُ وَيُعْبَدُ. وعلى هذه القراءة يسقط السؤال.

وذكر ابن قتيبة في هذه القراءة تأويلاً ثانياً؛ أن الإلهة الشمس، والعرب تسمي الشمس الإلهة واستشهد بقول الأعشى (٢٧٥).

وَلَمْ أَذْكَرِ الرَّعْبَ حَتَّىٰ انْتَقَلْتُ قَبِيلَ الْإِلَٰهَةِ مِنْهَا قَرِيباً

يعني الشمس، فيكون تأويل الآية: ويدرك الشمس حتى تعبد فعلى هذا يكون

السؤال متوجهاً عنه ما تقدم.

﴿قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَ هُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَ هُمْ﴾ وإنما عدل عن قتل موسى إلى قتل

الأبناء لأنه علم أنه لا يقدر على قتل موسى إما لقوته وإما تصوره أنه مصروف عن قتله، فعدل إلى قتل الأبناء ليستأصل قوم موسى من بني إسرائيل فيضعف عن فرعون

﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَ هُمْ﴾ فيه قولان:

(٢٧٥) وفي زاد المسير (٤٤/٣).

فما أذكر الرعب حتى انقلبْتُ قبيلَ الإلهة منها قريباً

أحدهما: أن نفتش أرحامهم فننظر ما فيهن من الولد، مأخوذ من الحياء وهو اسم من أسماء الفرج، حكاه ابن بحر.

والثاني: الأظهر أن معناه: نستبقيهن أحياء لضعفهن عن المنازعة وعجزهن عن المحاربة.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أنه أمرهم بذلك تسلياً لهم من وعيد فرعون كما يقول من نالته شدة: استعنت بالله.

والثاني: أنه موعدهم منه بأن الله سيعينهم على فرعون إن استعانوا به.

ثم قال: ﴿وَاصْبِرُوا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: واصبروا على ما أنتم فيه من الشدة طمعاً في ثواب الله.

والثاني: أنه أمرهم بالصبر انتظاراً لنصر الله.

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه قال ذلك تسلياً لقومه في أن الدنيا لا تبقي على أحد فتبقي على فرعون لأنها تنتقل من قوم إلى قوم.

والثاني: أنه أشعرهم بذلك أن الله يورثهم أرض فرعون.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: يريد في الآخرة بالثواب.

والثاني: في الدنيا بالنصر.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فيه أربعة

أقوال:

أحدها: أن الأذى من قبل ومن بعد أخذ الجزية. قاله الحسن.

والثاني: أن الأذى من قبل: تسخيرهم بني إسرائيل في أعمالهم لنصف النهار

وإرسالهم في بقيته ليكسبوا لأنفسهم. والأذى من بعد: تسخيرهم في جميع النهار بلا طعام ولا شراب، قاله جوير.

والثالث: أن الأذى الذي كان من قبل: الاستعباد وقتل الأبناء، والذي كان من

بعد: الوعيد بتجديد ذلك عليهم، حكاه ابن عيسى.

والرابع: أن الأذى الذي كان من قبل أنهم كانوا يضربون اللبن ويعطيهم التبن، والأذى من بعد أن صاروا يضربون اللبن ويجعل عليهم التبن، قاله الكلبي. وفي قولهم: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ قولان:

أحدهما: من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعد ما جئتنا بها، قاله ابن عباس.
والثاني: من قبل أن تأتينا بعهد الله إليك أنه يخلصنا ومن بعد ما جئتنا به.
وفي هذا القول منهم وجهان:

أحدهما: أنه شكوى ما أصابهم من فرعون واستعانة بموسى.
والثاني: أنهم قالوه استبطاء لوعده موسى، حكاه ابن عيسى.
﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُبَلِّغَ عَذَابَكُمْ﴾ ﴿عَسَىٰ﴾ في اللغة طمع وإشفاق. قال الحسن عسى من الله واجبة. وقال الزجاج: ﴿عَسَىٰ﴾ من الله يقين.
﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في قوله: ﴿فَيَنْظُرَ﴾ وجهان: أحدهما: فيرى (٢٧٦).

والثاني: فيعلم وفي قول موسى ذلك لقومة أمران:

أحدهما: الوعد بالنصر والاستخلاف في الأرض.

والثاني: التحذير من الفساد فيها لأن الله تعالى ينظر كيف يعملون.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ
(١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَئِنَّا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ
وَمِنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا يَطَّيَّرُكُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)

قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يعني بالجوع، قاله مجاهد، وقتادة.

والثاني: أن معنى السنين الجدوب، قاله الحسن.

والعرب تقول: أخذتهم السنة إذا قحطوا وأجدبوا.

وقال الفراء: المراد بالسنين الجدب والقحط عاماً بعد عام.

(٢٧٦) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/٢٤٦).

قال الزجاج «أي يراه بوقوعه منكم لأنه يجازيهم على ما وقع منهم لاعلى ما علم أنه سيقع».

قوله عز وجل ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ في الحسنة والسيئة هنا وجهان:

أحدهما: أن الحسنة الخصب، والسيئة القحط.

والثاني: أن الحسنة الأمن، والسيئة، الخوف.

﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي كانت حالنا في أوطاننا وقبل اتباعنا لك، جهلاً منهم بأن

الله تعالى هو المولى لها.

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي يتشاءمون بموسى ويقولون

هذا من اتباعنا إياك وطاعتنا لك، على ما كانت العرب تزجر الطير فتشاءم بالبارح وهو

الذي يأتي من جهة الشمال، وتترك بالسانح وهو الذي يأتي من جهة اليمين. ثم قال

رداً لقولهم.

﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي طائر البركة وطائر الشؤم.

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْنِيهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا

وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لِنَارِكَ

بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ لِيَنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ

بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ

يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾

قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ...﴾ أما الطوفان ففيه ستة أقاويل:

أحدها: أنه الغرق بالماء الزائد، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه الطاعون (٢٧٧)، قاله مجاهد.

والثالث: أنه الموت، قاله عطاء. وروى عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ

﴿الطُّوفَانُ الْمَوْتُ﴾ (٢٧٨).

(٢٧٧) وله قول آخر وهو أن الطوفان الموت رواه الطبري (٥١/١٣) لكن الطريق إليه فيه مجهول.

(٢٧٨) رواه ابن جرير (٥١/١٣) وفي سنده المنهال بن خليفة وقد ضعفه غير واحد قال الحافظ ابن كثير

والرابع: أنه أمر من الله طاف بهم، وهو مروى أيضاً عن ابن عباس.
والخامس: أنه كثرة المطر والريح، واستدل قائل ذلك بقول الحسن بن عرفطة (٢٧٩):

غَيْرَ الْجِدَّةِ مِنْ عِرْفَانِهِ خُرْقُ الرِّيحِ وَطُوفَانُ الْمَطَرِ
والسادس: أنه عذاب من السماء، واستدل قائل ذلك بقول أبي النجم (٢٨٠):
وَمَرُّ طُوفَانٍ فَبِتْ شَهْرًا فَرْدًا شَائِبٌ وَشَهْرًا مَدْرًا
﴿وَالْقُمْلَ﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: أنه الدَّبَى وهو صغار الجراد لا أجنحة له.
والثاني: أنه السوس الذي في الحنطة قاله ابن عباس.
والثالث: البراغيث، قاله ابن زيد.
والرابع: القردان، قاله أبو عبيدة.
والخامس: هو دواب سود صغار، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، وشاهده قول الأعشى (٢٨١):

قَوْمًا تَعَالِجُ قُمْلًا أَبْنَاؤُهُمْ وَسَلَاسِلًا أَجْدًا وَبَابًا مُؤَصِّدًا
وواحد القمل قملة.
وأما الضفادع فواحدها ضفدع وهو مشهور. وقيل إنه كان يوجد في فراشهم
وآنتهم، ويدخل في ثيابهم فيشتد أذاه لهم.
وأما الدم ففيه قولان:

(٥٣٦/٣) حديث غريب وزاد السيوطي نسبته في الدر (٥١٩/٣) لأبي الشيخ. وابن مردويه وابن أبي حاتم.

قلت وفي سند الحديث أيضاً الحجاج بن أرطاة وهو ضعيف مدلس وقد عنعن.
(٢٧٩) كذا قال وهو خطأ والصواب حسيل بن عرفطة الأسدي وهو شاعر جاهلي والبيت في اللسان (طوف)
ونواد ابن زيد ٧٧ والطبري (٥٣/١٣) تنبيه وفي شطر البيت الأول خطأ والتصويب من الطبري واللسان
هكذا: غير الجدة من آياتها.

(٢٨٠) الطبري (٥٤/١٣) ووقع في البيت هنا خطأ والتصويب من الطبري.
هكذا قد مد طوفان فبت مدداً شهراً شائِبٌ وشهراً برداً
(٢٨١) اللسان (قمل) وديواته: ١٥٤.

أحدهما: أن ماء شربهم كان يصير دماً عبيطاً، فكان إذا غرف القبطي من الماء صار دماً وإذا غرف الإسرائيلي كان ماء.

والثاني: أنه رعاف كان يصيبهم، قاله زيد بن أسلم.

﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ فيها قولان.

أحدهما: مبینات لنبوة موسى.

والثاني: مفصل بعضها عن بعض لأن هذه الآيات لم تجتمع في وقت واحد بل كانت تأتي شهراً بعد شهر فيكون في تفرقتها مع الإنذار إعدار، وكان بين كل آيتين شهر.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: عن الانزجار بالآيات.

والثاني: عن الإيمان بموسى.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: كافرين.

والثاني: متعدين.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ - فيه قولان:

أحدهما: أنه العذاب، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد.

والثاني: هو الطاعون أصابهم فمات به من القبط سبعون ألف إنسان، قاله

سعيد بن جبیر.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: بما تقدم إليك به أن تدعوه به فيجيبك كما أجبك في آياتك.

والثاني: ما هداك به أن تفعله في قومك، قاله السدي.

والثالث: أن ذلك منهم على معنى القسم كأنهم أقسموا عليه بما عهد عنده أن يدعو لهم.

﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ هذا قول قوم فرعون، ويحتمل وجهين.

أحدهما: لنصدقنك يا موسى أنك نبي.

والثاني: لنؤمنن بك يا الله أنك إله واحد.

فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

قوله عز وجل : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : يستقلون .

والثاني : يستذلون وهم بنو إسرائيل .

﴿مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يريد الشرق والغرب ، قاله ابن عيسى .

والثاني : أرض الشام ومصر ، قاله الحسن .

والثالث : أرض الشام وحدها شرقها وغربها ، قاله قتادة .

﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ فيه قولان :

أحدهما : بالخصب .

والثاني : بكثرة الأنهار والأشجار والثمار .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ فيها قولان :

أحدهما : أن تمام كلمة الحسنى ما وعدهم من هلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض بقوله : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ وسماها الحسنى لأنه وعد بما يحبون .

والثاني : هو قوله تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

وفي قوله : ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ وجهان :

أحدهما : بما صبروا على أذى فرعون .

والثاني : بما صبروا على طاعة الله .

وَجَوْرَ نَابِئِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا
يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ
مُتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبِطُلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ﴾ في ﴿متبر﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: باطل، قاله الكلبي.

والثاني: ضلال، حكاه أبو اليسع.

والثالث: مهلك، ومنه التبر، الذهب. وفي تسميته بذلك قولان:

أحدهما: لأن موسى يهلكه.

والثاني: لكسره، وكل إناء مكسور متبر قاله الزجاج. وقال الضحاك هي كلمة

نبطية لما ذكرنا.

قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ
أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قال هذا يذكر بالنعمة.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي أشد العذاب.

﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يقتلون أبناءكم صغاراً ويستحيون

نساءكم للاسترقاق والاستخدام كباراً.

﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن ما فعله فرعون بكم من قتل الأبناء واسترقاق النساء بلاء عظيم عليكم

عظيم، قاله الكلبي.

والثاني: أنه ابتلاء لكم واختبار عظيم، قاله الأخفش.

والثالث: أن في خلاصكم من ذلك بلاء عظيم، أي نعمة عظيمة، قاله ابن

قتيبة.

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ
لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

قوله عز وجل : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أن الثلاثين ليلة شهر أمر بصيامه ، والعشر بعدها أجل لمناجاة ربه .

والثاني : أن الأربعين كلها أجل لمناجاة ربه ، أجل في الأول ثلاثين ليلة ثم زيدت عشراً بعدها . وقد قيل إنه ذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، حكى ذلك عن مجاهد ، وابن جريج ، ومسروق .

﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يعني أن اجتماع الأجلين تمام أربعين ليلة ، ليدل بذلك على أن العشر هي ليال وليست ساعات .

فإن قيل : فمعلوم أن العشر مع الثلاثين مستكملة أربعين ، فما معنى قوله : ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ .

فعن ذلك ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه تأكيد في الذكر فلم يمتنع .

والثاني : كان وعده إلى الجبل الذي كلمه فيه .

والثالث : لينفي تمام الثلاثين بالعشر أن يكون من جملة الثلاثين لأن تمام الشيء بعض منه .

فإن قيل : فلم زاد في أجل وعده بعد الثلاثين عشراً جعلها أجلاً ثانياً فأخر بها

موعده ؟

قيل عن ذلك جوابان :

أحدهما : أن قومه تأخروا عنه في الأجل الأول فزاده الله لتأخيرهم عنه أجلاً ثانياً

ليحضروه .

والثاني : لأن قومه عبدوا العجل بعده فزاده الله أجلاً ثانياً عقوبة لهم .

ويحتمل جواباً ثالثاً : أن الله فعل ذلك به اختباراً لقومه ليطهر به المؤمن من

المنافق ويعرف به المتيقن من المرتاب .

والفرق بين الميقات والوقت وإن كانا من جنس واحد أن الميقات ما قدر لعمل، والوقت قد لا يتقدر لعمل.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

قوله عز وجل: ﴿... قَالَ رَبُّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ الآية. في سؤال موسى ذلك لربه ثلاثة أقاويل:

أحدها: ليرد عليه من جواب الله ما يحتاج به على قومه حين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] مع علم موسى بأنه لا يجوز أن يراه في الدنيا.

والثاني: أنه كان يعلم ذلك باستدلال فأحب أن يعلمه ضرورة.

والثالث: أنه جَوَّزَ ذلك وظنه وأن رؤيته في الدنيا ممكنة، قاله الحسن، والربيع، والسدي.

فأجابه الله بأن ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾.

ثم أظهر في الجواب ما يعلم به استحالة مسألته فقال (٢٨٢): ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى

(٢٨٢) وقد استدلل بهذه الآية المعتزلة على نفي رؤية الله تعالى في الآخرة ولا دليل لهم في ذلك. وهي حجة عليهم لا لهم وقد حط الزمخشري في كشافه على أهل السنة ووصفهم بما هو أولى به عامله الله بعدله وما أجمل ما قال الشوكاني، رحمه الله في فتح القدير (٢٤٣/٢) قال رحمه الله قوله «لَنْ تَرَانِي» يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب فيه أو أنه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى، على من يعرف السنة المطهرة والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة ومنهج الحق واضح ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأدرك عليه آباءه وأهل بلده مع عدم التنبيه لما هو مطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع في التعصب والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً فبصيرته عمياء وأذنه عن سماع الحق صماء يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ويحسب أنه ما نشأ عليه هو الحق غفلةً منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالاذعان والتسليم وما أقل المتصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع فإنه صار لها باب الحق مرتجاً وطريق الإنصاف مستورة والأمر لله سبحانه والهداية منه.

يسأى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح اهـ.

أَلْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴿٢٨٣﴾ لأن الجبل إذا لم يستقر لرؤيته فالإنسان بذلك أولى .

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ معنى تجلى ظهر مأخوذ من جلاء العروس إذا ظهرت، ومن جلاء المرأة إذا أضاءت .

وفي تجليه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه ظهر بآياته (٢٨٣) التي أحدثها في الجبل لحاضري الجبل .

والثاني : أنه أظهر للجبل من ملكوته ما تدكدك به ، لأن الدنيا لا تقوم لما يبرز من ملكوت السماء .

والثالث : أنه أبرز قدر الخنصر من العرش (٢٨٤) .

والرابع : ظهر أمره للجبل .

﴿جَعَلَهُ دَكَّا﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : يعني مستويًا بالأرض ، مأخوذ من قولهم ناقة دكاء إذا لم يكن لها سنام ، قاله ابن قتيبة وابن عيسى .

والثاني : أنه ساخ في الأرض ، قاله الحسن وسفيان .

والثالث : أنه صار ترابًا ، قاله ابن عباس .

والرابع : أنه صار قطعاً .

قال مقاتل : وكان أعظم جبل بمدين تقطع ست قطع تفرقت في الأرض ، صار منها بمكة ثلاثة أجبل : ثبير وغار ثور وحراء . وبالمدينة ثلاثة أجبل : رضوى وأحد وورقان . والله أعلم .

﴿وَحَرُّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فيه قولان :

أحدهما : ميتاً ، قاله قتادة .

والثاني : مغشياً عليه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وابن زيد .

(٢٨٣) والصواب أن يقال تجلى أي ظهر وبان وهذا الظهور للرب على الوجه اللائق بجنابه تعالى .

(٢٨٤) قال العلامة الألوسي (٤٦/٩) ونقل بعض القصاصين أن الملائكة كانت تمر عليه حينئذ فيلكزونه

بأرجلهم ويقولون يا ابن النساء الحيف أطمعت في رؤية رب العزة وهو كلام ساقط لا يعول عليه بوجه فإن الملائكة عليهم السلام مما يجب تبرئتهم من إهانة الكليم بالوكز بالأرجل والغض في الخطاب .

قلت وقد ذكرت هذا النقل تحذيراً مما يروجه القصاص في المجالس .

قال ابن عباس (*) : أخذته الغشية عشية الخميس من يوم عرفة وأفاق عشية الجمعة وفيه نزلت عليه التوراة وهو يوم النحر العاشر من ذي الحجة ، وفيها عشر آيات أنزلها الله في القرآن على محمد ﷺ في ثماني عشرة من سورة بني إسرائيل .

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه تاب من الإقدام على المسألة قبل الإذن فيها .

والثاني : أنه تاب من اعتقاده جواز رؤيته في الدنيا .

والثالث : أنه قال ذلك على جهة التسبيح وعادة المؤمنين عند ظهور الآيات

الدالة على عظيم قدرته .

﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أول المؤمنين بأنه لا يراك شيء من خلقك ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : وأنا أول المؤمنين من قومي باستعظام سؤال الرؤية .

قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَاءً آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ

دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ ... ﴾ الآية في ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ ﴾ قولان :

أحدهما : فرضنا ، كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة : ١٨٣] أي فرض .

والثاني : أنه كتابة خط بالقلم في ألواح أنزلها الله عليه (٢٨٥) .

واختلفوا في الألواح (٢٨٦) من أي شيء كانت على أربعة أقاويل :

(*) قول ابن عباس هذا سقط من نسخة للمخطوطة وكتب مكانه «هذا لم يثبت» أي القول الثاني .

(٢٨٥) ما عليه السلف الصالح أنهم يؤمنون بهذا النص إيماناً يليق بكمال الله وجلاله من غير تكيف ولا مشابهة لأفعال البشر .

(٢٨٦) إن هذه الأقوال ليست من المعلوم من الدين بالضرورة وليس فرضاً تعلمها على كل مسلم فالأولى بالمسلمين أن يتعلموا العلم الضروري الذي لا تصح العقيدة والعبادة إلا به ولا سيما في مثل هذا العصر الذي تغشى في الشرك والضلال .

أحدها: أنها كانت من زمرد أخضر، قاله مجاهد.
 والثاني: أنها كانت من ياقوت، قاله ابن جبير.
 والثالث: أنها كانت من زبرجد، قاله أبو العالية.
 والرابع: قاله الحسن كانت الألواح من خشب، واللوح مأخوذ من أن المعاني تلوح بالكتابة فيه.

وفي قوله ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قولان:
 أحدهما: من كل شيء يحتاج إليه في دينه من الحلال والحرام والمباح والمحظور والواجب وغير الواجب.
 والثاني: كتب له التوراة فيها من كل شيء من الحكم والعبر.

وفي قوله ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا...﴾ تأويلان:
 أحدهما: أن الموعظة النواهي، والتفصيل: الأوامر، وهو معنى قول الكلبي.
 والثاني: الموعظة: الزواجر، والتفصيل: الأحكام، وهو معنى قول مقاتل.
 قال: وكانت سبعة ألواح (٢٨٧).

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ فيه أربعة أقاويل:
 أحدها: بجد واجتهاد قاله السدي.
 والثاني: بطاعة، قاله الربيع بن أنس.
 والثالث: بصحة عزيمة، قاله علي بن عيسى.
 والرابع: بشكر، قاله جوير.
 ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ لم يقل ذلك لأن فيها غير حسن، وفيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن أحسنها: المفروضات، وغير الأحسن: المباحات.
 والثاني: أنه الناسخ دون المنسوخ.

(٢٨٧) وفي عددها أقوال ثلاثة أخرى ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير (٢٥٨/٣).

والثالث: أن فعل ما أمر به أحسن من ترك ما نهى عنه لأن العمل أثقل من الترك وإن كان طاعة.

﴿سَأْرِ يَكُم دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ فيها أربعة أقاويل:

أحدها: هي جهنم، قاله الحسن، ومجاهد.

والثاني: هي منازل من هلك بالتكذيب من عاد وثمود والقرون الخالية، لتعتبروا بها وبما صاروا إليه من النكال، قاله قتادة.

والثالث: أنها منازل سكان الشام من الجبابرة والعمالقة.

والرابع: أنها دار فرعون وهي مصر.

وقرأ قسامة (٢٨٨) بن زهير ﴿سَأُورِثُكُمْ﴾.

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ
ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا
سَبِيلَ الْغِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ
﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

قوله عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾
فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: سأمنعهم من فهم القرآن، قاله سفيان بن عيينة.

والثاني: سأجعل جزاءهم على كفرهم ضلالهم عن الاهتداء بما جاء به من
الحق.

والثالث: سأصرفهم عن دفع الانتقام عنهم.

وفي ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ وجهان:

أحدهما: يحقرون الناس ويرون أن لهم عليهم فضلاً.

(٢٨٨) هو قسامة بن زهير المازني التميمي البصري الثقة روى عن أبي موسى الأشعري وأبي هريرة توفي في ولاية الحجاج بن يوسف على العراق راجع التهذيب (٣٣٨/٨).

والثاني : يتكبرون عن الإيمان واتباع الرسول .

﴿وَأَنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الرشد الإيمان ، والغى : الكفر .

والثاني : أن الرشد الهداية . والغى : الضلال .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : غافلين عن الإيمان .

والثاني : غافلين عن الجزاء .

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُ خُورٌ أَلَمِيرُوا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَلُتْسَمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَزَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

قوله عز وجل ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ في الأسف خمسة

أقاويل :

أحدها : أنه المتأسف على فوت ما سلف قاله علي بن عيسى .

والثاني : أنه الحزين ، قاله ابن عباس .

والثالث : هو الشديد الغضب ، قاله الأخفش .

والرابع : المغتاظ ^(٢٨٩) ، قاله السدي .

(٢٨٩) وفي الطبري (١٣/١٢١) عن السدي . «أسفاً قال حزينا» وعلى هذا فقول السدي يوافق قول ابن عباس رضي الله عنها .

والخامس: النادم، قاله ابن قتيبة.

وفي غضبه وأسفه قولان:

أحدهما: غضبان على قومه من عبادة العجل؟ أسفاً^(٢٩٠) على ما فاتته من مناجاة ربه.

والثاني: غضبان على نفسه في ترك قومه حتى ضلوا، أسفاً على ما رأى في قومه من ارتكاب المعاصي.

وقال بعض المتصوفة إن غضبه للرجوع عن مناجاة الحق إلى مخاطبة الخلق.

﴿قَالَ بِشَسَ مَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يعني بعبادة العجل.

﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يعني وعد ربكم الذي وعدني به من الأربعين ليلة، وذلك أنهم قدروا أنه قد مات لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة، قاله الحسن، والسدي.

والثاني: وعد ربكم بالثواب على عبادته حتى عدلتم إلى عبادة غيره، قاله بعض المتأخرين. والفرق بين العجلة والسرعة أن العجلة: التقدم بالشيء قبل وقته، والسرعة: عمله في أقل أوقاته.

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ﴾ وفي سبب إلقائها قولان:

أحدهما: غضباً حين رأى عبادة العجل^(٢٩١)، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه ألقاها لما رأى فيها فضائل غير قومه من أمة محمد ﷺ أنهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، قال: رب فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد، فاشتد عليه فألقاها، قاله قتادة.

وكانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى موسى الألواح فتكسرت رفع منها ستة أسباعها وكان فيما رفع تفصيل كل شيء الذي قال الله ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاخِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وبقي الهدى والرحمة في السبع الباقي، وهو الذي قاله الله: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاخَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

(٢٩٠) وعلى هامش المخطوطة كتب [أسفاً] بين معكوفين لا يستقيم المعنى إلا بها.

(٢٩١) وهذا القول هو الصواب واختاره ابن جرير (١٣/١٢٥) وابن كثير (١/٢٢٤) عمدة التفسير والشوكاني في فتح القدير (٢/٣٤٨).

وقال ابن عباس: ألقى موسى الألواح فتكسرت ورفعت إلا سدسها.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه أخذ بأذنه.

والثاني: أخذ بجملته رأسه.

فإن قيل: فلم قصده بمثل هذا الهوان ولا ذنب له؟

فعن ذلك جوابان.

أحدهما: أن هذا الفعل مما قد يتغير حكمه بالعادة فيجوز أن يكون في ذلك

الزمان بخلاف ما هو عليه الآن من الهوان.

والثاني: أن ذلك منه كقبض الرجل منا الآن على لحيته وعضه على شفته ﴿قَالَ

ابْنُ أُمٍّ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه قال ذلك لأنه كان أخاه لأمه، قاله الحسن.

والثاني: أنه قال ذلك على عادة العرب استعطافاً بالرحم، كما قال

الشاعر (٢٩٢):

يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا شَقِيقَ نَفْسِي أَنْتَ خَلَيْتَنِي لِأَمْرِ شَدِيدِ

﴿فَلَا تُشِمْتُ بِي الْأَعْدَاءَ﴾ يعني من خالفه في عبادة العجل لأنهم قد صاروا

لمخالفتهم له أعداء.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تغضب عليّ كغضبك عليهم ولست

منهم فأدر كته الرقة: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

الرَّاحِمِينَ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا

(٢٩٢) هو أبو زبيد.

والبيت في اللسان (شقق) وشواهد المغنى (هامش خزنة الأدب ٢٢٢/٤) والطبري (١٢٩/١٣) وأما

اليزيدي: ٩ جمهرة أشعار العرب ١٣٩. والشطر الثاني في البيت أنت خليفتي لدهر شديد. ويروى

البيت.

يا ابن خنساء سعد نفسي يا لجلاج خليتني لدهر شديد.

وَأَمِنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى
الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾
قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ أما التوبة
من السيئات فهي الندم على ما سلف والعزم على ألا يفعل مثلها. فإن قيل فالتوبة
إيمان فما معنى قوله: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ فالجواب عن ذلك من ثلاثة
أوجه:

أحدها: يعني أنهم تابوا من المعصية واستأنفوا عمل الإيمان بعد التوبة.
والثاني: يعني أنهم تابوا بعد المعصية وآمنوا بتلك التوبة.
والثالث: وآمنوا بأن الله قابل التوبة.

وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ
شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ
تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ وفي الكلام
محذوف وتقديره: واختار موسى من قومه سبعين رجلاً.
وفي قوله: ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ قولان:

أحدهما: أنه الميقات المذكور في سؤال الرؤية.
والثاني: أنه ميقات غير الأول وهو ميقات التوبة من عبادة العجل.
﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وفيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها الزلزلة، قاله الكلبي.
والثاني: أنه الموت. قال مجاهد: ماتوا ثم أحياهم.
والثالث: أنها نار أحرقتهم فظن موسى أنهم قد هلكوا ولم يهلكوا، قاله الفراء.
﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي﴾ وفي سبب أخذها لهم قولان:
أحدهما: لأنهم سألوا الرؤية، قاله ابن إسحاق.

والثاني : لأنهم لم ينهوا عن عبادة العجل قاله ابن عباس .

﴿ . . . أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه سؤال استفهام خوفاً من أن يكون الله قد عمهم بانتقامه كما قال

تعالى :

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال : ٢٥] .

والثاني : أنه سؤال نفي ، وتقديره : إنك لا تعذب إلا مذنباً فكيف تهلكنا بما

فعل السفهاء منا .

فحكى أن الله أمات بالرجفة السبعين الذين اختارهم موسى من قومه ، لا موت

فناء ولكن موت ابتلاء ليثبت به من أطاع ويتنقم به ممن عصى وأخذت موسى غشية ثم

أفاق موسى وأحيا الله الموتى ، فقال :

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنِ تَشَاءُ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المراد بالفتنة العذاب ، قاله قتادة .

والثاني : أن المراد بها الابتلاء والاختبار .

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي

أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

قوله عز وجل : ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ في الحسنة هنا

ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها النعمة سميت حسنة لحسن موقعها في النفوس .

والثاني : أنها الشئ الصالح .

والثالث : أنها مستحقات الطاعة .

﴿إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه تبنا إليك ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ،

وإبراهيم .

والثاني : رجعنا بالتوبة إليك ، لأنه من هاد يهود إذا رجع ، قاله علي بن عيسى .

والثالث: يعني تقربنا بالتوبة إليك من قولهم: ما له عند فلان هودة، أي ليس له عنده سبب يقربه منه، قاله ابن بحر.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ وفيه قولان:

أحدهما: من أشاء من خلقي كما أصيب به قومك.

الثاني: من أشاء في التعجيل والتأخير.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فيها ثلاثة تأويلات.

أحدها: أن مخرجها عام ومعناها خاص، تأويل ذلك: ورحمتي وسعت

المؤمنين بي من أمة محمد ﷺ لقوله تعالى ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية قاله ابن عباس.

والثاني: أنها على العموم في الدنيا والخصوص في الآخرة، وتأويل ذلك:

ورحمتي وسعت في الدنيا البر والفاجر، وفي الآخرة هي للذين اتقوا خاصة، قاله الحسن، وقتادة.

والثالث: أنها التوبة، وهي على العموم، قاله ابن زيد.

﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يتقون الشرك، قاله ابن عباس.

والثاني: يتقون المعاصي، قاله قتادة.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فيها قولان:

أحدهما: أنها زكاة أموالهم لأنها من أشق فرائضهم، وهذا قول الجمهور.

والثاني: معناه أي يطيعون الله ورسوله، قاله ابن عباس والحسن، وذهب إلى

أنه العمل بما يزكي النفس ويطهرها من صالحات الأعمال.

فأما المكنى عنه بالهاء التي في قوله: ﴿فَسَاكُتُهَا﴾ فقد قيل إن موسى لما

انطلق بوفد بني إسرائيل كلمه الله وقال: إني قد بسطت لهم الأرض طهوراً ومساجد

يصلون فيها حيث أدركتهم الصلاة إلا عند مرحاض أو قبر أو حمام، وجعلت السكينة

في قلوبهم، وجعلتهم يقرؤون التوراة عن ظهر أسنهم، قال فذكر موسى ذلك لبني

إسرائيل، فقالوا لا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا فاجعلها لنا في تابوت، ولا نقرأ

التوراة إلا نظراً، ولا نصلي إلا في السكينة، فقال الله تعالى ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يعني ما مضى من السكينة والصلاة والقراءة، ثم بين من هم فقال:

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ
لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ
الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ يعني محمداً ﷺ وفي تسميته بالأمي
ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه لا يكتب . (٢٩٣)

الثاني : لأنه من أم القرى وهي مكة .

الثالث : لأن من العرب أمة أمية .

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ لأن في التوراة في السفر
الخامس : إني سأقيم لهم نبياً من إخوانهم مثلك ، واجعل كلامي في فيه فيقول لهم كل
ما أوصيته به . وفيها : وأما ابن الأمة فقد باركت عليه جداً جداً وسأدخره لأمة عظيمة .
وفي الإنجيل بشارة بالفارقليط في مواضع : يعطيكم الفارقليط آخر يكون معكم
الدهر كله .

وفيها قول المسيح للحواريين : أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق الذي لا
يتكلم من قبل نفسه ، إنه نذيركم يجمع بين الحق ويخبركم بالأمور المزمعة ويمدحني
ويشهد لي . فهذا تفسير ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ .
ثم قال : ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو الحق .

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو الباطل وإنما سمي الحق معروفاً لأنه معروف
الصحة في العقول ، وسمي الباطل منكراً لأنه منكر الصحة في العقول .

(٢٩٣) قال العلامة الألوسي رحمه الله (٧٩/٩) «ووصف عليه الصلاة والسلام بذلك تنبيهاً على أن كمال علمه
مع حاله إحدى معجزاته ﷺ فهو بالنسبة إليه بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام صفة مدح وأما بالنسبة
إلى غيره فلا» .

ثم قال: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني ما كانت الجاهلية تحرمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ يعني ما كانوا يستحلونه من لحم الخنزير والدماء.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: أنه عهدهم الذي كان الله تعالى أخذه على بني إسرائيل.

والثاني: أنه التشديد على بني إسرائيل الذي كان في دينهم من تحريم السبت

وتحريم الشحوم والعروق وغير ذلك من الأمور الشاقة، قاله قتادة.

﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فيها تأويلان:

أحدهما: أنه الميثاق^(٢٩٤) الذي أخذه عليهم فيما حرمه عليهم، قاله ابن أبي

طلحة.

والثاني: يعني ما بينه الله تعالى في قوله: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ...﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني عظموه، قاله علي بن عيسى.

والثاني: منعه من أعدائه، قاله أبو جعفر^(٢٩٥) الطبري. ومنه تعزيز الجاني لأنه

يمنعه من العود إلى مثله.

﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ يعني القرآن^(٢٩٦)، آمنوا به من بعده فروى

قتادة^(٢٩٧) أن نبي الله ﷺ قال لأصحابه: «أَيُّ الْخَلْقِ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا؟ قالوا:

الملائكة فقال نبي الله (ص): الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. فقالوا: النبيون،

فقال: يُوحَى إِلَيْهِمْ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، قالوا: نحن يا نبي الله. فقال أَنَا فِيكُمْ فَمَا

(٢٩٤) قال العلامة ابن الجوزي في زاد المسير (٣/٣٧٣) «قال الزجاج ذكر الأغلال تمثيل ألا ترى أنك تقول

جعلت هذا طوقاً في عنقك وليس هناك طوق إنما جعلت لزومه كالطوق والأغلال أنه كان عليهم أن لا

يقبل منهم في القتل دية وأن لا يعملوا في السبت وأن يقرضوا ما أصاب جلودهم من البول» وبنحوه قال

الطبري (١٣/١٦٨) والزمخشري في الكشاف (٢/٩٧) وهذه الأغلال المذكورة نسخها القرآن.

(٢٩٥) الطبري (١٣/١٦٨).

(٢٩٦) قال الألوسي في روح المعاني (٩/٨٢).

«وهو القرآن وعبر عنه بالنور لظهوره في نفسه بإعجازه وإظهاره لغيره من الأحكام وصدق الدعوى فهو أشبه

شيء بالنور الظاهر بنفسه والمظهر بغيره بل هو نور على نور اهـ.

(٢٩٧) وهذا الحديث من مراسلات قتادة ولم أظفر إلى الآن بمن وصله.

لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ، فقالوا: يا نبي الله فمن هم؟ قال: هُم قَوْمٌ يَكُونُونَ بَعْدَكُمْ يَجِدُونَ كِتَابًا فِي وَرَقٍ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ. فهو معنى قوله ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾.

قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ فإن قيل فهذا يدل على أن في اليهود من هم على حق.

الجواب عند ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم الذين تمسكوا بالحق في وقت ضلالتهم بقتل أنبيائهم، ولا يدل هذا على استدامة حاله على الأبد.

والثاني: أنهم قوم وراء الصين لم تبلغهم دعوة الإسلام، قاله ابن عباس، والسدي.

والثالث: أنهم من آمن بالنبي ﷺ مثل ابن سلام وابن سوريا وغيرهما، قاله الكلبي.

وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ صَرْبٍ أَنْ يَبْعَثَكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ

ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ اختلف في المأخوذ منه تسمية القرية على وجهين: أحدهما: لأن الماء يقرى إليها أي يجمع، من قولهم قرى الماء في حوضه إذا جمعه.

والثاني: لأن الناس يجتمعون إليها كما يجتمع الماء في الحوض. واختلف في هذه القرية على قولين: أحدهما: أنها بيت المقدس، قاله قتادة. والثاني: هي أرض الشام، قاله الحسن.

فإنه قيل: فكيف سمى المأوى مسكناً والإنسان في مسكنه متحرك؟ قيل لأنه يترك فيه التصرف فصار في أكثر أحواله ساكناً وإن كان في بعضها متحركاً.

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي
السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعَاءً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ فيما خمسة أقاويل:

أحدها: أنها أيلة، قاله ابن عباس، وعكرمة، والسدي.

والثاني: أنها بساحل مدين، قاله قتادة.

والثالث: أنها مدين قرية بين أيلة والطور، حكاه أبو جعفر الطبري (٢٩٨).

والرابع: أنها قرية يقال لها مقتا بين مدين وعينونا (٢٩٩)، قاله ابن زيد.

(٢٩٨) جامع البيان (١٣/١٧٩).

(٢٩٩) كذا هنا والصواب عينونا وليس عينونا والتصحيح من معجم البلدان لياقوت والطبري (١٣/١٧٩) وتكتب أيضاً عينوني وعينون.

والخامس: ما قاله ابن شهاب أن القرية التي كانت حاضرة البحر طبرية، والقرية التي قال فيها ﴿وَأَصْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]. أنطاكية. وسؤالهم عن هذه القرية إنما هو سؤال توبيخ على ما كان منهم فيها من سالف الخطيئة وقبيح المعصية.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ هو تعديهم فيه بفعل ما نهوا عنه.
 ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ فيه ثلاثة أقاويل:
 أحدها: أن معنى ﴿شُرْعًا﴾ أي طافية على الماء ظاهرة، قاله ابن عباس، ومنه شوارع البلد لظهورها.

والثاني: أنها تأتيهم من كل مكان، قاله عطية العوفي.
 والثالث: أنها شرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض رافعة رؤوسها حكاة بعض المتأخرين فتعدوا فأخذوها في السبت، قاله الحسن.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِصَمٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ نسوا يعني تركوا، والذي ذكروا به أن يأمرؤا بالمعروف وينهوا عن المنكر.
 ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهم الذين يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم الذين تركوا المعروف وفعلوا المنكر.
 ﴿بِعِصَمٍ بَيِّسٍ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: شديد، قاله مجاهد.

والثاني: رديء، قاله الأخفش.

الثالث: أنه العذاب المقترن بالفقر وهو البؤس.

وأما الفرقة الثالثة التي لم تنه ولم تفعل ففيها قولان:
أحدهما: أنها نُجِّيت مع الذين نهوا.
والثاني: ما قاله ابن عباس (٣٠٠): لا أدري ما فعل بها.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه تفعل من الإذن ومعناه أعلم، قاله الحسن، ومنه قول
الأعشى (٣٠١):

أَذَّنَ الْقَوْمُ جِيرَتِي بِخُلُوفٍ صَرَّمُوا حَبْلَ آلِفٍ مَالُوفٍ
والثاني: معناه نادى وأقسم، قاله الزجاج.

﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ يعني على اليهود.

﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ والمبعوثون هم العرب، وسوء
العذاب هو الذلة وأخذ الجزية، قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير،
وقتادة.

ويقال إن أول من وضع الخراج وجباه من الأنبياء موسى، فجبي الخراج سبع
سنين وقيل ثلاث عشرة ثم أمسك إلى النبي ﷺ.

وقال سعيد بن المسيب: استحَبَّ أَنْ أُبْعَثَ فِي الْجَزِيَةِ الْأَنْبَاطُ. ولا أعلم
لاستحبابه ذلك وجهاً إلا أن يكون لأنهم من قوم يختصر فهم أشد انتقاماً، أو لأنها قد
كانت تؤخذ منهم على استيفائها لأجل المقابلة أحرص.

وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ

(٣٠٠) قال العلامة الشوكاني رحمه الله (٢٥٨/٢) والطائفة التي لم تنه ولم تعص يحتمل أنها ممسوخة مع
الطائفة العاصية لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهي وعنت عما نهاها الله عنه من ترك النهي عن
المنكر ويحتمل أنها لم تمسخ لأنها وإن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها ونهيها لكنها لم تظلم
نفسها بهذه المعصية الخاصة وهي صيد الحوت في يوم السبت ولا عنت عن نهيه لها عن الصيد اهـ.
(٣٠١) هو ميمون بن قيس والبيت في ديوانه ٢١١ وفي الطبري (٢٠٤/١٣).

وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخْذُوهُ الْعَمَى يُخَذُّ عَلَيْهِمْ مِثْقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يَمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا...﴾ أي فرقناهم فيها فرقا. وفي تفريقهم فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: زيادة في الانتقام منهم.

والثاني: ليذهب تعاونهم.

والثالث: ليميز الصالح من المفسر لقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ ثم قال: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: بالثواب والعقاب.

والثاني: بالنعم والنقم.

والثالث: بالخصب والجذب.

قوله عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ معناه فخلفهم خلف، والخلف بتسكين اللام مستعمل في الذم. وبفتح اللام مستعمل في الحمد. وقال أبو عبيدة: معناها [واحد] مثل الأثر والإثر، والأول أظهر وهو في قول الشعراء أشهر، قال بعضهم:

خلفت خلفاً ليت بهم كان، لا بك التلف

وفي الخلف وجهان:

أحدهما: القرن، قاله الفراء.

والثاني: أنه جمع خالف.

﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ يعني انتقل إليهم انتقال الميراث من سلف إلى خلف وفيهم

قولان:

أحدهما: أنهم من خلف اليهود من أبنائهم. والكتاب الذي ورثوه التوراة لانتقالها لهم.

والثاني: أنهم النصارى، لأنهم خلف من اليهود. والكتاب الذي ورثوه: الإنجيل لحصوله معهم، قاله مجاهد.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ يعني الرشوة على الحكم في قول الجميع وسماء عرضاً لقلّة بقاءه. وفي وصفه بالأدنى وجهان:

أحدهما: لأخذه في الدنيا الدانية.

والثاني: لأنه من المحرمات الدنية.

﴿وَيَقُولُونَ: سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه مغفور، لا نؤاخذه به.

والثاني: أنه ذنب لكن الله قد يغفره لنا تأملاً منهم لرحمته.

﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ يَأْخُذُوهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنهم أهل إصرار على الذنوب، قاله مجاهد وقتادة والسدي.

والثاني: أنهم لا يشبعهم شيء، فهم لا يأخذونه لحاجة، قاله الحسن.

﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ يحتمل

وجهين:

أحدهما: ألا يقولوا على الله إلا الحق في تحريم الحكم بالرشا.

والثاني: في جميع الطاعات والمعاصي والأوامر والنواهي (٣٠٢).

﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: تركوا ما فيه أن يعملوا به حتى صار دارساً.

والثاني: أنهم قد تلووه ودرسوه فهم لا يجهلون ما فيه ويقومون على مخالفته مع

العلم به.

﴿وَإِذْ نُنَاقِ الْجِبَلِ فَوْقَهُمْ كَانَتْ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَقَعَ بِهِمْ خُذُومَاءٌ أَتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ



قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ...﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: زعزعناه، قاله ابن قتيبة، ومنه قول العجاج: (٣٠٣).

قد جربوا أخلاقنا الجلائلا.. ونتقوا أحلامنا الأثاقلا

والثاني: بمعنى جذبناه، والتتق: الجذب ومنه قيل للمرأة الولود ناتق، قال النابغة: (٣٠٤).

لم يحرموا حسن الغذاء وأمهم طفحت عليك بناتي مذكّار.
واختلف في سبب تسميتها ناتقاً، فقيل لأن: خروج أولادها بمنزلة الجذب.
وقيل: لأنها تجذب ماء الفحل تؤديه ولدآ.

والثالث: معناه ورفعناه عليهم من أصله.

قال الفراء: رفع الجبل على عسكرهم فرسخاً في فرسخ.

قال مجاهد: وسبب رفع الجبل عليهم أنهم أبوا أن يقبلوا فرائض التوراة لما فيها من المشقة، فوعظهم موسى فلم يقبلوا، فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم: إن أخذتموه بجِد واجتهاد وإلا ألقى عليكم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: فأخذوه بقوة ثم نكثوا بعد.

واختلف في سبب رفع الجبل عليهم هل كان انتقاماً منهم أو إنعاماً عليهم؟ على قولين:

أحدهما: أنه كان انتقاماً بالخوف الذي دخل عليهم.

والثاني: كان إنعاماً لإقلاعهم به عن المعصية.

﴿... وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه غلب في نفوسهم أنه واقع بهم على حقيقة الظن.

والثاني: أنهم تيقنوه لما عاينوا من ارتفاعه عليهم، قاله الحسن.

(٣٠٣) كذا قال وهو خطأ والصواب رؤية بن العجاج والبيت في ديوانه ١٢٢ ومجاز القرآن واللسان تنق والطبري (٢٢٠/١٣) ولعل ما يقصده المؤلف بيتاً للعجاج في ديوانه: ٢٠ قوله ينتق أ تاد الشليل نتقاً فإنه يصح الاستشهاد به على المعنى المراد.

(٣٠٤) ديوانه: ٥٠ واللسان (دحق) وتنق والطبري (٢٢٠/١٣).

وفي اللسان دحقت عليك وكذا في الطبري.

﴿خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ﴾ يعني التوراة.

﴿بِقُوَّةٍ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: بجهد واجتهاد.

والثاني: بنية صادقة وطاعة خالصة.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ختلف في الذين أخرجهم وأخذ ذلك عليهم على قولين:

أحدهما: أنه أخرج الأرواح قبل خلق^(٣٠٥) الأجساد وجعل فيها من المعرفة ما علمت به من خاطبها. واختلف من قال بهذا هل كان ذلك قبل نزوله إلى الأرض على قولين:

أحدهما: أنه كان في الجنة قبل هبوطه إلى الأرض.

والثاني: أنه فعل ذلك بعد هبوطه إليها^(٣٠٦).

(٣٠٥) ولا شك في صحة هذا القول وأرجحيته على القول الثاني وقد حكى الإجماع عليه الامام إسحاق بن راهويه ولفظه كما نقله ابن القيم في الروح عن ص ١٦٣.

«وأجمع أهل العلم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد وأنه استنطقهم وأشهدهم ثم نقل ابن القيم عن ابن الأنباري قوله.

«ومذهب أهل الحديث وكذلك أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وصلب أولاده وهم في صور الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون فاعترفوا بذلك وقبلوا وذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل حين خوطب وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد والنخلة لما سمعت وانقادت لما دعيت».

قلت: وقد دل على ما قاله الإمامان رحمهما الله حديث رسول الله المتواتر في استخراج الرب لذرية آدم من ظهره واستشهادهم له بالتوحيد... وقد ذكر طائفة من الأحاديث في ذلك السيوطي في الدر (٣/٥٨٠ - ٦٠٧) وابن أبي عاصم (١/ص ٢٠٤ - ٢٠٥) وفتح القدير للشوكاني (٢/٢٥١ - ٢٥٤).

(٣٠٦) هو الراجح لما رواه أحمد (١/٢٧٢) وابن جرير (١٥٣٣٨) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص

والقول الثاني : في الأصل أنه خلق الأرواح والأجساد معاً وذلك في الأرض عند جميع من قال بهذا التأويل .

فعلى هذا فيه قولان :

أحدهما : أنه أخرجهم كالذر وألهمهم هذا فقالوه ، قال الكلبي ومقاتل : وذلك أن الله مسح ظهر آدم بين مكة^(٣٠٧) والطائف فخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرية كالذر بيض ، فهم أصحاب الميمنة . وخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية كالذر سود ، فهم أصحاب المشأمة ، فلما شهدوا على أنفسهم جميعاً من آمن منهم ومن كفر أعادهم .

والثاني : أنه أخرج الذرية قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر .

وفي ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمُ ٱلْسُبْحَٰنُ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ ذُرِّيَّتِهِمُ ٱلْعَٰلَمِينَ قَوْلَانُ﴾ :

أحدهما : هو أنه دلهم على أنفسهم بما شهدوه من قدرته ، قاله بعض المتكلمين .

والثاني : هو إشهدهم^(٣٠٨) على أنفسهم بما اعترفوا من ربوبيته ووحدانيته .

وفيه على هذا التأويل قولان :

أحدهما : أنه قال ذلك للآباء من بني آدم حين أخرج من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ليعلمهم أنه خلق ذرياتهم بعد أن لم يكونوا كان هو الخالق لهم لأنهم كانوا ذرية مثلهم لمن تقدمهم كما صار هؤلاء ذرية لهم فاعترفوا بذلك حين ظهرت لهم الحجة ، قاله ابن بحر .

والقول الثاني : أنه قال ذلك للذرية حين أخذهم من ظهور^(٣٠٩) آبائهم ، وهذا قول الأكثرين فعلى هذا فيه قولان :

٣٢٦ - ٣٢٧) من حديث ابن عباس مرفوعاً «أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بـ (نعمان) يعني عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراعاً فنثرهم بين يديه كالذرث ثم كلمهم قبلاً قال : ألست بربكم قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم فأنهلكنا بما فعل المبطلون» والحديث صحيحه الألباني على شرط مسلم راجع السلسلة الصحيحة رقم ١٦٢٣ .

(٣٠٧) سبق في الحديث في التعليق السابق أن ذلك كان في «نعمان» وهو وادي في جبل عرفات .

(٣٠٨) وهذا القول أرجح .

(٣٠٩) ويؤيده ما ثبت في الحديث الصحيح وقد سبق الإشارة إليه .

أحدهما: أنه قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ على لسان الأنبياء بعد أن كملت عقولهم.

والثاني: أنه (٣١٠) جعل لهم عقولاً علموا بها ذلك فشهدوا به على أنفسهم وفي أصل الذرية قولان:

أحدهما: لأنهم يخرجون من الأصلاب كالذر.

والثاني: أنه مأخوذ من ذرأ الله الخلق إذا أحدثهم وأظهرهم.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَخْ مِنْهَا فٱتَّبَعَهُ الشَّيْطٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَٰوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ ءَاخَذَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا فَٱقْصِصِ ٱلْقَصْصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا وَٱنْفُسَهُمْ كَآنُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَخْ مِنْهَا﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه بلعام بن عوراء، واختلفوا فيه فقيلاً كان من اليمن، وقيل كان من الكنعانيين، وقيل من بني صال بن لوط، قاله ابن عباس، وابن مسعود.

والثاني: أنه أمية بن أبي الصلت الثقفي، قاله عبد الله بن عمرو.

والثالث: أنه من أسلم من اليهود والنصارى وناقى، قاله عكرمة.

وفي الآيات التي أوتيتها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه اسم الله الأعظم الذي تجاب به الدعوات، قاله السدي وابن زيد.

والثاني: أنها كتاب من كتب الله. قاله ابن عباس.

والثالث: أنه أوتي النبوة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم

عليه، قاله مجاهد، وهو غير صحيح لأن الله لا يصطفي لنبوته إلا من يعلم أنه لا يخرج عن طاعته إلى معصيته.

(٣١٠) يعني جعلهم يعقلون خطابه لهم ألسنت بربكم وهذا صحيح كما مر في كلام ابن الأنباري رحمه الله وقد نقلناه آنفاً.

وفي قوله: ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾ وجهان:

أحدهما: فأنسلخ^(٣١١) من العلم بها لأنه سيسلب ما أوتي منها بالمعصية.

والثاني: أنه أنسلخ منها أي من الطاعة بالمعصية مع بقاء علمه بالآيات حتى حكى أن بلعام رُبي على أن يدعو على قوم موسى بالهلاك فسها فدعا على قومه فهلكوا.

﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الشيطان صيره لنفسه تابِعاً بإجابهته له حين أغواه.

والثاني: أن الشيطان متبع من الإنس على ضلالتهم من الكفر.

والثالث: أن الشيطان لحقه فأغواه، يقال اتبعت القوم إذا لحقتهم، واتبعتهم إذا سرت خلفهم، قاله ابن قتيبة.

﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: من الهالكين.

الثاني: من الضالين.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني لأمتناه فلم يكفر.

والثاني: لحلنا بينه وبين الكفر فيصير إلى المنزل المرفوعة معصوماً، قاله مجاهد.

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي ركن إليها. وفي ركونه إليها وجهان:

أحدهما: أنه ركن إلى أهلها في استئزالهم له ومخادعتهم إياه.

والثاني: أنه ركن إلى شهوات الأرض فشغلته عن طاعة الله، وقد بين ذلك قوله تعالى ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

ثم ضرب مثله بالكلب ﴿...﴾. إن تحمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ وفي

تشبيهه بالكلب اللاهث وجهان:

أحدهما: لدناءته ومهاتته.

الثاني: لأن لهث الكلب ليس بنافع له.

(٣١١) إن الانسلاخ من العلم من شر المصائب والخطر الكبير الذي يواجه العلماء، كتمان العلم وعدم الإلتزام بشرع الله فهو لاء هم شر البرية.

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ ، ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي خلقنا ممن يصير إلى جهنم بكفره ومعصيته .
و ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أراد أولاد الزنى لأنهم من النطف الخبيثة مخلوقين ، فهم أكثر الناس إسراعاً إلى الكفر والمعصية فيصيرون جامعين بين [سوء] المعتقد وخبث المولد .
والقول الثاني : (٣١٢) أنه على العموم في أولاد الزنى والرشرة فيمن ولد من نكاح أو سفاح لأنهم مؤاخذون على أفعالهم لا على مواليدهم التي خبثت بأفعال غيرهم .

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحق .
﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الرشد .
﴿وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الوعظ ، فصاروا بترك استعمالها بمثابة من عديمها ، قال مسكين الدارمي (٣١٣) :

أعمى إذا ما جارتني خرجت حتى يُوارى جارتى الجدر
وأصم عما كان بينهما سمعي وما في سمعي الوقر
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

(٣١٢) وهو الراجح وأصحاب القول الأول اعتمدوا على حديث مرفوع رواه الطبري (٢٧٧/١٣) وإسناده ضعيف لجهالة أحد رواة .

(٣١٣) أمالي المرتضى (٤٣/١ ، ٤٤) . وخزانة الأدب ٤٦٨/١ .

والشطر الثاني من البيت الأول حتى يوارى جارتى الخدر .
والشطر الثاني من البيت الثاني . سمعي وما بي غيره وقر .
راجع الطبري (٣٧٩/١٣) .

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ قال ابن عباس: كل أسمائه حسنى وفي المراد بالحسنى هاهنا وجهان: .

أحدهما: ما مالت إليه القلوب من ذكره بالعفو والرحمة دون السخط والنقمة .
والثاني: أسماؤه التي يستحقها لنفسه ولفعله ومنها صفات هي طريق المعرفة به، وهي تسعة:

القديم^(٣١٤) الأول قبل كل شيء . والباقي^(٣١٥) بعد فناء كل شيء . والقادر الذي لا يعجزه شيء والعالم الذي لا يخفى عليه شيء . والحي الذي لا يموت . والواحد الذي ليس كمثله شيء والسميع البصير الذي لا يعزب عنه شيء والغني بنفسه عن كل شيء .

وفي دعائه بها وجهان:

أحدهما: نداؤه بها عند الرغبة إليه في الدعاء والطلب .

والثاني: تعظيمه بها تعبداً له بذكرها .

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: معناه يكذبون، قاله ابن عباس .

والثاني: يشركون، قاله قتادة .

والثالث: يحوِّرون، قاله الأخفش .

وفي إلحادهم فيها قولان:

أحدهما: اشتقاقهم آلهتهم من أسماء الله، كما سموا بعضها باللات اشتقاقاً

من الله، وبعضها بالعزى اشتقاقاً من العزيز، قاله ابن عباس، ومجاهد .

والثاني: تسميتهم الأوثان آلهة والله عز وجل أبا المسيح وعزير .



وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ

(٣١٤) وإطلاق اسم القديم على الله ليس بصحيح فإنه ليس من أسماء الله تعالى وإنما هو من باب الإخبار عن الله

وباب الإخبار أوسع من باب الأسماء والصفات راجع ما كتبه العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد

(٣/) وكذا ما كتبه العلامة الألباني في حاشيته على شرح الطحاوية ..

ويغني عن إطلاق هذا الاسم اسمه تعالى الأول وقد ورد في السنة المطهرة والكتاب المبين .

(٣١٥) ويغني عن هذا الاسم اسمه الآخر وقد ورد في الكتاب والسنة .

قوله عز وجل: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ فيهم قولان: أحدهما: العلماء.

والثاني: أنهم هذه الأمة. روى ذلك قتادة^(٣١٦)، وابن جريج عن النبي ﷺ.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ آيَاتٍ كِيدَىٰ مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والاستدراج أن تنطوي على حالة منزلة بعد منزلة. وفي اشتقاقه قولان:

أحدهما: أنه مشتق من الدرج لانطوائه على شيء بعد شيء.

والثاني: أنه مشتق من الدرجة لانحطاطه من منزلة بعد منزلة.

وفي المشار إليه باستدراجهم قولان:

أحدهما: استدراجهم إلى الهلكة.

والثاني: الكفر.

وقوله: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: لا يعلمون بالاستدراج.

والثاني: لا يعلمون بالهلكة.

أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

قوله عز وجل: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ فيه قولان:

(٣١٦) رواه الطبري عن قتادة (٢٨٦/١٣) قال بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذ قرأها هذه لكم

ورواه عن ابن جريج (٢٨٦/١٣) قال ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال هذه في أمي

أحدهما: معنى يضله يحكم (٣١٧) بضلّته في الدين.

والثاني: يضله عن طريق الجنة إلى النار.

﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ والطغيان إفراط العدوان.

وفي ﴿يَعْمَهُونَ﴾ وجهان:

أحدهما: يتحIRON، والعمه في القلب كالعمى في العين.

والثاني: يترددون، قاله قطرب واستشهد بقول الشاعر:

متى يعمه إلى عثمان يعمه إلى ضخم السراق والقطار

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفُهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا

عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن السائل عنها اليهود، قاله ابن عباس.

والثاني: أن السائل عنها قريش، قاله الحسن، وقطادة.

﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أما ﴿أَيَّانَ﴾ فمعنى متى، ومنه قول الراجز (٣١٨):

أَيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي أَيَّانَا أَمَا تَرَى لِنَجْحِهَا أَوَانَا

وأما ﴿مُرْسَاهَا﴾ ففيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: قيامها، قاله السدي.

والثاني: منتهاها، قاله ابن عباس.

والثالث: ظهورها، قاله الأخفش.

(٣١٧) ولا تنافي بين هذا القول والذي يليه فإن الله تعالى إذا قضى على شخص بالضلال فقد قدر ذلك عليه

أزلاً ويترتب على ذلك أن يضل عن طريق الجنة إلى النار وهذا من تعالى على جهة العدل فهو سبحانه لا

يسئل عما يفعل وهم يسألون وهذه الأقوال التي يسردها المؤلف توافق أهل السنة في باب القدر - .

(٣١٨) اللسان (أين) ومجاز القرآن لأبي عبيدة (٢٣٤/١) والطبري (٢٩٣/١٣) ووقع في البيت الثاني هنا

تصحيف وصوابه.

أَمَا تَرَى لِنَجْحِهَا أَيَّانَا وكذا هو في القرطبي (٣٣٥/٨)

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ لا يعلم وقتها إلا هو، نفيًا أن يعلمها غير الله ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :
أحدها : كبر على أهل السموات والأرض مجيء الساعة، قاله الحسن .
والثاني : ثقل عليهم قيام الساعة، قاله السدي .
والثالث : معناه عظم وصفها على أهل السموات والأرض، قاله ابن جريج .
﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ يعني على غفلة لأنه لا يعلمها غير الله، ولم ترد الأخبار عنها من جهة الله فصار مجيئها بغتة وذلك أشد لها كما قال الشاعر (*) :
وأنكأ شيء حين يفجؤك البغت

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : معناه عالمٌ بها، قاله مجاهد، والضحاك، وابن زيد، ومعمّر .
والثاني : معنى الكلام يسألونك عنها كأنك خفي بهم، على التقديم والتأخير، أي كأن بينك وبينهم مودة توجب برهم، من قوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي خَفِيًّا﴾ [مريم : ٤٦] قاله ابن عباس .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾
قوله عز وجل : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا أملك القدرة عليهما من غير مانع ولا صاد .

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يملكني إياه فأملكه بمشيئته .

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : لاستكثر من العمل الصالح، قاله الحسن، وابن جريج .
والثاني : لأعددت من السنة المخصصة للسنة المجدة، قاله الفراء .
والثالث : وهو شاذ : لا شريت في الرخص وبغت في الغلاء (٣١٩) .

(*) اللسان بغت وصدر البيت ولكنهم ماتوا ولم أدر بغتة .
(٣١٩) وهذا القول هو معنى قول ابن عباس رضي الله عنه قاله الضحاك عنه ونقله في زاد المسير (٣/ ٣٠٠) .

﴿وَمَا مَسْنِي السُّوءِ﴾ فيه ثلاثة تأويلات .

أحدها: ما يبي جنون كما زعم المشركون، قاله الحسن .

والثاني: ما مسني الفقر لاستكثاري من الخير .

والثالث: ما دخلت على شبهة .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَفَعَلَ عَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ وذلك أن إبليس قال لحواء سَمِّيه: عبد الحارث (٣٢٠)، يعني نفسه لأنه اسمه في السماء كان «الحارث» فسمته عبد الله فمات، ثم حملت ولدًا ثانيًا فقال لها ذلك فلم تقبل، فمات، ثم حملت ثالثًا فقال لها ولادم: أتظنان الله تارك عبده عندكما؟ لا والله ليذهبن به كما ذهب بالآخرين فسمياه بذلك فعاش، فهذا معنى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ أي في الاسم، فروي عن النبي ﷺ أنه قال: خدعهما مرتين خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض.

(٣٢٠) وهذا التفسير في سبب النزول ورد مرفوعاً من رواية الحسن البصري وهو مدلس فالحديث ضعيف على هذا راجع تخريجه بتوسع في السلسلة الضعيفة.

وقد ورد في قول الحسن في تفسير الآية قول آخر ولفظه «هم اليهود والنصارى ورزقهم الله أولاداً فهو دودهم ونصروهم» رواه الطبري (٣١٥/١٣).

قال الحافظ ابن كثير (٢٧٥/٢) «وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب ممن آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم. قلت: وقد رد الرواية المرفوعة وأبطلها الفخر الرازي وغيره (٣٤٣/٣ - ٣٤٥).

وقال الحسن وقتادة: إن المكنى عنه بقوله ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ ابن آدم وزوجته، وليس براجع إلى آدم وحواء.

أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

قوله عز وجل: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ يعني الأصنام، يعني أرجل يمشون بها في مصالحكم.

﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ يعني في الدفع عنكم.

﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ يعني مضاركم من منافعكم.

﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ دعاءكم وتضرعكم.

فإن قيل فلم أنكر عبادة من لا رجل له ولا يد ولا عين؟

قيل عنه جوابان:

أحدهما: أن من عبد جسمًا لا ينفع كان ألوم ممن عبد جسمًا ينفع.

والثاني: أنه عرفهم أنهم مفضلون عليها، فكيف يعبدون من هم أفضل منه.

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ

الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

قوله عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: العفو من أخلاق الناس وأعمالهم، قاله ابن الزبير، والحسن، ومجاهد.

الثاني: خذ العفو من أموال المسلمين، وهذا قبل فرض الزكاة ثم نسخ بها، قاله الضحاك والسدي وأحد قولي ابن عباس.

والثالث: خذ العفو من المشركين، وهذا قبل فرض الجهاد، قاله ابن زيد.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: معناه بالمعروف، قاله عروة وقتادة.

والثاني: ما روي عن النبي ﷺ أنه قال لجبريل حين نزلت (٣٢١) عليه هذه الآية

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قال: لا أدري حتى أسأل العالم، قال: ثُمَّ عَادَ جِبْرِيلُ فَقَالَ: «يا محمد إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»، قاله ابن زيد.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن قيل فكيف أمر بالإعراض مع وجوب الإنكار

عليهم؟

قيل: إنما أراد الإعراض عن السفهاء استهانة بهم. وهذا وإن كان خطاباً

لنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه.

قوله عز وجل: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن النزغ الانزعاج.

والثاني: الغضب.

والثالث: الفتنة، قاله مقاتل.

(٣٢١) وهذا الاثر رواه الطبري (١٣/ ٣٣٠) بسنده إلى رجل لم يسم وقيل هو أمي بن ربيعة كما قال محققه

الطبري. وقد خرج الاثر السيوطي في الدر (٣/ ٦٢٨) وزاد نسبه لابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ. وسمى الرجل الشعبي.

وقد روى ابن مردويه نحوه من حديث جابر كما في الدر (٣/ ٦٢٨).

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع بجهل من جهل، عليم بما يزيل عنك النزغ.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة ﴿طَافٍ﴾، وقرأ (٣٢٢) الباقون ﴿طَيْفٍ﴾ واختلف في هاتين القراءتين على قولين:

أحدهما: أن معناهما واحد وإن اختلف اللفظان، فعلى هذا اختلف في تأويل ذلك على أربعة تأويلات:

أحدها: أن الطيف اللطم كالخيال يلطم بالإنسان.

والثاني: أنه الوسوسة، قاله أبو عمرو بن العلاء.

والثالث: أنه الغضب، وهو قول مجاهد.

والرابع: أنه الفزع، قاله سعيد بن جبيرة (٣٢٣).

والقول الثاني: أن معنى الطيف والطائف مختلفان، فالطيف اللطم، والطائف كل شيء طاف بالإنسان.

﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: علموا فإذا هم متبهون.

والثاني: اعتبروا فإذا هم مهتدون.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِيتْهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا

(٣٢٢) وهم ابن كثير وأبو عمرو الكسائي ويعقوب كما في المبسوط من القراءات (ص ٢١٨). وفيها قراءة أخرى بتشديد الباء من غير ألف هكذا «طَيْف» راجع زاد المسير (٣/٣٠٩).

(٣٢٣) والصواب عدم الاختصار على شيء من هذه الأشياء وقال الإمام الطبري رحمه الله «يقول إذا ألم بهم لم من الشيطان من غضب أو غيره مما يصد عن واجب حق الله عليهم تذكروا عقاب الله وثوابه ووعدته ووعيده وأبصروا الحق فعملوا به وانتهوا إلى طاعة الله فيما فرض عليهم وتركوا فيه طاعة الشيطان. هـ (٣٣٤/١٣)»

بَصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ فيه ثلاثة أوجه:
أحدها: معناه هلا أتيتنا بها من قبل نفسك، وهذا قول مجاهد، وقتادة.
والثاني: معناه هلا اخترتها لنفسك.
والثالث: معناه هلا تقبلتها من ربك، قاله ابن عباس.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

قوله عز وجل ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي لقراءته.
﴿وَأَنْصِتُوا﴾ أي لا تقابلوه بكلام ولا إعراض ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.
واختلفوا في موضع هذا الإنصات على ثلاثة أقاويل:
أحدها: أنها نزلت في المأموم خلف الإمام ينصت ولا يقرأ، قاله مجاهد.
والثاني: أنها نزلت في خطبة الجمعة ينصت الحاضر لاستماعها ولا يتكلم،
قلته عائشة، وعطاء.

والثالث: ما قاله ابن مسعود (٣٢٤): كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة،
سلام على فلان، سلام على فلان، فجاء القرآن من ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾.

وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ وفي هذا الذكر ثلاثة أوجه:
أحدها: أنه ذكر القراءة في الصلاة خلف الإمام سرًا في نفسه قاله قتادة.
والثاني: أنه ذكر بالقلب باستدامة الفكر حتى لا ينسى نعم الله الموجبة
لطااعته.

(٣٢٤) رواه أبو جعفر الطبري (١٣/٣٤٥) وفيه انقطاع بين المسيب بن رافع وابن مسعود.

والثالث: ذكره باللسان إما رغبة إليه في دعائه أو تعظيماً له بالآية. وفي المخاطب بهذا الذكر قولان:

أحدهما: أنه المستمع للقرآن إما في الصلاة أو الخطبة، قاله ابن زيد.

والثاني: أنه خطاب للنبي ﷺ ومعناه عام في جميع المكلفين..

ثم قال: ﴿تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾ أما التضرع فهو التواضع والخشوع، وأما الخيفة فمعناه مخافة منه.

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني أسرّ القول إما بالقلب أو باللسان على ما تقدم من التأويلين.

ثم قال تعالى: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ فيه وجهان

أحدهما: بالبكر والعشيات.

والثاني: أن الغدو آخر الفجر صلاة الصبح، والآصال آخر العشي صلاة العصر، قاله مجاهد، ونحوه عن قتادة.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: عن الذكر.

والثاني: عن طاعته في كل أوامره ونواهيه، قاله الجمهور.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ وهذا أول سجدة التلاوة في القرآن.

وسبب نزولها ما قاله كفار مكة ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ

نُفُوراً﴾ [الفرقان: ٦٠].

فأنزل الله تعالى هذه الآية وأعلمهم أن الملائكة المقربين إذا كانوا على هذه

الحال في الخضوع والرغبة فأنتم بذلك أولى والله أعلم بالصواب.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

مدنية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء، وقال ابن عباس: إلا سبع آيات من قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [الأنفال: ٣٠] إلى آخر سبع آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وهذا الخطاب لرسول الله ﷺ حين سأله أصحابه يوم بدر عن الأنفال.

وفي هذه الأنفال التي سأله عنها خمسة أقاويل:

أحدها: أنها الغنائم، وهذا قول ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، والضحاك.

الثاني: أنها السرايا التي تتقدم الجيش، وهذا قول الحسن.

الثالث: الأنفال ما نذ (٣٢٥) من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من دابة أو

عبد، وهذا أحد قولي ابن عباس.

الرابع: أن الأنفال الخمس من الفبيء والغنائم التي جعلها الله تعالى لأهل

الخمس، وهذا قول مجاهد.

(٣٢٥) كذا قال وهو خطأ أو تحريف والصواب «شذ» كما في الطبري (١٣/٣٦٣).

الخامس: أنها زيادات يزيد بها الإمام بعض الجيش لما قد يراه من
الصلاح (٣٢٦).

والأنفال جمع نفل، وفي النفل قولان:

أحدهما: أنه العطية، ومنه قيل للرجل الكثير العطاء: نوفل، قال الشاعر (٣٢٧):
يأتي الظلامة منه النوفل الزُفرُ

فالنوفل: الكثير العطاء. والزفر: الحمل للأنفال، ومنه سمي الرجل زفر.
والقول الثاني: أن النفل الزيادة من الخير ومنه صلاة النافلة. قال لبيد بن
ربيعة (٣٢٨):

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثي وعجل

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية على أربعة أقاويل:

أحدها: ما رواه ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ (٣٢٩) «مَنْ
كَذَّأ وَكَذَّأ فَلَهُ كَذَّأ وَكَذَّأ» فسارع إليه الشبان وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما فتح
الله تعالى عليهم جاءوا يطلبون ما جعل لهم رسول الله ﷺ، فقال الشيوخ: لا
تستأثروا علينا فإننا كنا رداء لكم، فأنزل الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية.

الثاني: ما روى محمد بن عبيد (٣٣٠) عن سعد بن أبي وقاص (٣٣١) قال: لما كان
يوم بدر قُتل أخي عمير وقتلت سعيد بن العاص بن أمية وأخذت سيفه وكان يسمى
ذا (٣٣٢) الكتيفة فجئت به النبي ﷺ فقلت: هبه لي يا رسول الله، فقال «أَطْرَحُهُ فِي

(٣٢٦) ورجحه الطبري (١٣/٣٦٥).

(٣٢٧) والبيت لأعشى باهلة اللسان (نفل).

(٣٢٨) ديوانه (١١/٢) ومجاز القرآن لأبي عبيدة (١/٢٤٠) واللسان (نفل).

(٣٢٩) رواه ابن جرير (١٣/٣٦٧) والحاكم (٢/٣٢٦) وصححه ووافقه الذهبي وأبو داود (٢٧٣٧) والبيهقي

(٦/٣١٥) وزاد السيوطي في الدر (٤/٦) نسبه لابن أبي شيبه وابن حبان وابن مردويه وأبي الشيخ. وابن

المنذر والنسائي.

(٣٣٠) سقط هنا بقية الاسم والتكملة من الطبري هكذا «عبيدالله».

(٣٣١) كذا هنا وفي الدر المنثور (٤/٣) «ذا الكتيفة» بالعين بدلاً من الفاء.

(٣٣٢) رواه ابن جرير (١٣/٣٧٣) وأحمد رقم (١٥٥٦) وأبو عبيدة في الأموال ٣٠٣ وابن أبي شيبه وابن

مردويه كما في الدر (٤/٣) وفي الحديث انقطاع بين محمد بن عبيدالله وسعد راجع ما كتب في

حاشية الطبري عن هذا الحديث.

الْقَبْضِ». فطرخته ورجعت وبني من الغم ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخيه وأخذ سلمي، قال: فما تجاوزت إلا قريباً حتى نزلت عليه سورة الأنفال فقال: «اذْهَبْ فُخْذُ سَيْفِكَ».

الثالث: أنها نزلت في المهاجرين والأنصار ممن شهد بدرًا فاختلفوا وكانوا اثلاثاً فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية. فملكه الله رسوله فقسمه كما أراه الله، قاله عكرمة والضحاك وابن جريج.

والرابع: أنهم لم يعلموا حكمها وشكوا في إحلالها لهم مع تحريمها على من كان قبلهم فسألوا عنها ليعلموا حكمها من تحليل أو تحريم فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ثم اختلف أهل العلم في نسخ هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها منسوخة بقوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]. الآية، قاله عكرمة، ومجاهد، والسدي.

والقول الثاني: أنها ثابتة الحكم ومعنى ذلك؛ قل الأنفال لله، وهي لا شك لله مع الدنيا بما فيها والآخرة، والرسول يضعها في مواضعها التي أمره الله بوضعها فيها، قاله ابن زيد.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يرد أهل القوة على أهل الضعف.

الثاني: أن يسلموا لله وللرسول ليحكم في الغنيمة بما شاء الله.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فيه

وجهان:

أحدهما : خافت .

الثاني : رَقَّتْ .

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ يعني آيات القرآن بما تضمنته من أمر ونهي .

﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تصديقاً .

الثاني : خشية .

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فيما يخافونه من الشدة في الدنيا .

الثاني : فيما يرجونه من ثواب أعمالهم في الآخرة .

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ٥﴾

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ٦﴾

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ

الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ

الْكَافِرِينَ ٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ٨﴾

قوله عز وجل : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ فيه قولان :

أحدهما : كما أخرجك ربك من مكة إلى المدينة بالحق مع كراهة فريق من

المؤمنين كذلك ينجز وعدك في نصرك على أعدائك بالحق .

والثاني : كما أخرجك ربك من بيتك من المدينة إلى بدر بالحق كذلك جعل

لك غنيمة بدر بالحق .

وفي قوله : ﴿بِالْحَقِّ﴾ وجهان :

أحدهما : أنك خرجت ومعك الحق .

الثاني : أنه أخرجك بالحق الذي وجب عليك .

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كارهون خروجك .

الثاني: كارهون صرف الغنيمة عنهم لأنهم لم يعلموا أن الله تعالى قد جعلها لرسوله دونهم.

قوله عز وجل: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ يعني في القتال يوم بدر.

و﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: بعد ما تبين لهم صوابه.

الثاني: بعد ما تبين لهم فرضه.

وفي المجادل له قولان:

أحدهما: أنهم المشركون، قاله ابن زيد.

الثاني: أنهم طائفة من المؤمنين (٣٣٣)، وهو قول ابن عباس، وابن إسحاق.

لأنهم خرجوا لأخذ العير المقبلة من الشام مع أبي سفيان فلما فاتهم ذلك أمروا بالقتال فجادلوا طلباً للرخصة وقالوا ما تأهبنا في الخروج لقتال العدو، فأنزل الله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ يعني كأنهم في قتال عدوهم يساقون إلى الموت، رعباً وأسفاً لأنه أشد لحال من سيق إلى الموت أن يكون ناظراً له وعالماً به.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ الآية. وسبب

ذلك (٣٣٤) أن عير قريش لما أقبلت من الشام مع أبي سفيان هم رسول الله ﷺ بالخروج لأخذها، وسار فبلغ ذلك قريشاً فخرجت للمنع عنها، فلما علم النبي ﷺ بخروجها شاور أصحابه، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضه معك، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد وقال: «سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَابْشَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ وَاللَّهُ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ الآنَ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ». فذلك معنى قوله ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ يعني العير التي مع أبي سفيان أو الظفر بقريش الخارجين للمنع منها.

(٣٣٣) واختاره الطبري (٣٩٦/١٣).

(٣٣٤) رواه ابن جرير (٣٩٩/١٣) وزاد السيوطي نسبته في الدر (٢٦/٤) لابن اسحاق وابن المنذر واختصره المؤلف هنا.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي غير ذات الحرب وهي العير لأن نفوسهم في لقاءها أسكن، وهم إلى ما فيها من الأموال أحوج. وفي الشوكة التي كُني بها عن الحرب وجهان: أحدهما: أنها الشدة فكُني بها عن الحرب لما فيها من الشدة، وهذا قول قطرب.

والثاني: أنها السلاح، وكُني بها عن الحرب لما فيها من السلاح، من قولهم رجل شاكٍ في السلاح، قاله ابن قتيبة.

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: إظهار الحق بإعزاز الدين في وقته على ما تقدم من وعده.

والثاني: أن الحق في أمره لكم أن تجاهدوا عدوكم.

وفي صفة ذلك وجهان لأصحاب الخواطر.

أحدهما: يحق الحق بالإقبال عليه ويبطل الباطل بالإعراض عنه.

الثاني: يحق الحق بالقبول ويبطل الباطل بالرد.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ معناه ليظهر الحق يعني الإسلام.

﴿وَيُبَيِّطَ الْبَاطِلَ﴾ أي يذهب بالباطل يعني الشرك.

قال الحسن. هذه الآية نزلت قبل قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾

وهي في القراءة بعدها.

روى سماك عن عكرمة قال (٣٣٥): قيل لرسول الله ﷺ يوم بدر عليك بالعين ليس

دونها شيء فقال له العباس وهو أسير في أيديهم: ليس لك ذلك، فقال: «لم؟» فقال:

لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَكَةِ

مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ

إِلَّا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

(٣٣٥) والحديث مرسل من مراسلات عكرمة كما ترى ولم اظفر بمن خرجه ولا من وصله والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: تستنصرون.

الثاني: تستجiron.

والفرق بين المستنصر والمستجير أن المستنصر: طالب الظفر، والمستجير:

طالب الخلاص.

والفرق بين المستغيث والمستعين أن المستغيث: المسلوب القدرة، والمستعين

الضعيف القدرة.

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ أي فأعانكم.

والفرق بين الاستجابة والإجابة ما لم يتقدمها امتناع.

﴿أَنِّي مُبَدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّينَ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: مع كل ملك ملك، وهو قول ابن عباس فتكون الألف ألفين. قال

الشاعر (٣٣٦):

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا

الثاني: معناه متتابعين، قاله السدي، وفتادة.

الثالث: معنى مردفين أي ممدّين، والإرداف إمداد المسلمين بهم، قاله

مجاهد.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن البشرى هي في مددهم بألف من الملائكة بشروهم بالنصر فكانت

هي البشرى التي ذكرها الله تعالى.

والثاني: البشرى النصر التي عملها الله لهم.

﴿وَلِنُطَمِّنَنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: بالبشرى.

والثاني: بالملائكة.

واختلفوا في قتال الملائكة معهم على قولين:

(٣٣٦) هو خزيمة بن زيد والبيت في الأغاني (٧٨/١٣) واللسان (ردف) والمعارف لابن قتيبة ٣٠٢ والأمثال

للميداني (٦٥/١). وجمهرة الأمثال ٣١.

أحدهما: لم يقاتلوا وإنما نزلوا بالبشرى لتطمئن به قلوبهم، وإلا فملك واحد يهلك جميع المشركين كما أهلك جبريل قوم لوط.

الثاني: أن الملائكة قاتلت مع النبي ﷺ كما روى ابن مسعود أنه سأله أبو جهل: من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص؟ قال: «مِنْ قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ» فقال: هم غلبونا لا أنتم.

وقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لثلا يتوهم أن النصر من قبل الملائكة لا من قبل الله تعالى.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾
ذَلِكَ كَمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾
قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ وذلك أن النبي ﷺ وكثيراً من أصحابه غشيهم النعاس بيدر.

قال سهل بن عبد الله: النعاس يحل في الرأس مع حياة القلب، والنوم يحل في القلب بعد نزوله من الرأس، فهو (٣٣٧) رسول الله ﷺ حتى ناموا فبشر جبريل رسول الله ﷺ بالنصر فأخبر به أبا بكر.

وفي امتنان الله تعالى عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أَمَّنْهُمْ بزوال الرعب من قلوبهم، كما يقال: الأمن منيم، والخوف

مسهر.

(٣٣٧) من التهويم وهو أول النوم وهو دون النوم الشديد (النهاية ٢٨٣/٥).

وقوله تعالى: ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾ يعني به الدعة وسكون النفس من الخوف وفيه وجهان:

أحدهما: أمنة من العدو.

الثاني: أمنة من الله سبحانه وتعالى.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ لأن الله تعالى أنزل عليهم ماء السماء معونة لهم بثلاثة أمور:

أحدها: الشرب وإن كانوا على ماء.

الثاني: وهو أخص أحواله بهم في ذلك المكان وهو أن الرمل تلبد بالماء حتى أمكن المسلمين القتال عليه.

والثالث: ما وصفه الله تعالى به من حال التطهير.

وفي تطهيرهم به وجهان:

أحدهما: من وساوس الشيطان التي ألقى بها في قلوبهم الرعب، قاله زيد بن أسلم.

والثاني: من الأحداث والأنجاس التي نالتهم، قاله الجمهور.

قال ابن عطاء: أنزل عليهم ماء طهر به ظواهر أبدانهم، وأنزل عليهم رحمة نقى بها سرائر قلوبهم.

ولأنما خصه الله تعالى بهذه الصفة لأمرين.

أحدهما: أنها أخص صفاته.

والثاني: أنها ألزم صفاته.

ثم قال: ﴿وَيُذِيبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: وسوسته أن المشركين قد غلبوهم على الماء، قاله ابن عباس.

والثاني: كيده وهو قوله: ليس لكم بهؤلاء القوم طاقة، قاله ابن زيد.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ يحتمل وجهين.

أحدهما: ثقة بالنصر.

والثاني: باستيلائهم على الماء.

﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بالصبر الذي أفرغه الله تعالى حتى يثبتوا لعدوهم ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : تلبيد الرمل بالمطر الذي لا يثبت عليه قدم ، وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك .

قوله عز وجل : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ معناه معينكم (٣٣٨) ويحتمل أن يكون معناه إني معكم في نصره الرسول ، فتكون الملائكة لتثبيت المؤمنين ، والله تعالى متولي النصر بما ألقاه من الرعب في قلوب المشركين .

﴿فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : فتبينتهم بحضوركم معهم في الحرب .

والثاني : بقتالكم معهم يوم بدر ، قاله الحسن .

والثالث : بإخبارهم أنه لا بأس عليهم من عدوهم .

﴿سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ يعني الخوف ، ويحتمل أحد وجهين :

إما أن يكون إلقاء الرعب بتخاذلهم ، وإما أن يكون بتكثير المسلمين في أعينهم .

وفي ذلك وجهان :

أحدهما : أنه قال ذلك للملائكة معونة لهم .

والثاني : أنه قال ذلك لهم ليثبتوا به الذين آمنوا .

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : فاضربوا الأعناق ، وفوق صلة زائدة (٣٣٩) في الكلام ، قاله عطية

والضحاك .

وقد روى المسعودي (٣٤٠) عن القاسم قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ

لِأَعَذِّبَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَإِنَّمَا بُعِثْتُ بِضَرْبِ الْأَعْنَاقِ وَشِدِّ الْوَتَاقِ » .

والثاني : معناه واضربوا الرؤوس فوق الأعناق ، قاله عكرمة .

(٣٣٨) وهو أحد أنواع المعية الخاصة وهي هنامية النصر والتأييد وهي خاصة لأوليائه من المؤمنين .

(٣٣٩) لكن نقل الشوكاني في فتح القدير (٢٩١/٣) عن محمد بن يزيد قوله . هذا خطأ لأن فوق يفيد معنى لا

يجوز زيادتها ولكن المعنى أنه أبيع لهم ضرب الوجوه وما قرب منها أهـ .

(٣٤٠) رواه الطبري (٢٩/١٣) وهو حديث معضل .

والثالث: فاضربوا على الأعناق.

والرابع: فاضربوا على الأعناق (٣٤١).

والخامس: فاضربوا فوق جلدة الأعناق.

﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني المفاصل من أطراف الأيدي والأرجل والبنان: أطراف الأصابع من اليدين والرجلين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾
وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ
بِعِصْيَانٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْأَحْصِيرُ ﴿١٦﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ والزحف: الدنو قليلاً قليلاً.

﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ يعني بالهزيمة منهم والانصراف عنهم. وفيه قولان: أحدهما: أن هذا على العموم في تحريم الهزيمة بعد لقاء العدو.

والثاني: مخصوص وهو أن الله تعالى أوجب في أول الإسلام على كل رجل من المسلمين أن يقف بإزاء عشرة من المشركين لا يحل له بعد اللقاء أن ينهزم عنهم وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥] وفيه وجهان: أحدهما: لا يعلمون ما فرضه الله تعالى عليهم من الإسلام.

الثاني: لا يعلمون ما فرضه الله تعالى عليهم من القتال.

ثم نسخ ذلك عنهم بعد كثرتهم واشتداد شوكتهم فأوجب الله تعالى على كل رجل لاقى المشركين محارباً أن يقف بإزاء رجلين بعد أن كان عليه أن يقف بإزاء عشرة تخفيفاً ورخصة وذلك بقوله تعالى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

(٣٤١) وإذا كان القول الرابع هكذا فهو كالقول الثالث تماماً ولعل القول الرابع يقصد به المؤلف رحمه الله الضرب على المذابح (أي أماكن الذبح) وهي في أعالي الأعناق والله أعلم.

قريء بضم الضاد (٣٤٢) وفتحها، وفي اختلاف القراءتين وجهان:

أحدهما: أنهما لغتان ومعناها واحد، قاله الفراء.

والثاني: معناهما مختلف.

وفي اختلافهما وجهان:

أحدهما: أنها بالفتح: الضعف في الأموال، وبالضم: الضعف في الأحوال.

الثاني: أنها بالفتح: الضعف في النيات، وبالضم: الضعف في الأبدان. وقيل

بعكس الوجهين في الوجهين.

ثم قال: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: مع الصابرين على القتال في معونتهم على أعدائهم.

الثاني: مع الصابرين على الطاعة في قبول عملهم وإجزال ثوابهم، فصار حتماً

على من لاقى عدوه من المشركين زحفاً أن لا ينهزم مع القوة على المصابرة حتى يقضي الله من أمره ما شاء، فلما الهزيمة مع العجز عن المصابرة فإن قاتله أكثر من مثليه جاز أن يولي عنهم منهزماً، وإن قاتله مثله فمن دون حرم عليه أن يولي عنهم منهزماً إلا على صفتين: إما أن يتحرف لقتال وهو أن يهرب ليطلب، ويفر ليكر فإن الحرب كروفر، وهرب وطلب، وإما أن يتحيز إلى فئة أخرى ليقاتل معها، قربت الفئة أو بعدت، وذلك ظاهر في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُؤَلَّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ

اللَّهِ﴾ أي صار بالمكان الذي يحق عليه غضب الله، مأخوذ من المبأ وهو المكان.

ومذهب الشافعي وأصحابه وموافقيه أن هذا على العموم (٣٤٣)، محكوم به في

كل مسلم لاقى عدواً، وبه قال عبد الله بن عباس.

(٣٤٢) وهي قراءة بضم الضاد وفتح العين وهي قراءة ابن جعفر هكذا «وعلم أن فيكم ضعفاء» على وزن فعلاء

جمع ضعيف المبسوط ص ٢٢٢ وزاد المسير (٣/٣٧٩).

(٣٤٣) قال أبو جعفر الطبري (٣/٤٤٠) «وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي قول من قال حكمها

محكم [أي غير منسوخة] وأنها نزلت في أهل بدر وحكمها ثابت في جميع المؤمنين وأن الله حرم على

المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف لقتال أو التحيز إلى فئة من المؤمنين حيث كان

وحكي عن الحسن، وقتادة، والضحاك: أن ذلك خاص في أهل بدر، وبه قال أبو حنيفة.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ
وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾
وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كِيدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

قوله عز وجل: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم.

والثاني: ولكن الله قتلهم بمعونته لكم حين ألقى في قلوبهم الرعب وفي قلوبكم النصر.

وفيه وجه ثالث قاله ابن بحر: ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدمكم بهم.

وقيل لم تقتلوهم بقوتكم وسلاحكم ولكن الله قتلهم بخذلانهم وقبض أرواحهم (٣٤٤).

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: ما حكاه ابن عباس، وعرة، والسدي: أن النبي (ﷺ) قبض يوم بدر قبضة من تراب رماهم بها وقال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» أي قبحت ومنه قول الحطيئة (٣٤٦):

أرى لي وجهاً شوه الله خلقه .. ففُح من وجهٍ وقبح حامله.

فألقي الله تعالى القبضة في أبصارهم حتى شغلتهم بأنفسهم وأظفر الله المسلمين بهم، فهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

الثاني: معناه وما ظفرت إذ رميت ولكن الله أظفرك، قاله أبو عبيدة.

الإسلام وأن من ولاهم الدبر بعد الزحف لقتال منهزماً بغير نية إحدى الخلتين اللتين أباح الله التولية بهما فقد استوجب من الله وعيده إلا أن يتفضل عليه بفضوه.

(٣٤٤) كذا هنا وفي المطبوعة وهو خطأ والصواب أرواحهم والله أعلم.

(٣٤٥) وقال الشوكاني في فتح القدير (٢/٢٩٤) «وهو الصحيح» يعني من القول ورواه الطبري من رواية السدي (٤٤٥/١٣).

(٣٤٦) ديوانه:

الثالث: وما رميت قلوبهم بالرعب إذ رميت وجوههم بالتراب ولكن الله ملأ قلوبهم رعباً.

والقول الرابع: أنه أراد رمى أصحابه بالسهم فأصاب رميهم(*).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ يعني بما أرسله من الرياح المعينة لسهامهم حتى سددت وأصابت. والمراد بالرمي الإصابة لأن معنى الرمي محمول على الإصابة، فإن لم يصب قيل رمى فأخطأ. وإذا قيل مطلقاً: قد رمى، لم يعقل منه إلا الإصابة، ألا ترى إلى قول امرئ القيس:

فرماها في فرائصها.

فاستغنى بذكر الرمي عن وصفه بالإصابة.

وقال ذو الرمة في الرأي (٣٤٧):

رمى فأخطأ والأقدار غالبية.. فانصاع والويل هجيره والحرب
قوله عز وجل: ﴿وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ قال أصحاب الخواطر:
البلاء الحسن ما يورثك الرضا به والصبر عليه.

وقال المفسرون: البلاء الحسن ها هنا النعمة بالظفر والغنيمة.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا
نَعْدُوا وَلَنْ نُنْجِيَكُمْ عَنْكُمْ فِثْمَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله عز وجل ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: إن تستنصروا الله، فالفتح النصر، فقد جاءكم فضل الله بنصرنا،

حكاه ابن الأنباري.

والثاني: معناه إن تستنصروا الله، والفتح النصر، فقد جاءكم نصر الله لنا

عليكم. وفي هذا الخطاب قولان.

أحدهما: أنه خطاب للمشركين لأنهم استنصروا يوم بدر بأن قالوا: اللهم

أقطعنا للرحم وأظلمنا لصاحبه فانصره عليه، فنصر الله تعالى نبيه والمسلمين عليهم.

(*) بياض في الأصل مقدار ثلاث كلمات.

(٣٤٧) اللسان (هجى) والشرط الثاني فيه فانصعن والويل هجيره والحرب.

ثم قال ﴿وَإِنْ تَسْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن الاستنصار كان عليهم لا لهم . ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وإن تعودوا إلى مثل هذا التكذيب نعد إلى مثل هذا التصديق .

والثاني : وإن تعودوا إلى مثل هذا الاستفتاح نعد إلى مثل هذا النصر .

والقول الثاني : أنه خطاب للمؤمنين نصرهم الله تعالى يوم بدر حين استنصروه

﴿وَإِنْ تَسْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني عما فعلتموه في الأسرى والغنيمة . ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وإن تعودوا إلى الطمع نعد إلى المؤاخذه .

الثاني : وإن تعودوا إلى مثل ما كان منكم في الأسرى والغنيمة نعد إلى الإنكار

عليكم .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ
عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

قوله عز وجل : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أما الدواب

فاسم لكل ما دب على الأرض من حيوانها لدبيته عليها مشياً ، وكان بالخيول أخص .

والمراد بشر الدواب الكفار لأنهم شر ما دب على الأرض من الحيوان .

ثم قال : ﴿الصُّمُّ﴾ لأنهم لا يسمعون الوعد . ﴿الْبُكْمُ﴾ والأبكم هو المخلوق

أخرس ، وإنما وصفهم بالبكم لأنهم لا يقرون بالله تعالى ولا بلوازم طاعته .

﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل وجهين .

أحدهما : لا يعقلون عن الله تعالى أمره ونهيه .

والثاني : لا يعتبرون اعتبار العقلاء .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في بني عبد الدار .

قوله عز وجل : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : اهتداء .

الثاني : إصغاء .

﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدهما : لأسمعهم الحجج والمواعظ سماعَ تفهيم وتعليم ، قاله ابن جريج وابن زيد .

الثاني : لأسمعهم كلام الذين طلبوا إحياءهم من قصي بن كلاب وغيره يشهدون بنبوتك قاله بعض المتأخرين .

والثالث : لأسمعهم جواب كل ما يسألون عنه ، قاله الزجاج .

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ولو أسمعهم الحجج والمواعظ لأعرضوا عن الإصغاء والتفهم .

والثاني : ولو أجابهم إلى ما اقترحوه لأعرضوا عن التصديق .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ يعني أجبوا الله والرسول قال كعب بن سعد الغنوي (٣٤٨) .

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وإجابة الله تعالى هي طاعة أمره ، وإنما خرجت عن هذا اللفظ لأنها في مقابلة الدعاء إليها فصارت إجابة لها .

﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فيه سبعة أقاويل :

أحدها : إذا دعاكم إلى الإيمان ، قاله السدي .

والثاني : إذا دعاكم إلى الحق ، قاله مجاهد .

والثالث : إذا دعاكم إلى ما في القرآن ، قاله قتادة .

والرابع : إذا دعاكم إلى الحرب وجهاد العدو ، قاله ابن إسحاق .

والخامس: إذا دعاكم إلى ما فيه دوام حياتكم في الآخرة، ذكره علي بن عيسى.

والسادس: إذا دعاكم إلى ما فيه إحياء أمركم في الدنيا، قاله الفراء.

والسابع: أنه على عموم الدعاء فيما أمرهم به.

روى العلاء بن عبد الرحمن (٣٤٩) عن أبيه عن أبي هريرة قال: مر رسول الله ﷺ على أبي وهو قائم يصلي فصرخ به قال «يَا أَبِي»، قال فعجل في صلاته، ثم جاء، فقال رسول الله ﷺ «مَا مَنَعَكَ إِذْ دَعَوْتُكَ أَنْ تَجِيبَنِي؟» قال: يا رسول الله كنت أصلي، فقال «أَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ «اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» قال بلى يا رسول الله، لا أعود (٣٥٠).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فيه لأهل التأويل سبعة أقاويل:

أحدها: يحول بين الكافر والإيمان، وبين المؤمن والكفر، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك.

والثاني: يحول بين المرء وعقله فلا يدري ما يعمل، قاله مجاهد.

والثالث: يحول بين المرء وقلبه أن يقدر على إيمان أو كفر إلا بإذنه، قاله السدي.

والرابع: معناه أنه قريب من قلبه يحول بينه وبين أن يخفى عليه شيء من سره أو جهره فصار أقرب إليه من حبل الوريد، وهذا تحذير شديد، قاله قتادة.

والخامس: معناه يفرق بين المرء وقلبه بالموت فلا يقدر على استدراك فائت.

ذكره علي بن عيسى.

والسادس: يحول بين المرء وما يتمناه بقلبه من البقاء وطول العمر والظفر

والنصر، حكاه ابن الأنباري.

(٣٤٩) رواه الطبري (١٣/٤٦٧) واللفظ له وأحمد (٢/٤١٢/٤١٣) والترمذي (٣٠٣٦) وصححه وللحديث روايات أخرى راجعها في الفتح (١١٩/٨ - ٢٣١).

(٣٥٠) قال العلامة الشوكاني (٢/٢٩٩).

ويستدل بهذه الآية على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائناً ما كان ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة وترك الاعتداد بالرأي وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان.

والسابع: يحول بين المرء وما يوقعه في قلبه من رعب وخوف أو قوة وأمن،
فيأمن المؤمن من خوفه، ويخاف الكافر عذابه.

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ فيها أربعة أقاويل:

أحدها: أنه المنكر، أمر الله تعالى المؤمنين ألا يقروه بين أظهرهم فيعمهم العذاب قاله ابن عباس.

والثاني: أنها الفتنة بالأموال والأولاد كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] قاله عبدالله بن مسعود.

والثالث: أن الفتنة ها هنا البلية التي يبلى الإنسان بها، قاله الحسن.

والرابع أنها نزلت في النكاح بغير ولي، قاله بشر بن الحارث (٣٥١).

ويحتمل خامساً: أنها إظهار البدع.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ وجهان:

أحدهما: لا تصيبن الفتنة الذين ظلموا.

الثاني: لا يصيبن عقاب الفتنة، فتكون لأهل الجرائم عقوبة، ولأهل الصلاح

ابتلاء.

وفيه وجه ثالث: أنه دعاء للمؤمن أن لا تصيبه فتنة، قاله الأخفش.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ
فَعَاوَنَكُمْ وَيَأْتِيَكُمْ بِصُرُوءٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يريد بذلك قتلهم إذ كانوا بمكة وذلتهم باستضعاف قريش لهم.

وفي هذا القول وجهان:

(٣٥١) هو بشر بن الحارث الزاهد المعروف بالحافي كان ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد وأخباره كثيرة. وشماله في التشف والزه والورع شهيرة له ترجمة في تهذيب التهذيب (١/٣٨٩، ٣٩٠).

أحدهما: أن الله ذكرهم بذلك نعمه عليهم .

والثاني : الإخبار بصدق وعده لهم .

﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني بالناس كفار قريش ، قاله عكرمة وقتادة .

والثاني : فارس والروم ، قاله وهب بن منبه .

ثم بين ما أنعم به عليهم فقال ﴿فَتَأْوِكُمُ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : أي جعل لكم مأوى تسكنون فيه آمنين .

والثاني : فأواكم بالهجرة إلى المدينة ، قاله السدي .

﴿وَأَيَّدَكُمُ بِبَنَاصِرِهِ﴾ أي قواكم بنصره لكم على أعدائكم يوم بدر .

﴿وَوَرَزَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني من الحلال ، وفيه قولان :

أحدهما : ما مكنكم فيه من الخيرات .

والثاني : ما أباحكم من الغنائم ، قاله السدي .

وقال الكلبي ومقاتل : نزلت هذه الآية في المهاجرين خاصة بعد بدر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

قوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لا تخونوا الله سبحانه والرسول عليه السلام كما صنع المنافقون في

خيانتهم ، قاله الحسن والسدي .

والثاني : لا تخونوا الله والرسول فيما جعله لعباده من أموالكم .

ويحتمل ثالثاً : أن خيانة الله بمعصية رسوله ، وخيانة الرسول ، بمعصية كلماته .

﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : فيما أخذتموه من الغنيمة أن تحضروه إلى المغنم .

الثاني : فيما ائتمن (٣٥٢) الله العباد عليه من الفرائض والأحكام أن تؤدوها بحقها

ولا تخونوها بتركها .

(٣٥٢) وقد جمعنا في شرح الأمان وصورها رسالة خاصة بعنوان طلب الإعانة في شرح حديث الأمانة يسر الله طبعها .

والثالث: أنه على العموم في كل أمانة أن تؤدي ولا تخان.
﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: وأنتم تعلمون أنها أمانة من غير شبهة،

والثاني: وأنتم تعلمون ما في الخيانة من المأثم بخلاف من جهل.

قال الكلبي ومقاتل: نزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر أرسله رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم سعد فاستشاروه وكان قد أحرز أولاده وأمواله عندهم فأشار عليهم أن لا يفعلوا وأوماً بيده إلى حلقه أنه الذبح، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية إلى قوله:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

وجهين:

أحدهما: أن ما عند الله تعالى من الأجر خير من الأموال والأولاد.

والثاني: أن ما عند الله تعالى من أجر الحسنة التي يجازي عليها بعشر أمثالها أكثر من عقوبة السيئة التي لا يجازي عليها إلا بمثلها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ فيه أربعة تأويلات:

أحدها: معنى فرقاناً أي هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل، قاله ابن زيد وابن إسحاق.

والثاني: يعني مخرجاً في الدنيا والآخرة، قاله مجاهد.

والثالث: يعني نجاة، قاله السدي.

والرابع: فتحاً ونصراً، قاله الفراء.

ويحتمل خامساً: يفرق بينكم وبين الكافر في الآخرة.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
 اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾

قوله عز وجل ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾
 وذلك أن قريشاً تأمروا في دار الندوة على رسول الله ﷺ فقال عمرو بن هشام: قيده
 واحبسوه في بيت نتربص به ريب المنون. وقال أبو البخترى: أخرجوه عنكم على بعير
 مطرود تستريحوا منه ومن أذاه لكم. قال أبو جهل: ما هذا برأي ولكن اقتلوه وليجتمع
 عليه من كل قبيلة رجل فيضربوه بأسيا فهم ضربة رجل واحد فترضى حينئذ بنو هاشم
 بالدية. فأوحى الله عز وجل بذلك إلى نبيه ﷺ فخرج إلى الغار مع أبي بكر رضي
 الله عنه ثم هاجر منه إلى المدينة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة.

فهذا بيان قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ وفيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: ليثبتوك في الوثاق، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة.
 والثاني: ليثبتوك في الحبس، قاله عطاء وعبد الله بن كثير والسدي.
 والثالث: معنى يثبتوك أي يخرجوك، كما يقال قد أثبتته في الحرب إذا أخرجته،
 قاله بعض المتأخرين.

﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أو يخرجوك من مكة إلى طرف من أطراف الأرض كالنفي.
 والثاني: أو يخرجوك على بعير مطرود حتى تهلك، أو يأخذك بعض العرب
 فتقتلك فتريحهم منك، قاله الفراء.

وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ أَيْتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ
 هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا هُوَ الْحَقُّ
 مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ السَّمَاءِ وَأُنْزِلْنَا بَعْدَ الْيَمِّ ﴿٣٢﴾
 وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ
 يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

قوله عز وجل ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: قد سمعنا هذا منكم ولا نطيعكم.

والثاني: قد سمعنا قبل هذا مثله فماذا أغناكم.

﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: مثل هذا في النظم والبيان معارضة له في الإعجاز.

والثاني: مثل هذا في الاحتجاج معارضة له في الاستدعاء إلى الكفر.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني أحاديث الأولين ويحتمل وجهين:

أحدهما: أنه قصص من ماضي وأخبار من تقدم.

والثاني: أنه مأخوذ عن تقدم وليس بوحى من الله تعالى.

وقيل إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة، وقد قتله النبي ﷺ

صبراً في جملة ثلاثة من قريش: عقبه بن أبي معيط، والمطعم بن عدي، والنضر بن

الحارث وكان أسير المقداد، فلما أمر رسول الله ﷺ بقتل النضر قال المقداد: أسيري

يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ «اللَّهُمَّ أَعِنِ» (٣٥٣) الْمَقْدَادَ، فقال: هذا أردت. وفيه

أنزل الله تعالى الآية التي بعدها.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ

السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفي هذا القول وجهان:

أحدهما: أنهم قالوا ذلك عناداً للحق وبغضاً للرسول ﷺ.

والثاني: أنهم قالوا ذلك اعتقاداً أنه ليس بحق. وفيهم نزل قوله تعالى ﴿سَأَلْ

سَأَلْ بِعَذَابٍ وَّاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا﴾

[ص: ١٦]. قال عطاء: لقد نزلت في النضر بضع عشرة آية من كتاب الله تعالى.

قوله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه قال ذلك إكراماً لنبيه وتعظيماً لقدره أن يعذب قوماً هو بينهم

تعظيماً لحرمته.

(٣٥٣) كذا هنا وفي المطبوعة والصواب «اللهم أغن المقداد» والتصحيح من الطبري (١٣/٥٠٤) والأثر من

قول سعيد بن جبير ولم يعزه المؤلف هنا إليه وعلى هذا فالأثر مرسل.

والثاني: إرساله فيهم رحمة لهم ونعمة عليهم فلم يجز أن يعذبهم وهو فيهم حتى يستحقوا سلب النعمة بإخراجه عنهم.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: وما كان الله ليعذب مشركي أهل مكة وقد بقي فيهم من المسلمين قوم يستغفرون وهذا قول الضحاك وأبي مالك وعطية.

والثاني: لا يعذبهم في الدنيا وهم يستغفرون فيها فيقولون: غفرانك.

قال ابن عباس^(٣٥٤): كان المشركون بمكة يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك لبيك لا شريك لك، فيقول النبي ﷺ «قَدْ قَدْ»^(٣٥٥) فيقولون: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، ويقولون غفرانك، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قاله أبو موسى ويزيد^(٣٥٦) بن رومان ومحمد بن قيس.

والثالث: أن الاستغفار في هذا الموضع الإسلام، ومعنى الكلام: وما كان الله معذبهم وهم يسلمون، قاله عكرمة ومجاهد.

والرابع: وما كان الله معذب من قد سبق له من الله الدخول في الإسلام، قاله ابن عباس.

والخامس: معناه أنهم لو استغفروا لم يعذبوا استدعاء لهم إلى الاستغفار، قاله قتادة والسدي وابن زيد.

والسادس: وما كان الله معذبهم أي مهلكهم وقد علم أن لهم أولاد وذرية يؤمنون ويستغفرون

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ ۚ إِنْ أَوْلِيَاءُؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا

(٣٥٤) رواه الطبري (١٣/٥١١، ٥١٢) وزاد السيوطي في الدرر نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الشيخ وابن مردويه. والبيهقي في سننه الدر، (٤/٥٥).

(٣٥٥) أي حسبكم لا تزيدوا.

(٣٥٦) هو أبو روح المدني يزيد بن رومان مولى آل الزبير قرأ القرآن على عبدالله بن عباس بن ابي ربيعة وكان عالماً كثير الحديث ثقة توفي سنة ثلاثين ومائة له ترجمة في تهذيب التهذيب (١١/٢٨٤).

كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

قوله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ في المكاء قولان: أحدهما: أنه إدخال أصابعهم في أفواههم، قاله مجاهد.

والثاني: هو أن يشبك بين أصابعه ويصفر في كفه بفيه فيكون المكاء هو الصفير، ومنه قول عترة: (٣٥٧)

وحليل غانية تركت مُجَدَّلاً تمكو فريسته بشدق الأعلم
أي تصفر بالريح لما طعته.

وأما التصدية ففيها خمسة أقاويل:

أحدها: أنه التصفيق، قاله ابن عباس وابن عمر والحسن ومجاهد وقتادة والسدي ومنه قول عمرو بن الإطابة (٣٥٨).

وظلوا جميعاً لهم ضجة مكاء لدى البيت بالتصدية

والثاني: أنه الصد عن البيت الحرام، قاله سعيد (٣٥٩) بن جبير وابن زيد.

والثالث: أن يتصدى بعضهم لبعض ليفعل مثل فعله، ويصفر له إن غفل عنه، قاله بعض المتأخرين.

الرابع: أنها تفعله من صد يصد، وهو الضجيج، قاله أبو عبيدة. ومنه قوله تعالى ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] أي يضحون.

الخامس: أنه الصدى الذي يجيب الصائح فيرد عليه مثل قوله، قاله ابن بحر.

فإن قيل: فلم سُمِّيَ الله تعالى ما كانوا يفعلونه عند البيت من المكاء والتصدية صلاة وليس منها؟

(٣٥٧) سيرة ابن هشام (٢/٣٢٦) والمعاني الكبير (٩٨١) واللسان (مكا) والبيت من معلقة عترة المشهورة.

(٣٥٨) فتح القدير (٢/٣٠٦).

(٣٥٩) قال العلامة الألوسي معقبا على قول سعيد (٩/٢٠٣) تفسير التصدية لصد الناس عن المسجد الحرام قال

«فيه بعد وأبعد من ذلك تفسير عكرمة لها بالطواف على الشمال بل لا يكاد يسلم» وقال العلامة ابن جرير

(١٣/٥٢٧) عن قول سعيد «قول لا وجه له».

قيل عن ذلك جوابان :

أحدهما : أنهم كانوا يقيمون التصفيق والصفير مقام الدعاء والتسبيح فجعلوا ذلك صلاة وإن لم يكن في حكم الشرع صلاة .

والثاني : أنهم كانوا يعملون كعمل الصلاة .

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فيه قولان :

أحدهما : عذاب السيف يوم بدر، قاله الحسن والضحاك وابن جريج وابن إسحاق .

والثاني : أنه يقال لهم في الآخرة ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : فالقوا .

الثاني : فجربوا .

وحكى مقاتل في نزول هذه الآية أن النبي ﷺ كان إذا صلى في المسجد الحرام قام من كفار بني عبد الدار بن قصي رجلاً عن يمين النبي ﷺ يصفران كما يصفر المكاء والمكاء طائر، ورجلان منهم عن يساره يصفقان بأيديهما ليخلطوا عليه صلاته وقرآته، فنزلت هذه الآية فيهم .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ

﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ

فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنها نفقة قريش في قتال رسول الله ﷺ يوم بدر، قاله الضحاك .

والثاني : أنه أبو سفيان استأجر معه يوم أحد ألفين من الأحابيش ومنه كنانة (٣٦٠)

(٣٦٠) كذا هنا وفي المطبوعة ولعله «من بني كنانة» كما في الطبري (١٣/٥٣٠) .

ليقاتل بهم رسول الله ﷺ، سوى من انحاز إليه من العرب، قاله سعيد ومجاهد والحكم بن عيينة، وفي ذلك يقول كعب بن مالك:

وجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسرٌ ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصيبة ثلاثٌ مئينٍ إن كثرنا فأربع
﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: يكون إنفاقها عليهم حسرة وأسفاً عليها.

والثاني: تكون خيبتهم فيما أملوه من الظفر عليهم حسرة تحذرهم بعدها.
﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ وعد بالنصر فحقق وعده.

قوله عز وجل ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ فيه وجهان:
أحدهما: الحلال من الحرام.

الثاني: الخبيث ما لم تخرج منه حقوق الله تعالى، والطيب: ما أخرجت منه حقوق الله تعالى.

ويحتمل ثالثاً: أن الخبيث: ما أنفق في المعاصي، والطيب: ما أنفق في الطاعات. (٣٦١)

﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي يجمعه في الآخرة وإن تفرق في الدنيا ﴿فَيُرَكِّمُهُ جَمِيعاً﴾ أي يجعل بعضه فوق بعض، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّاماً﴾ [النور: ٤٣].

وفي قوله تعالى ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ وإن كانت الأموال لا تعذب وجهان:
أحدهما: أن يجعلها عذاباً في النار يعذبون بها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٣٥] الآية.

الثاني: أنه يجعل أموالهم معهم في جهنم لأنهم استطالوا بها وتقووا على معاصي الله فجعلها معهم في الذل والعذاب كما كانت لهم في الدنيا عزاً ونعماً

(٣٦١) سيرة ابن هشام (١٤١/٣) ونسب قريش (٩) وطبقات فحول الشعراء (١٨٣) والطبري (٥٣٠/١٣) وفي السيرة إن كدنا وأربع واستصوبه محقق الطبري.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَبِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُمْ فَأَيَّ اللَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

قوله عز وجل ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: إن ينتهوا عن المحاربة إلى المواقعة يغفر لهم ما قد سلف من المؤاخذه والمعاقبة.

والثاني: إن ينتهوا عن الكفر بالإسلام يغفر لهم ما قد سلف من الآثام.

﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنةُ الْأَوَّلِينَ﴾ تأويله على احتمال الوجهين الأولين:

فعلى الوجه الأول: تأويله: وإن يعودوا إلى المحاربة فقد مضت سنة الأولين فيمن قتل يوم بدر وأسر، قاله الحسن ومجاهد والسدي.

وعلى الوجه الثاني: فقد مضت سنة الأولين من الأمم السالفة فيما أخذهم الله به في الدنيا من عذاب الاستئصال.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أهل مكة بعد أن دخلها رسول الله ﷺ عام الفتح وقال لهم: «مَا ظَنُّكُمْ بِي وَمَا الَّذِي تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟» قالوا: ابن عم كريم فإن تعف فذاك الظن بك وإن تنتقم فقد أسأنا، فقال ﷺ: «أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.» [يوسف: ٩٢] فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ
عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٤١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ

وَلِذِي الْقَرْيَةِ وَالْثِيَمَةِ وَالْمَسَاكِينِ وَإِذِينَ السَّبِيلِ ﴿٣٦٢﴾ ذكر الله تعالى الفيء في سورة (٣٦٢) الحشر والغنيمة في هذه السورة.

واختلفوا في الفيء والغنيمة على ثلاثة أقاويل.

أحدها: أن الغنيمة ما ظهر عليه من أموال المشركين والفيء ما ظهر عليه من الأرض، قاله عطاء بن السائب:

والثاني: أن الغنيمة ما أخذ عنوة، والفيء ما أخذ عن صلح، قاله الشافعي وسفيان الثوري.

والثالث: أن الفيء والغنيمة سواء وهو كل مال أخذ من المشركين، وآية الفيء التي هي في سورة الحشر منسوخة بآية الغنيمة التي في سورة الأنفال، قاله قتادة (٣٦٣).

وقوله تعالى ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يريد جميع ما وقع عليه اسم شيء مباح حواه المسلمون من أموال المشركين. ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه استفتاح كلام، فله الدنيا والآخرة وما فيهما، ومعنى الكلام فإن للرسول خمسة، قاله الحسن وعطاء وقاتدة وإبراهيم والشافعي، وروى نهشل عن الضحاك عن ابن (٣٦٤) عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فصرف ذلك الخمس في خمسة ثم قرأ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ وإنما قوله ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مفتاح كلام، ولله ما في السموات وما في الأرض فجعل سهم الله وسهم الرسول واحد.

والثاني: أن سهم الله مستحق لبيته، ومعناه فإن لبيت الله خمسة وللرسول وقد روى الربيع بن أنس عن أبي العالية (٣٦٥) الرياحي قال: كان رسول الله ﷺ يؤتي

(٣٦٢) في قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [الحشر: ٧].

(٣٦٣) وقد عقب العلامة ابن جرير على قول قتادة هذا بقوله: وأما قول من قال الآية التي في سورة الأنفال ناسخة للآية التي في سورة الحشر فلا معنى له إذ كان لا معنى في إحدى الآيتين ينفي حكم الأخرى.

(٣٦٤) إسناده ضعيف جداً رواه الطبري (١٣/٥٤٩) مطولاً وفي (١٣/٥٥٦) مختصراً وفي سنده نهشل وهو ابن سعيد بن وردان قال إسحق بن إبراهيم كان نهشل كذاباً وبذلك يسقط الخبر.

(٣٦٥) وقول أبي العالية هذا يقتضي أن يقسم على ستة أسهم وهو قول تفرد به عن الجمهور.

بالغنيمة فيقسمها على خمسة تكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه الذي قبض كفه فيجعله للكعبة وهو سهم الله ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم فيكون سهم للرسول، وسهم لذي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل.

وقوله تعالى ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه مفتاح كلام اقترن بذكر الله وليس للرسول من ذلك شيء كما لم يكن لله من ذلك شيء، وأن الخمس مقسوم على أربعة أسهم، وهذا قول ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة.

والثاني: أن ذلك للرسول وهو قول الجمهور.

واختلفوا في سهم رسول الله ﷺ بعده على خمسة أقاويل:

أحدها: أنه للخليفة بعده، قاله قتادة.

والثاني: أنه لقراة النبي ﷺ إرثاً، وهذا قول من جعل النبي موروثاً.

والثالث: أن سهم الرسول ﷺ مردود على السهام الباقية ويقسم الخمس على أربعة.

والرابع: أنه مصروف في مصالح المسلمين العامة، قاله الشافعي.

والخامس: أن ذلك مصروف في الكراع^(٣٦٦) والسلاح، وروي أن ذلك فعل أبي بكر وعمر، رواه النخعي.

أما قوله تعالى ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ فاختلف فيه على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنهم بنو هاشم، قاله مجاهد.

والثاني: أنهم قريش كلها، روى سعيد المقري قال: كتب^(٣٦٧) نجدة إلى

عبدالله بن عباس يسأله عن ذي القربى، قال: فكتب إليه عبدالله بن عباس: كنا نقول إننا هم فأبى ذلك علينا قومنا وقالوا: قريش كلها ذوو قربي.

الثالث: أنهم بنو هاشم وبنو المطلب، قاله الشافعي والطبري.

واختلفوا في سهمهم اليوم على أربعة أقاويل:

(٣٦٦) الكراع اسم يجمع الخيل.

(٣٦٧) رواه الطبري (١٣/ ٥٥٤، ٥٥٥) وأبو عبيدة في كتاب الأموال بنحوه (رقم ٨٥٠ - ٨٥٢).

أحدها: أنه لهم أبداً كما كان لهم من قبل، قاله الشافعي .
والثاني: أنه لقرابة الخليفة القائم بأمور الأمة .
والثالث: أنه إلى الإمام يضعه حيث شاء .

والرابع: أن سهمهم وسهم رسول الله ﷺ مردود على باقي السهام وهي ثلاثة،
قاله أبو حنيفة .

وأما ﴿وَالْيَتَامَى﴾ فهم من اجتمعت فيهم أربعة شروط:

أحدها: موت الأب وإن كانت الأم باقية، لأن يتم الأدميين بموت الآباء دون
الأمهات ويتم البهائم بموت الأمهات دون الآباء .

والثاني: الصغر، لقول رسول الله ﷺ: «لَا يُتَمَّ بَعْدَ حُلُمٍ» (٣٦٨) .

والثالث: الإسلام لأنه مال المسلمين .

والرابع: الحاجة لأنه معد للمصالح .

ثم فيهم قولان:

أحدهما: أنه لأيتام أهل الفيء خاصة .

والثاني: أنه لجميع الأيتام .

وأما ﴿الْمَسَاكِينِ﴾ فهم الذين لا يجدون ما يكفيهم .

وأما أبناء السبيل فهم المسافرون من ذوي الحاجات، والإسلام فيهم معتبر .

وهل يختص بأهل الفيء؟ على القولين . وقال مالك: الخمس موقوف على رأي

الإمام فيمن يراه أحق به، وإنما ذكرت هذه الأصناف لصدق حاجتها في وقتها .

قوله عز وجل ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ﴾ وهو يوم

بدر فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل .

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ

(٣٦٨) رواه أبو داود (٢٧٨٣) وسنده ضعيف من أجل يحيى بن محمد المدني ولكن للحديث شواهد من حديث

أنس وجابر وغيرهما كما قال السخاوي ما في المقاصد الحسنة وحسنه الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول

(٦٤٢/١١) .

مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ يعني شفير الوادي بيدر، الأدنى إلى المدينة.

﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ يعني شفير الوادي الأقصى إلى مكة. وقال الأخفش: عدوة الوادي هو ملطاط (٣٦٩) شفيره الذي هو أعلى من أسفله، وأسفل من أعلاه.

﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يعني عبر أبي سفيان أسفل الوادي، قال الكلبي: على شاطئ البحر بثلاثة أميال.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: ولو تواعدتم أن تتفقوا مجتمعين لاختلقتم في الميعاد، بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان من غير قصد لذلك.

والثاني: ولو تواعدتم ثم بلغكم كثرة عدوكم مع قلة عددكم لتأخرتم فنقضتم الميعاد، قاله ابن إسحاق.

والثالث: ولو تواعدتم ثم بلغكم كثرة عدوكم من غير معونة الله لكم لأخلفتم بالقواطع والعوائق في الميعاد.

قوله عز وجل: ﴿... لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ فيه وجهان.

أحدهما: ليقتل بيدر من قتل من مشركي قريش عن حجة، وليبقى من بقي عن قدرة.

والثاني: ليكفر من قريش من كفر بعد الحجة ببيان ما وعدوا، ويؤمن من آمن بعد العلم بصحة إيمانهم.

إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ

(٣٦٩) هو حافة الوادي.

فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ
إِذِ التَّقِيَّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قوله عز وجل : ﴿إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ فيه وجهان .

أحدهما : أن الله أرى نبيه ﷺ قلة المشركين عياناً ، وقوله ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ يريد
في عينيك التي هي (٣٧٠) محل النوم ، قاله الحسن .
والثاني : أنه ألقى عليه النوم وأراه قلتهم في نومه ، وهو الظاهر ، وعليه
الجمهور .

وإنما أراه ذلك على خلاف ما هو به لطفاً أنعم به عليه وعلى أمته ، ليكون أثبت
لقلوبهم وأقدم لهم على لقاء عدوهم ، ولولا ذلك لما جازت هذه الحالة من الله تعالى
في نبيه ﷺ .

﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لاختلقتم في لقائهم أو الكف عنهم .

والثاني : لجبتم عنهم وانهزمت منهم .

﴿... وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : سلم من الفشل .

والثاني : لجبتم عنهم وانهزمت منهم ولكن الله سلم من العدو .

وفيه ثالث : ولكن الله سلم أمره فيهم حتى نفذ ما حكم فيهم به من هلاكهم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

(٣٧٠) وهذا القول قول أبي عبيدة في مجاز القرآن (٢٤٧/١) وقول كثير من النحويين وأورده الطبري
(٥٧٠/١٣) ولم يصرح بالقاتل بل قال «وزعم بعضهم» .

وأما نسبة الاثر للحسن البصري ففيه غرابة ولهذا قال الحافظ ابن كثير (٣١٥/٢) «وهذا القول غريب»
يعني من قول الحسن . وقال الزمخشري في الكشاف (١٢٨/٢) وهذا تفسير فيه تعسف وما أحسب
الرواية صحيحة فيه عن الحسن وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته . وينحوه قال الألوسي في روح
المعاني (٨/١٠) .

فُلِحُوا ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

قوله عز وجل ﴿...﴾ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ﴿﴾ والفشل هو التقاعد عن القتال جبناً.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: يريد بالريح القوة، وضرب الريح لها مثلاً.

والثاني: يريد بالريح الدولة. ومعناه فتذهب دولتكم، قاله أبو عبيدة.

والثالث: يريد ريح النصر التي يرسلها الله عز وجل لنصر أوليائه وهلاك أعدائه قاله قتادة وابن زيد.

ويحتمل رابعاً: أن الريح الهبة، وريح القوم هبتهم التي تتقدمهم كتقدم الريح. ويكون معنى الكلام: فتذهب ريحكم وهبتكم.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ
الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي
أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّهُمْ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ هم قريش حين
خرجوا في حماية العير فنجا بها أبو سفيان، فقال لهم أبو جهل: لا نرجع حتى نرد
بدرأً وننحر جزوراً ونشرب خمراً وتعزف علينا القيان، فكان من أمر الله فيهم ما كان.
قوله عز وجل ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ قال المفسرون: ظهر لهم في

صورة سراقه^(٣٧١) بن جعشم من بني كنانة فزين للمشركين أعمالهم.
يحتمل وجهين:

أحدهما: زين لهم شركهم.

والثاني: زين لهم قتال رسول الله ﷺ.

وفيه وجه ثالث: أنه زين لهم قوتهم حتى اعتمدوها.

﴿وَقَالَ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني أنكم الغالبون دون المؤمنين.

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: يعني أني معكم. وفي جواركم ينالني ما نالكم.

الثاني: مجير لكم وناصر. فيكون على الوجه الأول من الجوار، وعلى الوجه

الثاني من الإجارة.

﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: فئة المسلمين وفئة المشركين.

والثاني: المسلمون ومن أمدوا به من الملائكة، فكانوا فئتين.

﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ والنكوص أن يهرب ذليلاً خازياً، قال الشاعر:

وما ينفع المستأخرين نكوصهم ولا ضرَّ أهل السابقات التقدم.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يعني من الملائكة الذين أمد الله

بهم رسوله والمؤمنين.

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ وإنما ذكر خوفه من الله تعالى في هذا الموضع ولم يذكره

في امتناعه من السجود لآدم لأنه قد كان سأل الإنظار إلى قيام الساعة فلما رأى نزول

الملائكة ببدر تصور قيام الساعة فخاف فقال ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

قوله عز وجل ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فيهم ثلاثة

أقاويل:

أحدها: أنهم قوم في قلوبهم شك كانوا تكلموا بالإسلام وهم بمكة، قاله ابن

عباس ومجاهد.

(٣٧١) وفي هامش المخطوطة [بن مالك].

والثاني : أنهم المشركون ، قاله الحسن .

والثالث : أنهم قوم مرتابون لم يظهروا العداوة للنبي ﷺ بخلاف المنافقين .

والمرض في القلب كله هو الشك ، وهو مشهور في كلام العرب ، قال الشاعر :
ولا مرضاً أتقيه إني لصائن لعرضي ولي في الآلية مفخر
وقوله تعالى ﴿ غَرَّهُؤَلَاءُ ﴾ يعني المسلمين .

﴿ دِينُهُمْ ﴾ يعني الإسلام ، لأن الله تعالى قتل المشركين في أعين المسلمين ليتقدموا عليهم ، وقتل المسلمين في أعين المشركين ليستهيئوا بهم حتى أظفر بهم المسلمين فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

قوله عز وجل ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يتوفاهم ملك الموت عند قبض أرواحهم ، قاله مقاتل .

والثاني : قتل الملائكة لهم حين قاتلوهم يوم بدر .

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ تأويله على القول الأول : يضربون وجوههم
يوم القيامة إذا واجهوهم ، وأدبارهم إذا ساقوهم إلى النار .
وتأويله على القول الثاني يحتمل وجهين :

أحدهما : يضربون وجوههم ببدر لما قاتلوا ، وأدبارهم لما انهزموا .

والثاني : أنهم جاءوهم من أمامهم وورائهم ، فمن كان من أمامهم ضرب
وجوههم ، ومن كان من ورائهم ضرب أدبارهم .

كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً

أَنعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۖ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَابٍ
 ۚ أَلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
 وَأَغْرَقْنَاهُ ۚ أَلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَاذِبٍ لَّئِيمٍ ﴿٥٤﴾

قوله عز وجل ﴿ذَالِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا
 مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: يحتمل خمسة أوجه:

أحدها: لم يك مغيراً نعمة أنعمها عليهم بالنصر لهم على أعدائهم حتى يغيروا
 ما بأنفسهم من الثقة به والتوكل عليه.

والثاني: لم يك مغيراً نعمته عليهم في كف أعدائهم عنهم حتى يغيروا ما
 بأنفسهم من طاعته والكف عن معصيته.

والثالث: لم يك مغيراً نعمته عليهم في الغنى والسعة حتى يغيروا ما بأنفسهم
 من تأدية حق الله تعالى منه.

والرابع: لم يك مغيراً نعمته في الثواب والجزاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من
 الإيمان.

والخامس: لم يك مغيراً نعمته عليهم في الإرشاد حتى يغيروا ما بأنفسهم من
 الانقياد.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ
 مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا تَتَّقَنِمْ فِي
 الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

قوله عز وجل ﴿فَإِنَّمَا تَتَّقَنِمْ فِي الْحَرْبِ﴾: فيه وجهان:

أحدهما: تصادفهم.

والثاني: تظفر بهم.

﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ﴾: فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنذر بهم من خلفهم، قال الشاعر من هذيل (٣٧٢):

أطوف في الأباطح كل يوم مخافة أن يشرد بي حكيم
وإما تخاف من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴿٥٨﴾
قوله عز وجل ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ يعني في نقض العهد.

﴿فَأَنْبَذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي فالتق إليهم عهدهم حتى لا ينسبوك إلى الغدر بهم. والنبذ هو الإلقاء. قال الشاعر (٣٧٣):

فهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي
وفي قوله تعالى ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ خمسة أوجه:
أحدها: على مهل، قاله الوليد بن مسلم (٣٧٤).

والثاني: على محاجزة مما يفعل بهم، قاله ابن بحر.

والثالث: على سواء في العلم حتى لا يسبقوك إلى فعل ما يريدونه بك.

والرابع: على عدل من غير حيف، واستشهد بقول الراجز.

فاضرب وجوه الغد والأعداء حتى يجيبوك إلى السواء (٣٧٥)
أي إلى العدل.

والخامس: على الوسط واستشهد قائله بقول حسان (٣٧٦):

يا وبع أنصار النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد
وذكر مجاهد أنها نزلت في بني قريظة.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ

(٣٧٢) اللسان (شرد) وحكيم هو رجل من بن سليم كانت قريش ولته الأخذ على أيدي السفهاء.

(٣٧٣) اللسان (صدى) والشاعر هو القطامي.

(٣٧٤) هو أبو العباس الدمشقي عالم دمشق القرشي مات في المحرم سنة خمس وتسعين وقيل غير ذلك
والأول أشهر تهذيب التهذيب (١٠/١٣٣ - ١٣٦).

(٣٧٥) الطبري (٢٧/١٤) وفتح القدير للشوكاني (٢/٣٢٠).

(٣٧٦) ديوان حسان (٩٨) والطبري (٢/٤٩٦)، (١٤/٢٧).

مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ
دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

قوله عز وجل ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: أن القوة ذكور الخيل، ورباط الخيل إنائها، وهذا قول عكرمة.

والثاني: القوة السلاح، قاله الكلبي.

والثالث: القوة التصافي واتفاق الكلمة.

والرابع: القوة الثقة بالله تعالى والرغبة إليه.

والخامس: القوة الرمي. روى يزيد بن أبي حبيب (٣٧٧) عن أبي علي

الهمزاني (٣٧٨) عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، قالها ثلاثاً (٣٨٠).

(٣٧٧) وفي الطبري (٣٢/١٤) يزيد بن أبي حبيب وعبد الكريم بن الحارث عن أبي علي

(٣٧٨) كذا هنا وفي المطبوعة وهو تصحيف والصواب الهمداني بالذال والتصويب من الطبري (٣٢/١٤) واسم أبي علي ثامة بن شفي.

(٣٧٩) وهذا لفظ الطبري (٣٢/١٤) وفي سنده ابن لهيعة وهو سىء الحفظ وضعف الطبري سند هذه الرواية في (٣٧/١٤).

لكن الحديث له طرق صحيحة أخرى عن عقبة بن عامر.

فرواه مسلم (٦٤/١٣) وأبو داود (٢٥١٤) وابن ماجه (٢٨١٣). والحاكم (٣٢٨/٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وزاد السيوطي نسبه في الدر (٤ /) لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه وأبي يعقوب إسحق بن إبراهيم القراب في كتاب فضل الرمي والبيهقي في شعب الإيمان. (٣٨٠) ولا يخفى على المسلم المجاهد البصير بأمر دينه أن العدو اليوم قد طور أسلحته فينبغي أن لا يغفل المسلم عن ذلك بل عليه أن يعد العدة ويواجه بالمثل ولا حرج عليه في ذلك الإعداد مادياً كان أو معنوياً فكلامها مطلوب قال العلامة الألوسي (٢٥/١٠) وأنت تعلم أن الرمي بالنبال اليوم لا يصيب هدف القصد من العدو لأنهم استعملوا الرمي بالبند والمندفع ولا يكاد يتفع معهما نبل وإذا لم يقابلوا بالمثل عم الداء العضال واشتد الوبال والنكال وملك البسيطة أهل الكفر والضلال فالذي أراه والعلم عند الله تعالى تعين تلك المقابلة على أئمة المسلمين وحماة الدين اهـ وقلت وفي كلامه رحمه الله الإشارة إلى إعداد العدة بما يلائم الوقت والعصر فتنبه.

﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ على قول عكرمة إنائها خاصة، وعلى قول الجمهور على العموم الذكور والإناث. وقد روى عبدالله بن عمرو بن العاص قال (٣٨١): قال رسول الله ﷺ «ارتبطوا الخيل فَإِنْ ظَهَرَهَا لَكُمْ عِزٌّ، وَأَجَافَهَا لَكُمْ كَنْزٌ».

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: عدو الله بالكفر وعدوكم بالمباينة.

والثاني: عدو الله هو عدوكم لأن عدو الله عدو لأوليائه. والإرهاب:

التخويف.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: هم بنو قريظة، قاله مجاهد.

والثاني: أهل فارس والروم قاله السدي.

والثالث: المنافقون؛ قاله الحسن وابن زيد.

والرابع: الشياطين (٣٨٢)، قاله معاذ بن جبل.

والخامس: كل من لا تعرفون عداوته، قاله بعض المتأخرين.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١) وَإِنْ

يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ نَصْرَهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ

﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ

قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٣)

قوله عز وجل ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: وإن مالوا إلى المودعة فَمِلْ إليها.

(٣٨١) لم اهتم إليه بنصه ولكن روى ابو داود (٣٥٤٤) والنسائي (٢١٨/٦، ٢١٩) جزء منه بنحوه ضمنه

حديث ابي وهب الجشمي مرفوعاً ولفظه «ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأعجازها أو قال أكفأها

وقلّدها ولا تقلدها الأوتار».

(٣٨٢) وفي نسخة «الجن» وهو اختيار الطبري.

قلت وسند من قال ذلك حديث منكر لا يصح سنداً ولا متناً كما قال الحافظ ابن كثير بعدما ساقه

(٣٢٢/٢).

والثاني : وإن توقفوا عن الحرب مسالمة لك فتوقف عنهم مسالمة لهم .
والثالث : وإن أظهروا الإسلام فاقبل منهم ظاهر إسلامهم وإن تخلف باطن اعتقادهم .

وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها عامة في موادة كل من سألها من المشركين ثم نسخت بقوله تعالى ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة : ٥] قاله الحسن وقتادة وابن زيد .

والثاني : أنها في أهل الكتاب خاصة إذا بذلوا الجزية .

والثالث : أنها في قوم معينين سألوا الموادة فأمر بإجابتهم .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ
يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ
﴿٦٥﴾ أَلَمْ تَرَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : حسبك وحسب من (٣٨٣) اتبعك من المؤمنين الله ، قاله الكلبي ومقاتل :

والثاني : حسبك الله أن تتوكل عليه والمؤمنون أن تقاتل بهم .
قال الكلبي : نزلت هذه الآية بالبيداء من غزوة بدر قبل القتال .

(٣٨٣) وقد تحدث ابن القيم معلقاً على هذه الآية والأوجه النحوية فيها بكلام طيب في زاد المعاد (٣٦ ، ٣٥/١) فراجع .

قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾ يعني يقاتلوا ألفاً قال مجاهد: وهذا يوم بدر جعل على كل رجل من المسلمين قتال عشرة من المشركين فشق ذلك عليهم فنسخ بقوله تعالى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾.

وقال ابن بحر: معناه أن الله تعالى ينصر كل رجل من المسلمين على عشرة من المشركين، وقد مضى تفسير هاتين الآيتين من قبل.

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتُخَنَّ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

قوله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتُخَنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا نزل في أسرى بدر حين استقر رأي النبي ﷺ فيهم بعد مشاورة أصحابه على الفداء بالمال، كل أسير بأربعة آلاف درهم، فأنكر الله تعالى ذلك عليه وأنه ما كان له أن يفادي الأسرى.

﴿حَتَّى يَتُخَنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: هو الغلبة والاستيلاء، قاله السدي.

والثاني: هو كثرة القتل ليعز به المسلمون ويذل به المشركين. قاله مجاهد.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ يعني المال، سماه عرضاً لقلته بقاءه.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يعني العمل بما يوجب ثواب الآخرة.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني ما أخذتموه من المال

في فداء أسرى بدر.

وفي قوله ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أربعة أقاويل:

أحدها: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أن يعذبهم لمسههم فيما أخذوه من

فداء أسرى بدر عذاب عظيم، قاله مجاهد وسعيد بن جبیر.

والثاني: لولا كتاب من الله سبق في أنه سيحل لكم الغنائم لمسكم في تعجلها من أهل بدر عذاب عظيم، قاله ابن عباس وأبو هريرة والحسن وعبيدة.

والثالث: لولا كتاب من الله سبق أن لا يؤاخذ أحداً بعمل أتاه على جهالة لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، قاله ابن اسحاق.

والرابع: لولا كتاب من الله سبق وهو القرآن الذي آمنتكم به المقتضي غفران الصغائر لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.

وكان النبي ﷺ (٣٨٤) شاور أبا بكر وعمر في أسرى بدر فقال أبو بكر: هم قومك وعشيرتك فاستبقهم لعل الله أن يهديهم، وقال عمر: هم أعداء الله وأعداء رسوله كذبوك وأخرجوك فاضرب أعناقهم، فمال رسول الله ﷺ بعد انصرافه عنهم إلى قول أبي بكر وأخذ فداء الأسرى ليتقوى به المسلمون، وقال «أَنْتُمْ عَالَّةٌ بَعَيْنِي الْمُهَاجِرِينَ». فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «لَوْ عَذَّبْنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ يَا عُمَرُ لَمَّا نَجَا غَيْرُكَ» ثم إن الله تعالى بين تحليل الغنائم والفداء بقوله ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أحل مما أخذ منكم. الثاني: أكثر مما أخذ منكم.

قيل إن هذه الآية (٣٨٥) نزلت لما أسر العباس بن عبد المطلب مع أسرى بدر وأخذ منه رسول الله ﷺ فداء نفسه وابني أخويه عقيل ونوفل فقال: يا رسول الله كنت

(٣٨٤) وينحوه روى ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمر رضي الله عنها كما في الدر (١٠٨/٤).

(٣٨٥) وهو قول مقاتل كما في زاد المسير لابن الجوزي (٣/٣٨٢، ٣٨٣).

مسلمًا وأخرجت مكرهاً ولقد تركتني فقيراً أتكفف الناس. قال: «فَأَيْنَ الْأَمْوَالُ الَّتِي دَفَعْتَهَا إِلَى أُمِّ الْأَفْضَلِ عِنْدَ خُرُوجِكَ» فقال: إن الله ليزيدنا ثقة بنبوتك. قال العباس فصدق الله وعده فيما آتاني وإن لي لعشرين مملوكاً كل مملوك يضرب بعشرين الفاً في التجارة فقد أعطاني الله عز وجل خيراً مما أخذ مني يوم بدر.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني بالله.

﴿وَهَاجَرُوا﴾ يعني هاجروا وتركوا ديارهم في طاعة الله.

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والمجاهدة بالمال: النفقة، والمجاهدة بالنفس القتال. وهؤلاء هم المهاجرون مع النبي ﷺ إلى المدينة.

ثم قال ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا﴾ يعني الأنصار الذين آووا المهاجرين في منازلهم ونصروا النبي ﷺ ونصروهم.

﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: أولئك بعضهم أعوان بعض، قاله الجمهور.

والثاني: أولئك بعضهم أولى بميراث بعض. قال ابن عباس: جعل الله تعالى

الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام.

ثم قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا﴾ يعني ما لكم من ميراثهم من شيء حتى يهاجروا فكانوا يعلمون ذلك حتى أنزل الله تعالى ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يعني في الميراث فنسخت التي قبلها وصار التوارث لذوي الأرحام، قاله مجاهد وعكرمة والحسن والسدي.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ
وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بعضهم أنصار بعض ، قاله قتادة وابن إسحاق .

والثاني : بعضهم وارث بعض ، قاله ابن عباس وأبو مالك .

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ...﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : إِلَّا تناصروا أيها المؤمنون ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بغلبة الكفار .

﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ بضعف الإيمان ، قاله ابن إسحاق وابن جرير (٣٨٦) .

والثاني : إِلَّا تتوارثوا بالإسلام والهجرة ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ باختلاف

الكلمة . ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ بتقوية الخارج على الجماعة ، قاله ابن عباس وابن زيد والله أعلم .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأَ وَنَصَرُوا
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي
كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

(٣٨٦) لكن في الطبري (٨٦/١٤) قال قوله «وفساد كبير» قال يعني «ومعاصي لله» .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

مدنية عند جميعهم . روي عن ابن عباس أن سورة براءة تسمى على عهد رسول الله ﷺ «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين (٣٨٧).

وحكى محمد بن اسحاق أنها كانت تسمى في زمن رسول الله ﷺ «المبعثرة» لما كشفته من أسرار الناس . وهي مدنية عند جميعهم (٣٨٨) .

قال مقاتل وحده: إلا آيتين من آخرها ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] نزلتا بمكة .

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

قوله عز وجل ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في ترك افتتاح هذه السورة بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قولان:

أحدهما: أنها والأنفال كالسورة الواحدة في المقصود لأن الأولى في ذكر العهود، والثانية في رفع العهود، وهذا قول أبي بن كعب قال ابن عباس: وكانتا تدعيان القرينتين، ولذلك وضعتا في السبع الطول . وحكاه عن عثمان بن عفان .

(٣٨٧) ولها أسماء أخرى مثل المقشفة والمبعثرة والفاضحة والبحوث والمشردة والمخرجة والحافرة والمنكلة والمدممة وسورة العذاب راجع زاد المسير (٣/٣٨٩) والزمخشري من الكشاف (٢/١٣٦، ١٣٧) .

(٣٨٨) وحكاه القرطبي (٨/٦١) .

(٣٨٩) وأولى الأقوال أنها نزلت هكذا بدون بسملة .

الثاني: أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أمان، وبراءة نزلت برفع الأمان، وهذا قول ابن عباس، ونزلت سنة تسع فأنفذها رسول الله ﷺ (٣٩٠) مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليقراها في الموسم بعد توجه أبي بكر رضي الله عنه إلى الحج، وكان أبو بكر صاحب الموسم، وقال النبي ﷺ «لَا يُبَلِّغُنِي إِلَّا رَجُلٌ مِنِّي» (٣٩١) «حكى ذلك الحسن وقتادة ومجاهد.

وحكى الكلبي أن الذي أنفذه رسول الله ﷺ من سورة التوبة عشر آيات من أولها.

وحكى مقاتل أنها تسع آيات تقرأ في الموسم، فقرأها علي رضي الله عنه في يوم النحر على جمرة العقبة.

وفي قوله تعالى ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وجهان:

أحدهما: أنها انقطاع العصمة منهما.

والثاني: أنها انقضاء عهدهما.

ثم قال تعالى ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وهذا أمان.

وفي قوله ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وجهان:

أحدهما: انصرفوا فيها إلى معاشكم.

والثاني: سافروا فيها حيث أردتم.

وفي السياحة وجهان:

أحدهما: أنها السير على مهل.

والثاني: أنها البعد على وجل.

واختلفوا فيمن جعل له أمان هذه الأربعة الأشهر على أربعة أقاويل:

أحدها: أن الله تعالى جعلها أجلاً لمن كان رسول الله ﷺ قد أمنه أقل من

أربعة أشهر ولمن كان أجلاً أمانه غير محدود ثم هو بعد الأربعة حرب، فأما من لا أمان له فهو حرب، قاله ابن إسحاق.

(٣٩٠) وقد ورد حديث مرفوع في ذلك رواه أحمد (٣٩٩/١) والترمذي (١٣٤/٢) وحسنه وأبو داود

(٢٩٠/١) والحاكم (٣٣٠٢) وضعفه الشيخ أحمد شاكر في المسند وقال لا أصل له.

(٣٩١) وقد ظن بعضهم أن هذا تفضيل لعلي بن أبي طالب على أبي بكر وليس هذا بشيء. وقد أجاد ابن

الجوزي رحمه الله في الرد على من ظن ذلك راجع زاد المسير (٣/٣٩١، ٣٩٢).

والثاني: أن الأربعة الأشهر أمان أصحاب العهد من كان عهده أكثر منها حظ إليها، ومن كان عهده أقل منها رفع إليها، ومن لم يكن له من رسول الله عهد جعل له أمان خمسين ليلة من يوم النحر إلى سلخ المحرم لقوله تعالى ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ قاله ابن عباس والضحاك وقتادة.

والثالث: أن الأربعة الأشهر عهد المشركين كافة، المعاهد منهم وغير المعاهد، قاله الزهري ومحمد بن كعب ومجاهد.

والرابع: أن الأربعة الأشهر عهد وأمان لمن لم يكن له من رسول الله ﷺ عهد ولا أمان. فأما أصحاب العهود فهم على عهودهم إلى انقضاء مددهم، قاله الكلبي. واختلفوا في أول مدى الأربعة الأشهر على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن أولها يوم الحج الأكبر وهو يوم النحر، وآخرها انقضاء العاشر من شهر ربيع الآخر، قاله محمد بن كعب ومجاهد والسدي.

والثاني: أنها شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، قاله الزهري.

والثالث: أن أولها يوم العشرين من ذي القعدة، وآخرها يوم العشرين من شهر ربيع الأول، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك اليوم ثم صار في السنة الثانية في العشر من ذي الحجة وفيها حجة الوداع، لأجل ما كانوا عليه في الجاهلية من النسء، فأقره النبي ﷺ فيه حتى نزل تحريم النسء وقال (٣٩٢): «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ».

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي لا تعجزونه هرباً ولا تفوتونه طلباً.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: بالسيف لمن حارب والعزبة لمن استأمن.

والثاني: في الآخرة بالنار.

وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ

(٣٩٢) رواه البخاري (٤٥٩/٣) (٢٤٤/٨) (٦/١٠) ومسلم (١٦٧٩) واحمد (٣٧/٥) وأبو داود (١٩٤٧) من حديث أبي بكره رضي الله عنه.

مُعْجِزَى اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢﴾

قوله عز وجل ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ في الأذان ها هنا ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه القصص ، وهذا قول تفرد به سليمان بن موسى النشائي (٣٩٣) .

والثاني : أنه النداء بالأمر الذي يسمع بالأذن ، حكاه علي بن عيسى .

الثالث : أنه الإعلام ، وهذا قول الكافة .

وفي ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه يوم عرفة ، قاله عمر بن الخطاب وابن المسيب وعطاء . وروى ابن جريج عن محمد بن قيس بن مخزومة (٣٩٤) أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة وقال : «هَذَا يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» .

والثاني : أنه يوم النحر ، قاله عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة وسعيد بن جبير والشعبي والنخعي .

وروي مرة عن رجل من أصحاب (٣٩٥) النبي ﷺ قال : خطبنا رسول الله ﷺ على ناقته الحمراء وقال «أَتَذَرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟ هَذَا يَوْمُ النَّحْرِ وَهَذَا يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» .

والثالث : أنها أيام الحج كلها ، فعبر عن الأيام باليوم ، قاله مجاهد وسفيان . قال سفيان : كما يقال يوم الجمل ويوم صفين ، أي أيامه كلها .

واختلفوا في تسميته يوم الحج الأكبر على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه سمي بذلك لأنه كان في سنة اجتمع فيها حج المسلمين والمشركون ، ووافق أيضاً عيد اليهود والنصارى ، قاله الحسن .

والثاني : أن الحج الأكبر القرآن ، والأصغر الأفراد ، قاله مجاهد .

والثالث : أن الحج الأكبر هو الحج ، والأصغر هو العمرة ، قاله عطاء والشعبي .

(٣٩٣) كذا هنا وهو خطأ والصواب الشامي والتصويب من التهذيب والطبري وهو سليمان بن موسى الأموي الدمشقي الأشدق فقيه أهل الشام في زمانه مات سنة (١٥) وقيل غير ذلك تهذيب التهذيب (٤/١٩٧) ، (١٩٨) .

(٣٩٤) وهذا الحديث من مراسلات محمد بن قيس بن مخزومة ورواه الطبري (١٤/١١٥) (١٤، ١١٦) .

(٣٩٥) رواه الطبري (١٤/١٢٥) .

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ
 أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أُنْسِلَخَ
 الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا
 لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ
 إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

قوله عز وجل ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ الآية. في الأشهر الحرم قولان:

أحدهما: أنها رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ثلاثة سرد وواحد فرد، وهذا رأي الجمهور.

والثاني: أنها الأربعة الأشهر التي جعلها الله تعالى أن يسيحوا فيها آمنين وهي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع وعشر من شهر ربيع الآخر، قاله الحسن.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: في حل أو حرم.

والثاني: في الأشهر الحرم وفي غيرها. والقتل وإن كان بلفظ الأمر فهو على وجه التخيير لوروده بعد حظر اعتباراً بالأصلح.

﴿وَاخْذُوهُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: على التقديم والتأخير، وتقديره فخذوا المشركين حيث وجدتموهم واقتلوهم.

والثاني: أنه على سياقه من غير تقديم ولا تأخير، وتقديره: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم.

﴿وَأَحْضُرُوهُمْ﴾ على وجه التخيير في اعتبار الأصلح من الأمرين.

وفي قوله ﴿وَأَحْضُرُوهُمْ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه استرقاقهم.

والثاني: أنه الفداء بمال أو شراء.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يطلبوا في كل مكان فيكون القتل إذا وجدوا، والطلب إذا بعدوا.

والثاني: أن يفعل بهم كل ما أرصده الله تعالى لهم فيما حكم به تعالى عليهم من قتل أو استرقاق أو مفاداة أو من ليعتبر فيها فعل الأصح منها.

ثم قال تعالى ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي أسلموا، لأن التوبة من الكفر تكون بالإسلام.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أي اعترفوا بإقامتها، وهو مقتضى قول أبي حنيفة، لأنه لا يقتل تارك

الصلاة إذا اعترف بها.

الثاني: أنه أراد فعل الصلاة، وهو مقتضى قول مالك والشافعي، لأنهما

يقتلان تارك الصلاة وإن اعترف بها.

﴿وَوَاعَدُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني اعترفوا بها على الوجهين معاً، لأن تارك الزكاة لا يقتل

مع الاعتراف بها وتؤخذ من ماله (٣٩٦) جبراً، وهذا إجماع.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ

مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

قوله عز وجل ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ...﴾ الآية: وفي كلام الله

وجهان أي إن استأمنك فأمنه.

أحدهما: أنه عني سورة براءة خاصة ليعلم ما فيها من حكم المقيم على العهد

وحكم الناقض له والسيرة في المشركين والفرق بينهم وبين المنافقين.

الثاني: يعني القرآن كله، ليهتدي به من ضلاله ويرجع به عن كفره.

﴿ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ يعني إن أقام على الشرك وانقضت مدة الأمان.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: الرشد من الغي.

والثاني: استباحة رقابهم عند انقضاء مدة أمانهم.

(٣٩٦) لقوله في الحديث «تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» رواه البخاري وغيره.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

قوله عز وجل ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ الآية. يحتمل وجهين:

أحدهما: إذا لم يعطوا أماناً.

الثاني: إذا غدروا وقتلوا.

وفي قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أربعة أقاويل:

أحدها: أنهم قوم من بني بكر بن كنانة، قاله ابن إسحاق.

والثاني: أنهم قريش، وهو قول ابن عباس.

والثالث: خزاعة، قاله مجاهد.

والرابع: بنو ضمرة، قاله الكلبي.

﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ يعني فما أقاموا على الوفاء بالعهد فأقيموا

عليه، فدل على أنهم إذا نقضوا العهد سقط أمانهم وحلت دماؤهم.

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرِضُوكُمْ بِأَقْوَاهِمَ
وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

قوله عز وجل ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يعني يقووا حتى يقدروا على الظفر

بكم. وفي الكلام محذوف وتقديره: كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم.

﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لا يخافوا، قاله السدي (٣٩٧).

الثاني: لا يراعوا (٣٩٨).

(٣٩٧) وقول السدي في الطبري (١٤٧/١٤) قوله «لا يرقبوا فيكم عهداً ولا قرابة ولا ميثاقاً».

(٣٩٨) وهو قول قطرب كما في زاد المسير (٤٠١/٣). وزاد ابن الجوزي قولاً ثالثاً وهو لا يحفظوا ولم ينسبه لأحد.

﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾ وفي الإلّ سبعة تأويلات.

أحدها: أنه العهد، وهو قول ابن زيد.

والثاني: أنه اسم الله تعالى، قاله مجاهد. ويكون معناه لا يرقبون الله فيكم.

والثالث: أنه الحلف، وهو قول قتادة.

والرابع: أن الإلّ اليمين، والذمة العهد، قاله أبو عبيدة، ومنه قول ابن

مقبل (٣٩٩):

أفسد الناس خلوف خلفوا قطعوا الإلّ وأعراق الرّجُم

والخامس: أنه الجوار، قاله الحسن.

والسادس: أنه القرابة، قاله ابن عباس والسدي، ومنه قول حسان (٤٠٠):

وأقسم إن إلّك من قريش كإلّ السّقب من رآل النّعام

والسابع: أن الإلّ العهد والعقد والميثاق واليمين، وأن الذمة في هذا الموضع

التزم ممن لا عهد له، قاله بعض البصريين.

﴿وَلَا ذِمَّةٌ﴾ فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: الجوار، قاله ابن بحر.

الثاني: أنه التزم ممن لا عهد له، قاله بعض البصريين.

والثالث: أنه العهد وهو قول أبي عبيدة.

﴿يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ أَوْجِهٍ:

أحدها: يرضونكم بأفواههم في الوفاء وتأبى قلوبهم إلا الغدر.

والثاني: يرضونكم بأفواههم في الطاعة وتأبى قلوبهم إلا المعصية.

والثالث: يرضونكم بأفواههم في الوعد بالإيمان وتأبى قلوبهم إلا الشرك، لأن

النبي ﷺ لا يرضيه من المشركين إلا بالإيمان.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: في نقض العهد وإن كان جميعهم بالشرك فاسقاً.

(٣٩٩) الطبري (١٤/١٤٨).

(٤٠٠) ديوانه (٤٠٧) واللسان (الل) والطبري (١٤/١٤٩) زاد المسير (٣/٤٠٢) والبيت في هذه المصادر

لعمرك إن إلّك بدلاً من وأقسم.

والثاني : وأكثرهم فاسق في دينه وإن كان كل دينهم فسقاً .

أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

قوله عز وجل ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ في آيات الله تعالى ها هنا وجهان :

أحدهما : حججه ودلائله .

والثاني : آيات الله التوراة التي فيها صفة رسول الله ﷺ .

والثمن القليل : ما جعلوه من ذلك بدلاً . وفي صفته بالقليل وجهان :

أحدهما : لأنه حرام ، والحرام قليل .

والثاني : لأنها من عروض الدنيا التي بقاءها قليل .

وفيمن أريد بهذه الآية قولان :

أحدهما : أنهم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان على طعامه ، وهذا قول مجاهد ومن زعم أن الآيات حجج الله تعالى .

والثاني : أنهم قوم من اليهود دخلوا في العهد ثم رجعوا عنه وهذا قول من زعم أنها آيات التوراة .

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : عن دين الله تعالى في المنع منه .

والثاني : عن طاعة الله في الوفاء بالعهد .

والثالث : عن قصد بيت الله حين أحصر بالحديبية .

وَأِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

قوله عز وجل ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي نقضوا عهدهم الذي عقدهوا بأيمانهم.

﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: إظهار الذم له.

والثاني: إظهار الفساد فيه.

﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ فيهم ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنهم رؤساء المشركين.

والثاني: أنهم زعماء قريش، قاله ابن عباس.

والثالث: أنهم الذين كانوا قد هموا بإخراج رسول الله ﷺ، قاله قتادة.

﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ قراءة الجمهور بفتح الألف، من اليمين لنقضهم إياها.

وقرأ ابن عامر^(٤٠١): ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ بكسر الألف^(٤٠٢)، وهي قراءة الحسن.

وفيها إذا كسرت وجهان:

أحدهما: أنهم كفر لا إيمان لهم.

والثاني: أنهم لا يعطون أماناً.

أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ
قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ^{١٤} وَيَذْهَبُ غِيظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ

(٤٠١) المبسوط في القراءات ص ٢٢٥.

(٤٠٢) قال أبو جعفر الطبري رحمه الله (١٥٧/١٤) «والصواب من القراءة في ذلك الذي لا أستجيز القراءة بغيره قراءة من قرأ بفتح الألف دون كسرها لإجماع الحجة من القراءة على القراءة به ورفض خلافه وإجماع أهل التأويل على ما ذكرت من أن تأويله لا عهد لهم والأيمان التي هي بمعنى العهد لا تكون إلا بفتح الألف لأنها جمع يعين كانت على عقد كان بين المتوابعين».

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله عز وجل: ﴿...﴾ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً ﴿﴾ فيها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها الخيانة، قاله قتادة.

والثاني: أنهم البطانة، قاله قطرب ومقاتل، ومنه قول الشاعر:

وجعلت قومك دون ذاك وليجة ساقوا إليك الخير غير مشوب

والثالث: أنه الدخول في ولاية المشركين، من قولهم ولج فلان في كذا إذا دخل فيه قال طرفة بن العبد (٤٠٣).

رأيت القوافي يتلجن موالجاً تضايق عنها أن تولجها الإبر

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

قوله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ يعني المسجد الحرام. وفيه وجهان:

أحدهما: ما كان لهم أن يعمروها بالكفر لأن مساجد الله تعالى تعمر بالإيمان.

والثاني: ما كان لهم أن يعمره بالزيارة له والدخول إليه.

﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن فيما يقولونه أو يفعلونه دليل على كفرهم كما يدل عليه إقرارهم،

فكأن ذلك منهم هو شهادتهم على أنفسهم، قاله الحسن.

والثاني: يعني شاهدين على رسول الله ﷺ بالكفر لأنهم كذبوه وأكفروه وهو من أنفسهم، قاله الكلبي.

والثالث: أن النصراني إذا سئل ما أنت؟ قال: نصراني، واليهودي إذا سئل قال: يهودي، وعابد الوثن يقول: مشرك، وكان هؤلاء كفار وإن لم يقرؤوا بالكفر، قاله السدي.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ﴾ في هذه المساجد قولان:

أحدهما: أنها مواضع السجود من المصلي، فعلى هذا عمارتها تحتل ثلاثة أوجه:

أحدها: بالمحافظة على إقامة الصلاة.

والثاني: بترك الرياء.

والثالث: بالخشوع والإعراض عما ينهى.

والقول الثاني: أنها بيوت الله تعالى المتخذة لإقامة الصلوات، فعلى هذا عمارتها تحتل ثلاثة أوجه.

أحدها: إنما يعمرها بالإيمان من آمن بالله تعالى.

والثاني: إنما يعمرها بالزيارة لها والصلاة فيها من آمن بالله تعالى.

والثالث: إنما يرغب في عمارة بنائها من آمن بالله تعالى (٤٠٤).

﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهْتِدِينَ﴾ فيه وجهان:

(٤٠٤) ولا مانع من دخول هذه الصور كلها في عمارة المساجد قال العلامة الألوسي (٦٥/١٠) .. والمراد بعمارته ما يعمر ممرمة ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتزيينها بالفرش لا على وجه يشغل قلب المصلي من الصور ولعل ما هو من جنس ما يخرج من الأرض كالقطن والحصر السامانية أولى من نحو الصوف إذ قيل بكراهة الصلاة عليه وتنويزها بالسرج ولو لم يكن هناك من يستضيء بها على ما نص عليه جمع وإدامة العبادة والذكر ودراسة العلوم الشرعية فيها ونحو ذلك وصيانتها عما لم تبين له في نظر الشارع كحديث الدنيا ومن ذلك الغناء على مآذنها كما هو معتاد الناس اليوم لا سيما بالآبيات التي فيها هجر القول.... الخ.

أحدهما: أنه قال ذلك لهم تحذيراً من فعل ما يخالف هدايتهم.
والثاني: أن كل ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة وإن كانت من غيره ترجياً، قاله ابن عباس والسدي.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ
فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

قوله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني
بعمارته السدانة والقيام به.

﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾
لأن قريشاً فضلت ذلك على الإيمان بالله، فرد الله تعالى ذلك عليهم وأعلمهم أنهما
لا يستويان، وأن ذلك مع الكفر محبط.

وحكى مقاتل أن هذه الآية نزلت في العباس بن عبد المطلب، وهو صاحب
السقاية، وفي شيبه بن عثمان وهو صاحب السدانة وحاجب الكعبة أسرا يوم بدر فغيرا
بالمقام على الكفر بمكة وأغلظ لهما المهاجرون، فقالا نحن أفضل منكم أجراً
نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحاج فنزل هذا فيهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾
قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
أَقْرَبَتْكُمْ وَهَاجَرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ

مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

قوله عز وجل ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ يعني اكتسبتموها.

﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أنها أموال التجارات إذا نقص سعرها وكسد سرقها.

والثاني: أنهن البنات الأيامى إذا كسدن عند آبائهن ولم يخطبن.

﴿وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا﴾ وهذا نزل في قوم أسلموا بمكة فأقاموا بها ولم يهاجروا

إشفاقاً على فراق ما ذكره الله تعالى ميلاً إليه وحباً له فذمهم الله تعالى على ذلك وقال.

﴿... فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه فتح مكة، قاله مجاهد.

والثاني: حتى يأتي الله بأمره من عقوبة عاجلة أو آجلة، قاله الحسن.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ
جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ
يَتُوبُ اللَّهُ مَن بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

قوله عز وجل ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ...﴾ الآية. وفي السكينة

ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها الرحمة، قاله علي بن عيسى.

والثاني: أنها الأمن والطمأنينة.

والثالث: أنها الوقار، قاله الحسن.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الملائكة .

والثاني : أنه تكثيرهم في أعين أعدائهم ، وهو محتمل .

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالخوف والحذر .

والثاني : بالقتل والسبي .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ عَمِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن قيل : فأهل

الكتاب قد آمنوا بالله واليوم الآخر فكيف قال ذلك فيهم ؟

ففيه جوابان :

أحدهما : أن إقرارهم باليوم الآخر يوجب الإقرار بجميع حقوقه ، فكانوا بترك
الإقرار بحقوقه كمن لا يقرب به .

والثاني : أنه ذمهم ذم من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر للكفر بنعمته ، وهم في
الذم بالكفر كغيرهم .

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه ما أمر الله سبحانه وتعالى بنسخه من شرائعهم .

والثاني : ما أحله لهم وحرمه عليهم .

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ والحق هنا هو الله تعالى . وفي المراد بدينه في هذا

الموضع وجهان :

أحدهما: العمل بما في التوراة من اتباع الرسول، قاله الكلبي .
والثاني: الدخول في دين الإسلام لأنه ناسخ لما سواه من الأديان، وهو قول الجمهور.

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني من آباء الذين أوتوا الكتاب.

الثاني: من الذين أوتوا الكتاب بين أظهرهم لأنهم في اتباعه كآبائهم.

﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: حتى يضمّنوا الجزية وهو قول الشافعي لأنه يرى أن الجزية تجب بالقضاء^(٤٠٥) الحول وتؤخذ معه.

والثاني: حتى يدفعوا الجزية.

وفي الجزية وجهان:

أحدهما: أنها من الأسماء المجملة لا يوفق على علمها إلا بالبيان.

والثاني: أنها من الأسماء العامة التي يجب إجراؤها على عمومها إلا ما خص بالدليل.

ثم قال تعالى ﴿عَنْ يَدٍ﴾ وفيه أربعة تأويلات:

أحدها: عن غنى وقدره.

والثاني: أنها من عطاء لا يقابله جزاء، قاله أبو عبيدة.

والثالث: أن يروا أن لنا في أخذها منهم يداً عليهم بحقن دمائهم بها.

والرابع: يؤدونها بأيديهم ولا ينفذونها مع رسلهم كما يفعل المتكبرون.

﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: أن يكونوا قياماً والأخذ لها جالساً، قاله عكرمة.

والثاني: أن يمشوا بها وهم كارهون، قاله ابن عباس^(٤٠٦).

والثالث: أن يكونوا أذلاء مقهورين، قاله الطبري^(٤٠٧).

(٤٠٥) كذا هنا وفي المطبوعة وهو خطأ والصواب بانقضاء الحول والتصويب من زاد المسير (٤٢٢/٣).

والمعاني (٨٠/١٠) والكشاف (١٤٨/٢).

(٤٠٦) لكن قال الطبري رحمه الله (٢٠١/١٤). وقد روي عن ابن عباس من وجه فيه نظر.

(٤٠٧) جامع البيان (٢٠٠/١٤).

والرابع: أن دفعها هو الصغار بعينه.

والخامس: أن الصغار أن تجري عليهم أحكام الإسلام، قاله الشافعي.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
قَالَهُمْ اللَّهُ أَفَّ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّوهُ إِلَّا لِيَعْبُدُوا
إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

قوله عز وجل ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ الآية. أما قول اليهود ذلك فسيبه
أن يختصر لما أخرب بيت المقدس أحرق التوراة حتى لم يبق بأيديهم شيء منها،
ولم يكونوا يحفظونها بقلوبهم. فحزنوا لفقدائها وسألوا الله تعالى ردها عليهم، فقذفها
الله في قلب عزيز، فحفظها وقرأها عليهم فعرفوها فلأجل ذلك قالوا إنه ابن الله.
واختلف فيمن قال ذلك على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن ذلك كان قول جميعهم، وهو مروي عن ابن عباس.

والثاني: أنه قول طائفة من سلفهم.

والثالث: أنه قول جماعة ممن كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

واختلف فيهم على قولين:

أحدهما: أنه فنحاص وحده، ذكر ذلك عبيد^(٤٠٨) بن عمير وابن جريج.

والثاني: أنهم جماعة وهم سلام بن مشكم ونعمان^(٤٠٩) بن أبي أوفى

وشاس^(٤١٠) بن قيس ومالك بن الصيف، وهذا مروي عن ابن عباس^(٤١١).

(٤٠٨) كذا هنا وفي المطبوعة وهو خطأ والصواب عبدالله بن عبيد بن عمير كما في الطبري (٢٠١/١٤).

(٤٠٩) كذا هنا وفي المطبوعة وفي الطبري (٢٠٢/١٤) ولكن في سيرة ابن هشام (٢١٩/٢) نعمان بن أوفى

أبو أنس ومحمود بن دحية.

(٤١٠) كذا هنا وفي المطبوعة وهو خطأ والصواب كما في الطبري (٤٠٢/١٤) وسيرة ابن هشام (٢١٩/٢)

وشاش بالهمزة.

(٤١١) كما في الطبري (٢٠٢/١٤).

فإن قيل: فإذا كان ذلك قول بعضهم فلم أضيف إلى جميعهم؟
 قيل: لأن من لم يقله عند نزول القرآن لم ينكره^(٤١٢)، فلذلك أضيف إليهم
 إضافة جمع وإن تلفظ به بعضهم.
 ﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ وهذا قول جميعهم. واختلف في سبب
 قولهم لذلك على قولين:
 أحدهما: أنه لما خلق من غير ذكر من البشر قالوا إنه ابن الله، تعالى الله عن
 ذلك.

الثاني: أنهم قالوا ذلك لأجل من أحياه من الموتى وأبرأه من المرضى.
 ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ معنى ذلك: وإن كانت الأقوال كلها من الأفواه: أنه
 لا يقترب به دليل ولا يعضده برهان، فصار قولاً لا يتجاوز الفم فلذلك خص به.
 ﴿يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي يشابهون، مأخوذ من قولهم امرأة
 ضهياء إذا لم تحض تشبيهاً بالرجال^(٤١٣). ومنه ما جاء في الحديث: «أَجْرُ النَّاسِ
 عَلَى اللَّهِ تَعَالَى الَّذِينَ يُضَاهِيُونَ خَلْقَهُ»^(٤١٤) أي يشبهون به.
 وفيهم ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن قولهم ذلك يضاهي قول عبدة الأوثان في اللات والعزى ومناة وأن
 الملائكة بنات الله، قاله ابن عباس وقتادة.
 والثاني: أن قول النصاري المسيح ابن الله يضاهي قول اليهود عزيز ابن الله،
 قاله الطبري^(٤١٥).

والثالث: أنهم في تقليد أسلافهم يضاهون قول من تقدمهم، قاله الزجاج.
 ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: معناه لعنهم الله، قاله ابن عباس ومنه قول عبيد بن الأبرص^(٤١٦):

(٤١٢) لأنهم سكتوا ورضوا واتبعوهم على هذا الباطل فكانوا شركاء معهم في الإثم والوزر سواء بسواء.

(٤١٣) وقيل هي التي لا يثبت لها ندي كما قال الزجاج راجع زاد المسير (٤٢٥/٣).

(٤١٤) رواه بنحوه البخاري (٣١٥/١٠ - ٣٢٧) وأحمد (٣٦/٦، ٨٢، ٣١٩) والنسائي (٢١٣/٨)

ولفظه أشد الناس عذاباً ومالك في الموطأ (٩٩٦/٢، ٩٦٧).

(٤١٥) جامع البيان (٢٠٥/١٤).

(٤١٦) وفي فتح القدير للشوكاني (٣٥٣/٢) نسبة لأبان بن تغلب.

قاتلها الله تلحاني وقد علمت أني لنفسي إفسادي وإصلاحني
والثاني : معناه قتلهم الله ، قاله بعض أهل العربية .

والثالث : أن الله تعالى فيما أعده لعذابهم وبينه من عداوتهم التي هي في
مقابلة عصيانهم وكفرهم كأنه مقاتل لهم .

﴿أَنْتَى يُؤْفَكُونَ﴾ معناه كيف يُصرفون عن الحق إلى الإفك وهو الكذب .

قوله عز وجل ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أما الأحبار
منهم العلماء ، واحدهم حَبْر سمي بذلك لأنه يحبر المعاني أي يحسنها بالبيان عنها .

وأما الرهبان فجمع راهب ، مأخوذ من رهبة الله تعالى وخشيته ، غير أنه صار
بكثرة الاستعمال يتناول نُسَاك النصارى .

وقوله ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني آلهة لقبولهم منهم تحريم ما يحرمونه^(٤١٧)
عليهم وتحليل ما يحلونه لهم ، فلذلك صاروا لهم كالآرباب وإن لم يقولوا إنهم
أرباب ، وقد روي مثل ذلك عن النبي ﷺ^(٤١٨) .

(٤١٧) وقال الإمام الشوكاني في فتح القدير (٣٥٣/٢) : وفي هذه الآية ما يزر من كان له قلب أو ألقى السمع
وهو شهيد عن التقليد في دين الله وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب والسنة المطهرة فإن طاعة
المتذهب لمن يقتدي بقوله من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به
حجج الله وبراهينه ونظقت به كتبه وانيابؤه هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أرباباً من دون
الله للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرّموا ما حرّموا وحلّلوا ما حلّلوا وهذا هو صنيع المقلّدين
من هذه الأمة وهذا أشبه به من شبه البيضة بالبيضة والتمرة بالتمرة والماء بالماء . فيا عباد الله ويا أتباع
محمد بن عبد الله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم
بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وافاده ما فعلتم إلى قوله ونصوص الكتاب والسنة تنادي
بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه فاعرتموهما أذاناً صماً وقلوباً غلفاً وأفهاماً مريضة
وعقولاً مهيضة وأذهاناً كليلية وخواطر عليلية الخ قلت وهذا كلام رصين حقاً فرحم الله الشوكاني .
(٤١٨) كما في حديث عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب
فقال : يا عدي اطرع عنك هذا اللون وسمعته يقرأ في سورة براءة «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من
دون الله» قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرّموا
عليهم شيئاً حرّموه» .

رواه الترمذي واللفظ له (٣٠٩٥) وابن جرير (٨٠/١٠ ، ٨١) والبيهقي في السنن (١٠/١١٦) والمزي في
تهذيب الكمال (٢/١٠٩٠) وحسنه الألباني في غاية المرام (٦) وخرجه السيوطي في الدر (١٤) ونسبه
لغير من سبق فراجع .

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ
كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

قوله عز وجل ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ﴾ وفي نوره قولان:

أحدهما: أنه القرآن والإسلام، قاله الحسن وقتادة.

والثاني: أنه آياته ودلائله لأنه يهتدى بها كما يهتدى بالأنوار.

وإنما خص ذلك بأفواههم لما ذكرنا أنه ليس يقترب بقولهم دليل.

﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ وليس يريد تمامه من نقصان لأن نوره لم يزل

تاماً. ويحتمل المراد به وجهين.

أحدهما: إظهار دلائله.

والثاني: معونة أنصاره.

قوله عز وجل ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ يعني محمداً ﷺ

أرسله الله إلى خلقه بالهدى ودين الحق.

وفيها أربعة تأويلات:

أحدها: أن الهدى البيان، ودين الحق الإسلام، قاله الضحاك.

والثاني: أن الهدى الدليل، ودين الحق المدلول عليه.

والثالث: معناه بالهدى إلى دين الحق.

والرابع: أن معناهما واحد وإنما جمع بينهما تأكيداً لتغاير اللفظين.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ فيه ستة تأويلات:

أحدها: يعني عند نزول عيسى (٤١٩) عليه السلام فإنه لا يعبد الله تعالى إلا

بالإسلام، قاله أبو هريرة.

(٤١٩) وذلك قبل قيام الساعة ليكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وتكون الملة في عهده واحدة وهي الإسلام ولا يقبل من النصراني إلا الإسلام وإلا فالسيف على رقابهم كما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

والثاني : معناه أن يعلمه شرائع الدين كله ويطلعه عليه ، قاله ابن عباس .
والثالث : ليظهر دلائله وحججه ، وقد فعل الله تعالى ذلك ، وهذا قول كثير من العلماء .

والرابع : ليظهره برغم المشركين من أهله .

والخامس : أنه وارد على سبب ، وهو أنه كان لقريش رحلتان رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن والعراق فلما أسلموا انقطعت عنهم الرحلتان للمباينة في الدين فذكروا ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى عليه : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ يعني في بلاد الرحلتين وقد أظهره الله تعالى فيهما .

والسادس : أن الظهور الاستعلاء ، ودين الإسلام أعلى الأديان (٤٢٠) كلها وأكثرها أهلاً ، قد نصره الله بالبر والفاجر والمسلم والكافر . فروى الربيع بن أنس عن الحسن (٤٢١) أن النبي ﷺ قال «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ دِينَهُ بِأَقْوَامٍ مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ» .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ

(٤٢٠) وروى الإمام أحمد (١٠٤/٣) عن تميم الداري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين يعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز به الإسلام وذلاً يذل به الكفر وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١ وروى مسلم (٢٢٣٠/٤) من عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» . أن ذلك تاماً قال «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله ريحاً طيبة...» الحديث ففي هذه الأحاديث بشارة طيبة لانتشار الإسلام على ربوع هذه البسيطة وهذا يستلزم من المؤمنين أن يعودوا إلى كتاب ربهم ويعتصموا بهدي نبيهم ﷺ .
(٤٢١) وهو حديث مرسل هنا من مراسلات الحسن .

وقد ورد في البخاري (١٢٥/٦) ومسلم (رقم ١١١) من حديث أبي هريرة بلفظ «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» .

قال العلامة الشوكاني رحمه الله في فتح القدير (٣٥٦/٢) : «وقد اقتدى بهؤلاء الأحرار والرهبان من علماء الإسلام لا يأتي عليه الحضر في كل زمان فالله المستعان .» هـ قلت رحم الله الشوكاني فكيف لو رأى حال علماء زماننا الآن رحمه الله وما يصنعون ويصدرون من فتاوى توافق هوى السلطان حيناً من أجل دربهات معدودة ومنصب زائل نسأل الله السلامة والعافية .

الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾
يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وُظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ الآية: فيه قولان.

أحدهما: أنه أخذ الرشا في الحكم، قاله الحسن.

والثاني: أنه على العموم من أخذه بكل وجه (٤٢٢) محرم.

ولنا عبرة عن الأخذ بالأكل لأن ما يأخذونه من هذه الأموال هي أثمان ما يأكلون،

وقد يطلق على أثمان المأكول اسم الأكل، كما قال الشاعر (٤٢٣):

ذر الأكلين الماء فما أرى ينالون خيراً بعد أكلهم الماء

أي ثمن الماء.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه منعهم من الحق في الحكم بقبول الرشا.

والثاني: أنه منعهم أهل دينهم من الدخول في الإسلام بإدخال الشبهة عليهم.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ﴾ وفي هذا الكنز المستحق عليه هذا الوعيد ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الكنز كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته، سواء كان مدفوناً أو

غير مدفون، قاله ابن عمر (٤٢٤) والسدي والشافعي والطبري (٤٢٥).

والثاني: أن الكنز ما زاد على أربعة آلاف درهم، أدبت منه الزكاة أم لم تؤد،

(٤٢٢) اللسان «أكل» ولم ينسبه لأحد وشطره الأول فيه.

«من الأكلين الماء ظلماً فما أرى.....»

(٤٢٣) وهو القول الراجح والصواب ورجحه الشوكاني (٣٥٦/٢).

(٤٢٤) رواه الطبري (٢١٧/١٤) وإسناده صحيح ورواه مالك في الموطأ بمعناه (٢٥٦/١).

(٤٢٥) جامع البيان (٢٢٣/١٤).

قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد قال: أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة، وما فوقها كثر.

والثالث: أن الكثر ما فضل من المال عن الحاجة إليه. روى عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد قال: لما نزل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾ الآية. قال النبي ﷺ: «تَبَا لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ» قال: فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأَي المال نتخذ؟ فقال عمر بن الخطاب: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا: فأَي المال نتخذ؟ فقال «لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا وَرَوْجَةً مُؤْمِنَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى دِينِهِ» (٤٢٦).

وروى قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة (٤٢٧) صدي بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار، فقال النبي ﷺ: «كَيْفَ» ثم مات آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي ﷺ: «كَيْتَانِ»

والكثر في اللغة هو كل شيء مجموع بعضه إلى بعض سواء كان ظاهراً على الأرض أو مدفوناً فيها، ومنه كنز البر، قال الشاعر (٤٢٨):

لا دَرَّ دري إن أطعمت نازلهم قُرفَ الحتى وعندي البر مكنوز
الحتى: سويق المقل. يعني وعندي البر مجموع (٤٢٩).

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ فذكر جنسين ثم قال ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا﴾ والهاء كناية ترجع إلى جنس واحد، ولم يقل: وَلَا يُنْفِقُونَهُمَا لترجع الكناية إليهما.

(٤٢٦) قال الرمخشري في الكشاف (١٥٠/٢) «وما روي عن علي رضي الله عنه أربعة آلاف فما دونها نفقة فما زاد فهو كنز كلام في الأفضل».

(٤٢٧) رواه الطبراني (رقم ١٦٦١)، (١٦٦٣) وأحمد (٢٧٨/٥) مرسلًا ثم رواه الطبراني (١٦٦٦٢) وأحمد (٢٨٢/٥) موصولاً من حديث ثوبان والترمذي في كتاب التفسير بنحوه (٥٠٩٢) وقال: حديث حسن.

وفي سند الحديث انقطاع بين سالم بن أبي الجعد وثوبان فإن الأول لم يسمع من الثاني كما حكاه الترمذي عن البخاري. وأما تحسين الترمذي للحديث فلعله لشواهد والله أعلم.

(٤٢٨) رواه الطبري رقم ١٦٦٤، ١٦٦٦ وأحمد (٢٥٢/٥، ٢٥٣) وفي سنده شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد وثق.

(٤٢٩) البيت للمتحل الهذلي في اللسان «كنز».

فعن ذلك جوابان :

أحدهما : أن الكناية راجعة إلى الكنوز، وتقديره : ولا ينفقون الكنوز في سبيل الله .

والثاني : أنه قال ذلك اكتفاء بذكر أحدهما عن الآخر لدلالة الكلام على اشتراكهما فيه ، كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا آنَفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ [الجمعة : ١١] ولم يقل إليهما ، وكقول الشاعر (٤٣٠) :

إن شرخ الشباب والشعر الأسود ما لم يُعاص كان جنوناً

ولم يقل بعاصيا .

ثم إن الله تعالى غلظ حال الوعيد بما ذكره بعد هذا من قوله :

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتْكُوىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْبِرُونَ﴾ وإنما غلظه بهذا الوعيد لما في طباع النفوس من الشح بالأموال ليسهل لهم تغليظ الوعيد إخراجها في الحقوق .

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الْدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

قوله عز وجل ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ يعني شهور السنة ، وإنما كانت اثني عشر شهراً لموافقة الأهلة ولنزول الشمس والقمر في اثني عشر برجاً يجريان فيها على حساب متفق كما قال الله تعالى ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن : ٥] .

﴿... مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ يعني أن من الاثني عشر شهراً أربعة حرم ، يعني

(٤٣٠) هو حسان بن ثابت والبيت في ديوانه : ٤١٣ ، مجاز القرآن (١/٢٥٨) ، الكامل (٢/٧٩) ، والجمهرة (٢/٢٠٧) ، اللسان (شرح) .

بالحرم تعظيم انتهاك المحارم فيها، وهو ما رواه صدقة بن يسار عن ابن عمر قال (٤٣١):
خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في وسط أيام التشريق فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ
إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ فَهُوَ الْيَوْمَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَإِنَّ عِدَّةَ
الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، أُولَئِهِنَّ رَجَبٌ مُمْسِرٌ بَيْنَ جُمَادَى
وَشَعْبَانَ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمِ».

﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْنَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أي ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوفي، قاله ابن قتيبة.

والثاني: يعني القضاء الحق المستقيم، قاله الكلبي.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: فلا تظلموها بمعاصي الله تعالى في الشهور الاثني عشر كلها، قاله
ابن عباس.

والثاني: فلا تظلموها بمعاصي الله في الأربعة الأشهر، قاله قتادة.

والثالث: فلا تظلموا أنفسكم في الأربعة الأشهر الحرم بإحلالها بعد تحريم الله
تعالى لها، قاله الحسن وابن إسحاق.

والرابع: فلا تظلموا فيها أنفسكم أي تركوا فيها قتال عدوكم، قاله ابن بحر.

فإن قيل: فلم جعل بعض الشهور أعظم حرمة من بعض؟

قيل: ليكون كفهم فيها عن المعاصي ذريعة إلى استدامة الكف في غيرها توطئة
للنفس على فراقها مصلحة منه في عباده ولطفاً بهم.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا
وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ
لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

(٤٣١) رواه الطبري (١٤/٣٣٤).

وفي سنده موسى بن عبيدة الربذي وهو منكر الحديث ضعيف جداً لكن الحديث ورد من رواية أبي
بكرة وهي في البخاري ومسلم.

قوله عز وجل ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ...﴾ أما النسيء في الأشهر فهو تأخيرها، مأخوذ من بيع النسيئة، ومنه قوله تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي نؤخرها.

وفي نسء الأشهر قولان.

أحدهما: أنهم كانوا يؤخرون السنة أحد عشر يوماً حتى يجعلوا المحرم صفرًا، قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم كانوا يؤخرون الحج في كل سنتين شهراً.

قال مجاهد (٤٣٢): فحج المسلمون في ذي الحجة عامين، ثم حجوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، ثم في ذي القعدة عامين الثاني منهما حجة أبي بكر قبل حجة النبي ﷺ ثم حج النبي ﷺ من قابل في ذي الحجة فذلك حين يقول: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» وكان المنادي بالنسيء في الموسم: من بني كنانة على ما حكاه أبو عبيدة، وقال شاعرهم عمير بن قيس (٤٣٣):

ألسنا الناسئين على مَعَدٍّ شهور الحل نجعلها حراماً

واختلف في أول من نسأ الشهور منهم، فقال الزبير بن بكار: أول من نسأ الشهور نعيم بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة.

وقال أيوب بن عمر الغفاري: أول من نسأ الشهور القلمس (٤٣٤) الأكبر وهو عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة، وآخر من نسأ الشهور أبو ثمامة جنادة بن عوف إلى أن نزل هذا التحريم سنة عشر وكان ينادي إني أنسأ الشهور في كل عام، ألا أن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب، فحرم الله سبحانه بهذه الآية النسيء وجعله زيادة في الكفر.

(٤٣٢) وهذا مرسل من مراسلات مجاهد رواه الطبري (برقم ١٦٧١٤).

وقد مر تخريجه من رواية أبي بكره رضي الله عنه.

(٤٣٣) اللسان «نسأ».

(٤٣٤) قال الشوكاني في فتح القدير (٣٥٩/٢): وقد وقع الخلاف في أول من فعل ذلك فقيل هو رجل من بني كنانة يقال له حذيفة بن عتيق ويلقب القلمس..... وقيل هو عمرو بن لحي وقيل هو نعيم بن ثعلبة من بني كنانة.

ثم قال تعالى ﴿... لِيُؤَاطِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوا فحرموا أربعة أشهر كما حرم الله تعالى أربعة أشهر.

﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن الله تعالى زينها بالشهرة لها والعلامة المميزة بها لتجتنب.

الثاني: أن أنفسهم والشیطان زين لهم ذلك بالتحسين والترغيب ليوافقوها، وهو معنى قول الحسن.

وفي ﴿سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ ها هنا وجهان:

أحدهما: أنه ما قدمه من إحلالهم ما حرم الله تعالى وتحريمهم ما أحله الله.

الثاني: أنه الرياء، قاله جعفر بن محمد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا كُنتُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُكُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُكُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قال الحسن ومجاهد: دُعوا إلى غزوة تبوك فتناقلوا فنزل ذلك فيهم.

وفي قوله ﴿أَتَأْتِلُكُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: إلى الإقامة بأرضكم ووطنكم.

والثاني: إلى الأرض حين أخرجت الثمر والزرع. قال مجاهد: دعوا إلى ذلك أيام إدراك النخل ومحبة القعود في الظل.

الثالث: اطمأننتم إلى الدنيا، فسمها أرضاً لأنها فيها، وهذا قول الضحاك.

وقد بينه بقوله تعالى ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ يعني بمنافع الدنيا بدلاً من ثواب الآخرة.

والفرق بين الرضا والإرادة أن الرضا لما مضى ، والإرادة لما يأتي .
﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لانقطاع هذا ودوام ذاك .
قوله عز وجل ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا﴾ يعني في الجهاد .

﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس : احتباس القطر عنهم هو العذاب الأليم الذي أوعدتم ويحتمل أن يريد بالعذاب الأليم أن يظفر بهم أعداؤهم (٤٣٥) .
﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعني ممن ينفر إذا دُعي ويجيب إذا أمر .
﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ولا تضروا الله بترك النفير ، قاله الحسن .

والثاني : ولا تضروا الرسول ، لما تكفل الله تعالى به من نصرته ، قاله الزجاج .

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَنَزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ يعني إلا تنصروا أيها الناس النبي ﷺ بالنفير معه وذلك حين استنفرهم إلى تبوك فتقاعدوا فقد نصره الله .

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني من مكة ولم يكن معه من يحامي عنه ويمنع منه إلا الله تعالى ، ليعلمهم بذلك أن نصره نبيه ليس بهم فيضره انقطاعهم وقعودهم ، وإنما هو من قبل الله تعالى فلم يضره قعودهم عنه .

وفي قوله ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ وجهان :

أحدهما : بإرشاده إلى الهجرة حتى أغناه عن معونتهم .

والثاني : بما تكفل به من إمداده بملائكته .

(٤٣٥) رواه الطبري رقم (١٦٧٢١، ١٦٧٤٢) ورواه أبو داود بنحوه (٢٥٠٦) والبيهقي (٤٨/٩) وزاد السيوطي في الدر (٤ /) نسبه لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه .

﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين، وللعرب في هذا مذهب أن تقول خامس خمسة أي أحد خمسة.

﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ يعني النبي ﷺ وأبا بكر حين خرجا من مكة دخلا غاراً في جبل ثور ليخفيا على من خرج من قريش في طلبهم. والغار عمق في الجبل يدخل إليه.

قال مجاهد: مكث رسول الله ﷺ في الغار مع أبي بكر ثلاثاً.

قال الحسن: جعل الله على باب الغار ثمامة وهي شجرة صغيرة، وقال غيره: ألهمت العنكبوت فنسجت على باب الغار.

وذهب بعض المتعمقة في غوامض المعاني إلى أن قوله تعالى ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي في غيرة على ما كانوا يرونه من ظهور الكفر فغار على دين ربه. وهو خلاف ما عليه الجمهور.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ يريد أن النبي ﷺ قال لصاحبه أبي بكر «لَا تَحْزَنْ» فاحتمل قوله ذلك له وجهين:

أحدهما: أن يكون تبشيراً لأبي بكر بالنصر من غير أن يظهر منه حزن.

والثاني: أن يكون قد ظهر منه حزن فقال له ذلك تخفيفاً وتسلياً. وليس الحزن خوفاً وإنما هو تألم القلب بما تخيله من ضعف الدين بعد الرسول فقال له النبي ﷺ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي ناصرنا على أعدائنا.

﴿... فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ فيها قولان:

أحدهما: على النبي ﷺ، قاله الزجاج.

والثاني: على أبي بكر لأن الله قد أعلم نبيه بالنصر.

وفي السكينة أربعة أقاويل:

أحدها: أنها الرحمة، قاله ابن عباس.

والثاني: أنها الطمأنينة^(٤٣٦)، قاله الضحاك.

والثالث: الوقار، قاله قتادة.

(٤٣٦) وقال ابن قتيبة هو أصح زاد المسير (٣/٤٤٠).

والرابع : أنها شيء يسكن الله به قلوبهم ، قاله الحسن وعطاء .
﴿وَأَيَّدُهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فيه وجهان :
أحدهما : بالملائكة (٤٣٧) .

والثاني : بالثقة بوعده واليقين بنصره .
وفي تأييده وجهان :

أحدهما : إخفاء أثره في الغار حين طلب .
والثاني : المنع من التعرض له حين هاجر .
﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ يحتمل وجهين :
أحدهما : بانقطاع الحجة .

والثاني : جعل كلمة الذين كفروا السفلى بذلّ الخوف ، وكلمة الله هي العليا
بعض الظفر .

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ بظهور الحجة .

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ



قوله عز وجل ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فيه عشرة تأويلات :

أحدها : يعني شباباً وشيوخاً ، قاله الحسن وعكرمة ومجاهد (٤٣٨) .

والثاني : في اليسر والعسر فقراء وأغنياء ، قاله أبو صالح .

والثالث : مشاغيل وغير مشاغيل ، قاله الحكم .

والرابع : نشاطاً وغير نشاط ، قاله ابن عباس وقتادة .

والخامس : ركباناً ومشاة ، قاله أبو عمرو الأوزاعي .

والسادس : ذا صنعة وغير ذي صنعة (٤٣٩) ، قاله ابن زيد .

والسابع : ذا عيال وغير ذي عيال ، قاله زيد بن أسلم .

والثامن : أصحاء وغير أصحاء ومرضى ، قاله جوير .

(٤٣٧) ولا شك في أرجحية هذا القول لأن السياق يدل على ذلك في الآية .

(٤٣٨) لكن قول مجاهد في الطبري (٢٦٤/١٤) قال : شيباً وشيوخاً وأغنياء ومساكين .

(٤٣٩) كذا هنا وفي المطبوعة وفيه تحريف والصواب ذا ضيعة وغير ذي ضيعة كما في الطبري (٢٢٦/١٤) .

والتاسع : على خفة البعير وثقله ، قاله علي بن عيسى والطبري (٤٤٠).

والعاشر : خفافاً إلى الطاعة وثقلاً عن المخالفة .

ويحتمل حادي عشر : خفافاً إلى المبارزة ، وثقلاً في المصابرة .

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أما الجهاد بالنفس فمن فروض الكفايات إلا عند هجوم العدو فيصير متعيناً (٤٤١).

وأما بالمال فبزاده وراحلته إذا قدر على الجهاد بنفسه ، فإن عجز عنه بنفسه فقد ذهب قوم إلى أن بذل المال يلزم بدلاً عن نفسه . وقال جمهورهم : لا يجب لأن المال في الجهاد تبع النفس إلا سهم سبيل الله من الزكاة .

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الجهاد خير لكم من تركه إلى ما أبيح من القعود عنه .

والثاني : معناه أن الخير في الجهاد لا في تركه .

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إن كنتم تعلمون صدق الله تعالى فيما وعد به من ثوابه وجنته .

والثاني : إن كنتم تعلمون أن الخير في الجهاد .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : إن كنتم تعلمون أن الله تعالى يريد لكم الخير .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعْدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ
وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا الْخُرُوجَ مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

(٤٤٠) وقول الطبري (٢٦٩/١٤) «وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين بالنفر لجهاد أعدائه في سبيله خفافاً وثقلاً وقد يدخل في الخفاف كل من كان سهلاً عليه النفر لقوة بدنه على ذلك وصحة جسمه وشبابه ومن كان ذا يسر بمال وفراغ من الاشتغال وقادر على الظهر والركاب ويدخل في الثقال كل من كان بخلاف ذلك من ضعيف الجسم وعليه وسقيمه ومن معسر من المال ومشتغل بضیعة ومعاش ومن كان لا يظهر له ولا ركاب والشيخ ذو السن والعيال . . . الخ .

(٤٤١) وكذا عند النفر العام من الإمام الأعظم وكذا عند التقاء الصفيين أي جيش المسلمين وجيش الكافرين يصير الجهاد فرض عين .

قوله عز وجل ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي لو كان الذي دُعِيتُم إليه عرضاً قريباً. وفيه وجهان :

أحدهما : يعني بالعرض ما يعرض من الأمور السهلة .

والثاني : يعني الغنيمة .

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي سهلاً مقتصداً .

﴿لَا تَبْعُوكُ﴾ يعني في الخروج معك .

﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ والشقة هي القطعة من الأرض التي يشق ركوبها

على صاحبها لبعدها .

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لو استطعنا فراق أوطاننا وترك ثمارنا .

والثاني : لو استطعنا مالاً نستمدده ونفقةً نخرج بها لخرجنا معكم في السفر الذي

دعوا إليه فتأخروا عنه وهو غزوة تبوك .

ثم جاءوا بعد ذلك يحلفون بما أخبر الله عنهم من أنهم لو استطاعوا لخرجوا

تصديقاً لقوله تعالى وتصحيحاً لرسالة نبيه ﷺ .

﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يهلكون أنفسهم باليمين الكاذبة .

والثاني : يهلكون أنفسهم بالتأخر عن الإجابة .

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ

الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ

يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ

اللَّهُ أَنْبِعَانَّهُمْ فَشَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا

فِيكُمْ مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله عز وجل ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ فيه وجهان:
أحدهما: صدق العزم ونشاط النفس.

والثاني: الزاد والراحلة في السفر، ونفقة الأهل في الحضر.

﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ وإنما كره انبعاثهم لوقوع الفشل بتخاذلهم
كعبدالله بن أبي بن سلول، والجد بن قيس.

﴿وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: مع القاعدين بغير عذر، قاله الكلبي.

والثاني: مع القاعدين بعذر من النساء والصبيان، حكاه علي بن عيسى.
وفي قائل ذلك قولان:

أحدهما: أنه النبي ﷺ، غضباً عليهم، لعلمه بذلك منهم.

والثاني: أنه قول بعضهم لبعض.

قوله عز وجل ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ يعني اضطراباً حكاه ابن
عيسى.

والثاني: فساداً، قاله ابن عباس.

فإن قيل: فلم يكونوا في خبال فيزدادوا بهؤلاء الخارجين خبالاً.

قيل هذا من الاستثناء المنقطع، وتقديره: ما زادوكم قوة، ولكن أوقعوا بينكم
خبالاً.

﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أما الإيضاع فهو إسراع السير، ومنه قول
الراجز (٤٤٢):

يا ليتني فيها جذع أحبّ فيها وأضع

(٤٤٢) هو دريد بن الصمة والبيت في اللسان «وضع» وسيرة ابن هشام (٨٢/٤) ونسب البيت لورقة بن نوفل
الشوكاني في فتح القدير (٣٦٦/٢).

وأما الخلال فهو من تخلل الصفوف وهي الفرج تكون فيها، ومنه قول النبي ﷺ: «تَرَأَوْا فِي الصُّفُوفِ وَلَا يَتَخَلَّلُكُمْ، كَأَوْلَادِ الْحَذَفِ يَعْنِي الشَّيَاطِينَ»

والخلال هو الفساد، وفيه ها هنا وجهان:

أحدهما: لأسرعوا في إفسادكم.

والثاني: لأوضعوا الخلف بينكم (٤٤٣).

وفي الفتنه التي ييغونها وجهان:

أحدهما: الكفر.

والثاني: اختلاف الكلمة وتفريق الجماعة.

﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ وفيهم ثلاثة أقاويل.

أحدها: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم، قاله قتادة وابن إسحاق.

والثاني: وفيكم عيون منكم ينقلون إلى المشركين أخباركم، قاله الحسن (٤٤٤).

لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ
وَوَضَّاهُ رَأْمًا رَأْمًا وَهُمْ كَرِهُونَ

قوله عز وجل ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني إيقاع الخلاف وتفريق الكلمة.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ يحتمل أربعة أوجه: (٤٤٥)

أحدها: معاونتهم في الظاهر وممالة المشركين في الباطن.

والثاني: قولهم بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

والثالث: توقع الدوائر وانتظار الفرص.

والرابع: حلفهم بالله لو استطعنا لخرجنا معكم.

(٤٤٣) ذكره الطبري (٢٧٩/١٤) معلقاً ورواه أبو داود (٦٦٧) والنسائي (٩٢/٢) بنحوه. الحذف: هي الغنم السود الصغار.

(٤٤٤) أي أفسحوا بينكم حب التخلف عن الجهاد مع رسول الله ﷺ.

(٤٤٥) واختاره الطبري (٢٨٢/١٤) وقال لأن الأغلب من كلام العرب في قولهم سماع وصف من وصف به أنه

سماع للكلام كما قال الله جل ثناؤه في غير موضع من كتابه «سماعون للكذب» واصفاً بذلك قوماً بسماع الكذب من الحديث وأما إذا وصفوا الرجل بسماع كلام الرجل وأمره ونهيه وقبوله منه وانتهاؤه إليه فإنما تصفه بأنه له سامع مطيع ولا تكاد تقول هو سماع مطيع.

﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يعني النصر.

﴿وظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني الدين.

﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ يعني النصر وظهور الدين.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾

قوله عز وجل ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِّي﴾ يعني في التأخر عن الجهاد.

﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: لا تكسبني الإثم بالعصيان في المخالفة، قاله الحسن وقتادة وأبو عبيدة والزجاج.

والثاني: لا تصرفني عن شغلي، قاله ابن بحر.

والثالث: أنها نزلت في الجذ بن قيس قال: ائذن لي ولا تفتني بينات بني الأصفر^(٤٤٦) فإني مشتهر بالنساء، قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد.

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ فيها وجهان:

أحدهما: في عذاب جهنم لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

والثاني: في محنة النفاق وفتنة الشقاق.

إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُمْ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

قوله عز وجل ﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ﴾ يعني بالحسنة النصر.

﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي أخذنا حذرنا فسلمنا.

﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي بمصيبتك وسلامتهم.

قال الكلبي: عنى بالحسنة النصر يوم بدر، وبالمصيبة النكبة يوم أحد.

قوله عز وجل ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلا ما كتب الله لنا في اللوح المحفوظ أنه يصيبنا من خير أو شر، لا أن ذلك بأفعالنا فنذم أو نحمد، وهو معنى قول الحسن.

والثاني : إلا ما كتب الله لنا في عاقبة أمرنا أنه ينصرنا ويعز دينه بنا.

﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مالكننا.

والثاني : حافظنا وناصرنا.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي على معونته وتدبيره.

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَنَرَبِّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَتَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ﴿٥٤﴾

قوله عز وجل ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ يعني النصر أو الشهادة وكلاهما حسنة لأن في النصر ظهور الدين، وفي الشهادة الجنة.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : عذاب الاستئصال في الدنيا.

والثاني : عقاب العصيان في الآخرة.

﴿أَوْ يَأْتِيَنَا﴾ يعني بقتل الكافر عند الظفر والمنافق مع الإذن فيه.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ

وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَاتٍ
أَوْ مَدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

قوله عز وجل ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ...﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، قاله ابن عباس وقتادة ويكون فيه تقديم وتأخير.
والثاني: إنما يريد الله ليعذبهم بما فرضه من الزكاة في أموالهم، يعني المنافقين. وهذا قول الحسن.

والثالث: ليعذبهم بمصائبهم في أموالهم^(٤٤٧) أولادهم، قاله ابن زيد.
والرابع: ليعذبهم ببني أولادهم وغنيمة أموالهم، يعني المشركين، قاله بعض المتأخرين.

والخامس: يعذبهم بجمعها وحفظها وجبها والبخل بها والحزن عليها، وكل هذا عذاب.

﴿وَتَزَهَّقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي تهلك بشدة، من قوله تعالى ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١].

قوله عز وجل ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَاتٍ...﴾ الآية. أما الملجأ ففيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه الحرز، قاله ابن عباس.

والثاني: الحصن، قاله قتادة.

والثالث: الموضع الحريز من الجبل، قاله الطبري^(٤٤٨).

والرابع: المهرب، قاله السدي. ومعاني هذه كلها متقاربة.

وأما المغارات ففيها وجهان:

(٤٤٧) لعله وأولادهم وقول ابن زيد في الطبري (٢٩٦/١٤) ونصه: قوله «انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا» بالمصائب فيها هي لهم عذاب وهي للمؤمن أجر أهـ.

(٤٤٨) وقول أبي جعفر في جامع البيان (٢٩٨/١٤).

قال: «ملجأ» يقول: عصراً يعتصرون به من حصن ومعقلاً يعتقلون فيه منكم.

أحدهما: أنها الغيران في الجبال، قاله ابن عباس.
والثاني: المدخل الساتر لمن دخل فيه، قاله علي بن عيسى.
وأما المدخل ففيه وجهان:

أحدهما: أنه السرب في الأرض، قاله الطبري (٤٤٩).
والثاني: أنه المدخل الضيق الذي يدخل فيه بشدة.
﴿لَوَلَوْا إِلَيْهِ﴾ يعني هرباً من القتال وخذلاناً للمؤمنين.
﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون، قال مهلهل (٤٥٠):

لقد جمحت جماحاً في دمائهم حتى رأيت ذوي أحسابهم خمدوا

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا
هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا
حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُنَا إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

قوله عز وجل ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾ الآية، فيه قولان:

أحدهما: أنه ثعلبة بن حاطب كان يقول: إنما يعطي محمد من يشاء ويتكلم
بالنفاق فإن أعطي رضي وإن منع سخط، فنزلت فيه الآية.

الثاني: ما روى الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري
قال (٤٥١): «بينما رسول الله ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي فقال:
اعدل يا رسول الله، فقال: وَيْلَكَ وَمَنْ يُعْدِلُ إِنْ لَمْ أُعْدِلْ؟ فقال عمر رضي الله عنه:
يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه، فقال: دَعُهُ. فأنزل الله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ
يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية.

وفي معنى يلمزك ثلاثة أوجه:

(٤٤٩) جامع البيان (١٤/٢٩٨).

(٤٥٠) الطبري (١٤/٢٩٩).

(٤٥١) رواه الطبري (١٤/٣٠٣) واللفظ له والقصة في البخاري أيضاً (٦/٤٥٥).

ومسلم (٧/١٦٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولكن ليس فيها أن هذه الحادثة سبب
لنزول الآية.

أحدها: يروزك^(٤٥٢) ويسألك، قاله مجاهد.

والثاني: يغتابك، قاله ابن قتيبة.

والثالث: يعيبك، قال رؤبة^(٤٥٣).

قاربت بين عَنَقِي وحَجَزِي في ظل عصري باطلاي ولمزي

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ فُلُوقُهُمْ
وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله عز وجل ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ اختلف أهل العلم فيها على ستة أقاويل:

أحدها: أن الفقير المحتاج المتعفف عن المسألة. والمسكين: المحتاج السائل، قاله ابن عباس والحسن وجابر وابن زيد^(٤٥٤) والزهري ومجاهد وزيد^(٤٥٥).

والثاني: أن الفقير هو ذو الزمانة من أهل الحاجة، والمسكين: هو الصحيح الجسم منهم، قاله قتادة.

والثالث: أن الفقراء هم المهاجرون، والمساكين: غير المهاجرين، قاله الضحاك بن مزاحم وإبراهيم.

والرابع: أن الفقير من المسلمين، والمسكين: من أهل الكتاب، قاله عكرمة.

والخامس: أن الفقير الذي لا شيء له لأن الحاجة قد كسرت فقاره، والمسكين الذي له ما لا يكفيه لكن يسكن إليه، قاله الشافعي.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ليس المسكين^(٤٥٦) الذي لا مال له ولكن

(٤٥٢) يعني يَجْتَرِكُ وَيَمْتَحِنُكَ. ويدوق أَمْرَكَ هل تخاف لائمة أم لا. يقال «رزت ما عند فلان إذا اختبرته وامتنحته».

(٤٥٣) ديوانه: ٦٤.

(٤٥٤) كذا في المطبوعة والصواب جابر بن زيد والتصويب من الطبري (٣٠٥/١٤) وزاد المسير (٤٥٥/٣).

(٤٥٥) كذا في المطبوعة وهو خطأ والصواب ابن زيد والتصويب من الطبري (٣٠٦/١٤) وزاد المسير (٤٥٥/٣).

(٤٥٦) وفي الطبري (٣٠٨/١٤) ليس المسكين بالذي

المسكين الأخلق الكسب. قال ابن عليّة: الأخلق المحارف^(٤٥٧) عندنا وقال الشاعر^(٤٥٨):

لما رأى بُدُّ النُّسور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعزل
والسادس: أن الفقير الذي له ما لا يكفيه، والمسكين: الذي ليس له شيء يسكن إليه قاله أبو حنيفة.

ثم قال ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم السعاة المختصون بجبايتها وتفريقها قال الشاعر:

إن السُّعاة عصوك حين بعثتهم لم يفعلوا مما أمرت فتبلا
وليس الإمام من العاملين عليها ولا والي الإقليم.

وفي قدر نصيبهم منها قولان:

أحدهما: الثمن، لأنهم أحد الأصناف الثمانية، قاله مجاهد والضحاك.
والثاني: قدر أجور أمثالهم، قاله عبدالله بن عمر^(٤٥٩).

﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم قوم كان رسول الله ﷺ يتألفهم بالعطية، وهم صنفان: مسلمون ومشركون.

فأما المسلمون فصنفان: صنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة فتألفهم تقوية لنياتهم، كعقبة بن زيد وأبي سفيان بن حرب والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس. وصنف آخر منهم كانت نياتهم في الإسلام حسنة فأعطوا تألفاً لعشائرتهم من المشركين مثل عدي بن حاتم. ويعطى كلا الصنفين من سهم المؤلفة قلوبهم.

وأما المشركون فصنفان: صنف يقصدون المسلمين بالأذى فيتألفهم دفعاً

^(٤٥٧) قال صاحب تحقيق جامع البيان (٣٠٨/١٤): أراد عمر أن الفقير هو الذي لم يقدم لآخرته شيئاً يثاب عليه وأن الفقير الأكبر إنما هو فقير الآخرة وأن فقير الدنيا أهون الفقيرين والأخلق من قولهم هضبة خلقاء ملساء لا نبات فيها وللجبل المصمت الذي لا يؤثر فيه شيء «أخلق» وفي حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها «وأما معاوية فرجل أخلق من المال» أي خلو عارضه وأما المحارف كما فسر ابن عليّة فهو المنقوص الحظ فهو محدود محروم إذا طلب الرزق لم يرزق ضد المبارك.

^(٤٥٨) هو لبيد والبيت في ديوانه ٢٧٤، الحيوان (٣٢٦/٦) ومعجم مقاييس اللغة (٩٠/٤) ومعجم البلدان (٧٨/٦) واللسان «فقر».

^(٤٥٩) وفي نسخة: عبد الله عمرو بن العاص.

قلت: وهو الصواب، لما ثبت ذلك عن عبد الله في الطبري برقم (١٦٨٤٢).

لأذاهم مثل عامر بن الطفيل، وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام تألفهم بالعطية ليؤمنوا مثل صفوان بن أمية.

وفي تألفهم بعد رسول الله ﷺ بالسهم المسمى لهم من الصدقات قولان: أحدهما: يعطونه ويتألفون به، قاله الحسن وطائفة.

والثاني: يمنعون منه ولا يعطونه لإعزاز الله دينه عن تألفهم، قاله جابر، وكلا القولين محكي عن الشافعي.

وقد روى حسان بن عطية قال: قال عمر رضي الله عنه وأتاه عيينة بن حصن يطلب من سهم المؤلفة قلوبهم فقال قد أغنى الله عنك وعن ضربائك ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أي ليس اليوم مؤلفة. ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فيهم قولان:

أحدهما: أنهم المكاتبون، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه والشافعي. والثاني: أنهم عبيد يشترون بهذا السهم قاله ابن عباس ومالك.

﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ وهم الذين عليهم الدين يلزمهم غرمه، فإن آذناوا في مصالح أنفسهم لم يعطوا إلا مع الفقر، وإن آذناوا في المصالح العامة أعطوا مع الغنى والفقر. واختلف فيمن آذان في معصية على ثلاثة أقاويل. أحدها: لا يعطى لثلاث يعان على معصية.

والثاني: يعطى لأن الغرم قد وجب، والمعصية قد انقضت. والثالث: يعطى التائب منها ولا يعطى إن أصر عليها.

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم الغزاة المجاهدون في سبيل الله يعطون سهمهم من الزكاة مع الغنى والفقر.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: هو المسافر لا يجد نفقة سفره، يعطى منها وإن كان غنياً في بلده، وهو قول الجمهور.

والثاني: أنه الضيف، حكاه ابن الأنباري.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٍّ خَيْرٌ لَّكُمْ

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ
رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

قوله عز وجل ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يصغي إلى كل أحد، فيسمع منه، قال عدي بن زيد (٤٦٠) :

أيها القلب تعلل بددن إن همي من سماع وأذن
﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي يسمع الخير ويعمل به ، لا أذن شر يفعله إذا سمعه .
قال الكلبي : نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين كانوا يعيبون النبي ﷺ ويقولون فيه ما لا يجوز، فنزلت هذه الآية فيهم .
وفي تأويلها وجهان :

أحدهما : أنهم كانوا يعيبونه بأنه أذن يسمع جميع ما يقال له ، فجعلوا ذلك عيباً فيه .

والثاني : أنهم عابوه فقال أحدهم : كفوا فإني أخاف أن يبلغه فيعاقبنا ، فقالوا : هو أذن إذا أجبناه وحلفنا له صدقنا ، فنسبوه بذلك إلى قبول العذر في الحق والباطل ، قاله الكلبي ومقاتل .

وقيل إن قائل هذا نفيل بن الحارث (٤٦١) .

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ
كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَتَوْا
لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

قوله عز وجل ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ فيها ثلاثة أقوال :

(٤٦٠) أمالي الشريف المرتضى (٣٣/١) واللسان (أذن) و (ددن) .

(٤٦١) كذا في المطبوعة وهو خطأ والصواب نبتل بن الحارث والتصويب من الطبري (٣٢٥/١٤) وسيرة ابن

هشام (١٦٨/٢) وزاد المسير (٤٦٠/٣) .

أحدها: من يخالف الله ورسوله، قاله الكلبي.

والثاني: مجاوزة حدودها، قاله علي بن عيسى.

والثالث: أنها معاداتها مأخوذ من حديد السلاح لاستعماله في المعادة، قاله

ابن بحر.

﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا وعيد، وإنما سميت النار جهنم من قول العرب بئر

جهنم إذا كانت بعيدة القعر، فسميت نار الآخرة جهنم لبعد قعرها، قاله ابن بحر.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ
أَسْتَهْزِئُ وَإِنَّ اللَّهَ يَخْرِجُ مَا تُحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ...﴾ الآية. فيه وجهان:

أحدهما: أنه إخبار من الله تعالى عن حذرهم، قاله الحسن وقتادة.

والثاني: أنه أمر من الله تعالى لهم بالحذر، وتقديره ليحذر المنافقون، قاله

الزجاج.

وفي قوله تعالى ﴿... تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وجهان:

أحدهما: ما أسروه من النفاق.

والثاني: قولهم في غزوة تبوك: أيرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام

وحصونها؟ هيئات هيئات. فاطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما قالوا، قاله الحسن وقتادة.

﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ هذا وعيد خرج مخرج الأمر للتهديد.

﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تُحْذَرُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: مظهر ما تسرون.

والثاني: ناصر من تخذلون.

وَلِينَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ

وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْزِدُونَا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ

نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَاةُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ
وَالْكُفَّارُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

قوله عز وجل ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ يحتل وجهين:
أحدهما: أن بعضهم يجتمع مع بعض على النفاق.
والثاني: أن بعضهم يأخذ نفاقه من بعض. وقال الكلبي: بعضهم على دين
بعض.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ في المنكر والمعروف قولان:
أحدهما: أن المنكر كل ما أنكره العقل من الشرك (٤٦٢)، والمعروف: كل ما
عرفه العقل من الخير.
والثاني: أن المعروف في كتاب الله تعالى كله الإيمان، والمنكر في كتاب الله
تعالى كله الشرك، قاله أبو العالية.

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ فيه أربعة أقاويل:
أحدها: يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، قاله الحسن ومجاهد.
والثاني: يقبضونها عن كل خير، قاله قتادة.
والثالث: يقبضونها عن الجهاد مع النبي ﷺ، قاله بعض المتأخرين.
والرابع: يقبضون أيديهم عن رفعها في الدعاء إلى الله تعالى.
﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تركوا أمره فترك رحمتهم.
قال ابن عباس: كان المنافقون بالمدينة من الرجال ثلاثمائة، ومن النساء
سبعين ومائة امرأة.

(٤٦٢) وهو قول المعتزلة وقد كتب في التعليق على هامش المخطوطة:

«هذا اعتقاد المعتزلة والذي عليه جميع أهل السنة والجماعة أن المنكر ما أنكره الشرع والمعروف ما
عرفه الشرع» اهـ.

وروى مكحول عن أبي الدرداء أنه (٤٦٣) سأل رسول الله ﷺ عن صفة المنافق :
فقال «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا أَوْثَمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ
فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ نَقَضَ، لَا يَأْتِي الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرًا وَلَا يَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا هَجْرًا».

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا
فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةُ آَعْمَلُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

قوله عز وجل ﴿... فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ...﴾ .

قيل بنصيبهم من خيرات الدنيا .

ويحتمل استمتاعهم باتباع شهواتهم .

وفيه وجه ثالث : أنه استمتاعهم بدينهم الذي أصرروا عليه .

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في شهوات الدنيا .

والثاني : في قول الكفر .

وفيه قولان :

أحدهما : أنهم فارس والروم .

والثاني : أنهم بنو اسرائيل (٤٦٤) .

الْمَآيَاتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ
وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

(٤٦٣) هذا الحديث منقطع بين مكحول وأبي الدرداء ويغني عنه حديث أبي هريرة مرفوعاً آية المنافق ثلاث إذا

حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر . رواه البخاري (٨٣/١) ومسلم (٥٩) في الإيمان) الترمذي

(٢٦٣٣) النسائي (١١٧/٨) وفي الباب عن ابن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص .

(٤٦٤) إن أضل الضلال هو الخوض في آيات الله تعالى استخفافاً واستهزاء كما هو حال الكثيرين الذين

يتسبون إلى الإسلام زوراً وبهتاناً .

كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

قوله عز وجل ﴿... وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المساكن الطيبة قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر مبنية بهذه الجواهر .

الثاني : أنها المساكن التي يطيب العيش فيها ، وهو محتمل .

وأما جنات عدن فيها خمسة أوجه :

أحدها : أنها جنات خلود وإقامة ، ومنه سمي المعدن لإقامة جواهره فيه ، ومنه قول الأعشى (٤٦٥) :

فإن تستضيفوا إلى جلمه تضافوا إلى راجح قد عدن

يعني ثابت الحلم . وهذا مروى عن ابن عباس .

والثاني : أن جنات عدن هي جنات كروم وأعناب بالسريانية ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أن عدن اسم لبطنان الجنة أي وسطها ، قاله عبدالله بن مسعود .

والرابع : أن عدن اسم قصر في الجنة ، قاله عبدالله بن عمرو بن العاص والحسن .

(٤٦٥) ديوانه : ١٧ ، ومجاز القرآن (٢٦٤/١) والطبري (٣٥٠/١٤) واللسان «وزن» وفي اللسان «قد وزن» بدلاً من عدن .

وفي الديوان «إلى حكمه» بدلاً من «إلى حكمه» وفي زاد المسير (٤٦٨/٣) «وإن تستضيفوا» وفي الطبري وزاد المسير واللسان وغيرها وإن خلافاً لما هنا «فإن» .

والخامس: أن جنة عدن في السماء العليا لا يدخلها إلا نبي^(٤٦٦) أو صديق أو شهيد أو إمام عدل^(٤٦٧).

وجنة المأوى في السماء الدنيا تأوي إليها أرواح المؤمنين رواه معاذ بن جبل مرفوعاً^(٤٦٨).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ وَايِمَّا لَمَيَّا لُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أما جهاد الكفار فبالسيف وأما جهاد المنافقين ففيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: جهادهم بيده، فإن لم يستطع فبلسانه وقلبه، فإن لم يستطع فليكفه^(٤٦٩) في وجوههم، قاله ابن مسعود.

والثاني: جهادهم باللسان، وجهاد الكفار بالسيف، قاله ابن عباس.

(٤٦٦) وقد روى الطبري (٣٥١/١٤، ٣٥٢) والبخاري في الكبير (٤٠٧/١/٢) والبزار كما في المجمع (٤١٢/١٠) من حديث أبي الدرداء مرفوعاً «إن الله يفتح الذكر في ثلاث ساعات الحديث وفيه ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن وهي داره التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر. . . . ولا يسكن معه من بني آدم غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء». وضعف الحديث الهشمي قائلاً «رواه البزار وفيه زيادة بن محمد وهو ضعيف وضعفه أيضاً الذهبي في الميزان (٣٦١/١) وقال: هذه ألفاظ منكورة لم يأت بها غير زيادة».

(٤٦٧) وقوله هنا إلى إمام عدل ثبت من قول الحسن رواه الطبري (٣٥٤/١٤).

(٤٦٨) أما حديث معاذ فلم أهد إليه وأما الاختلاف في سبب التسمية فقد عقب ابن القيم عليه في حادي الأرواح ص ٨٣ بقوله «والصحيح أن [أي المأوى] اسم من أسماء الجنة» كما قال تعالى «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى» وقال في النار «فإن الجحيم هي المأوى» «ومأواكم النار».

(٤٦٩) أي بوجه عابس منقبض لا انبساط فيه ولا بشر.

والثالث: أن جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، قاله الحسن وقتادة. وكانوا أكثر من يصيب الحدود.

﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: تعجيل الانتقام منهم.

والثاني: ألا يصدق لهم قولاً، ولا يبر لهم قسماً.

قوله عز وجل ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ فيهم ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه الجلاس بن سويد بن الصامت، قال: إن كان ما جاء به محمد حقاً

فنحن شر من الحمير، ثم حلف أنه ما قال، وهذا قول عروة ومجاهد وابن إسحاق.

والثاني: أنه عبدالله بن أبي بن سلول. قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن

الأعز منها الأذل، قاله قتادة.

والثالث: أنهم جماعة من المنافقين قالوا ذلك، قاله الحسن.

﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ يعني ما أنكروه مما قدمنا ذكره تحقيقاً لتكذيبهم فيما

أنكروه وقيل بل هو قولهم إن محمداً ليس بنبي.

﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: كفروا بقلوبهم بعد أن آمنوا بأفواههم.

والثاني: جرى عليهم حكم الكفر بعد أن جرى عليهم حكم الايمان.

﴿وَهُمُومًا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن المنافقين هموا بقتل النبي الذي أنكر عليهم، قاله مجاهد.

والثاني: أنهم هموا بما قالوه ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا

الْأَذَلُّ﴾ وهذا قول قتادة.

والثالث: أنهم هموا بقتل النبي ﷺ، وهذا مروي عن مجاهد أيضاً وقيل إنه

كان ذلك في غزوة تبوك.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ

الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا
كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

قوله عز وجل ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ...﴾ الآية والتي
بعدها نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري^(٤٧٠). وفي سبب نزولها قولان:
أحدهما: أنه كان له مال بالشام خاف هلاكه فنذر أن يتصدق منه، فلما قدم
عليه بخل به، قاله الكلبي.

والثاني: أن مولى لعمر قتل رجلاً لثعلبة فوعد إن أوصل الله الدية إليه أخرج
حق الله تعالى منها، فلما وصلت إليه بخل بحق الله تعالى أن يخرجها، قاله مقاتل.
وقيل إن ثعلبة لما بلغه ما نزل فيه أتى رسول الله ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته
فقال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتَكَ» فجعل يحثي على رأسه التراب.
وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ
وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قوله عز وجل ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ قرىء بضم الجيم وفتحها وفيه وجهان:
أحدهما: أنهما يختلف لفظهما ويتفق معناهما، قاله البصريون.

(٤٧٠) ولم يثبت في ذلك حديث صحيح بل كل ما ورد لم يصح سنده ولا متنه عند التحقيق بعد أن ضعف هذه
الرواية كلاً من الحافظ ابن حجر والبيضاوي والسيوطي وابن حزم والهيتمي وغيرهم فالعجب من ذكر
المفسرين رحمهم الله لهذه القصة بعد عدم ثبوتها وقد جمع أحد الفضلاء ما قيل في هذه القصة وفند
اسانيدها في رسالة بعنوان الشهاب الثاقب في الذب عن الصحابي ثعلبة بن حاطب فراجعها فإنها مهمة
جداً.

والثاني: أن معناهما مختلف، فالجهد بالضم الطاقة، وبالفتح المشقة، قاله بعض الكوفيين.

وقيل: كان ذلك في غزاة تبوك نزلت في عبد الرحمن بن عوف وعاصم بن عدي وأبي عقيل الأراشي^(٤٧١) وسبب ذلك أن رسول الله ﷺ حث على الصدقة ليتجهز للجهاد، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال هذا شطر مالي صدقة، وجاء عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر وقال: إني آجرت نفسي بصاعين فذهبت بأحدهما إلى عيالي وجئت بالآخر صدقة، فقال قوم من المنافقين حضروه: أما عبد الرحمن وعاصم فما أعطيا إلا رياءً، وأما صاع أبي عقيل^(٤٧٢) فالله غني عنه، فنزلت فيهم هذه الآية.

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنهم أظهروا حمدهم واستبطنوا ذمهم.

والثاني: أنهم نسبوا إلى الرياء وأعلنوا الاستهزاء.

﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه ما أوجه^(٤٧٣) عليهم من جزاء الساخرين.

والثاني: بما أمهلهم من المؤاخذه.

قال ابن عباس: وكان هذا في الخروج إلى غزاة تبوك.

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨﴾

قوله عز وجل ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ

(٤٧١) كذا في المطبوعة وهو خطأ والصواب أبو عقيل الإراش واسمه عبد الرحمن الإراش الأنفي ولم يذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٣١/٨) أنه صاحب الصاع ولا فيمن ذكرهم هناك وقد ترجم ابن سعد في الطبقات (٤١/٢/٣) ولم يذكر أنه صاحب الصاع.

(٤٧٢) وقد ذكر الحافظ ابن حجر الاختلاف في تعيين صاحب الصاع وذكر الاختلاف في اسمه في الفتح وقال (٣٣١/٨): وهذا يدل على تعدد من جاء بالصاع.

(٤٧٣) والصواب من القول في ذلك إثبات ذلك على ما يليق بالله تعالى على جهة العدل من غير اشتقاق اسم منها فلا يقال ساخر أو كائد أو مخادع أو ما شابه ذلك والله أعلم.

يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٨١﴾ وهذا على وجه المبالغة في اليأس من المغفرة وإن كان على صيغة الأمر، ومعناه أنك لو طلبتها لهم طلب المأمور بها أو تركتها ترك المنهي عنها لكان سواء في أن الله تعالى لا يغفر لهم.

قوله ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ليس بحد لوقوع المغفرة بعدها، وإنما هو على وجه المبالغة بذكر هذا العدد لأن العرب تبالغ بال سبع وبالسبعين لأن التعديل في نصف العقد وهو خمسة إذا زيد عليه واحد كان لأدنى المبالغة، وإذا زيد عليه اثنان كان لأقصى المبالغة، ولذلك (٤٧٤) قالوا للأسد سبع أي قد ضوعفت قوته سبع مرات، وهذا ذكره علي بن عيسى.

وحكى (٤٧٥) مجاهد وقتادة (٤٧٦) أن النبي ﷺ قال «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» فأنزل الله تعالى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فكف.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨٢﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨١﴾

قوله عز وجل ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي المتروكون.

﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني مخالفة رسول الله ﷺ وهذا قول الأكثرين.

والثاني: معناه بعد رسول الله ﷺ، قاله أبو عبيدة وأنشد (٤٧٧).

(٤٧٤) قال ابن الجوزي رحمه الله في زاد المسير (٤٧٧/٣): «فإن قيل كيف جاز أن يستغفر لهم وقد أخبر بأنهم كفروا فالجواب أنه إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم من غير أن يتحقق خروجهم عن الإسلام ولا يجوز أن يقال علم كفرهم ثم استغفر.

(٤٧٥) رواه الطبري (٣٩٦/١٤).

(٤٧٦) رواه عبد بن حميد كما في الفتح (٣٣٥/٨) وروى الطبري (٣٩٥/١٤) وابن أبي حاتم كما في الفتح

(٢٣٥/٨) عن عروة بن الزبير مثله وقال الحافظ ابن حجر عن أثر مجاهد وقتادة وعروة وهذه طرق وإن

كانت مراسيل فإن بعضها يعضد بعضاً.

(٤٧٧) هو الحارث بن خالد المخزومي.

عفت الديار خلافتهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيراً
أي بعدهم.

﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: هذا قول بعضهم لبعض حين قعدوا.

والثاني: أنهم قالوه للمؤمنين ليقعدوا معهم. وهؤلاء المخلفون عن النبي ﷺ في غزاة تبوك وكانوا أربعة وثمانين نفساً.

قوله عز وجل ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً﴾ هذا تهديد وإن خرج مخرج الأمر، وفي قلة ضحكهم وجهان:

أحدهما: أن الضحك في الدنيا لكثرة حزنها وهمومها قليل، وضحكهم فيها أقل لما يتوجه إليهم من الوعيد.

الثاني: أن الضحك في الدنيا وإن دام إلى الموت قليل، لأن الفاني قليل.
﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ فيه وجهان:

أحدهما: في الآخرة لأنه يوم مقداره خمسون ألف سنة، وهم فيه يبكون، فصار بكائهم كثيراً، وهذا معنى قول الربيع بن خيثم.

الثاني: في النار على التأبيد لأنهم إذا مسهم العذاب بكوا من ألمه، وهذا قول السدي.

ويحتمل أن يريد بالضحك السرور، وبالبكاء الغم.

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ
أَبَدًا وَلَنْ نُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ

الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

= وقع في نسخة أخرى للمخطوطة عقب الربيع وهو الصواب وقد أورده هكذا الطبري (٣٩٨/١٤)
واللسان (عقب) (خلف) ومجاز القرآن لأبي عبيدة وقد أورده صاحب الاغانى (٣٣٦/٣) بلفظ عقب
الرداذ والرداذ هو صغار المطر وأما قوله هنا عقب الديار فقد وقعت هذه الرواية للبيت في القرطبي

() .

قوله عز وجل ﴿... إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فيه قولان:
أحدهما: أول مرة دعيتم.

الثاني: يعني قبل استئذانكم.

﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ فيهم قولان:

أحدهما: أنهم النساء والصبيان، قاله الحسن وقتادة.

الثاني: هم الرجال الذين تخلفوا بأعذار وأمراض، قاله ابن عباس.

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾

قوله عز وجل ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ لما احتضر عبدالله بن أبي بن سلول أتى ابنه النبي ﷺ فسأله أن يصلي عليه وأن يعطيه قميصه ليكفن فيه فأعطاه إياه وهو عرق فكفنه فيه وحضره، فقليل إنه أدركه حياً، فقال النبي ﷺ «أَهْلَكَهُمُ الْيَهُودُ» فقال: يا رسول الله لا تؤنّبني واستغفري لي، فلما مات ألبسه قميصه وأراد الصلاة عليه فجذبه عمر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله أليس الله قد نهاك عن الصلاة عليهم؟ فقال: يا عمر خيرني ربي فقال: «أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» لأزيدن على السبعين. فصلى عليه (٤٧٨). فنزلت ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ الآية، فما صلى بعدها على منافق، وهذا قول ابن عباس وابن عمر (٤٨٠) وجابر (٤٨١) وقتادة.

(٤٧٨) قال الحافظ في الفتح (٣٣٦/٨): «وقد قال بعض أهل الحديث تصحيح إسلام عبدالله بن أبي لكون النبي ﷺ صلى عليه وذهل عن الوارد من الآيات والأحاديث المصرحة في حقه بما ينافي ذلك ولم يقف على جواب شاف في ذلك فأقدم على الدعوى المذكورة وهو محجوج بإجماع من قبله على نقيض ما قال. وإطباقهم على ترك ذكره في كتب الصحابة مع شهرته وذكر من هو دونه في الشرف والشهرة بأضعاف مضاعفة أهـ».

(٤٧٩) رواه الطبري (٤٠٨/١٤) واللفظ له والبخاري (٣٣٣/٨).

(٤٨٠) رواه البخاري (٣٣٧/٨) ومسلم (١٢١/١٧) والطبري (٤٠٦/١٤) وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي والدلائل كما في الدر (٤/) .

(٤٨١) رواه البزار () والطبري (٤٠٧/١٤) وفي سنده مجالد بن سعيد وهو ليس بالقوي ولكن الحديث له شواهد ولهذا قال الحافظ ابن كثير. (٣٧٩/٢): «إسناده لا بأس به وما قبله شاهد له».

وقال أنس بن مالك^(٤٨٢): أراد أن يصلي عليه فأخذ جبريل بثوبه وقال ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾.

﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ يعني قيام زائر ومستغفر.

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ ﴿٨٧﴾

قوله عز وجل ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: يعذبهم بحفظها في الدنيا والإشفاق عليها.

والثاني: يعذبهم بما يلحقهم منها من النوائب والمصائب.

والثالث: يعذبهم في الآخرة بما صنعوا بها في الدنيا عند كسبها وعند إنفاقها.

وحكى ابن الأنباري وجهاً رابعاً: أنه على التقديم والتأخير، وتقديره: ولا

تعجبك أموالهم وأولادهم في الدنيا إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الآخرة.

قوله عز وجل ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: استديموا الإيمان بالله.

والثاني: افعلوا فعل من آمن بالله.

والثالث: آمنوا بقلوبكم كما آمنتم بأفواهكم، ويكون خطاباً للمنافقين.

﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أهل الغنى، قاله ابن عباس وقتادة.

والثاني: أهل القدرة. وقال محمد بن إسحاق. نزلت في عبدالله بن أبي بن

سلول والجد بن قيس.

قوله عز وجل ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

(٤٨٢) رواه الطبري (٤٠٧/١٤) وفي سنده يزيد الرقاشي وهو ضعيف متروك.

أحدها: مع المنافقين، قاله مقاتل.

والثاني: أنهم خسّاس الناس وأدناهم مأخوذ من قولهم فلان خالفه أهله إذا كان دونهم، قاله ابن قتيبة.

والثالث: أنهم النساء، قاله قتادة والكلبي.

لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
وَأَوْلِيَّائِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

قوله عز وجل ﴿وَأَوْلِيَّائِهِمْ﴾ وهم جمع خيرة، وفيها أربعة أوجه:
أحدها: أنها غنائم الدنيا ومنافع الجهاد.

والثاني: فواضل العطايا.

والثالث: ثواب الآخرة.

والرابع: حُور الجنان، من قوله تعالى ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن:

٢٧٠].

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى
الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى
الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلْتَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحْضِرُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا
وَأَعْيَنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا
السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ
الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

قوله عز وجل ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أنهم المعتذرون بحق اعتذروا به فعدروا، قاله ابن عباس وتأويل قراءة من قرأها بالتخفيف (٤٨٣).

والثاني: هم المقصرون المعتذرون بالكذب، قاله الحسن وتأويل من قرأها بالتشديد، لأنه إذا خفف مأخوذ من العذر، وإذا شدد مأخوذ من التعذير، والفرق بينهما أن العذر حق والعذير كذب.

وقيل إنهم بنو أسد وغطفان.

قوله عز وجل ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ الآية. وفي الضعفاء ها هنا ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم الصغار لضعف أبدانهم.

الثاني: المجانين لضعف عقولهم.

الثالث: العميان لضعف بصرهم. كما قيل في تأويل قوله تعالى في شعيب ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١] أي ضريراً.

﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: إذا برئوا من النفاق.

الثاني: إذا قاموا بحفظ المخلفين من الذراري والمنازل.

فإن قيل بالتأويل الأول كان راجعاً إلى جميع من تقدم ذكره من الضعفاء والمرضى الذين لا يجدون ما ينفقون.

وإن قيل بالتأويل الثاني كان راجعاً إلى الذين لا يجدون ما ينفقون خاصة.

وقيل إنها نزلت في عائذ بن عمرو وعبدالله بن مُعَقَّل.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه لم يجد لهم زاداً لأنهم طلبوا ما يتزودون به، قاله أنس بن مالك.

والثاني: أنه لم يجد لهم نعالاً لأنهم طلبوا النعال، قاله الحسن.

(٤٨٣) وهي قراءة ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن يعمر ويعقوب وقرأ ابن مسعود المعتذرون وفيها قراءة أخرى هي «المعاذرون» بألف وهي قراءة ابن السميع راجع زاد المسير (٣/٤٨٣).

روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال في هذه الغزاة وهي تبوك «أَكْثَرُوا» (٤٨٤) مِنْ النَّعَالِ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَزَالُ رَاكِبًا مَا كَانَ مُتَّعِلًا».

وفيمن نزلت فيه خمسة أقاويل:

أحدها: في العرياض بن سارية، قاله يحيى بن أبي المطاع (٤٨٥).

والثاني: في عبدالله بن الأزرق وأبي ليلي (٤٨٦)، قاله السدي.

والثالث: في بني مقرن من مُزينة، قاله مجاهد.

والرابع: في سبعة من قبائل شتى، قاله محمد بن كعب.

والخامس: في أبي موسى وأصحابه، قاله الحسن.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤) ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٥) ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٦)

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ﴾ في السبيل

هاهنا وجهان:

أحدهما: الإنكار.

الثاني: الإثم.

(٤٨٤) أخرجه مسلم (٣/١٦٦٠) وأبو داود (٤١٣٣) وأحمد (٣/٣٣٧، ٣٦٠) والخطيب في التاريخ (٤٢٥/٣).

ومعناه أنه شبيه بالراكب في خفة المشقة عليه وقلة تعب وسلامة رجله مما يعرض في الطريق من خشونة وشوك وأذى ونحو ذلك «هامش صحيح مسلم».

(٤٨٥) هو يحيى بن أبي المطاع القرشي الأردني ابن أخت بلال ثقة معروف روى عن العرياض بن سارية وغيره تهذيب التهذيب (١١/٢٤٥، ٢٤٦).

(٤٨٦) هو عبد الرحمن بن كعب كما في زاد المسير (٣/٢٨٦).

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُوكَ﴾ يعني في التخلف عن الجهاد. ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ يعني بالمال والقدرة.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ فيه وجهان:
أحدهما: أنهم الذراري من النساء والأطفال.
الثاني: أنهم المتخلفون بالنفاق.

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ يُنْفِقُونَ رِزْقَهُمْ هَاهُنَا وَمِنْ هُنَا لَمَّا يَنْفِقُوا مِنْهُ لَمْ يَقْتَرِحُوا يُرِيدُوا وُجْهَ رَبِّهِمْ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٩٩﴾

قوله عز وجل: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون الكفر والنفاق فيهم أكثر منه في غيرهم لقلة تلاوتهم القرآن وسماعهم السنن.
الثاني: أن الكفر والنفاق فيهم أشد وأغلظ منه في غيرهم لأنهم أجف طباعاً وأغلظ قلوباً.

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ ومعنى أجدر أي أقرب، مأخوذ من الجدار الذي يكون بين مسكني المتجاورين.

وفي المراد بحدود الله ما أنزل الله وجهان:
أحدهما: فروض العبادات المشروعة.

الثاني: الوعد والوعيد في مخالفة الرسول ﷺ والتخلف عن الجهاد.
قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ فيه وجهان:
أحدهما: ما يدفع من الصدقات.

الثاني : ما ينفق في الجهاد مع الرسول ﷺ مغرمًا، والمغرم التزام ما لا يلزم، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان : ٦٥] أي لازمًا، قال الشاعر:

فَمَا لَكَ مَسْلُوبُ الْعِزِّ كَأَنَّمَا تَرَى هَجْرَ لَيْلَى مَغْرَمًا أَنْتَ غَارِمُهُ
﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدُّوَاتِرُ﴾ جمع دائرة وهي انقلاب النعمة إلى ضدها، مأخوذة من الدور ويحتمل تربصهم الدوائر وجهين:

أحدهما: في إعلان الكفر والعصيان.

والثاني: في انتهاز الفرصة بالانتقام.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ رد لما أضمر واوجزاء لما مكروا.

قوله عز وجل ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة.

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنها تقربة من طاعة الله ورضاه.

الثاني: أن ثوابها مذكور لهم عند الله تعالى فصارت قربات عند الله ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أنه استغفاره لهم، قاله ابن عباس.

الثاني: دعاؤه لهم، قاله قتادة.

﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون راجعاً إلى إيمانهم ونفقتهم أنها قربة لهم.

الثاني: إلى صلوات الرسول أنها قربة لهم.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ فيهم أربعة

أقاول:

أحدها: أنهم الذين صلّوا إلى القبليتين مع رسول الله ﷺ ، قاله أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب .

الثاني: أنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، قاله الشعبي وابن سيرين .

الثالث: أنهم أهل بدر، قاله عطاء .

الرابع: أنهم السابقون بالموت والشهادة من المهاجرين والأنصار سبقوا إلى ثواب الله تعالى وحسن جزائه .

ويحتمل خامساً (٤٨٨): أن يكون السابقون الأولون من المهاجرين هم الذين آمنوا بمكة قبل هجرة رسول الله ﷺ عنهم، والسابقون الأولون من الأنصار هم الذين آمنوا برسول الله ﷺ ورسوله قبل هجرته إليهم (٤٨٩) .

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: من الإيمان .

الثاني: من الأفعال الحسنة .

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: رضي الله عنهم بالإيمان، ورضوا عنه بالثواب، قاله ابن بحر .

الثاني: رضي الله عنهم في العبادة، ورضوا عنه بالجزاء، حكاه علي بن

عيسى .

الثالث: رضي الله عنهم بطاعة الرسول ﷺ، ورضوا عنه بالقبول .

(٤٨٧) كذا في المطبوعة والذي في الدر (٢٦٩/٤) قاله ابن سيرين هم الذين يصلون القبليتين جميعاً وهم أهل بدر، ونسبه لابن المنذر وأبي نعيم .

(٤٨٨) وهذا القول ذكره أبو يعلى كما في زاد المسير (٤٩١/٣) .

(٤٨٩) قال الشوكاني رحمه الله في فتح القدير (٣٩٨/٢) . وفي الآية تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلّوا القبليتين في قول سعيد بن المسيب وطائفة أو الذين شهدوا بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية في قول الشعبي أو أهل بدر في قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها قال أبو منصور البغدادي أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ثم الستة الباقيون ثم البديرون ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية اهـ .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّو أَعْلَى
الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ يعني حوله المدينة: قال ابن عباس: مزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع كان فيهم بعد إسلامهم منافقون كما كان من الأنصار لدخول جميعهم تحت القدرة فتميزوا بالنفاق وإن عمتهم الطاعة.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّو أَعْلَى الْإِنْفَاقِ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أقاموا عليه ولم يتوبوا منه، قاله عبد الرحمن بن زيد.

الثاني: مردوا عليه أي عتوا فيه، ومنه قوله عز وجل ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

الثالث: تجردوا فيه فظاهروا به، مأخوذ منه تجرد خد (٤٩٠) الأمرد لظهوره وهو محتمل.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لا تعلمهم حتى نعلمك بهم.

الثاني: لا تعلم أنت عاقبة أمورهم وإنما نختص نحن بعملها، وهذا يمنع أن يحكم على أحد بجنة أو نار.

﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: أن أحد العذابين الفضيحة في الدنيا والجزع من المسلمين، والآخر عذاب القبر، قاله ابن عباس (٤٩١).

(٤٩٠) قال الشوكاني رحمه الله في فتح القدير (٣٩٨/٢). وأصل مرد وتمرد اللين والملاسة والتجرد فكانهم تجردوا للنفاق ومنه غصن أمرد لا ورق عليه وفرس أمرد لا شعر فيه وغلأم أمرد لا شعر بوجهه وأرض مرداء لا نبات فيها وصرح مجرد فالمعنى أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينشئوا عنه.

قلت وإنما سمي الشيطان مارداً لأنه عرى عن كل خير ومعروف.

(٤٩١) وهذا الذي ذكره المؤلف هنا معنى قول ابن عباس ولم يصح عنه فقد رواه الطبري (٤٤١/١٤) والطبراني كما في مجمع الزوائد (٣٣/٧) وقال الهيثمي. فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي وهو =

والثاني: أن أحدهما عذاب الدنيا والآخر عذاب الآخرة، قاله قتادة.

والثالث: أن أحدهما الأسر والآخر القتل، قاله ابن قتيبة.

والرابع: أن أحدهما الزكاة التي تؤخذ منهم والآخر الجهاد الذي يؤمرون به لأنهم بالنفاق يرون ذلك عذاباً. قاله الحسن.

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه عذاب النار في الآخرة.

الثاني: أنه إقامة الحدود في الدنيا.

الثالث: إنه أخذ الزكاة منهم.

وَأَخْرَوْنَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَخْرَوْنَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ فيهم قولان:

أحدهما: أنهم سبعة من الأنصار منهم أبو لبابة بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعه بن حزام، كانوا من جملة العشرة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزاة تبوك، فربطوا أنفسهم لما ندموا على تأخرهم إلى سوارى المسجد ليطلقهم رسول الله ﷺ إن عفا عنهم، فلما عاد رسول الله ﷺ مر بهم وكانوا على طريقة فسأل عنهم فأخبر بحالهم فقال: «لَا أَعْذِرُهُمْ وَلَا أَطْلُقُهُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي يَعْذِرُهُمْ وَيُطْلِقُهُمْ» فنزلت هذه الآية (٤٩٢) فيهم فأطلقهم، وهذا قول ابن عباس.

الثاني: أنه أبو لبابة وحده قال لبني قريظة حين أرادوا النزول على حكم النبي ﷺ إنه ذابحكم إن نزلتم على حكمه، قاله مجاهد.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ فيه ثلاثة أوجه:

= ضعيف. قلت ولابن عباس قول آخر هو أن إحدى المرتين الحدود والأخرى عذاب القبر لكن الطبري عقب على هذا القول بقوله (١٤/٤٤٤). ذكر ذلك عن ابن عباس من وجه غير مرتضى.

(٤٩٢) رواه الطبري (١٤/٤٤٧ - ٤٤٨) وزاد نسبه السيوطي في الدر (٤/٢٧٥) لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وفي سنده انقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس ورواه الطبري (١٤/٤٤٨) من طريق أخرى عن ابن عباس وهي سلسلة بالضعفاء.

أحدها: أن الصالح: الجهاد، والسيىء: التأخر عنه، قاله السدي.

الثاني: أن السيىء: الذنب، والصالح: التوبة، قاله بعض التابعين.

الثالث: ما قاله الحسن: ذنباً وسوطاً لا ذهاباً فروطاً، ولا ساقطاً سقوطاً (٤٩٣).

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ
لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ
وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ
عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ قال ابن عباس: لما نزل في أبي لبابة
وأصحابه ﴿وَأَخْرُونا أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية. ثم تاب عليهم قالوا يا رسول الله خذ
منا صدقة أموالنا لتطهرنا وتزكينا، قال: لا أفعل حتى أؤمر. فأنزل الله تعالى ﴿خُذْ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وفيها وجهان:

أحدهما: أنها الصدقة التي بذلوها من أموالهم تطوعاً، قاله ابن زيد.
والثاني: أنها الزكاة التي أوجبها الله تعالى في أموالهم فرضاً، قاله عكرمة.
ولذلك قال: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ لأن الزكاة لا تجب في الأموال كلها وإنما تجب في
بعضها.

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي تطهر ذنوبهم وتزكي أعمالهم.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: استغفر لهم: قاله ابن عباس.

الثاني: ادع لهم، قاله السدي.

﴿إِنْ صَلَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ فيه خمسة تأويلات:

(٤٩٣) قال الحافظ ابن كثير (٢/٣٨٥) وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين
الخطائين المخطئين المتلوثين.

أحدها: قربة لهم، قاله ابن عباس في رواية الضحاك.

الثاني: رحمة لهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس أيضاً.

الثالث: وقار لهم، قاله قتادة.

الرابع: تثبت لهم، قاله ابن قتيبة.

الخامس: أمن لهم، ومنه قول الشاعر:

يَا جَارَةَ الْحَيِّ كُنْتُ لِي سَكَنًا إِذْ لَيْسَ بَعْضُ الْجِيرَانِ بِالسَّكَنِ

وفي الصلاة عليهم والدعاء لهم عند أخذ الصدقة منهم ستة أوجه:

أحدها: يجب على الآخذ الدعاء للمعطي اعتباراً بظاهر الأمر.

الثاني: لا يجب ولكن يستحب لأن جزاءها على الله تعالى لا على الآخذ.

والثالث: إن كانت تطوعاً وجب على الآخذ الدعاء، وإن كانت فرضاً استحب

ولم يجب.

والرابع: إن كان آخذها الوالي استحب له الدعاء ولم يجب عليه، وإن كان

آخذها الفقير وجب عليه الدعاء له، لأن الحق في دفعها إلى الوالي معين، وإلى

الفقير غير معين.

والخامس: إن كان آخذها الوالي وجب، وإن كان الفقير استحب ولم يجب.

لأنه دفعها إلى الوالي إظهار طاعة فقوليل عليها بالشكر وليس كذلك الفقير.

والسادس: إن سأل الدافع الدعاء وجب، وإن لم يسأل استحب ولم يجب

روى عبدالله بن أبي أوفى (٤٩٤) قال: أتيت النبي ﷺ بصدقات قومي فقلت يا رسول

الله صل عليّ، فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى».

وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَائِعِدْهُمْ وَإِمَائِتُوبُ عَلَيْهِمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ (١٠٦)

قوله عز وجل: ﴿وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ وهم الثلاثة الباقون من العشرة

المتأخرين عن رسول الله ﷺ في غزاة تبوك ولم يربطوا أنفسهم مع أبي لبابة، وهم

هلال بن أمية، ومرة بن الربيع، وكعب بن مالك.

(٤٩٤) رواه البخاري (٢٨٦/٣) وأبو داود ١٥٩٠ والنسائي (٣١/٥) وأحمد (٣٥٢/٤).

﴿مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي مؤخرون موقوفون لما يرد من أمر الله تعالى فيهم .
﴿إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يميتهم على حالهم ، قاله السدي .
الثاني : يأمر بعذابهم إذا لم يعلم صحة توبتهم .
﴿وَأَمَّا يُتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يعلم صدق توبتهم فيطهر ما فيهم .
الثاني : أن يعفو عنهم ويصفح عن ذنوبهم .
﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بما يؤول إليه حالهم ، حكيم فيما فعله من إرجائهم .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَارْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِّلْمَسْجِدِ أُسُسٌ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ
مِّنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا
الْمُطَهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ هؤلاء هم بنو عمرو بن عوف وهم اثنا عشر رجلاً من الأنصار المنافقين ، وقيل : هم خدام بن خالد ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، وثعلبة بن حاطب ، ومُعْتَبٌ بن قشير ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف ، وجارية بن عامر ، وابناه مُجَمِّع وزيد ابنا جارية ، ونبتل بن الحارث ، وبيجاد بن عثمان ، ووديعه بن ثابت ، وبُحْرَج (٤٩٥) وهو جد عبد الله بن حنيف ، وله قال النبي ﷺ : «وَيْلَكَ يَا بُحْرَجُ (٤٩٦) مَاذَا أَرَدْتَ بِمَا أَرَى؟»

(٤٩٥) كذا هنا وفي المطبوعة وهو خطأ وتحريف والصواب بحرج والتصويب من الطبري (٤٧١/١٤) وغيره .
(٤٩٦) كذا في المطبوعة والصواب سبق في التعليق السابق .

فقال يا رسول الله ما أردت إلا الحسنى، وهو كاذب، فصدقه، فبنى هؤلاء مسجد الشقاق والنفاق قريباً من مسجد قباء.

﴿ضُرَّارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني ضراراً، وكفراً بالله، وتفريقاً بين المؤمنين أن لا يجتمعوا كلهم في مسجد قباء فتجتمع كلمتهم، ويتفرقوا فتتفرق كلمتهم، ويختلفوا بعد ائلافهم.

﴿وَارْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..﴾ وفي الإرصاء وجهان:

أحدهما: أنه انتظار سوء يتوقع.

الثاني: الحفظ المقرون بفعل.

وفي محاربة الله تعالى ورسوله وجهان:

أحدهما: مخالفتهما.

الثاني: عداوتهما. والمراد بهذا الخطاب أبو عامر الراهب والد حنظلة بن الراهب كان قد حَزَبَ على رسول الله ﷺ، ثم خاف فهرب إلى الروم وتنصر واستنجد هرقل على رسول الله ﷺ. فبنوا هذا المسجد له حتى إذا عاد من هرقل صلى فيه، وكانوا يعتقدون أنه إذا صلى فيه نُصِرَ، وكانوا ابتدأوا بنيانه ورسول الله ﷺ خارج إلى تبوك، فسألوه أن يصلي لهم فيه فقال (٤٩٧): «أَنَا عَلَى سَفَرٍ وَلَوْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَتَيْنَاكُمْ وَصَلَيْنَا لَكُمْ فِيهِ». فلما قدم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد، وقالوا قد فرغنا منه، فأتاه خبر المسجد وأنزل الله تعالى فيه ما أنزل.

وحكى مقاتل أن الذي أمهم فيه مجمع بن جارية وكان قارئاً، ثم حسن إسلامه بعد ذلك فبعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الكوفة يعلمهم القرآن، وهو علم ابن مسعود بقية القرآن.

﴿.. وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: طاعة الله تعالى.

والثاني: الجنة.

(٤٩٧) رواه ابن مردويه وابن إسحق في السيرة عن أبي رهم كلثوم بن العين الغفاري وهو من أصحاب بيعة الرضوان كما في الدر (٢٨٦/٤) وساقه الطبري عن غيره مطولاً (٤٦٨/١٤).

والثالث: فعل التي هي أحسن، من إقامة الدين والجماعة والصلاة، وهي يمين تحرّج.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: والله يعلم إنهم لكاذبون في قولهم خائنون في إيمانهم.
والثاني: والله يعلمك أنهم لكاذبون خائنون. فصار إعلامه له كالشهادة منه عليهم.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي لاتصلّ فيه أبداً، يعني مسجد الشقاق والنفاق فعند ذلك أنفذ رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم وعاصم بن عدي فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه (٤٩٨). فذهبا إليه وأخذوا سقفاً وحرّقه. وقال ابن جريج: بل آنهار المسجد في يوم الاثنين ولم يُحرّق.

﴿لَمَسْجِدَ أُسَسِّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ وفيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، قاله أبو سعيد الخدري ورواه مرفوعاً (٤٩٩).

الثاني: أنه مسجد قباء، (٥٠٠) قاله الضحاك وهو أول مسجد بني في الإسلام، قاله ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبيرة وقتادة والضحاك.

(٤٩٨) انظر التعليق السابق.

(٤٩٩) رواه مسلم (١٠١٥/٢) وأحمد (٢٤/٣) عن أبي سعيد الخدري وقال الهيثمي في المجمع (٣٤/٧) رواه كله أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح قلت ورواه الطبري (٤٧٩/٨٤) وأحمد (٣٣١/٥) من حديث سهل بن سعد.

(٥٠٠) لكن قال الشوكاني في فتح القدير (٤٠٥/٢) «ولا يخفأك أن النبي ﷺ قد عين هذا المسجد الذي أسس على التقوى وجزم بأنه مسجده صلى الله عليه وآله وسلم كما قدّمنا من الأحاديث الصحيحة فلا يقام ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ولا غيرهم ولا يصح لإيراده في مقابلة ما قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أنه ورد في فضائل مسجده صلى الله عليه وآله وسلم أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء بلا شك ولا شبهة تعمّ - ثم ساق أحاديث في فضل مسجد قباء ثم قال: - ولا يخفأك أن بعض هذه الأحاديث ليس فيها تعيين مسجد قباء وأهله وبعضها ضعيف وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء وعلى كل حال لا تقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صحتها وصراحتها.

الثالث: أنه كل مسجد بني في المدينة أسس على التقوى، قاله محمد بن كعب ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: من المسجد الذي أسس على التقوى رجال يحبون أن يتطهروا من الذنوب والله يحب المتطهرين منها بالتوبة، قاله أبو العالية.

والثاني: فيه رجال يحبون أن يتطهروا من البول والغائط بالاستنجاء بالماء، والله يحب المتطهرين بذلك.

روى (٥٠١) أبو أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن النبي ﷺ قال للأنصار عند نزول هذه الآية: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَتْنِي عَلَيْكُمْ خَيْرًا فِي الطَّهْوَرِ فَمَا طَهَّوْرُكُمْ هَذَا» قالوا: يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة، فقال رسول الله ﷺ «فَهَلْ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُهُ؟» قالوا لا، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحب أن يستنجي بالماء، فقال «هُوَ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْوهُ»

الثالث: أنه عني المتطهرين عن إتيان النساء في أدبارهن، وهو مجهول، قاله مجاهد.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾ يعني مسجد قباء والألف من ﴿أَفَمَنْ﴾ ألف إنكار.

ويحتمل قوله ﴿عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ وجهين:

(٥٠١) رواه ابن ماجه (٣٥٥) وزاد السيوطي نسبه في الدر (٢٨٩/٤) للدارقطني والحاكم (٣٣٤/٢) وصححه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن جارود في المنتقى وابن مردويه وابن عساكر وفي الحديث علتان الأولى عتية بن أبي حكيم وضعفه غير واحد وانقطاع بين طلحة وأبي أيوب فإن الأول لم يدرك الثاني وأشار إلى ذلك البوصيري في الزوائد. قلت: وما سبق يرد تصحيح الحاكم رحمه الله.

أحدهما: أن التقوى اجتناب معاصيه، والرضوان فعل طاعته.

الثاني: أن التقوى اتقاء عذابه، والرضوان طلب ثوابه.

وكان عمر بن شبة يحمل قوله تعالى ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ على مسجد المدينة، ويحتمل ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ على مسجد قباء، فيفرق بين المراد بهما في الموضعين.

﴿أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ يعني شفير جرف وهو حرف الوادي الذي لا يثبت عليه البناء لرخاوته وأكل الماء له ﴿هَارٍ﴾ يعني هائر، والهائر: الساقط. وهذا مثل ضربه الله تعالى لمسجد الضرار.

ويحتمل المقصود بضرب هذا المثل وجهين:

أحدهما: أنه لم يبق بناؤهم الذي أسس على غير طاعة الله حتى سقط كما يسقط ما بني على حرف الوادي.

الثاني: أنه لم يخف ما أسروه من بنائه حتى ظهر كما يظهر فساد ما بني على حرف الوادي بالسقوط.

﴿فَأَنهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنهم ببنيانهم له سقطوا في نار جهنم.

الثاني: أن بقعة المسجد مع بنائها وبُناتها سقطت في نار جهنم، قاله قتادة والسدي.

قال قتادة: ذكر لنا أنه حفرت منه بقعة فرئي فيها الدخان وقال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار^(٥٠٢) حين انهار.

قوله عز وجل ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ يعني مسجد الضرار.

﴿رِيَّةٍ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن الرية فيها عند بنائه.

الثاني: أن الرية عند هدمه.

(٥٠٢) رواه ابن جرير (٤٩٣/١٤) والحاكم (٥٩٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي وزاد السيوطي في الدر (٢٩٢/٤) نسبه لمسدد وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه وإسناد الأثر صحيح.

فإن قيل بالأول ففي الريبة التي في قلوبهم وجهان:
أحدهما: غطاء على قلوبهم^(٥٠٣)، قاله حبيب بن أبي ثابت.
الثاني: أنه شك في قلوبهم، قاله ابن عباس وقتادة والضحاك، ومنه قول النابغة
الذبياني^(٥٠٤).
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وليس وراء الله للمرء مذهب
ويحتمل وجهاً ثالثاً: أن تكون الريبة ما أضمره من الإضرار برسول الله ﷺ
والمؤمنين.

وإن قيل بالثاني أن الريبة بعد هدمه ففيها وجهان:
أحدهما: أنها حزاظة في قلوبهم، قاله السدي.
الثاني: ندامة في قلوبهم، قاله حمزة.
ويحتمل وجهاً ثالثاً: أن تكون الريبة الخوف من رسول الله ﷺ ومن المؤمنين.
﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:
أحدها: إلا أن يموتوا، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك.
الثاني: إلا أن يتوبوا، قاله سفيان.
والثالث: إلا أن تقطع قلوبهم في قبورهم، قاله عكرمة. وكان أصحاب ابن
مسعود يقرأونها: ﴿وَلَوْ تَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ
يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّ عَلَيْهِ حَقًّا فِي

(٥٠٣) كذا في المطبوعة والذي في الطبري (٤٩٦/١٤) والدر المشور (٢٩٣/٤) وفتح القدير (٤٠٧/٢)
«غظاً من قلوبهم».

فلا أدري هذه الرواية التي أوردها المؤلف عن من هي. ولعله أوردها بالمعنى كعادته في كثير من
النقول.

(٥٠٤) ديوانه: ٧٢.

وهي قصيدة مدح واعتذار يمدح فيها النعمان بن المنذر ويعتذر له ومطلعها:
أتساني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب

التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَالْقُرْآنَ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

قوله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ اشترى
أنفسهم بالجهاد، ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: نفقاتهم في الجهاد.

والثاني: صدقاتهم على الفقراء.

﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ قال سعيد بن جبیر: يعني الجنة. وهذا الكلام مجاز معناه أن
الله تعالى أمرهم بالجهاد بأنفسهم وأموالهم ليجازيهم بالجنة، فغير عنه بالشراء لما فيه
من عوض ومعوض مضار في معناه، ولأن حقيقة الشراء لما لا يملكه المشتري.
﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن الثواب على الجهاد إنما يستحق إذا كان في
طاعته ولوجهه.

﴿فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ يعني أن الجنة عوض عن جهادهم سواء قتلوا أو قُتِلُوا.
فروى جابر بن عبد الله الأنصاري^(٥٠٥) أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ وهو في
المسجد فكبر الناس، فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرف رداءه على أحد عاتقيه فقال:
يا رسول الله أنزلت هذه الآية؟ فقال: نعم، فقال الأنصاري: بيع ربيع لا نقبل ولا
نستقبل.

وقال بعض الزهاد: لأنه اشترى الأنفس الفانية بالجنة الباقية.

التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُتَّحِقُونَ الرَّاكِعُونَ
السَّاجِدُونَ لِأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيهِ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

قوله عز وجل ﴿التَّائِبُونَ﴾ يعني من الذنوب.

(٥٠٥) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر (٢٩٤/٤) وروى نحوه، ابن جرير (٤٩٩/١٤) عن
محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا قال عبد الله بن رواحة... الحديث.

ويحتمل أن يراد بهم الراجعون إلى الله تعالى في فعل ما أمر واجتناب ما حظر لأنها صفة مبالغة في المدح، والتائب هو الراجع، والراجع إلى الطاعة أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين.

﴿الْعَابِدُونَ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: العابدون بتوحيد الله تعالى، قاله سعيد بن جبير.

والثاني: العابدون بطول الصلاة، قاله الحسن.

والثالث: العابدون بطاعة الله تعالى، قاله الضحاك.

﴿الْحَامِدُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: الحامدون لله تعالى على دين الإسلام، قاله الحسن.

الثاني: الحامدون لله تعالى على السراء والضراء، رواه سهل بن كثير.

﴿السَّائِحُونَ﴾ فيه أربعة تأويلات:

أحدها: المجاهدون روى أبو أمامة أن رجلاً استأذن رسول الله ﷺ وفي

السياحة فقال: «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٥٠٦).

والثاني: الصائمون، وهو قول ابن مسعود وابن عباس، وروى أبو هريرة مرفوعاً

عن النبي ﷺ أنه قال: «سِيَاحَةُ أُمَّتِي الصَّوْمُ» (٥٠٧).

الثالث: المهاجرون، قاله عبد الرحمن بن زيد.

الرابع: هم طلبة العلم، قاله عكرمة.

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ يعني في الصلاة.

﴿الْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: بالتوحيد، قاله سعيد بن جبير.

(٥٠٦) رواه الحاكم (٧٣/٢) وصححه ووافقه الذهبي وزاد السيوطي. نسبته في الدر (٢٩٨/٤) لابن أبي حاتم الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان.

(٥٠٧) رواه ابن جرير (٥٠٣/١٤) وزاد السيوطي في الدر (٢٩٧/٤) نسبته للفريابي ومسدد والبيهقي في الشعب ثم رواه ابن جرير (٥٠٣/١٤) موقوفاً.

ورواه (٥٠٢/١٤) مرسلًا عن عبيد بن عمير سئل رسول الله ﷺ عن السائحين قال هم الصائمون. وقال الحافظ ابن كثير (٣٩٢/٢) هذا مرسل جيد.

الثاني : بالإسلام .

﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن الشرك ^(٥٠٨) ، قاله سعيد بن جبیر .

الثاني : أنهم الذين لم ينهوا عنه حتى انتهوا قبل ذلك ^(٥٠٩) عنه ، قاله الحسن .

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : القائمون بأمر الله تعالى .

والثاني : الحافظون لفرائض الله تعالى من حلاله وحرامه ، قاله قتادة .

والثالث : الحافظون لشرط الله في الجهاد ، قاله مقاتل بن حيان .

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني المصدقين بما وعد الله تعالى في هذه الآيات . قاله سعيد بن

جبیر .

والثاني : العاملين بما ندب الله إليه في هذه الآيات ، وهذا أشبه بقول الحسن .

وسبب نزول هذه الآية ما روى ابن عباس ^(٥١٠) أنه لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ

أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية . أتى رجل من المهاجرين فقال يا

رسول الله وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر؟ فأنزل الله تعالى ﴿الْعَابِدُونَ

الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ الآية .

مَا كَانُوا لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى

قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانُوا

أَسْتَغْفَرُوا لِزُرْهَيْمَ لِأَنَّهُ إِلاَّ عَنِ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ

(٥٠٨) والأولى أن يقال إن المراد بالمنكر كل ما أنكره الشرع فيدخل في ذلك الشرك وسائر الذنوب والمعاصي

وكذا تفسير المعروف كل ما عرفه الشرع فيدخل فيه التوحيد والأعمال الصالحة من صلاة وحج وزكاة

وصلة رحم . . . الخ وقد اختار القول بالعموم ابن جرير (٥٠٧/٤) وغيره .

(٥٠٩) وفي دخول «الواو» في قوله . الناهون عن المنكر فائدة ذكرها العلامة ابن الجوزي فراجعها في زاد

المسير (٥٠٦/٣) .

(٥١٠) لم نعثر على تخريجه والله أعلم .

عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

قوله عزوجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ اختلف في سبب نزولها على ثلاثة أقاويل:

أحدها: ما روى مسروق^(٥١١) عن ابن مسعود قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها فواجه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام، فقام إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدعاه ثم دعانا فقال: «مَا أَبْكَأَكُمْ؟» قلنا: بكينا لبكائك، قال: «إِنَّ الْقَبْرَ الَّذِي جُلَسْتَ عِنْدَهُ قَبْرَ أَمِيَّةَ وَإِنِّي أَسْتَأْذِنُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنْ لِي، وَإِنِّي أَسْتَأْذِنُ رَبِّي فِي الدُّعَاءِ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ الآية. «فأخذني ما يأخذ الولد للوالد^(٥١٢)»، وكنت نهييكم عن زِيَارَةِ الْقُبُورِ فزُورُوهَا فَإِنهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ».

والثاني: أنها نزلت في أبي طالب، روى سعيد بن المسيب^(٥١٣) عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية فقال ﷺ «أَيَّ عَمٍّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، فقال له أبو جهل وعبدالله بن أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فكان آخر شيء كلمهم به أن قال: أنا على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُكِرْ أَنَّهُ عَنكَ» فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

والثالث: أنها نزلت فيما رواه أبو^(٥١٤) الخليل عن علي بن أبي طالب رضي الله

(٥١١) رواه الحاكم (٣٣٦/٢) وزاد السيوطي في الدر (٣٠٢/٤) نسبه لابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

قلت وقال الحاكم صحيح على شرطهما ولم يخرجاه فتعقبه الذهبي بقوله: «قلت أيوب بن هاني ضعفه ابن معين والحديث رواه مسلم من حديث ابن مسعود مختصراً».

(٥١٢) وفي الروايات «لِلْوَالِدَةِ» وفي لفظ للوالدة.

(٥١٣) رواه البخاري (١٧٦/٣ - ١٧٧) (٢٥٨/٨) (٣٧٩/٨) ومسلم (٢١٣/٨ - ٢١٦) وأحمد (٤٣٣/٥) والطبري واللفظ له (٥١٠/١٤) وزاد السيوطي في الدر (٢٩٩/٤) نسبه لابن أبي شيبه وابن المنذر والنسائي وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

(٥١٤) هو عبدالله بن أبي الخليل الهمداني الثقة له ترجمة في الطبقات لابن سعد (١٦٩/٦) والجرج والتعديل لابن أبي حاتم (٤٥/٥) والتهذيب لابن حجر (١٧٤/٦).

عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ قال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبويه؟ فذكرته للنبي ﷺ^(٥١٥)، فنزلت ﴿وَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

قوله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ الآية.

عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه مع شركه لسالف مواعده ورجاء إيمانه.

وفي مواعده الذي كان يستغفر له من أجله قولان:

أحدهما: أن أباه وعده أنه إن استغفر له آمن.

والثاني: أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له لما كان يرجوه أنه يؤمن.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ وذلك بموته على شركه وإيأسه من إيمانه ﴿تَبَيَّرَ

مِنْهُ﴾ أي من أفعاله ومن استغفاره له، فلم يستغفر له بعد موته.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ فيه عشرة تأويلات:

أحدها: أن الأوّاه: الدعاء، أي الذي يكثر الدعاء، قاله ابن مسعود.

الثاني: أنه الرحيم، قاله الحسن.

الثالث: أنه الموقن، قاله عكرمة وعطاء.

الرابع: أنه المؤمن. بلغة الحبشة، قاله ابن عباس.

الخامس: أنه المسيح، قاله سعيد بن المسيب.

السادس: أنه الذي يكثر تلاوة القرآن، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً.

السابع: أنه المتأوه، قاله أبو ذر.

الثامن: أنه الفقيه، قاله مجاهد.

التاسع: أنه المتضرع الخاشع، رواه عبدالله بن شداد بن الهاد^(٥١٦) عن

النبي ﷺ.

(٥١٥) رواه الطبري (١٤/٥١٤، ٥١٥) وأحمد (١٠٨٥).

(٥١٦) رواه الطبري (١٤/٥٣٢) وهو حديث مرسل وبالإضافة إلى إرساله ففي سنده شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد وثق ورواية شهر عن عبدالله تكلم فيها أهل العلم.

العاشر: أنه الذي إذا ذكر خطاياہ استغفر منها، قاله أبو أيوب.

وأصل الأواء من التأوه وهو التوجع، ومنه قول المثقب العبدی (٥١٧):

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلِيلٍ تَأَوُّهُ أَمَةٌ الرَّجُلِ الْحَزِينِ
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ الآية. سبب نزولها أن قوماً من الأعراب أسلموا وعادوا إلى بلادهم فعملوا بما شاهدوا رسول الله ﷺ يعمل من الصلاة إلى بيت المقدس وصيام الأيام البيض، ثم قدموا بعد ذلك على رسول الله ﷺ فوجدوه يصلي إلى الكعبة ويصوم شهر رمضان: فقالوا: يا رسول الله أضلنا الله بعدك بالصلاة. إنك على أمر وإننا على غيره فأنزل الله تعالى هذه الآية.

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ الآية. هي غزوة تبوك قبل الشام، كانوا في عسرة من الظهر، كان الرجلان والثلاثة على بعير وفي عسرة من الزاد، قال قتادة حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان نفر يتداولون التمرة بينهم يمصها أحدهم ثم يشرب عليها من الماء، ثم يمصها الآخر، وفي عسرة من الماء، وكانوا في لهبان الحر وشدته.

(٥١٧) ديوانه: ٢٩ ومجاز القرآن (١/ ٢٧٠) وطبقات فحول الشعراء (٢٣١) وسقط اللآلي: ٥٦ واللسان (أوه).

قال عبدالله^(٥١٨) بن محمد بن عقيل: وأصابهم يوماً عطش شديد فجعلوا ينحرون إبلهم ويعصرون أكراشها فيشربون ماءها. قال عمر بن الخطاب فأمر الله السماء بدعاء النبي ﷺ فعيشنا.

وفي هذه التوبة من الله على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار وجهان محتملان: أحدهما: استنقاذهم من شدة العسر. الثاني: أنها خلاصهم من نكاية العدو. وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه وهو الرجوع إلى الحالة الأولى. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: تتلف بالجهد والشدة.

والثاني: تعدل عن الحق في المتابعة والنصرة، قاله ابن عباس. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذه التوبة غير الأولى، وفيها قولان:

أحدهما: أن التوبة الأولى في الذهاب، والتوبة الثانية في الرجوع. والقول الثاني: أن الأولى في السفر، والثانية بعد العودة إلى المدينة. فإن قيل بالأول، أن التوبة الثانية في الرجوع، احتملت وجهين: أحدهما: أنها الإذن لهم بالرجوع إلى المدينة. الثاني: أنها بالمعونة لهم في إمطار السماء عليهم حتى حيوا، وتكون التوبة على هذين الوجهين عامة.

وإن قيل إن التوبة الثانية بعد عودهم إلى المدينة احتملت وجهين: أحدهما: أنها العفو عنهم من ممالأة من تخلف عن الخروج معهم. الثاني: غفران ما هم به فريق منهم من العدول عن الحق، وتكون التوبة على هذين الوجهين خاصة.

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ

(٥١٨) هو عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب. وهو منكر الحديث لا يحتجون بحديثه من جهة حفظه، له ترجمة في التهذيب لابن حجر (١٣/٦).

عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا
 إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
 الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

قوله عزوجل: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ يعني وتاب على الثلاثة الذين
 خلفوا وفيه وجهان:

أحدهما: خلفوا عن التوبة وأخرت عليهم حين تاب عليهم، أي على الثلاثة
 الذين لم يربطوا أنفسهم مع أبي لبابة، قاله الضحاك وأبو مالك.

الثاني: خلفوا عن بعث رسول الله ﷺ، قاله عكرمة.

وهؤلاء الثلاثة هم: هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك (٥١٩).

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ لأن المسلمين امتنعوا من

كلامهم.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ بما لقوه من الجفوة لهم.

﴿وَوَظَنُوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي تيقنوا أن لا ملجأ يلجئون إليه في

الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ قال كعب بن مالك: بعد خمسين ليلة من مقدم رسول

الله ﷺ من غزاة تبوك.

﴿لِيَتُوبُوا﴾ قال ابن عباس ليستقيموا لأنه قد تقدمت توبتهم وإنما امتحنهم

بذلك استصلاحاً لهم ولغيرهم.

قوله عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في هذه

الآية قولان:

أحدهما: أنها في أهل الكتاب، وتأويلها: يا أيها الذين آمنوا من اليهود

بموسى، ومن النصارى بوعيسى اتقوا الله في إيمانكم بمحمد ﷺ فآمنوا به، وكونوا مع

الصادقين يعني مع النبي ﷺ وأصحابه في جهاد المشركين، قاله مقاتل بن حيان.

(٥١٩) الخبر بطوله رواه البخاري (٨٦/٨) ومسلم (٤/٢١٢٠).

الثاني: أنها في المسلمين، وتأويلها: يا أيها الذين آمنوا من المسلمين اتقوا الله وفي المراد بهذه التقوى وجهان:

أحدهما: اتقوا الله من الكذب، قال ابن مسعود: (٥٢٠) إن الكذب لا يصلح في جد ولا هزل، اقرأوا إن شئتم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وهي قراءة ابن مسعود هكذا: من الصادقين.

والثاني: اتقوا الله في طاعة رسوله إذا أمركم بجهاد عدوه.

﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فيهم أربعة أقاويل:

أحدها: مع أبي بكر وعمر، قاله الضحاك.

الثاني: مع الثلاثة الذين خلفوا حين صدقوا النبي ﷺ عن تأخيرهم ولم يكذبوا، قاله السدي.

والثالث: مع من صدق في قوله ونيته وعمله وسره وعلايته، قاله قتادة.

والرابع: مع المهاجرين لأنهم لم يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ قاله ابن جريج.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

(٥٢٠) رواه الطبري (١٤/٥٦٠) وزاد في الدر (٤/٣١٦) نسبته لابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾ فيه وجهان:

أحدهما: وما كان عليهم أن ينفروا جميعاً لأن فرضه صار على الكفاية وهذا ناسخ لقوله تعالى ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قاله ابن عباس.

والثاني: معناه وما كان للمؤمنين إذا بعث رسول الله ﷺ سرية أن يخرجوا جميعاً فيها ويتركوا رسول الله ﷺ وحده بالمدينة حتى يقيم معه بعضهم، قاله عبد الله بن عبيد بن عمير.

قال الكلبي: وسبب نزول ذلك أن المسلمين بعد أن عُيِّرُوا بالتخلف عن غزوة تبوك توفروا على الخروج في سرايا رسول الله ﷺ وتركوه وحده بالمدينة، فنزل ذلك فيهم.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: لتتفقه الطائفة الباقية إما مع رسول الله ﷺ في جهاده، وإما مهاجرة إليه في إقامته، قاله الحسن.

الثاني: لتتفقه الطائفة المتأخرة مع رسول الله عن النفور في السرايا، ويكون معنى الكلام: فهلاً إذا نفروا أن تقيم من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا مع رسول الله ﷺ في الدين، قاله مجاهد.

وفي قوله تعالى ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ تأويلان:

أحدهما: ليتفقهوا في أحكام الدين ومعالم الشرع ويتحملوا عنه ما يقع به البلاغ وينذروا به قومهم إذا رجعوا إليهم.

الثاني: ليتفقهوا فيما يشاهدونه من نصر الله لرسوله وتأييده لدينه وتصديق وعده ومشاهدة معجزاته ليقوى إيمانهم ويخبروا به قومهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ فيهم

أربعة أقاويل:

أحدها: أنهم الروم قاله ابن عمر.

الثاني : أنهم الديلم ، قاله الحسن .

الثالث : أنهم العرب ، قاله ابن زيد .

الرابع : أنه على العموم في قتال الأقرب فالأقرب والأدنى فالأدنى ، قاله قتادة .

وَإِذَا مَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ۖ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ
فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾

قوله عزوجل : ﴿وَإِذَا مَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ : أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ
إِيْمَانًا﴾ .

هؤلاء هم المنافقون . وفي قولهم ذلك عند نزول السورة وجهان :

أحدهما : أنه قول بعضهم لبعض على وجه الإنكار ، قاله الحسن .

الثاني : أنهم يقولون ذلك لضعفاء المسلمين على وجه الاستهزاء .

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : فزادتهم خشية ، قاله الربيع بن أنس .

الثاني : فزادتهم السورة إيماناً لأنهم قبل نزولها لم يكونوا مؤمنين بها ، قاله
الطبري (٥٢١) .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي شك .

﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إثمًا إلى إثمهم ، قاله مقاتل .

الثاني : شكًا إلى شكهم ، قاله الكلبي .

الثالث : كفرًا إلى كفرهم ، قاله قطرب .

أُولَٰئِكَ يَرْجَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ
وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ

يَرْبِكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله عز وجل: ﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ الآية .
في معنى الافتتان هنا ثلاثة أوجه:

أحدها: يبتلون، قاله ابن عباس .

الثاني: يضلون، قاله عبد الرحمن بن زيد .

الثالث: يختبرون، قاله أبو جعفر الطبري (٥٢٢) .

وفي الذي يفتنون به أربعة أقاويل:

أحدها: أنه الجوع والقحط، قاله مجاهد .

الثاني: أنه الغزو والجهاد في سبيل الله، قاله قتادة .

الثالث: ما يلقونه من الكذب على رسول الله ﷺ، قاله حذيفة بن اليمان .

الرابع: أنه ما يظهره الله تعالى من هتك أستارهم وسوء نياتهم، حكاه علي بن

عيسى .

وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿أَوْ لَا تَرَى أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ خطاباً لرسول الله ﷺ .

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ فيه قراءتان:

أحدهما: من أنفسكم (٥٢٣) بفتح الفاء ويحتمل تأولها ثلاثة أوجه:

أحدها: من أكثركم طاعة لله تعالى .

الثاني: من أفضلكم خلقاً .

الثالث: من أشرفكم نسباً .

(٥٢٢) جامع البيان (١٤/٥٧٩) .

(٥٢٣) وهي قراءة ابن عباس وابن العالية والضحاك وابن محيصن زاد المسير (٣/٥٢٠) .

والقراءة الثانية: بضم الفاء، وفي تأويلها أربعة أوجه:

أحدها: يعني من المؤمنين لم يصبه شيء من شرك، قاله محمد بن علي.

الثاني: يعني من نكاح لم يصبه من ولادة الجاهلية، قاله جعفر بن محمد. وقد

روي عن النبي ﷺ أنه قال (٥٢٤): «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أُخْرَجْ مِنْ سِفَاحٍ».

الثالث: ممن تعرفونه بينكم، قاله قتادة.

الرابع: يعني من جميع العرب لأنه لم يبق بطن من بطون العرب إلا قد ولدوه،

قاله الكلبي.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: شديد عليه ما شق عليكم، قاله ابن عباس.

الثاني: شديد عليه ما ضللتكم، قاله سعيد بن أبي عروبة (٥٢٥).

الثالث: عزيز عليه عنت مؤمنكم، قاله قتادة.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ قاله الحسن: حريص عليكم أن تؤمنوا.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: بما يأمرهم به من الهداية ويؤثره لهم من الصلاح.

الثاني: بما يضعه عنهم من المشاق ويعفو عنهم من الهفوات، وهو محتمل.

قوله عز وجل ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فيه وجهان:

(٥٢٤) وردت عدة أحاديث كلها يشد بعضها بعضاً وترتقي إلى الحسن لغیره فرواه البيهقي في السنن (١٩٠/٧)

وابن جرير (٧٦/١١) وابن سعد في الطبقات (٦٠/١) وابن أبي شيبه في المصنف (٤٣١/١١ - ٤٣٢)

من طريق محمد بن جعفر عن أبيه مرسلًا.

ورواه الرامهرمزي في المحدث الفاضل (ص ١٣٦) والسهمي في تاريخ جرجان ص ٣٦١ وأبو نعيم في

دلائل النبوة (١١/١) والطبراني في الأوسط كما في المجمع (١٤/٨) موصولاً عن علي بن أبي طالب

مرفوعاً.

وقال الهيثمي: «فيه محمد بن جعفر بن علي صحح له الحاكم في المستدرك وقد تكلم فيه وبقية رجال

ثقات»

وللحديث شواهد من حديث ابن عباس وأبي هريرة وعائشة وغيرهم وبالشواهد حسنة الألباني في الإرواء

(٣٢٩/٦ - ٣٣٤ - رقم ١٩١٤).

(٥٢٥) هو سعيد بن أبي عروبة أبو النضر البصري واسم أبيه مهران العدوي وعروبة بفتح مهملة وضم الراء

خفيفة ثم موحدة ثقة اختلط بآخره.

توفي سنة ١٥٠ أو قبل ١٥٥ له ترجمة في التهذيب لابن حجر (٥٦/٤ - ٥٩).

أحدهما: عن طاعة الله، قاله الحسن.

الثاني: عنك، ذكره علي بن عيسى.

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: حسبي الله معيناً عليكم.

الثاني: حسبي الله هادياً لكم.

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: لسعته.

الثاني: لجلالته.

روى يوسف بن مهران عن ابن عباس أن آخر ما أنزل من القرآن هاتان الآيتان

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ وهذه الآية. وقال أبي بن كعب^(٥٢٦): هما أحدث

القرآن عهداً بالله وقال مقاتل: تقدم نزولهما بمكة. والله أعلم.

(٥٢٦) رواه الطبري (٥٨٨/١٤ - ٥٨٩) والحاكم في المستدرک (٣٣٨/٢) وأحمد (١١٧/٥) وفي سننه

علي بن زيد بن جدعان قال الهيثمي في المجمع (٣٦/٧) وهو ثقة سىء الحفظ وبقيته رجاله ثقات

ورواه أحمد في المسند (١٣٤/٥) بأطول منه من طريق آخر عن أبي بن كعب وفي سننه عمر بن شقيق

وهو مجهول وأبو جعفر الرازي وهو سىء الحفظ.

سُورَةُ يُونُسَ

هي مكية كلها عن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس إلا ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ إلى آخرهن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿الر﴾ فيه أربعة تأويلات:

أحدها: معناه أنا الله أرى، قاله ابن عباس والضحاك.

والثاني: هي حروف من اسم الله الذي هو الرحمن، قاله سعيد بن جبير والشعبي. وقال سالم بن عبد الله: ﴿الر﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿ن﴾ للرحمن مقاطع.

الثالث: هو اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة.

الرابع: أنها فواتح افتتح الله بها القرآن، قاله ابن جريج.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ يعني بقوله ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ﴾ أي هذه آيات،

كما قال الأعشى (٥٢٧):

تلك خَيْلِي مِنْهُ وتلك رِكَابِي هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كالزُّبَيْبِ

أي هذه خيلي .

وفي ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ها هنا ثلاثة أقاويل :

أحدها : التوراة والإنجيل (٥٢٨) ، قاله مجاهد .

الثاني : الزبور ، قاله مطر .

الثالث : القرآن ، قاله قتادة .

وفي قوله ﴿الْحَكِيمِ﴾ تأويلان :

أحدهما : أنه بمعنى محكم ، قاله أبو عبيدة .

الثاني : أنه كالناطق بالحكمة ، ذكره علي بن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾

قال ابن عباس : سبب نزولها أن الله تعالى لما بعث محمداً ﷺ رسولاً أنكر العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فنزلت هذه الآية .

وهذا لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الإنكار والتعجب من كفر من كفر بالنبى ﷺ

لأنه جاءهم رسول منهم ، وقد أرسل الله إلى سائر الأمم رسلاً منهم .

ثم قال : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فيه خمسة

تأويلات :

أحدها : أن لهم ثواباً حسناً (٥٢٩) بما قدموا من صالح الأعمال ، قاله ابن عباس .

الثاني : سابق صدق عند ربهم أي سبقت لهم السعادة في الذكر الأول ، قاله

ابن أبي طلحة عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : أن لهم شفيع صدق يعني محمداً ﷺ يشفع لهم ، قاله مقاتل بن

حيان .

الرابع : أن لهم سلف صدق (٥٣٠) تقدموهم بالإيمان ، قاله مجاهد وقتادة .

(٥٢٨) قال العلامة الألوسي (١١/٥٩) .

«وأما حمل الكتاب على الكتب التي خلت قبل القرآن من التوراة والإنجيل وغيرهما ... فهو في غاية

البعد فتأمل» وينحوه قال ابن جرير (١٥/١١/١٢) والشوكاني في فتح القدير (٢/٤٢٢) .

(٥٢٩) ورجحه ابن جرير (١٥/١٦) .

(٥٣٠) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٥/١٦) روى الحاكم من طريق أنس عن أبي بن كعب في قوله :

«قدم صدق» قال سلف صدق وإسناده حسن .

والخامس: أن لهم السابقة بإخلاص الطاعة، قال حسان بن ثابت (٥٣١):

لنا القدم العُلَيَّا إِلَيْكَ وَخَلَقْنَا لِأَوْلَانَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعٌ
ويحتمل سادساً: أن قدم الصدق أن يوافق الطاعة صدق الجزاء، ويكون القدم
عبارة عن التقدم، والصدق عبارة عن الحق.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ
شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ إِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ
الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ
مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي
أَخْلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

قوله عز وجل ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يقضيه وحده، قاله مجاهد.

الثاني: يأمر به ويمضيه.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: ما من شفيع يشفع إلا من بعد أن يأذن الله تعالى له في الشفاعة.

الثاني: ما من أحد يتكلم عنده إلا بإذنه، قاله سعيد بن جبیر.

الثالث: لا ثاني معه، مأخوذ من الشفع الذي هو الزوج لأنه خلق السموات

والأرض وهو واحد فرد لا حي معه، ثم خلق الملائكة والبشر.

(٥٣١) ديوانه: ٢٥٤ وسيرة ابن هشام (٢٨٣/٣) والطبري (١٦/١٥) واللسان (خلف) وفي السيرة. «في

ملة الله تابع... وفي موضع آخر من الطبري (٢٠٩/٣) لنا القدم الأولى».

وقوله ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ يعني من بعد أمره أن يكون الخلق فكان، قاله ابن

بحر.

قوله عز وجل: ﴿... إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه ينشئه ثم يفنيه.

الثاني: ما قاله مجاهد: يحييه ثم يميتة ثم يبديه ثم يحييه.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَاوَرِضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأُطْمَأْنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ
عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: لا يخافون عقابنا. ومنه قول الشاعر (٥٣٢):

إِذَا لَسَعْتَهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نَوْبِ عَوَائِلُ

الثاني: لا يطمعون في ثوابنا، ومنه قول الشاعر:

أَيَرْجُو بُنْمَ مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي وَقَوْمِي تَمِيمَ وَالْفَلَاةَ وَرَائِيَا

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سَبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ

فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَهُمْ دَعَوْهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ فيه

أربعة أوجه:

أحدها: يجعل لهم نوراً يمشون به، قاله مجاهد.

الثاني: يجعل عملهم هادياً لهم إلى الجنة، وهذا معنى قول ابن جريج.

وقد روي عن النبي ﷺ (٥٣٣) أنه قال: «يَتَلَقَّى الْمُؤْمِنَ عَمَلُهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ

(٥٣٢) تقدم تخريجه.

(٥٣٣) هذا الحديث أورده المؤلف هنا بالمعنى وهو حديث مرسل.

رواه الطبري (٢٧/١٥) عن قتادة وذكره السيوطي في الدر (٣٤٤/٤) وقال عن قتادة عن الحسن ونسبه

لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم قلت لعل قوله عن الحسن سقط من الطبري والله أعلم.

وروى ابن جرير (٢٨/١٥) عن ابن جريج موقوفاً بنحو قول الحسن.

فَيُؤْنَسُ وَيَهْدِيهِ، وَيَتَلَقَّى الْكَافِرَ عَمَلُهُ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ فَيُوحِشُهُ وَيُضِلُّهُ.

الثالث: أن الله يهديهم إلى طريق الجنة.

الرابع: أنه وصفهم بالهداية على طريق المدح لهم.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: من تحت منازلهم قاله أبو مالك.

الثاني: تجري بين أيديهم وهم يرونها من علو لقوله تعالى ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ

مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] يعني بين يدي.

وحكى أبو عبيدة عن مسروق أن أنهار الجنة تجري في غير أخذود.

قوله عز وجل ﴿دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن أهل الجنة إذا اشتهاوا الشيء أو أرادوا أن يدعوا بالشيء قالوا

سبحانك اللهم فيأتيهم، ذلك الشيء، قاله الربيع وسفيان.

الثاني: أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله في دعاء يدعونه كان دعاؤهم له:

سبحانك اللهم: قاله قتادة.

﴿وَتَجِئُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: معناه وملكهم فيها سالم. والتحية الملك، ومنه قول زهير بن

جنان^(٥٣٤) الكلبي:

ولكل ما نال الفتى قد نلتُهُ إلا التحية

الثاني: أن تحية بعضهم لبعض فيها سلام. أي: سلمت وأمنت مما يلي^(٥٣٥) به

أهل النار، قاله ابن جرير الطبري.

﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن آخر دعائهم: الحمد لله رب العالمين، كما كان أول دعائهم:

سبحانك اللهم، ويشبه أن يكون هذا قول قتادة.

(٥٣٤) طبقات فحول الشعراء: ٣٠ - ٣٢ وكتاب المعمرين، اللسان بجل، حيا والأغاني (٢١ - ٦٦) والطبري

(٣٣/١٥).

(٥٣٥) ونص الطبري «مما ابتلى» (٣٢/١٥).

الثاني: أنهم إذا أجابهم فيما دعوهم وآتاهم ما اشتهاوا حين طلبوه بالتسبيح قالوا بعده: شكراً لله والحمد لله رب العالمين.

﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَافٍ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١)

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة (٥٣٦)، قاله ابن إسحاق.

الثاني: معناه أن الرجل إذا غضب على نفسه أو ماله أو ولده فيدعو بالشر فيقول: لا بارك الله فيه وأهلكه الله، فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب منه الخير لقضي إليهم أجلهم أي لهلكوا.

فيكون تأويلاً على الوجه الأول خاصاً في الكافر، وعلى الوجه الثاني عاماً في المسلم والكافر.

﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قال قتادة: يعني مشركي أهل مكة.

﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: في شركهم، قاله ابن عباس.

الثاني: في ضلالهم، قاله الربيع بن أنس.

الثالث: في ظلمهم، قاله علي بن عيسى.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: يترددون، قاله ابن عباس وأبو مالك وأبو العالية.

الثاني: يتمادون، قاله السدي.

الثالث: يلعبون، قاله الأعمش.

(٥٣٦) قال العلامة ابن الجوزي في زاد المسير (١٢/٤).

ويقوي هذا تمام الآية وسبب نزولها.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه إذا مسه الضر دعا ربه في هذه الأحوال.
الثاني: دعا ربه فيكون محمولاً على عموم الدعاء في جميع أحواله.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلُهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني آيات القرآن التي هي تبيان كل شيء.

﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني مشركي أهل مكة.
﴿أَنْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلُهُ﴾ والفرق بين تبديله والإتيان بغيره أن تبديله لا

يجوز أن يكون معه ، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه .

وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم سألوه الوعد وعيداً ، والوعيد وعداً ، والحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، قاله ابن جرير الطبري (٥٣٧) .

الثاني : أنهم سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، قاله ابن عيسى .

الثالث : أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور ، قاله الزجاج .

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِي نَفْسِي ﴾ أي ليس لي أن أتلقيه بالتبديل والتغيير كما ليس لي أن أتلقيه بالرد والتكذيب .

﴿ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ فيما أتلوه عليكم من وعد ووعد وتحليل وتحريم أو أمر أو نهى .

﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ في تبديله وتغييره .

﴿ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني يوم القيامة .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني القرآن :

﴿ وَلَا أَذْرَاكُمْ بِهِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ولا أعلمكم به ، قاله ابن عباس .

الثاني : ولا أنذرکم به ، قاله شهر بن حوشب .

الثالث : ولا أشعركم به ، قاله قتادة .

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أراد ما تقدم من عمره قبل الوحي إليه لأن عمر الإنسان مدة حياته

طالت أو قصرت .

الثاني : أنه أربعون سنة ، لأن النبي ﷺ بعث بعد الأربعين وهو المطلق من عمر

الإنسان ، قاله قتادة .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي لم أدع ذلك بعد أن لبثت فيكم عمراً حتى أوحى إليّ ، ولو

كنت افتريته لقدمته .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ
 شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِثُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
 سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً
 فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ
 يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

قوله عز وجل: ﴿... قُلْ أَتَنْتَبِثُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
 الْأَرْضِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أتخبرونه بعبادة من لا يعلم ما في السموات ولا ما في الأرض.
 الثاني: أتخبرونه بعبادة غيره وليس يعلم له شريكاً في السموات ولا في
 الأرض.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ في الناس هاهنا أربعة أقاويل:
 أحدها: انه آدم عليه السلام، قاله مجاهد والسدي.
 الثاني: أنهم أهل السفينة، قاله الضحاك.
 الثالث: أنهم من كان على عهد إبراهيم عليه السلام، قاله الكلبي.
 الرابع: أنهم بنو آدم، قاله أبي بن كعب.
 وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ثلاثة أوجه:
 أحدها: على الإسلام حتى (٥٣٨) اختلفوا، قاله ابن عباس وأبي بن كعب.
 الثاني: على الكفر حتى بعث الله تعالى الرسل، وهذا قول قد روي عن ابن
 عباس أيضاً.

الثالث: على دين واحد، قاله الضحاك.

﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: فاختلّفوا في الدين فمؤمن وكافر، قاله أبي بن كعب.

(٥٣٨) قال العلامة الألوسي (١١/٨٩): أي وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على الحق والتوحيد
 من غير اختلاف وروي هذا عن ابن عباس والسدي ومجاهد والجبائي وأبي مسلم ويؤيده قراءة ابن
 مسعود رضي الله عنه «وما كان الناس إلا أمة واحدة على هدى».

الثاني: هو اختلاف بني آدم حين قتل قابيل أخاه هابيل، قاله مجاهد.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: ولولا كلمة سبقت من ربك في تأجيلهم إلى يوم القيامة لقضى بينهم من تعجيل العذاب في الدنيا، قاله السدي.

الثاني: ولولا كلمة سبقت من ربك في أن لا يعاجل العصاة إنعاماً منه بيتليهم به لقضى بينهم فيما فيه يختلفون بأن يضطربهم إلى معرفة المحق من المبطل، قاله علي بن عيسى.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ
إِذَا لَهُمْ مَكْرُفٌ عَائِلَانَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ
طَبَّعَ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَ تَهَارِيجُ عَاصِفٍ وَجَاءَ هُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا
أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ
مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بَيَّأُهَا
النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ
فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ﴾ فيه أربعة

أوجه:

أحدها: رخاء بعد شدة.

الثاني: عافية بعد سقم.

الثالث: خصباً بعد جدد، وهذا قول الضحاك.

الرابع: إسلاماً بعد كفر وهو المنافق، قاله الحسن.

﴿إِذَا لَهُمْ مُكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المكر هاهنا الكفر والجحود، قاله ابن بحر (*) .

الثاني : أنه الاستهزاء والتكذيب . قاله مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : أن يكون المكر هاهنا النفاق لأنه يظهر الإيمان ويبطن الكفر .

﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مُكْرًا﴾ يعني أسرع جزاء^(٥٣٩) على المكر . وقيل إن سبب

نزولها أن رسول الله ﷺ^(٥٤٠) لما دعا على أهل مكة بالجذب فقحطوا سبع سنين كسني يوسف إجابة لدعوته ، أتاه أبو سفيان فقال يا محمد قد كنت دعوت بالجذب فأجذبنا فادع الله لنا بالخصب فإن أجابك وأخصبنا صدقناك وآمنا بك ، فدعا لهم واستسقى فسقوا وأخصبوا ، فنقضوا ما قالوه وأقاموا على كفرهم ، وهو معنى قوله ﴿إِذَا لَهُمْ مُكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ .

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظُرِبَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَتَنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

قوله عز وجل : ﴿... فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ذاهباً .

الثاني : يابساً .

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : كأن لم تعمر بالأمس ، قاله الكلبي .

الثاني : كأنه لم تعش بالأمس ، قاله قتادة ، ومنه قول لبيد^(٥٤١) :

(*) وفي نسخة المخطوطة «ابن إسحاق» بدلاً من ابن بحر .

(٥٣٩) تقدم الكلام على صفة المكر في سورة آل عمران فراجعه .

(٥٤٠) تقدم تخريج هذا الحديث في سورة البقرة . عند قوله «ولنبيلونكم بشيء من الخوف» .

(٥٤١) وفي فتح القدير «خنيث سنيثا» (٢/٤٣٨) ، انظر أيضاً شرح المعلقات لأبي بكر الأنباري ص ٥١٧ .

وغنيت سبتاً بعد مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود
الثالث: كأن لم تقم بالأمس، ومن قولهم غنى فلان بالمكان إذا أقام فيه، قاله
علي بن عيسى.

الرابع: كأن لم تنعم بالأمس، قاله قتادة أيضاً.
قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ يعني الجنة. وفي تسميتها دار
السلام وجهان:

أحدهما: لأن السلام هو الله، والجنة داره.

الثاني: لأنها دار السلامة من كل آفة، قاله الزجاج.

﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في هدايته وجهان:
أحدهما: بالتوفيق والمعونة (٥٤٢).

الثاني: بإظهار الأدلة وإقامة البراهين.

وفي الصراط المستقيم أربعة تأويلات:

أحدها: أنه كتاب الله تعالى، روى علي بن أبي طالب قال(*) : سمعت
رسول الله ﷺ يقول: «الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى».
الثاني: أنه الإسلام، رواه النواس (٥٤٣) بن سمعان عن رسول الله ﷺ.

(٥٤٢) قال العلامة الألوسي (١١/١٠٢) وفي الآية دلالة على أن الهداية غير الدعوة إلى ذلك وعلى أن الأمر
بمغايير للإرادة حيث عمم سبحانه الدعوة إذ حذف مفعولها وخص الهداية بالمشيئة المساوية للإرادة على
المشهور إذ قيدها بها وهو الذي ذهب إليه الجماعة (أي أهل السنة والجماعة) وقال المعتزلة إن المراد
بالهداية التوفيق والالطاف ومغايرة الدعوة والأمر لذلك ظاهرة فإن الكافر مأمور وليس بموفق وإن من
يشاء وهو من علم سبحانه أن اللطف ينفع فيه لأن مشيئته تعالى شأن تابعة للحكمة فمن علم أنه لا ينفع
فيه اللطف لم يوفقه ولم يلطف به إذ التوفيق لمن علم الله تعالى أنه لا ينفعه عبث والحكمة منافية للعبث
فهو جل وعلا يهدي من ينفعه اللطف وإن أراد اهتداء الكل اهـ.

(*) تقدم تخرجه في تفسير سورة الفاتحة.

(٥٤٣) رواه أحمد (٤/١٨٢ - ١٨٣) والطبري (١/١٧٦) والترمذي (٢٨٥٩) وقال غريب. وقال ابن كثير عن سند
الترمذي واللسان وهو إسناد حسن صحيح وزاد السيوطي نسبة الحديث في الدر (١/١٥) لابن المنذر وابن الشيخ
الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب ونص الحديث «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى
جنبتي الصراط سوران فيها أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يدعو يقول
يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعرجوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح
شيئاً من الأبواب قال ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه فالصراط الإسلام والسوران حدود الله =

الثالث: أنه رسول الله ﷺ وصاحبه من بعده أبو بكر وعمر، قاله الحسن وأبو العالية.
الرابع: أنه الحق، قاله مجاهد وقتادة.

روى جابر بن عبد الله قال: (٥٤٤) خرج علينا رسول الله يوماً فقال: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَضْرِبْ لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ: أَسْمَعْ سَمِعْتُ أَدْنُكَ، وَأَعْقِلْ، عَقْلَ قَلْبِكَ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَائِدَةً ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ، فَاللَّهُ الْمَلِكُ، وَالِدَارُ الْإِسْلَامُ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ الرَّسُولُ فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ وَمَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مِنْهَا فِيهَا ثُمَّ تَلَا قَتَادَةَ وَمَجَاهِدَ. ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ آيِلٍ مُّظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٧)

قوله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ يعني عبادة ربهم.
﴿الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فيه خمسة تأويلات:

أحدها: أن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجهه (٥٤٥) الله تعالى. وهذا قول

= والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم.
(٥٤٤) رواه الترمذي (٢٦٨٠) والطبري (٦١/١٥) واللفظ له.

وقال الترمذي هذا حديث مرسل سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله وقال: وقد روى هذا الحديث - غير وجهه عن النبي ﷺ بإسناد أصح من هذا، قلت وقد رواه الحاكم (٣٣٨/٢) وصححه مبيناً الواسطة بين سعيد بن هلال وجابر قال عن سعيد بن أبي هلال سمعت أبا جعفر محمد بن علي... إلخ وزاد نسبه السيوطي في الدرر (٣٥٥/٤) لابن مردويه والبيهقي في الدلائل.
(٥٤٥) هذا القول هو الصواب وقد وردت بذلك أحاديث تفوق الحصر في إثبات رؤية المؤمنين للرب تعالى في الجنة ولم يخالف في هذا إلا الشاذ من المبتدعه كالمعتزلة والجهمية. راجع حادي الأرواح لابن القيم ص (٢٦٧ - ٣٢٠).

أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وأبي موسى الأشعري .
والثاني : أن الحسنى واحدة من الحسنات ، والزيادة مضاعفتها إلى عشر أمثالها ، قاله ابن عباس .

الثالث : أن الحسنى حسنة مثل حسنة . والزيادة مغفرة ورضوان ، قاله مجاهد .
والرابع : أن الحسنى الجزاء في الآخرة ، والزيادة ما أعطوا في الدنيا ، قاله ابن زيد .

والخامس : أن الحسنى الثواب ، والزيادة الدوام ، قاله ابن بحر .
ويحتمل سادساً : أن الحسنى ما يتمنونه ، والزيادة ما يشتهونه .
﴿وَلَا يَرَهُقُ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ﴾ في معنى يرهق وجهان :
أحدهما : يعلو .

الثاني : يلحق ، ومنه قيل غلام مراهق إذا لحق بالرجال .
وفي قوله تعالى : ﴿قَتَرٌ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : أنه سواد الوجه ، قاله ابن عباس .
الثاني : أنه الحزن ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه الدخان ومنه قاتار اللحم وقاتار العود وهو دخانه ، قاله ابن بحر .
الرابع : أنه الغبار في محشرهم إلى الله تعالى ، ومنه قول الشاعر (٥٤٦) :

متوج برداء الملك يتبعه موج ترى فوقه الرايات والقترا
﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ فيها ها هنا وجهان :

أحدهما : الهوان .
الثاني : الخيبة .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا
بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

(٥٤٦) هو الفرزدق والبيت في ديوانه : ٢٩٠ ومجاز القرآن لابن عبيدة ١ : ٢٧٧ واللسان «قتر» ورواية الديوان متعصب برداء الملك .

إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

قوله عز وجل : ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ فيه قراءتان :

إحدهما : بتاءين قرأها حمزة (٥٤٧) والكسائي ، وفي تأويلها ثلاثة أوجه :

أحدها : تتبع كل نفس ما قدمت في الدنيا ، قاله السدي ، ومنه قول الشاعر :

إن المريب يتبع المريباً كما رأيت الذيب يتلو الذيبا

الثاني : تتلو كتاب حسناتها وكتاب سيئاتها ، ومن التلاوة .

والثالث : تعاین كل نفس جزاء ما عملت .

والقراءة الثانية : وهي قراءة الباقيين تتلو بالباء وفي تأويلها وجهان :

أحدهما : تسلم كل نفس .

الثاني : تختبر كل نفس ، قاله مجاهد .

﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ أي مالكمهم ، ووصف تعالى نفسه بالحق ،

لأن الحق منه ، كما وصف نفسه بالعدل ، لأن العدل منه .

فإن قيل فقد قال تعالى ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد : ١١] فكيف

صار هاهنا مولى لهم ؟ قيل ليس بمولى في النصرة والمعونة ، وهو مولى لهم في الملكية .

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ﴾ أي بطل عنهم ما كانوا يكذبون .

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَكْبِدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى

تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَأَلَكُمُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾
وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ هم رؤساؤهم.

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ في الظن وجهان:

أحدهما: أنه منزلة بين اليقين والشك، ليست يقيناً وليست شكاً.

الثاني: إن الظن ما تردد بين الشك واليقين وكان مرة يقيناً ومرة شكاً.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا
بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ
وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني أنه

يختلف ويكذب.

﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: شاهد بصدق ما تقدم من التوراة والإنجيل والزبور.

الثاني: لما بين يديه من البعث والنشور والجزاء والحساب.

ويحتمل ثالثاً: أن يكون معناه ولكن يصدقه الذي بين يديه من الكتب السالفة

بما فيها من ذكره فيزول عنه الافتراء.

قوله عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما : لم يعلموا ما عليهم بتكذيبهم لشكهم فيه (٥٤٨).

الثاني : لم يحيطوا بعلم ما فيه (٥٤٩) من وعد ووعد لإعراضهم عنه .

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : علم ما فيه من البرهان .

الثاني : ما يؤول إليه أمرهم من العقاب .

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

قوله عز وجل : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يستمعون الكذب عليك فلا ينكرونه .

الثاني : يستمعون الحق منك فلا يعونه .

﴿أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن من لا يعي ما يسمع فهو كمن لا يعقل .

الثاني : معناه أنه كما لا يعي من لا يسمع كذلك لا يفهم من لا يعقل .

والألف التي في قوله تعالى ﴿أَفَأَنْتَ﴾ لفظها الاستفهام ومعناها معنى النفي .

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

(٥٤٨) فائدة : قال العلامة ابن الجوزي في زاد المسير (٣٣/٤) قيل لسفيان بن عيينة يقول الناس كل إنسان عدو ما جهل فقال هذا في كتاب الله قيل أين ؟ فقال ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ . وقيل للحسين بن الفضل هل تجد في القرآن من جهل شيئاً عاداه ؟ فقال نعم في موضعين قوله ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ وقوله ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إلفك قديم﴾ [الأحقاف : ١١] .

(٥٤٩) قال الشوكاني في فتح القدير (٤٤٦/٢) ، وهكذا صنع من تصلب في التقليد ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذبول الإنصاف بل يردّه مجرد كونه لم يوافق هواه ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه ويعلم مبناه كما تراه عياناً وتعلمه وجداناً .

قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار.

الثاني: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة من النهار لقربه.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعرف بعضهم بعضاً. قال الكلبي: يتعارفون إذا خرجوا من قبورهم

ثم تنقطع المعرفة.

الثاني: يعرفون أن ما كانوا عليه باطل.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ

﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا

نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا

يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يعني نبياً يدعوهم إلى الهدى ويأمرهم

بالإيمان.

﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه ثلاثة

أوجه:

أحدها: فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضى بينهم ليكون رسولهم شاهداً

عليهم، قاله مجاهد.

الثاني: فإذا جاء رسولهم يوم القيامة وقد كذبوه في الدنيا قضى الله تعالى بينهم

وبين رسولهم في الآخرة، قاله الكلبي.

الثالث: فإذا جاء رسولهم في الدنيا واعياً بعد الإذن له في الدعاء عليهم قضى

الله بينهم بتعجيل الانتقام منهم، قاله الحسن.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ اتَّكُمُ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ

إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ مِّنْهُ بِهِ ءَاثَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَدْعُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ءَ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴿٥٦﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَيَسْتَدْعُونَكَ ﴾ أي يستخبرونك ، وهو طلب النبأ .

﴿ أَحَقُّ هُوَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : البعث ، قاله الكلبي .

الثاني : العذاب في الآخرة .

﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ ﴾ فأقسم مع إخباره انه حق تأكيداً .

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بممتنعين .

الثاني : بسابقين ، قاله ابن عباس .

قوله عز وجل : ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أخفوا الندامة وكتبوها عن رؤسائهم ، وقيل بل كتبها الروساء عن

أتباعهم .

الثاني : أظهروها وكشفوها لهم .

وذكر المبرد فيه وجهاً ثالثاً : أنه بدت بالندامة أسيرة وجوههم وهي تكاسير

الجبهة .

﴿ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قضى بينهم وبين رؤسائهم ، قاله الكلبي .

الثاني : قضى عليهم بما يستحقونه من عذابهم .

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى
 وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
 يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا
 وَحَلَالًا قُلْ ءَلِلَّهِ أَذُنٌ لَّكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ
 عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا بِلَهُ اللَّهِ لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ
 لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ
 إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ
 فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾
 قوله عز وجل : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن فضل الله معرفته ، ورحمته توفيقه .

الثاني : أن فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام ، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم
 والضحاك .

الثالث : أن فضل الله الإسلام ، ورحمته القرآن ، . قاله الحسن ومجاهد
 وقتادة (٥٥٠) .

﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يعني بالمغفرة والتوفيق على الوجه الأول ، وبالإسلام
 والقرآن على الوجهين الآخرين .

وفيه ثالث : فلتفرح قريش بأن محمداً منهم ، قاله ابن عباس .

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني في الدنيا .

روى أبان عن أنس أن رسول الله ﷺ قال (٥٥١) : «مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ وَعَلَّمَهُ
 الْقُرْءَانَ ثُمَّ شَكَا الْفَاقَةَ كَتَبَ اللَّهُ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ» ، ثم تلا ﴿قُلْ بِفَضْلِ

(٥٥٠) قال العلامة الشوكاني (٢/ ٢٥٤) : «والأولى حمل الفضل والرحمة على العموم ويدخل في ذلك ما في القرآن فيها دخولاً أولياً» .

(٥٥١) هذا الحديث رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه كما في الدر (٤/ ٣٦٨) وسنده ضعيف لضعف أبان بن أبي عياش وهو متروك الرواية راجع ترجمته في الميزان للذهبي (١/ ١٠) .

اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٥٢﴾

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ
الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ
إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ
﴿٦٩﴾ مَتَّعْنَاهُ فِي الدُّنْيَا مَرَجَعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا
كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في
﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ ها هنا خمسة أقاويل:

أحدها: أنهم أهل ولايته والمستحقون لكرامته، قاله ابن عباس وسعيد بن

جبير.

الثاني: هم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

الثالث: هم الراضون بالقضاء، والصابرون على البلاء، والشاكرون على

النعماء.

(٥٥٢) بقيت جملة من الحديث لم يأت بها المؤلف هنا ونصها كما في الدر (٣٦٨/٤) «من عرض الدنيا من
الأموال».

الرابع : هم من توالى أفعالهم على موافقة الحق .
الخامس : هم المتحابون في الله تعالى (٥٥٣) .

روى جرير عن عمارة بن غزية عن أبي زرعة عن عمر بن الخطاب قال (٥٥٤) :
قال رسول الله ﷺ «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أَنْاسًا مَّا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغِيبُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ
وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ»، قالوا: يا رسول الله خبرنا من هم وما
أعمالهم فإننا نحبههم لذلك، قال: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ
وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا. فَوَاللَّهِ إِنْ وُجُوهُهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا
خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ»، وقرأ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وفيه وجهان:

أحدهما: لا يخافون على ذريتهم فإن الله تعالى يتولاهاهم ولا هم يحزنون على
دنياهم لأن الله تعالى يعوضهم عنها، وهو محتمل.

الثاني: لا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون عند الموت.

قوله عز وجل: ﴿هُمْ أَلْبَشَرِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: أن البشرى في الحياة الدنيا هي البشارة عند الموت بأن يعلم أين هو من
قبل أن يموت، وفي الآخرة الجنة، قاله قتادة والضحاك. وروى علي بن أبي طالب
عن النبي ﷺ أنه قال (٥٥٥) «إِنَّ لِخُدَيْجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ بَيْتًا مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا
نَهَبَ».

الثاني: أن البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى

(٥٥٣) ولا مانع من دخول هذه الأقوال كلها في صفات أولياء الله وقد توسع العلامة الشوكاني في كتابة قطر
الولي وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية من قبله في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في بيان
صفات أولياء الله فراجعها.

(٥٥٤) رواه أبو داود (٣٥٢٧) وابن جرير (١٢٣/١١)، والبيهقي في الشعب وابن أبي حاتم وابن مردويه كما
في الدر (٣٧٢/٤) وقال الحافظ ابن كثير «إسناده جيد» إلا أنه منقطع بين أبو زرعة بن عمرو وعمر بن
الخطاب. وقد رواه ابن حبان (٢٥٠٨) من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة وله شاهد أيضاً من حديث
أبي مالك الأشعري عند أحمد (٣٤١/٥)، والطبري (١٣٢/١١) وحسنه المنذري ورواه الحاكم
أيضاً (٤/١٧٠، ١٧١)، وحديث أبي هريرة صحيحه الأرناؤوط في شرح السنة (٥١/١٣).
(٥٥٥) رواه البخاري (١٠٤/٧) ومسلم رقم (٢٤٣٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

له ، وفي الآخرة الجنة، روى ذلك عن رسول الله ﷺ أبو الدرداء (٥٥٦) وأبو هريرة (٥٥٧) وعبادة (*) بن الصامت .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً: أن البشرى في الحياة الدنيا الثناء الصالح ، وفي الآخرة اعطائه كتابه بيمينه .

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا خلف لوعده .

الثاني : لا نسخ لخبره .

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كِبُرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَاتٍ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ .. فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فاجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم لنصرتكم ، قاله الفراء .

الثاني : فاجمعوا أمركم مع شركائكم على تناصركم ، قاله الزجاج .

وفي هذا الإجماع وجهان :

أحدهما : أنه الإعداد .

(٥٥٦) حديث أبي الدرداء رواه الترمذي (٣١٠٦) وأحمد (٤٤٧/٦) وابن جرير (١٢٨/١٥) ونقل السيوطي في الدر (٣٧٤/٤) تحسین الترمذي له ونسبه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان . وفي سند الحديث رجل مجهول .

(٥٥٧) أما حديث أبي هريرة رواه ابن جرير (١٣٠/١٥) ونسبه السيوطي في الدر (٣٧٤/٤) لأبي الشيخ وابن مردويه وصححه سنده مخرج الطبري .

(*) أما حديث عبادة فقد رواه الطبري (١٣٣/١١) وغيره .

الثاني : أنه العزم .

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أن الغمة ضيق الأمر الذي يوجب الغم .

الثاني : أنه المغطى ، من قولهم : قد غم الهلال إذا استتر .

وفي المراد بالأمر هاهنا وجهان :

أحدهما : من يدعونه من دون الله تعالى .

الثاني : ما هم عليه من عزم .

﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ثم انهضوا ، قاله ابن عباس .

الثاني : ثم اقضوا إلي ما أنتم قاضون ، قاله قتادة .

الثالث : اقضوا إلي ما في أنفسكم ، قاله مجاهد .

﴿وَلَا تُنْظَرُونَ﴾ قال ابن عباس . ولا تؤخروني .

قوله عز وجل : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني عن الإيمان .

﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فما سألتكم من أجر تستثقلونه فتمتنعون من الإجابة لأجله ، ﴿إِنْ

أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ .

والثاني : فما سألتكم من أجر إن انقطع عني ثقل علي .

﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ وقد حصل بالدعاء لكم إن أجبتكم أو أبيتم .

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي من المستسلمين لأمر الله بطاعته .

قوله عز وجل : ﴿فَنَجِّنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ قال ابن عباس : كان في سفينة

نوح عليه السلام ثمانون رجلاً أحدهم جرهم وكان لسانه عربياً ، وحمل فيها من كل زوجين

اثنين ، قال ابن عباس فكان أول ما حمل الذرة وآخر ما حمل الحمار ودخل معه

إبليس (٥٥٨) يتعلق بذنبه .

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي خلفاً لمن هلك بالغرق .

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ حكى أبو زهير أن قوم نوح عاشوا في الطوفان

(٥٥٨) ولا شك في هذا القول أنه من الإسرائيليات التي تلقاها ابن عباس عن مسلمة أهل الكتاب

أربعين يوماً. وذكر محمد بن إسحاق أن الماء بقي بعد الغرق مائة وخمسين يوماً، فكان بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن غاض الماء ستة أشهر وعشرة أيام وذلك مائة وتسعون يوماً.

قال محمد بن إسحاق لما مضت على نوح أربعون ليلة فتح كوة السفينة ثم أرسل منها الغراب لينظر ما فعل الماء فلم يعد، فأرسل الحمامة فرجعت إليه ولم تجد لرجلها موضعاً، ثم أرسلها بعد سبعة أيام فرجعت حيث أمست وفيها ورقة زيتونة فعلم أن الماء قد قل على الأرض، ثم أرسلها بعد سبعة أيام فلم تعد فعلم أن الأرض قد برزت، وكان استواء السفينة على الجودي لسبع عشرة ليلة من الشهر السابع فيما ذكر والله أعلم (٥٥٩).

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: لتلويثنا، قاله قتادة.

الثاني: لتصدنا، قاله السدي.

الثالث: لتصرفنا، من قولهم لفته لفتاً إذا صرفه ومنه لفت عنقه أي لواها، قاله

علي بن عيسى.

﴿وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه أربعة أوجه:

(٥٥٩) وهذا القول كسابقه فليس له مستند من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ.

أحدها: الملك، قاله مجاهد.

الثاني: العظمة، حكاه الأعمش.

الثالث: العلو، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

الرابع: الطاعة، قاله الضحاك.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا
مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا الْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ
سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

قوله عز وجل: ﴿فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: أن الذرية القليل، قاله ابن عباس.

الثاني: أنهم الغلمان من بني إسرائيل لأن فرعون كان يذبهم فأسرعوا إلى
الإيمان بموسى، قاله زيد بن أسلم.

الثالث: أنهم أولاد الزمن (٥٦٠) قاله مجاهد.

الرابع: أنهم قوم أمهاتهم من بني إسرائيل وأباؤهم من القبط.

ويحتمل خامساً: أن ذرية قوم موسى نساؤهم وولدانهم.

﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَائِيهِمْ﴾ يعني وعظمائهم وأشرافهم.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ فيه وجهان:

(٥٦٠) والمراد بهم من أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل لطول الزمان لأن الآباء ماتوا وبقي الأبناء فقليل لهم
الذرية لأنهم كانوا ذرية من هلك ومن أرسل إليهم موسى عليه السلام كما في الطبري (١٦٣/١٥).

تنبيه: وقع في المطبوعة هنا خطأ جسيم حيث كتب القول الثاني هكذا «أنهم أولاد الزمنى قاله مجاهد»
أه وهذا القول لا معنى له وقول مجاهد في الطبري (١٦٤/١٥) وغيره قال: «أولاد الذين أرسل إليهم
من طول الزمان ومات آباؤهم»، والخلاصة أن المؤلف أورد قول مجاهد بمعناه وصوابه «أولاد الزمن»
نسبة إلى أنهم ولدوا في زمن فرعون فلا أدري كيف خفي ذلك على محقق التفسير وسبحان الحي
الذي لا يموت.

أحدهما: أن يعذبهم، قاله ابن عباس.

الثاني: أن يكرههم على استدامة ما هم عليه.

﴿وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أي متجبر، قاله السدي.

الثاني: باغ طاغ، قاله ابن اسحاق.

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني في بغيه وطغيانه.

وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى

اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ

الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

قوله عز وجل: ﴿... فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: في الإسلام إليه.

الثاني: في الثقة به.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لا تسلطهم علينا فيفتنوننا، قاله مجاهد.

الثاني: لا تسلطهم علينا فيفتنون بنا لظنهم أنهم على حق، قاله أبو الضحى

وأبو مجلز.

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾.

يعني تخيرا واتخذوا لهم بيوتا يسكنونها، ومنه قول الراجز: (٥٦١)

نحن بنو عدنان ليس شك تبوأ المجد بنا والملك

وفي قوله ﴿بِمِصْرَ﴾ قولان:

أحدهما: أنها الإسكندرية، وهو قول مجاهد.

الثاني: أنه البلد المسمى مصر، قاله الضحاك.

وفي قوله ﴿بُيُوتًا﴾ وجهان:

أحدهما: قصوراً، قاله مجاهد.

الثاني: مساجد، قاله الضحاك.

﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: واجعلوها مساجد تصلون فيها، لأنهم كانوا يخافون فرعون أن يصلوا

في كنائسهم ومساجدهم، قاله الضحاك وابن زيد والنخعي.

الثاني: واجعلوا مساجدكم قبل الكعبة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة.

الثالث: واجعلوا بيوتكم التي بالشام قبله لكم في الصلاة فهي قبله اليهود إلى

اليوم قاله ابن بحر.

الرابع: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً، قاله سعيد بن جبير.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: في بيوتكم لتأمّنوا فرعون.

الثاني: إلى قبله مكة لتصح صلاتكم.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال سعيد بن جبير: بشرهم بالنصر في الدنيا، وبالجنة في

الآخرة.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا بِمِصْرَ بِيُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ

قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ

ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ

رَبَّنَا أَطْمَسَ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّدَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ

الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ فَاستَقِيمُوا وَلَا تَلْبِغَاَنِ سَبِيلَ الَّذِينَ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله عز وجل: ﴿... رَبَّنَا أَطْمَسَ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أهلكها، قاله قتادة.

فذكر لنا أن زروعهم وأموالهم صارت حجارة منقوشة، قاله الضحاك.

﴿وَأَشَدُّدَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: بالضلالة ليهلكوا كفاراً فينالهم عذاب الآخرة، قاله مجاهد.

الثاني : بإعمائها عن الرشد.

الثالث : بالموت ، قاله ابن بحر.

الرابع : اجعلها قاسية.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قال ابن عباس هو الغرق.

قوله عز وجل : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ قال أبو العالية والربيع : دعا موسى

وَأَمَّن هَارُونُ فَسَمِيَ هَارُونُ وَقَدْ آمَنَ عَلَى الدَّعَاءِ دَاعِيًا ، والتأمين على الدعاء أن يقول آمين .

واختلف في معنى آمين بعد الدعاء وبعد فاتحة الكتاب في الصلاة على ثلاثة

أقوال :

أحدها : معناه اللهم استجب ، قاله الحسن .

الثاني : أن آمين اسم (٥٦٢) من أسماء الله تعالى ، قاله مجاهد ، قال ابن قتيبة وفيه

حرف النداء مضمّر وتقديره يا آمين استجب دعاءنا .

الثالث : ما رواه سعيد عن أبي (٥٦٣) هريرة أن رسول الله ﷺ قال «آمِينَ خَاتَمُ

رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ» يعني أنها تمنع من وصول الأذى والضرر كما يمنع الختم من الوصول إلى المختوم عليه .

وفرق ابن عباس في معنى آمين بين وروده بعد الدعاء وبين وروده بعد فاتحة

الكتاب فقال : معناه بعد الدعاء : اللهم استجب ، ومعناه بعد الفاتحة : كذلك فليكن .

قال محمد بن علي وابن جريج : وأخر فرعون بعد إجابة دعوتها أربعين

سنة (*) .

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فامضيا لأمرى فخرجا في قومهم ، قاله السدي .

الثاني : فاستقيما في دعوتكما على فرعون وقومه ، وحكاه علي بن عيسى .

وقيل : إنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن لأن دعاءه موجب لحلول

الانتقام وقد يجوز أن يكون فيهم من يتوب .

(٥٦٢) ولكن العلامة القرطبي قال (١٠ / ١٢٨) ، «ولم يصح» .

(*) وفي نسخة يوماً .

(٥٦٣) رواء الطبري في الدعاء وابن عدي وابن مردويه كما في الدر (١ / ٤٤) وقال السيوطي «بسنَد ضعيف» .

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) ﴿ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ ءَايَتِنَا الْغَافِلُونَ﴾ (٩٢)

قوله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ﴾ معنى ننجيك لنفيك على نجوة من الأرض، والنجوة المكان المرتفع وقوله تعالى ﴿بِدَنِكَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: يعني بجسدك من غير روح، قاله مجاهد.

الثاني: بدرعك، وكان له درع من حديد يعرف بها، قاله أبو صخر. وكان من تخلف من قوم فرعون ينكر غرقه.

وقرأ يزيد^(٥٦٤) اليزيدي ﴿نُنَجِّيكَ﴾ بالحاء غير معجمة وحكاها علقمة عن ابن مسعود. أن يكون على ناحية من البحر حتى يراه بنو إسرائيل، وكان قصير أحمر كأنه نور.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ يعني لمن بعدك عبرة وموعظة.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٣)

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه الشام وبيت المقدس، قاله قتادة.

الثاني: أنه مصر والشام: قاله الضحاك.

وفي قوله تعالى: ﴿مَبْوَءَ صِدْقٍ﴾ تأويلان:

أحدهما: أنه كالصدق في الفضل.

والثاني: أنه تصدق به عليهم.

(٥٦٤) وفيها قراءة أخرى وهي قراءة يعقوب «تنجيك» بالجيم المخففة كما في زاد المسير (٦٠/٤).

ويحتمل تأويلًا ثالثًا : أنه وعدهم إياه فكان وَعْدُهُ وَغَدُ صَدَق .

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني وأحللنا لهم من الخيرات الطيبة .

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ يعني أن بني إسرائيل ما اختلفوا أن محمداً

نبي .

﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وفيه وجهان .

أحدهما : حتى جاءهم محمد ﷺ الذي كانوا يعلمون أنه نبي ، وتقديره حتى جاءهم المعلوم ، قاله ابن بحر وابن جرير الطبري (٥٦٥) .

والثاني : حتى جاءهم القرآن ، قاله ابن زيد .

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ
لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ
عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

قوله عز وجل : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ هذا خطاب من الله لنبيه

يقول : إن كنت يا محمد في شك مما أنزلنا إليك ، وفيه وجهان :

أحدهما : في شك أنك رسول .

الثاني : في شك أنك مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل .

﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أراد مَنْ منهم مثل عبدالله بن سلام وكعب الأحبار ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنه عنى أهل الصدق والتقوى منهم ، قاله الضحاك .

فإن قيل : فهل كان النبي ﷺ شاكاً؟ قيل قد روي (٥٦٦) عن النبي ﷺ أنه قال :

«لَا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ» .

(٥٦٥) جامع البيان (١٥/١٩٨) .

(٥٦٦) هذا الحديث مرسل من مراسلات قتادة رواه ابن جرير (١٥/٢٠٢) ، وزاد السيوطي في الدر (٤/٣٨٩)

نسبته لعبد الرزاق قال قتادة بلغنا أن رسول الله ﷺ قال فذكره . . .

وفي معنى الكلام وجهان:

أحدهما: أنه خطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره من أمته، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الآية [الطلاق: ١].

والثاني: أنه خطاب ورد على عادة العرب في توليد القبول والتنبية على أسباب الطاعة. كقول الرجل لابنه: إن كنت ابني فبرني، ولعبده إن كنت مملوكي فامتثل أمري، ولا يدل ذلك على شك الولد في أنه ابن أبيه ولا أن العبد شك في أنه ملك لسيده.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي من الشاكين.

قوله عزوجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: إن الذين وجبت عليهم كلمة ربك بالوعيد والغضب لا يؤمنون أبداً. الثاني: إن الذين وقعت كلمته عليهم بنزول العذاب بهم لا يؤمنون أبداً.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنْتْ فَفَعَلَهَا إِيْمَانُهَا لِآلِ قَوْمِ يُونُسَ لِمَاءَ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

قوله عزوجل: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنْتْ فَفَعَلَهَا إِيْمَانُهَا﴾ والمراد بالقرية أهل القرية.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ وهم أهل نينوى من بلاد الموصل فإن يونس عليه السلام وعدمهم بالعذاب بعد ثلاثة أيام، فقالوا: انظروا يونس فإن خرج عنا فوعيده حق، فلما خرج عنهم تحققوه ففزعوا إلى شيخ منهم فقال: توبوا وادعوا وقولوا يا حي حين لاحي، ويا حي يا محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل والدة وولدها، وخرجوا من قريتهم تائبين داعين فكشف الله عنهم العذاب كما قال تعالى:

﴿... كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وفيه وجهان:

أحدهما: أنهم تابوا قبل أن يروا العذاب فلذلك قبل توبتهم، ولورأوه لم يقبلها كما لم يقبل من فرعون إيمانه لما أدركه الغرق.

الثاني: أنه تعالى خصهم بقبول التوبة بعد رؤية العذاب، قال قتادة: كشف

عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل .
﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : إلى أجلهم ، قاله السدي .

الثاني : إلى أن يصيرهم إلى الجنة أو النار ، قاله ابن عباس .

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : إن الحذر لا يرد القدر ، وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ قال علي رضي الله عنه ذلك يوم عاشوراء .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

قوله عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه إلا بأمر الله تعالى ، قاله الحسن .

الثاني : إلا بمعونة الله .

الثالث : إلا بإعلام الله سبل الهدى والضلالات .

﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أن الرجس السخط ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه العذاب ، قاله الفراء .

الثالث : أنه الإثم ، قاله سعيد بن جبير .

الرابع : أنه ما لا خير فيه ، قاله مجاهد .

الخامس : أنه الشيطان ، قاله قتادة .

وقوله: ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني لا يعقلون عن الله تعالى أمره ونهيه ويحتمل أنهم الذين لا يعتبرون بحججه ودلائله.

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي استقم بإقبال وجهك على ما أمرت به من الدين حنيفاً، وقيل أنه أراد بالوجه النفس.

و ﴿حَنِيفًا﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : أي حاجاً، قاله ابن عباس والحسن والضحاك وعطية والسدي .

الثاني : متبعاً، قاله مجاهد .

الثالث : مستقيماً، قاله محمد بن كعب .

الرابع : مخلصاً، قاله عطاء .

الخامس : مؤمناً بالرسول كلهم، قاله أبو قلابة قال حمزة بن عبد المطلب :

حمدت الله حين هدى فؤادي من الإشراك للدين الحنيف

السادس : سابقاً إلى الطاعة، مأخوذ من الحنف في الرجلين وهو أن تسبق

إحدهما الأخرى .

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ

إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: القرآن.

الثاني: الرسول ﷺ.

﴿فَمِنْ أَمْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فيه وجهان محتملان:

أحدهما: فمن امتدى لقبول الحق فإنما يهتدي بخلاص نفسه.

الثاني: فمن امتدى إلى معرفة الحق فإنما يهتدي بعقله.

سُورَةُ هُودٍ

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر.
وقال ابن عباس وقتادة^(٥٦٧) إلا آية وهي قوله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّكُنْتُ أَحْكَمْتُ أَيُّهُمْ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُ أَرْبَكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا
إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿الرَّكُنْتُ أَحْكَمْتُ أَيُّهُمْ ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ يعني القرآن.
﴿أَحْكَمْتُ أَيَّاتَهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ فيه خمسة تأويلات:
أحدها: أحكمت آياته بالأمر والنهي ثم فصلت بالثواب والعقاب، قاله الحسن.
الثاني: أحكمت آياته من الباطل ثم فصلت بالحلال والحرام والطاعة والمعصية، وهذا قول قتادة.

(٥٦٧) قال العلامة الألوسي في روح المعاني (٢٠٢/١١) قال الجلال السيوطي ودليله ما صح من عدة طرق أنها نزلت بالمدينة في حق أبي اليسر.

الثالث: أحكمت آياته بأن جعلت آيات هذه السورة كلها محكمة ثم فصلت بأن فسرت، وهذا معنى قول مجاهد.

الرابع: أحكمت آياته للمعتبرين، وفصلت آياته للمتقين.

الخامس: أحكمت آياته في القلوب، وفصلت أحكامه على الأبدان.

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: من عند حكيم في أفعاله، خبير بمصالح عباده.

الثاني: حكيم بما أنزل، خبير بمن يتقبل.

قوله عز وجل ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن كتبت في الكتاب ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

والثاني: أنه أمر رسوله أن يقول للناس ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ قال ابن عباس: نذير من النار، وبشير بالجنة.

قوله عز وجل: ﴿وَأَن آسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: استغفروهم من سالف ذنوبكم ثم توبوا إليه من المستأنف متى وقعت

منكم. قال بعض العلماء: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين.

الثاني: أنه قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي

السبب إليها، فالمغفرة أول في الطلب وآخر في السبب.

ويحتمل ثالثاً: أن المعنى استغفروهم من الصغائر وتوبوا إليه من الكبائر

﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ يعني في الدنيا وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه طيب النفس وسعة الرزق.

الثاني: أنه الرضا باليسور، والصبر على المقدور.

الثالث: أنه ترك الخلق والإقبال على الحق، قاله سهل بن عبدالله ويحتمل

ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه الحلال الكافي.

الثاني: أنه الذي لا كد فيه ولا طلب.

الثالث: أنه المقترن بالصحة والعافية.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: إلى يوم القيامة، قاله سعيد بن جبير.

الثاني: إلى يوم الموت، قاله الحسن.

الثالث: إلى وقت لا يعلمه إلا الله تعالى، قاله ابن عباس.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يهديه إلى العمل الصالح، قاله ابن عباس.

الثاني: يجازيه عليه في الآخرة، على قول قتادة. ويجوز أن يجازيه عليه في

الدنيا، على قول مجاهد.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني عما أمرتم له.

﴿فَأَنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وفيه إضمار وتقدير: فقل لهم إني

أخاف عليكم عذاب يوم كبير يعني يوم القيامة وصفه بذلك لكبر الأمور التي هي فيه.

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا

يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: يثنون صدورهم على الكفر ليستخفوا من الله تعالى، قاله مجاهد.

الثاني: يثنونها على عداوة النبي ﷺ ليخفوها عنه، قاله الفراء والزجاج.

الثالث: يثنونها على ما أضمره من حديث النفس ليخفوه عن الناس، قاله

الحسن.

الرابع: أن المنافقين كانوا إذا مروا بالنبي ﷺ غطوا رؤوسهم وثنوا صدورهم

ليستخفوا منه فلا يعرفهم، قاله أبو رزين.

الخامس: أن رجلاً قال: إذا أغلقت بابي وضربت ستري وتغشيت ثوبي وثنيت

صدري فمن يعلم بي؟ فأعلمهم الله تعالى أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يعني يلبسون ثيابهم ويتغطون بها، ومنه قول

الخنساء (٥٦٨):

أرعى النجوم وما كُلفت رعيتهما وتارةً أُنغشى فضل أطماري
وفي المراد بـ ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أربعة أقاويل :

أحدها: الليل يقصدون فيه إخفاء أسرارهم فيما يشنون صدورهم عليه . والله تعالى لا يخفى عليه ما يسرونه في الليل ولا ما يخفونه في صدورهم ، فكفى عن الليل باستغشاء ثيابهم لأنهم يغطون بظلمته كما يغطون إذا استغشوا ثيابهم .

الثاني : أن قوماً من الكفار كانوا لشدة بغضتهم لرسول الله ﷺ يستغشون ثيابهم يغطون بها وجوههم ويصمون بها أذانهم حتى لا يروا شخصه ولا يسمعوا كلامه ، وهو معنى قول قتادة .

الثالث : أن قوماً من المنافقين كانوا يظهرون لرسول الله ﷺ بالسنتهم أنهم على طاعته ومحبته ، وتشتمل قلوبهم على بغضه ومعصيته ، فجعل ما تشتمل عليه قلوبهم كالمستغشي بثيابه .

الرابع : أن قوماً من المسلمين كانوا يتنسكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبين الله تعالى أن المنسك ما اشتملت قلوبهم عليه من معتقد وما أظهره من قول وعمل .

ثم بين ذلك فقال : ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ما يسرون في قلوبهم وما يعلنون بأفواههم .

الثاني : ما يسرون من الإيمان وما يعلنون من العبادات .

الثالث : ما يسرون من عمل الليل وما يعلنون من عمل النهار ، قاله ابن عباس .

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٥٦٩) قيل بأسرار الصدور .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق الثقفي .

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ

فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾

(٥٦٩) قال العلامة الألوسي في روح المعاني (٢١١/١١) «وفيه [أي في النص] دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها الخارجي وهذا مما لا ينكره أحد سوى شذفة من المعتزلة» ، أهـ .

قوله عز وجل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : مستقرها حيث تأوي ، ومستودعها حيث تموت .

الثاني : مستقرها في الرحم ، ومستودعها في الصلب ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : مستقرها في الدنيا ، ومستودعها في الآخرة .

ويحتمل رابعاً : أن مستقرها في الآخرة من جنة أو نار ، ومستودعها في القلب من كفر أو إيمان .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْحَارٌ مِثْلُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

قوله عز وجل : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني أيكم أتم عقلاً ، قاله قتادة .

الثاني : أيكم أزهد في الدنيا ، وهو قول سفيان .

الثالث : أيكم أكثر شكراً ، قاله الضحاك .

الرابع : ما روى كليب (٥٧٠) بن وائل عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال (٥٧١)

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلاً وَأَوْرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ .

(٥٧٠) هو كليب بن وائل بن هبار التيمي الشكري روى عن ابن عمر له ترجمة في تهذيب التهذيب (٤٠١/٨) والبخاري في التاريخ الكبير (٢٢٩/١/٤) والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٦٧/٢/٣) .

(٥٧١) وهو حديث ضعيف جداً بل موضوع وهو من الأحاديث التي تتحدث عن فضل العقل ولم يصح في فضله

حديث فرواه الطبري (٢٥٠/١٥ - ٢٥١) وفي سنده داود بن المحبر وهو ضعيف جداً صاحب مناكير

قال الدارقطني كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة بن عبد ربه ثم سرقه منه داود بن المحبر . . . الخ ،

وقال الحاكم حدثوا عن الحارث بن أبي أسامة عنه (أي عن داود بن المحبر) بكتاب العقل وأكثر ما أودع

في ذلك الكتاب عن الحديث الموضوع على رسول الله ﷺ . وفي سند الحديث أيضاً عبد الواحد بن

زيد وهو ضعيف منكر الحديث راجع الميزان (١٥٧/٢) وغيره . ونسب السيوطي الحديث في الدر

(٤٠٤/٤) لداود بن المحبر في كتاب العقل وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه .

قوله عز وجل : ﴿وَلَنُؤَخِّرَنَّهُمْ إِلَىٰ آثَارِ أُولَىٰ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني إلى فناء أمة معلومة ، ذكره علي بن عيسى .

الثاني : إلى أجل معدود ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين وتكون الأمة عبارة عن المدة ، وأصلها الجماعة فعبر بها عن المدة لحلولها في مدة .

﴿ليقولن ما يحبسهم﴾ يعني العذاب . وفي قولهم ذلك وجهان :

أحدهما : أنهم قالوا ذلك تكديبا للعذاب لتأخره عنهم .

الثاني : أنهم قالوا ذلك استعجالا للعذاب واستهزاء ، (٥٧٢) بمعنى ما الذي حبسه

عنا ؟

وَلَيْنِ أَذِقْنَا الْإِنْسَانَ مَنَآرِحِمَآ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفُّرُ

﴿٩﴾ وَلَيْنِ أَذِقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي

إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ

أَنْ يَقُولُوا أَلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ كِتَابًا مَّعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشِرَ سُورٍ مِّثْلَهُ مَفْتَرِيَتْ

وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا

لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّما أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا

يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا

فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَنبِئَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ

شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ

(٥٧٢) وحكى الله تعالى الثاني عنهم في قوله ﴿ويستعجلونك بالعذاب وان يوماً عند ربك كألف سنة مما

تعدون﴾ .

يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْئِنْ مَوَّعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه القرآن، قاله عبد الرحمن بن زيد.

الثاني: محمد ﷺ، قاله مجاهد وعكرمة وأبو العالية وأبو صالح وقتادة والسري. والضحاك.

الثالث: الحجج الدالة على توحيد الله تعالى ووجوب طاعته، قاله ابن بحر. وذكر بعض المتصوفة قولاً رابعاً: أن البينة هي الإشراف على القلوب والحكمة على الغيوب.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: أنه لسانه يشهد له بتلاوة القرآن، قاله الحسن وقتادة، ومنه قول الأعشى: (٥٧٣)

فلا تحسبني كافراً لك نعمةً على شاهدي يا شاهد الله فاشهد

الثاني: أنه محمد ﷺ شاهد من الله تعالى، قاله علي بن الحسين.

الثالث: أنه جبريل عليه السلام، قاله ابن عباس والنخعي وعكرمة والضحاك.

الرابع: أنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، روى المنهال عن (٥٧٤) عباد بن عبد الله قال: قال علي: ما في (٥٧٥) قریش أحد إلا وقد نزلت فيه آية، قيل له: فما نزل فيك؟ قال ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾.

الخامس: أنه ملك يحفظه، قاله مجاهد وأبو العالية.

(٥٧٣) اللسان «شاهد» ديوانه: ٦١ والشرط الثاني فيه عليّ شهيد شاهد الله فاشهد.

(٥٧٤) وفي روح المعاني (٢٨/١٢) وأخرج المنهال عن عبادة بن عبد الله.

(٥٧٥) وقد ورد عن علي رضي الله عنه ما يخالف هذا قال العلامة الألوسي (٢٨/١٢) وأنت تعلم أن الخبر مما لا يكاد يصح... ويكذبه ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني في الأوسط عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه قال قلت لأبي كرم الله وجهه إن الناس يزعمون في قول الله تعالى في «يتلوه شاهد منه» أنك أنت التالي؟ قال وددت أني هو ولكنه لسان محمد ﷺ على أن في تقرير الاستدلال ضعفاً وركاكة بلغت الغاية القصوى كما لا يخفى على من له أدنى فطنة.

ويحتمل قولاً سادساً: ويتلوه شاهد من نفسه بمعرفة حججه ودلائله وهو عقله ووحدته، قاله ابن بحر.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة، قاله ابن زيد.

الثاني: ومن قبل محمد كتاب موسى، قاله مجاهد.

﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني متقدماً علينا ورحمة لهم.

الثاني: إماماً للمؤمنين لاقتدائهم بما فيه ورحمة لهم.

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني من كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ فيهم قولان:

أحدهما: أنهم أهل الأديان كلها لأنهم يتحزبون: قاله سعيد بن جبير.

الثاني: هم المتحزبون على رسول الله ﷺ المجتمعون على محاربته.

وفي المراد بهم ثلاثة أوجه:

أحدها: قریش، قاله السدي.

الثاني: اليهود والنصارى، قاله سعيد بن جبير.

الثالث: أهل الملل كلها.

﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي أنها مصيره، قال حسان بن ثابت (٥٧٦):

أوردتموها حياض الموت ضاحيةً فالنار موعدها والموت لاقبها

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: في مرية من القرآن قاله مقاتل.

الثاني: في مرية من أن النار موعده الكفار، قاله الكلبي، وهذا خطاب

للنبي ﷺ والمراد به جميع المكلفين.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾
 أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ
 يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ
 فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿٢٢﴾

قوله عز وجل : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ معناه ومن أظلم لنفسه
 ممن افترى على الله كذباً بأن يدعي إنزال ما لم ينزل عليه أو ينفي ما أنزل عليه .
 ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وهو حشرهم إلى موقف الحساب كعرض الأمير
 لجيشه ، إلا أن الأمير يعرضهم ليراهم وهذا لا يجوز على الله تعالى لرؤيته لهم قبل
 الحشر .

﴿وَيَقُولُ الشَّاهِدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ والأشهاد جمع ، وفيما هو
 جمع له وجهان :

أحدهما : أنه جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب .

والثاني : جمع شهيد مثل شريف وأشراف .

وفي الأشهاد أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم الأنبياء ، قاله الضحاك .

الثاني : أنهم الملائكة ، قاله مجاهد .

الثالث : الخلائق ، قاله قتادة .

الرابع : أن الأشهاد أربعة : الملائكة والأنبياء والمؤمنون والأجساد ، قاله زيد بن

أسلم .

قوله عز وجل : ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني قريشاً .

وفي سبيل الله التي صدوا عنها وجهان :

أحدهما : أنه محمد ﷺ صدت قريش عنه الناس ، قاله السدي .

والثاني : دين الله تعالى ، قاله ابن عباس .

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني يؤمنون بملة غير الإسلام ديناً ، قاله أبو مالك .

الثاني : يبغون محمداً هلاكاً ، قاله السدي .

الثالث : أن يتأولوا القرآن تأويلاً باطلاً ، قاله علي بن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن معنى لا جرم : لا بد .

الثاني أن ﴿لَا﴾ عائد على الكفار ، أي لا دافع لعذابهم ، ثم استأنف فقال :

جرم ، أي كسب بكفره استحقاق النار ، ويكون معنى جرم : كسب ، أي بما كسبت يده ، قال الشاعر :

نَصَبْنَا رَأْسَهُ فِي جَذَعِ نَخْلٍ بِمَا جَرَمَتْ يَدَاهُ وَمَا اعْتَدِينَا
أي بما كسبت يده .

الثالث : أن ﴿لَا﴾ زائدة دخلت تأكيداً ، يعني حقاً إنهم في الآخرة هم

الأخسرون .

قال الشاعر : (٥٧٧)

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا .

أي أحقتهم الطعنة بالغضب .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْوَرِ وَالْبَصِيرِ

وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله عز وجل : ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : يعني خافوا ربهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : يعني اطمأنوا ، قاله مجاهد .

الثالث : أنابوا ، قاله قتادة .

(٥٧٧) هو أبو أسماء بن الضريبة وقيل غيره . والبيت في مجاز القرآن (١/١٤٧) واللسان (جرم) والانتصاب :

٣١٣ وسيبويه (١/٤١٨) ومعاني القرآن (٨٠) وشواهد الكشاف ٣٢ .

الرابع : خشعوا وتواضعوا لربهم ، رواه معمر .

الخامس : أخلصوا إلى ربهم ، قاله مقاتل .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِالرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

قوله عز وجل : ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا﴾ الأراذل جمع أرذل ، وأرذل جمع رذل ، والرذل الحقير ، وعنوا بأراذلهم الفقراء وأصحاب المهن المتضعة . ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي ظاهر الرأي ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إنك تعمل بأول الرأي من غير فكر ، قاله الزجاج .

الثاني : أن ما في نفسك من الرأي ظاهر ، تعجيزاً له ، قاله ابن شجرة .

الثالث : يعني أن أراذلنا اتبعوك بأقل الرأي وهم إذا فكروا رجعوا عن اتباعك ،

حكاه ابن الأنباري .

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من فضل تفضلون به علينا من دنياكم .

والثاني : من فضل تفضلون به علينا في أنفسكم .

قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَءَاثَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِنُونَ ﴿٢٨﴾

قوله عز وجل : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني على ثقة من ربي ، قاله أبو عمران الجوني . (٥٧٨)

والثاني : على حجة من ربي ، قاله علي بن عيسى .

(٥٧٨) وفيها قراءة أخرى بتخفيف الميم وفتح العين هكذا «فَعُمِّيَتْ» وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو

وابن عامر وأبي بكر عن عاصم زاد المسير (٩٧/٤) .

﴿وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ فيها وجهان:
أحدهما: الإيمان.

والثاني: النبوة، قاله ابن عباس.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ يعني البينة في قوله ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾.
وإنما قال ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ وهم الذين عموا عنها، لأنها خفيت عليهم بترك
النظر فأعماهم الله عنها.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿فعميت عليكم﴾ بضم العين وتشديد الميم،
وفي قراءة أبي ﴿فعمأها﴾ وهي موافقة لقراءة من قرأ بالضم^(٥٧٩) على ما لم يسم
فاعله.

وفي الذي عمأها على هاتين القراءتين وجهان:
أحدهما: أن الله تعالى عمأها عليهم.

الثاني: بوسوسة الشيطان. وما زينه لهم من الباطل حتى انصرفوا عن الحق.
وإنما قصد نبي الله نوح بهذا القول لقومه أن يرد عليهم قولهم ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ
عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ ليظهر فضله عليهم بأنه على بينة من ربه وآتاه رحمة من عنده وهم قد
سلبوا ذلك، فأبي فضل أعظم منه.

ثم قال تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ مَكْمُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ فيها وجهان:
أنلزمكم الرحمة، قاله مقاتل.

الثاني: أنلزمكم البينة وأنتم لها كارهون، وقبولكم لها لا يصح مع الكراهة
عليها.

قال قتادة: والله لو استطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ولكنه لم
يملك ذلك.

وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
إِنَّهُمْ مُلْكُؤَارِبِهِمْ وَلَكِنِّي أَرْكَبُ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمٍ مِّنْ يَنْصُرُنِي
مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

(٥٧٩) وهي قراءة الأعمش أيضاً زاد المسير (٩٧/٤).

قوله عزوجل: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لأنهم سألوه طرد من اتبعه من أراذلهم، فقال جواباً لهم ورداً لسؤالهم: وما أنا بطارد الذين آمنوا.

﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون قال ذلك على وجه الإعظام لهم بقاء الله تعالى.

الثاني: على وجه الاختصاص، بأني لو فعلت ذلك لخاصموني عند الله.

﴿وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: تجهلون في استردالكم لهم وسؤالكم طردهم.

الثاني: تجهلون في أنهم خير منكم لإيمانهم وكفركم.

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ

لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا

لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَسْخُوحٌ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَابِنَا

تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا

بِمُعْجِزٍ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ

يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

قوله عزوجل: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي

مَلَكٌ﴾ احتمل هذا القول من نوح عليه السلام وجهين:

أحدهما: أن يكون جواباً لقومه على قولهم ﴿مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾.

الثاني: أن يكون جواباً لهم على قولهم ﴿وَمَا نَرَى لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ فقال

الله تعالى له قل: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾.

وفيها وجهان:

أحدهما: أنها الرحمة أي ليس بيدي الرحمة فأسوقها إليكم، قاله ابن عباس.

الثاني: أنها الأموال، أي ليس بيدي أموال فأعطيكم منها على إيمانكم. ﴿وَلَا

أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فأخبركم بما في أنفسكم. ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ يعني فأباين

جنسكم.

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ والازدراء الإحتقار،

يقال ازدريت عليه إذا عبته، وزريت عليه إذا حقرتة.

وأنشد المبرد (٥٨٠):

يساعده الصديق وتزدريه حليلته وينهره الصغير
﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أي ليس لاحتقاركم لهم يطل أجركم أو ينقص
ثوابهم، وكذلك لستم لعلوكم في الدنيا تزدادون على أجوركم.
﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني أنه يجازيهم عليه ويؤاخذهم به.
﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني إن قلت هذا الذي تقدم ذكره.

أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْحَرُمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعني النبي ﷺ، افتري افتعل من قبل نفسه
ما أخبر به عن نوح وقومه.

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ وفي الإجماع وجهان:

أحدهما: أنه الذنوب المكتسبة. حكاه ابن عيسى.

الثاني: أنها الجنايات المقصودة، قاله ابن عباس ومنه قول الشاعر (٥٨١):

طريد عشيرة ورهين جرم بما جرمت يدي وجنى لساني
ومعناه: فعلى عقاب إجرامي.

﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْحَرُمُونَ﴾ أي وعليكم من عقاب جرمكم في تكذبي ما أنا

بريء منه.

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا
إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا

(٥٨٠) وأورد الشوكاني البيت في فتح القدير (٢/٤٩٥) وقال: وأنشد الفراء...

(٥٨١) هو الهيردان بنى خطار بن حفص السعدي والبيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/٢٨٨) واللسان

(جرم) والطبري (١٥/٣٠٦).

مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل ﴿وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ ﴿حقق الله تعالى استدامة كفرهم تحقيقاً لنزول الوعيد بهم، قال الضحاك: فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧].

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: فلا تأسف ومنه قول يزيد بن عبد المدان (٥٨٢):

فَارَسُ الْخَيْلِ إِذَا مَا وَلَوْتُ رَبَّةَ الْخَدْرِ بِصَوْتٍ مَبْتَشٍ
الثاني: فلا تحزن، ومنه قول الشاعر (٥٨٣):

وَكَمْ مِنْ خَلِيلٍ أَوْ حَمِيمٍ رُزَّتْهُ فَلَمْ أَبْتَشِ وَالرَّزْءُ فِيهِ جَلِيلٌ
والابتئاس: الحزن في استكانة، وأصله من البؤس، وفي ذلك وجهان:
أحدهما: فلا تحزن لهلاكهم.

الثاني: فلا تحزن لكفرهم المفضي إلى هلاكهم.

قوله عز وجل: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدهما: بحيث نراك، فعبر عن الرؤية بالأعين لأن بها تكون الرؤية.

الثاني: بحفظنا إياك حفظ من يراك (٥٨٤).

(٥٨٢) هو يزيد بن عبد الله المدان من اليمن وهو شاعر أقبل مع خالد بن الوليد مع قومه الى رسول الله ﷺ في

السنة العاشرة من الهجرة له ترجمة في الاصابة (٩٢٨٨) وفي سيرة ابن هشام (٢٤٠/٤).

(٥٨٣) فتح القدير (٤٩٧/٢).

(٥٨٤) اعلم أيها القارئ الكريم أن الرب تبارك وتعالى أخبر في كتابه أن له صفة العين وأخبر رسوله ﷺ

كذلك في غير ما حديث صحيح وهذه الصفة نثبتها كما جاءت من غير تشبيه ولا تمثيل وعلى هذا الإثبات والنفي درج سلفنا الصالح رحمهم الله لأن السلف الصالح كانوا يَمُرُّونَ الآيات كما نزلت وكانوا يؤمنون بها إيماناً خالياً من التجسيم والتكيف وقد مر معك قول الشافعي رحمه الله تعالى حيث قال آمنت بما جاء عن الله بمراد الله وآمنت بما جاء عن رسول الله بمراد رسول الله ﷺ وكل عقائدهم

تنسجم مع قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ومع قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

فإنه لا شبيه له ولا نظير ولا ند له في صفاته ولا في ذاته ولا في أفعاله فيثبت الله ما أثبت لنفسه وينفي ==

الثالث: بأعين أوليائنا من الملائكة.

ويحتمل وجهاً رابعاً: بمعونتنا لك على صنعها.

﴿وَوَحَيْنَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: وأمرنا لك أن تصنعها.

الثاني: وتعليمنا لك كيف تصنعها.

﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ﴾ نهاء الله عن المراجعة فيهم

فاحتمل نهيهم أمرين:

أحدهما: ليصرفه عن سؤال ما لا يجاب إليه.

الثاني: ليصرف عنه مآثم الممالة للطغاة.

قوله عز وجل: ﴿وَيَضَعُ الْقُلُوبَ﴾ قال زيد بن أسلم: مكث نوح عليه السلام

مائة سنة يغرس الشجر ويقطعها ويبيسها، ومائة سنة يعملها، واختلف في طولها على

ثلاثة أقاويل:

أحدها: ما قاله الحسن كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة

ذراع، وكانت مطبقة.

الثاني: ما قاله ابن عباس: كان طولها أربعمائة ذراع، وعلوها ثلاثون ذراعاً.

وقال خصيف: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعاً، وكان في أعلاها

الطير، وفي وسطها الناس وفي أسفلها السباع. ودفعت من عين وردة في يوم الجمعة

لعشر مضمين من رجب ورست بياقردي^(٥٨٥) على الجودي يوم عاشوراء. قال قتادة وكان

بابها في عرضها^(٥٨٦).

= عنه الله ما نفاه عن نفسه ويثبت لله ما أثبت له رسوله وينفي عن الله ما نفاه عنه رسوله ﷺ. لذا فليحذر

المسلم من آفات التجسيم والتمثيل فلقد ثبت في بعض الروايات عن الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل

السنة والجماعة أنه قال: «مهما تصورت ببالك فالله بخلاف ذلك» وهذه الرواية أيضاً رويت عن الزاهد

الصالح الشهير ذي النون المصري ولقد قال الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله تعالى في رسالته

الشهيرة المسماة بيان أهل السنة والجماعة قال: «من وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر».

(٥٨٥) وهو موضع بالقرب من جبل الجودي ذكره ياقوت في معجم البلدان بكسر القاف وفتح الدال.

(٥٨٦) ولا داعي للخوض في طول السفينة وعرضها ومن أي مادة هي لأن الله تعالى لم يبين لنا ذلك لم يثبت

في السنة المطهرة فالأولى الوقوف عند قول الله ورسوله ولا نتكلف علم ما غاب عنا ولقد أعجبني الامام =

﴿وَكَلَّمَا مَرْءً عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قُوِّهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ وفي سخریتهم منه قولان :

أحدهما : أنهم كانوا يرونه يبني في البر سفينة فيسكرون منه ويستهزئون به ويقولون : يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً .

الثاني : أنهم لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا يا نوح : ما تصنع ؟ قال : أبني بيتاً يمشي على الماء فعجبوا من قوله وسخروا منه .

﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فيه قولان :

أحدهما : إن تسخروا من قولنا فنسخر من غفلتكم .

الثاني : إن تسخروا من فعلنا اليوم عند بناء السفينة فإننا نسخر منكم غداً عند الغرق .

والمراد بالسخرية ها هنا الاستجهال . ومعناه إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم .

قال ابن عباس : ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر فلذلك سخروا منه . قال : ومياه البحار بقية الطوفان .

فإن قيل : فلم جاز أن يقول فإننا نسخر منكم مع قبح السخرية ؟ قيل : لأنه ذم جعله مجازاة على السخرية فجاء به على مزاج الكلام^(٥٨٧)، وكان الزجاج لأجل هذا الاعتراض يتأوله على معنى إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم كما تستجهلونا .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَاءٌ آمِنٌ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

= الألوسي رحمه الله حيث سرد هذه الإسرائيليات في تفسيره ثم كر عليها بالسخرية قائلاً (٥٠/١٢) وسفينة الأخبار في تحقيق الحال فيما أرى لا تصلح للركوب فيها إذ هي غير سالمة من عيب فالبحري بحال لا يميل إلى الفضول أن يؤمن بأنه عليه السلام صنع السفينة حسبما قضى الله في كتابه ولا يخوض في مقدار طولها وعرضها وارتفاعها ومن أي خشب صنعها ويكم مدة أتم عملها إلى غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب ولم تبينه السنة الصحيحة اهـ وكذا تكلم على هذه الروايات الفخر الرازي والحافظ ابن كثير وغيرهما .

(٥٨٧) أقول : ولهذا قال العلامة الألوسي (٥١/١٢) «وقيل لا مانع من أن يراد الظاهر ولا ضرر في ذلك الحديث الجزاء ومن هنا قال بعضهم إن في الآية دليلاً على جواز مقابلة نحو الجاهل والأحمق بمثل فعله ويشهد له قوله تعالى ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ و«جزاء سيئة مثلها» ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به﴾ إلى غير ذلك اهـ .

قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فيه ستة أوجه:

أحدها: وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تَنُّوراً، قاله ابن عباس وقيل لنوح عليه السلام: إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك.

الثاني: أن التنور العين التي بالجزيرة «عين وردة»، رواه عكرمة.

الثالث: أنه مسجد بالكوفة من قبل أبواب كندة، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الرابع: أن التنور ما زاد على وجه الأرض فأشرف منها، قاله قتادة.

الخامس: أنه التنور الذي يخبز فيه، قيل له: إذا رأيت الماء يفور منه فاركب أنت ومن معك، قاله مجاهد.

قال الحسن: كان تنوراً من حجارة وكان لحواء ثم صار لنوح: وقال مقاتل: فَارَ من أقصى دار نوح بعين وردة من أرض الشام، قال أمية بن الصلت:

فار تنورهم وجاش بماء صار فوق الجبال حتى علاها

السادس: أن التنور هو تنوير الصبح، من قولهم: نور الصبح تنويراً، وهو

مروي عن علي رضي الله عنه.

﴿قُلْنَا ائْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَئِينَ﴾ يعني من الآدميين والبهائم ذكراً

وأنثى.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي احمل أهلك.

﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ من الله تعالى أنه يهلكهم وهو ابنه كنعان وامراته

كانا كافرين، قاله الضحاك وابن جريج.

﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي احمل من آمن.

﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ واختلف في عددهم على ثلاثة أقاويل:

أحدها: ثمانون رجلاً منهم جرهم، قاله ابن عباس.

الثاني: ثمانين، قاله ابن جريج.

الثالث: سبعة^(٥٨٨)، قاله الأعمش ومطر، وكان فيهم ثلاثة بنين: سام وحام

(٥٨٨) قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله (٣٢٧/١٥) «والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله»

﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يصفهم بأنهم كانوا قليلاً ولم يحد عددهم بمقدار ولا خبر عن رسول الله ﷺ =

ويافث، وثلاث بنات له ونوح معهم فصاروا سبعة.

وعلى القول الثاني: كانت فيهم امرأة نوح فصاروا ثمانية.

قال محمد بن عباد بن جعفر: فأصاب حام امرأته في السفينة، فدعا نوح أن يغير الله نطفته فجاء السودان.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا وَامْرُسْهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمَرْسَاهَا﴾ إن ربي لغفور رحيم ﴿﴾ قال قتادة: ركب نوح عليه السلام في السفينة في اليوم العاشر من رجب، ونزل منها في اليوم العاشر من المحرم، وهو يوم عاشوراء، فقال لمن معه: من كان صائماً فليتم صومه، ومن لم يكن صائماً فليصمه.

وقوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا﴾ أي مسيرها، ﴿وَمَرْسَاهَا﴾ أي مئبتها، فكان إذا أراد السير قال: بسم الله مجريها، فتجري، وإذا أراد الوقوف قال: بسم الله مرساها. فتثبت واقفة.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ قال ذلك لبقائه على كفه تكذيباً لأبيه، وقيل إن الجبل الذي أوى إليه طور زيتا.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: إلا من رحم الله وهم أهل السفينة.

الثاني: إلا من رحم نوح فحملة في سفينته وقوله ﴿لَا عَاصِمَ﴾ يعني لا معصوم. ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ يعني الغرق.

= صحيح فلا ينبغي أن يتجاوز في ذلك حد الله إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حد من كتاب الله أو أثر عن رسول الله ﷺ.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله عز وجل: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ (٦٨٩) جعل نزول الماء فيها بمنزلة البلع، ومعناه ابلعي الماء الذي عليك، فروى الحسن والحسين عليهما السلام أن بعض البقاع امتنع أن يبلع ماءه فصار ماؤه مرأ وترا به سبخا.

﴿ويا سماء أقلعي﴾ أي لا تمطري، من قولهم أقلع عن الشيء إذا تركه.

﴿وغيض الماء﴾ أي نقص حتى ذهبت زيادته عن الأرض.

﴿وقضي الأمر﴾ يعني بهلاك من غرق من قوم نوح. (٥٩٠).

﴿واستوت﴾ يعني السفينة.

﴿على الجودي﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه جبل بالموصل، قاله الضحاك.

الثاني: أنه جبل بالجزيرة، قاله مجاهد. قال قتادة: هو بباقردي من أرض الجزيرة.

الثالث: أن الجودي اسم لكل جبل، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل (٥٩١).

سبحانه ثم سبحاناً يعود له وقبلنا سبح الجودي والجمد

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ

الْحَكِيمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا

(٦٨٩) قال العلامة الألوسي رحمه الله (٦٣/١٢) «اعلم أن هذه الآيات الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها واستدلّت مصاقع العرب فسفت بنواصيها وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان وكانت من سهري البلاغة مكان البستان اهد ثم شرع رحمه الله في بيان أوجه البلاغة قرابة ثلاث صفحات فراجعها.

(٥٩٠) فائدة: قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله في زاد المسير (١١٣/٤).

فإن قيل: ما ذنب من أغرق من البهائم والأطفال؟

فالجواب: إن أجالهم حضرت فأमितوا بالفرق قاله الضحاك وابن جريج.

(٥٩١) ذكره أيضاً في فتح القدير (٥٠٠/٢).

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾

قوله عز وجل: ﴿ونادى نوحٌ ربه فقال رَبِّ إِنَّ ابني من أهلي﴾ وإنما قال ﴿من أهلي﴾ لأن الله تعالى وعده أن ينجي أهله معه.

﴿وإن وعدك الحق﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: الذي يحق فلا يخلف.

الثاني: الذي يلزم كلزوم الحق.

﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ يعني بالحق. فاحتمل هذا من نوح أحد أمرين: إما أن يكون قبل علمه بغرق ابنه فسأل الله تعالى له النجاة، وإما أن يكون بعد (٥٩٢) علمه بغرقه فسأل الله تعالى له الرحمة.

قوله عز وجل: ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ فيه ثلاثة أقاويل: (٥٩٣)

أحدها: أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه وكان لغير رشدة، قاله الحسن ومجاهد.

الثاني: أنه ابن امرأته.

الثالث: أنه كان ابنه، قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبيرة والضحاك. قال

ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط (٥٩٤).

(٥٩٢) وهو قول الواحدي أيضاً قال العلامة الألوسي (٧١/١٢) «وزعم الواحدي أن السؤال قبل الغرق ومع العلم بكفره وذلك أن نوحاً عليه السلام لم يعلم أن سؤاله ربه نجاة ولده محظور عليه مع إصراره على الكفر حتى أعلمه الله تعالى ذلك واعترض بأنه إذا كان عالماً بكفره مع التصريح بأنه في أهله من يستحق العذاب كان طلب النجاة منكراً من المنكرات فتدبر اهـ.

(٥٩٣) أي لغير نكاح صحيح وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله (٤٤٨/٢) «وقد نص غير واحد من الأئمة على تحققة من ذهب إلى تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية ويحكي القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبي جعفر الباقر وابن جريج.

(٥٩٤) قال الحافظ ابن كثير (٤٤٩/٢) «وكذا روي عن مجاهد أيضاً وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج وهو اختيار أبي جعفر الطبري وهو الصواب الذي لا شك فيه اهـ. قلت وإليه ذهب عدد كبير من المفسرين.

وقيل إن اسمه كان كنعان، وقيل بل كان اسمه يام.

قال الحسن: وكان منافقاً ولذلك استعجل نوح أن يناديه فعلى هذا يكون في تأويل قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وجهان:

أحدهما: ليس من أهل دينك وولايتك، وهو قول الجمهور.

الثاني: ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك، قاله سعيد بن جبير.

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: أن مسألتك إياي أن أنجيه عمل غير صالح، قاله قتادة وإبراهيم وهو تأويل من قرأ عمل غير صالح بالتنوين.

والثاني: معناه أن ابنك الذي سألتني أن أنجيه هو عمل غير صالح، أي أنه لغير رشفة، قاله الحسن (٥٩٠).

والثالث: أنه عمل غير صالح، قاله ابن عباس، وهو تأويل من لم ينون.

﴿فَلَا تَسْأَلُنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: فيما نسبته إلى نفسك وليس منك.

الثاني: في دخوله في جملة من وعدتك بإنجائهم من أهلك وليس منهم.

﴿إِنِّي أَعْظُكُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: من الجاهلين بنسبك.

الثاني: من الجاهلين بوعدتي لك.

وفي قوله ﴿إِنِّي أَعْظُكُ﴾ تأويلان:

أحدهما: معناه إنني رافعك أن تكون من الجاهلين.

الثاني: معناه أي أحذرك ومنه قوله تعالى ﴿يَعْظُمُكَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أي يحذركم.

قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَسِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ

لِّلْمُنَاقِبِ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

قوله عز وجل: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه المطر في إبانته، قاله هارون التيمي (٥٩٦).

الثاني: المطر المتتابع، قاله ابن عباس.

ويحتمل وجهين آخرين:

أحدهما: يُدرُّه عند الحاجة.

والثاني: يُدرُّ به البركة، وهو مأخوذ من درور اللبن من الضرع.

﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: يعني شدة إلى شدتكم، قاله مجاهد.

الثاني: خصباً إلى خصبكم، قاله الضحاك.

الثالث: عزاً إلى عزكم بكثرة عددكم وأموالكم، قاله علي بن عيسى.

الرابع: أنه ولد الولد، قاله عكرمة.

ويحتمل خامساً: يزدكم قوة في إيمانكم إلى قوتكم في أبدانكم.

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِّن دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ

(٥٩٦) وقول هارون التيمي رواه أبو الشيخ كما في الدر (٤/٤٤٣) ونصه قال في قوله ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ قال يدر ذلك عليهم مطراً ومطراً... وإذا كان ذلك كذلك فلا فرق بين تفسير ابن عباس وهارون التيمي.

﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْخَلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

قوله عز وجل: ﴿...﴾ إن ربي على صراط مستقيم ﴿...﴾ فيه وجهان: أحدهما: على الحق، قاله مجاهد.

الثاني: على تدبير محكم، قاله علي بن عيسى.

ويحتمل ثالثاً: أنه على طريق الآخرة في مصيركم إليه للجزاء وفصل القضاء (٥٩٧).

﴿وَالْإِلَهِ تَعَالَى﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾

قوله عز وجل: ﴿...﴾ هو أنشأكم من الأرض ﴿...﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: خلقكم من الأرض لأنكم من آدم وآدم من الأرض، قاله السدي.

والثاني: معناه أنشأكم في الأرض.

والثالث: أنشأكم بنبات الأرض (٥٩٨).

(٥٩٧) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (٢/٤٥٠) وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر ولا توالى ولا تعادى وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له الذي بيده الملك والتصرف وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا إله الا هو ولا رب سواه.

(٥٩٨) كما قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

﴿واستعمركم فيها﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه أعماركم فيها بأن جعلكم فيها مدة أعماركم ، قاله مجاهد ، من قولهم أعمار فلان فلاناً داره فهي له عمري (٥٩٩).

الثاني : أعماركم بعمارة ما تحتاجون (٦٠٠) إليه فيها من بناء مساكن وغرس أشجار ، قاله علي بن عيسى .

الثالث : أطال فيها أعماركم ، قال الضحاك ، كانت أعماركم ألف سنة إلى ثلاثمائة سنة .

قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَنْقُومِ آرَاءُ يَتَمَرِّنَ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

قوله عز وجل ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي مؤملاً برجاء خيرك .

الثاني : أي حقيراً من الإرجاء وهو التأخير ، فيكون على الوجه الأول عتباً ، وعلى الثاني زجراً .

قوله عز وجل : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : على حق بين .

الثاني : على حجة ظاهرة . وقال الكلبي على دين من ربي .

﴿وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ قال ابن جرير الطبري (٦٠١) يعني النبوة والحكمة .

(٥٩٩) بضم فسكون مقصور وهي كما قال الراغب الأصفهاني في العطفية أن تجعل له شيئاً مدة عمرك أو عمره نقله في روح المعاني (٨٨/١٢) .

(٦٠٠) قال العلامة الألوسي رحمه الله (٨٨/١٢) واستدل بالآية على أن عمارة الأرض واجبة لهذا الطلب . وقسمها في الكشف الى واجب كعمارة القناطر اللازمة والمسجد الجامع ومندوب كعمارة المساجد ومباح كعمارة المنازل وحرام كعمارة الحانات وما يبتنى للمباهة أو من مال حرام كأبنية كثير من الظلمة . (٦٠١) جامع البيان (٣٧٠/١٥) .

﴿فمن ينصرنى من الله إن عصيته﴾ أي فمن يدفع عني عذاب الله إن عصيته بطاعتكم .

﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني ما تزيدونني في احتجاجكم باتباع آبائكم إلا خساراً تخسرونه أنتم ، قاله مجاهد .

الثاني : فما تزيدونني مع الرد والتكذيب إن أجبتكم إلى ما سألتكم إلا خساراً لاستبدال الثواب بالعقاب .

وَيَقَوْمٌ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْهَا إِلَّا إِنَّا ثَمُودَ أَكْفَرُوا بِرَبِّهِمْ فَلَا يُبْعَثُونَ ﴿٦٨﴾

قوله عز وجل : ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن جبريل عليه السلام صاح بهم .

الثاني : أن الله تعالى أحدثها في حيوان صاح بهم .

الثالث : أن الله تعالى أحدثها من غير حيوان .

﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ لأن الصيحة أخذتهم ليلاً فأصبحوا منها هلكى .

﴿في ديارهم﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في منازلهم وبلادهم ، من قولهم هذه ديار بكر وديار ربيعة .

الثاني : في دار الدنيا لأنها دار لجميع الخلق .

وفي ﴿جاثمين﴾ وجهان :

أحدهما : مبيتين ، لأن الصيحة كانت بيتاً في الليل ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

الثاني : هلكى بالجنوم .

وفي الجنوم تأويلان :

أحدهما : أنه السقوط على الوجه .

الثاني : أنه القعود على الركب .

قوله عز وجل : ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كأن لم يعيشوا فيها .

الثاني : كأن لم ينعموا فيها .

﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كذبوا وعيد ربهم .

الثاني : كفروا بأمر ربهم .

﴿أَلَا بُعْدًا لَثَمُودَ﴾ فقصى عليهم بعذاب الاستئصال فهلكوا جميعاً إلا رجلاً

منهم وهو أبو رمحان (٦٠٢) كان في حرم الله تعالى فمنعه الحرم من عذاب الله تعالى (٦٠٣) .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ
بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّارَةً أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا
بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوْنِلَيْكَ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا
بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ
وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾

قوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ . أما إبراهيم ففيه

وجهان :

أحدهما : أنه اسم أعجمي ، قاله الأكثرون . وقيل معناه أب رحيم .

(٦٠٢) كذا في المطبوعة وهو خطأ والصواب أبو رغال والتصويب من الطبري (٣٨٠/١٥) .

(٦٠٣) وقد تقدم في سورة الأعراف نبأ هلاكهم وكيف حل عليهم غضب الله عز وجل .

الثاني : أنه عربي مشتق من البرهمة وهي إدامة النظر.
والرسل جبريل ومعه ملكان قيل إنهما ميكائيل وإسرافيل عليهم السلام وروى
أبو صالح عن ابن عباس أنه كان المرسل مع جبريل اثني عشر ملكاً.
وفي البشري التي جاءوه بها أربعة أقاويل :
أحدها : بشروه بنبوته ، قاله عكرمة .
الثاني : بإسحاق (٦٠٤) ، قاله الحسن .
الثالث : بشروه بإخراج محمد ﷺ من صلبه وأنه خاتم الأنبياء .
الرابع : بشروه بهلاك قوم لوط ، قاله قتادة .
﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ فيه وجهان :
أحدهما : تحية من الملائكة لإبراهيم عليه السلام فحياهم بمثله فدل على أن
السلام تحية الملائكة والمسلمين جميعاً .
الثاني : سلمت أنت وأهلك من هلاك قوم لوط .
وقوله ﴿سلام﴾ أي الحمد لله الذي سلمني ، فمعنى سلام : سلمت .
وقرأ (٦٠٥) حمزة والكسائي ﴿سِلْم﴾ بكسر السين وإسقاط الألف .
واختلف في السلم والسلام على وجهين :
أحدهما : أن السلم من المسالمة والسلام من السلامة .
الثاني : أنهما بمعنى واحد ، قال الشاعر ، وقد أنشده الفراء لبعض العرب (٦٠٦) :
وقفنا فقلنا إيه سِلْم فسَلِّمَتْ كما اکتَلَّ بالبرقِ الغمامُ اللوائِحُ
﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيد﴾ ظنَّ رُسُلَ ربه أضيافاً لأنهم جاؤوه في صورة
الناس فعجل لهم الضيافة فجاءهم بعجل حنيد .
وفي الحنيد قولان :

(٦٠٤) وهذا القول أول الأقوال لدلالة سياق الآية عليه لأن الله تعالى قال في سورة الصفات ﴿وبشروه بغلام
حليم﴾ راجع فتح القدير (٥٩/٢) وروح المعاني (٩٣/١٢) .
(٦٠٥) راجع المبسوط في القراءات ص ٢٤١ وزاد المسير لابن الجوزي (١٢٧/٤) .
(٦٠٦) وفي نسخه أخرى للمخطوطة نسب البيت لأبي الرمة غيلان بن عقبة . والبيت في اللسان (كلل) والطبري
(٣٨٢/١٥) وحاشية الكشف (٢٢٤/٢) وأول البيت في هذه المصادر «مررنا فقلنا» وأما ما ذكره
المؤلف هنا فلعله رواية أخرى للبيت .

أحدهما: أنه الحار، حكاه أبان بن تغلب عن علقمة النحوي.

الثاني: هو المشوي نضيجاً وهو المحنوذ مثل طبيخ ومطبوخ وفيه قولان:

أحدهما: هو الذي حُفر له في الأرض ثم غُمَّ فيها، قال الشاعر:

إذا ما اعتبطنا اللحم للطالب القِرَى حنذناه حتى عَيْن اللحم آكله

الثاني: هو أن يوقد على الحجارة فإذا اشتد حرها أُلقيت في جوفه ليسرع

نضجه، قال طرفة بن العبد:

لهم راحٌ وكافور ومسكٌ وعقر الوحش شائلة حنوذ

قوله عز وجل: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ في نكرهم وأنكرهم

وجهان:

أحدهما: أن معناهما مختلف، فنكرهم إذا لم يعرفهم وأنكرهم إذا وجدهم

على منكر.

الثاني: أنهما بمعنى واحد، قال الأعشى (٦٠٧):

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعَا

واختلف في سبب إنكاره لهم على قولين:

أحدهما: أنهم لم يطعموا، ومن شأن العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من

طعامهم ظنوا به سوءاً وخافوا منه شراً، فنكرهم إبراهيم لذلك، قاله قتادة.

والثاني: لأنه لم تكن لهم أيدي فنكرهم، قاله يزيد بن أبي حبيب.

وامتنعوا من طعامه لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أضمر في نفسه خوفاً منهم.

والثاني: أحسَّ من نفسه تخوفاً منهم، كما قال يزيد بن معاوية (٦٠٨).

جاء البريد بقرطاس يُخَبُّ به فأوجس القلبُ من قرطاسه جزعاً

﴿قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ يعني بهلاكهم.

(٦٠٧) مجاز القرآن (٢٩٣/١) وشواهد الكشف (١٦٩) واللسان «نكر» والطبري (٣٨٨/١٥) والتاج «نكر»

ديوانه: ١٠٤.

(٦٠٨) وفي فتح القدير للشوكاني (٥١٠/٢) «جاء البريد بقرطاس يحث به»..

وفي إعلامهم إبراهيم بذلك وجهان :
أحدهما : ليزول خوفه منهم .
والثاني : لأن إبراهيم قد كان يأتي قوم لوط فيقول : ويحكم أينهاكم عن الله أن
تتعرضوا لعقوبته فلا يطيعونه .

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ وفي قيامها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها كانت قائمة من وراء الستر تسمع كلامهم ، قاله وهب .

الثاني : أنها كانت قائمة تخدمهم ، قاله مجاهد .

الثالث : أنها كانت قائمة تُصَلِّي ، قاله محمد بن إسحاق .

﴿فَضَحِكَتْ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني حاضت ، قاله مجاهد والعرب تقول ضحكت المرأة إذا حاضت ،
والضحك الحيض في كلامهم ، قال الشاعر (٦٠٩) :

وضحك الأرانب فوق الصفا كمثل دم الخوف يوم اللقا

والثاني : أن معنى ضحكت : تعجبت ، وقد يسمى التعجب ضحكاً لحدوث
الضحك عنه ، ومنه قول أبي ذؤيب (٦١٠) :

فجاء بمزج لم ير الناس مثله هو الضحك إلا أنه عمل النحل

الثالث : أنه الضحك المعروف في الوجه ، وهو قول الجمهور .

فإن حمل تأويله على الحيض ففي سبب حيضها وجهان :

أحدهما : أنه وافق وقت عادتها فخافت ظهور دمها وأرادت شدة فتحيرت مع
حضور الرسل .

والقول الثاني : ذعرت وخافت فتعجل حيضها قبل وقته ، وقد تغير عادة الحيض
باختلاف الأحوال وتغير الطباع .

ويحتمل قولاً ثالثاً : أن يكون الحيض بشيراً بالولادة لأن من لم تحض لا تلد .

وإن حمل تأويله على التعجب ففيما تعجبت منه أربعة أقاويل :

(٦٠٩) اللسان ضحك والطبري (٣٩٣/١٥) وفتح القدير للشوكاني (٥١٠/٢) .

(٦١٠) ديوانه (٤٢/١) واللسان (ضحك) والطبري (٣٩٣/١٥) .

أحدها: أنها تعجبت من أنها وزوجها يخدمان الأضياف تكريمة لهم وهم لا يأكلون، قاله السدي.

الثاني: تعجبت من أن قوم لوط قد آتاهم العذاب وهم^(٦١١) غافلون، قاله قتادة.

الثالث: أنها تعجبت من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها، قاله وهب بن منبه.

الرابع: أنها تعجبت من إحياء العجل الحنيد لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار، قاله عون بن أبي شداد.

وإن حمل تأويله على ضحك الوجه ففيما ضحكت منه أربعة أقاويل:

أحدها: ضحكت سروراً بالسلامة.

الثاني: سروراً بالولد.

الثالث: لما رأت ما بزوجها من الورع، قاله الكلبي.

الرابع: أنها ضحكت ظناً بأن الرسل يعملون عمل قوم لوط^(٦١٢)، قاله محمد بن عيسى.

﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ وفي ﴿وراء﴾ ها هنا قولان:

أحدهما: أن الورا ولد الولد، قاله ابن عباس والشعبي.

الثاني: أنه بمعنى بعد، قاله مقاتل، وقال النابغة الذبياني^(٦١٣):

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهبٌ

فجعلوا لها البشرى بالولدين مظهرة للنعمة ومبالغة في التعجب، فاحتمل أن

يكون البشارة بهما باسميهما فيكون الله تعالى هو المسمى لهما، واحتمل أن تكون

البشارة بهما وسماها أبوهما.

فإن قيل: فلم خصت سارة بالبشرى من دون إبراهيم؟ قيل عن هذا ثلاثة

أجوبة:

أحدها: أنها لما اختصت بالضحك خصت بالبشرى.

(٦١١) ورجحه الطبري (٣٩٤/١٥).

(٦١٢) وابن الدليل على ما قاله محمد هنا.

(٦١٣) ديوانه: ٧٢.

الثاني: أنهم كافأوها بالبشرى مقابلة على استعظام خدمتها.

الثالث: لأن النساء في البشرى بالولد أعظم سروراً وأكثر فرحاً.

قال ابن عباس: سمي إسحاق لأن سارة سحقت بالضحك حين بشرت به.

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ لم تقصد بقولها يا ويلتا الدعاء على نفسها بالويل ولكنها كلمة تخفُّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه، وعجبت من ولادتها وهي عجوز وكون بعلمها شيخاً لخروجه عن العادة، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر.

واختلف في سنّها وسن إبراهيم حينئذ، فقال مجاهد: كان لسارة تسع وتسعون سنة وكان لإبراهيم مائة سنة.

وقال محمد بن إسحاق: كانت سارة بنت تسعين سنة وكان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة.

وقال قتادة: كان كل واحد منهما ابن تسعين سنة.

وقيل انها عرّضت بقولها ﴿وهذا بعلي شيخاً﴾ عن ترك غشيانه لها. والبعل هو الزوج في هذا الموضع، ومنه قوله تعالى ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾. [البقرة: ٢٢٨]

والبعل: المعبود، ومنه قوله تعالى ﴿أتدعون بدلاً﴾ [الصافات: ١٢٥] أي إليها معبوداً.

والبعل السيد، ومنه قول لبيد:

حاسري الديباج عن أذرعهم
عند بعل حازم الرأي بطل
فسمي الزوج بعلًا لتطاوله على الزوجة كتطاول السيد على المسود.

﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ أي منكر، ومنه قوله تعالى ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ [ق: ٢] أي أنكروا. ولم يكن ذلك منها تكذيباً ولكن استغراباً له.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُ فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ
عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

قوله عز وجل: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ يعني الفزع، والروع بضم الراء النفس، ومنه قولهم ألقى في روعي أي في نفسي .
﴿وجاءته البشري﴾ أي بإسحاق ويعقوب .
﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه جادل الملائكة بقوله ﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لتنجينه وأهله﴾ [العنكبوت : ٣٢] قاله الحسن .

الثاني : أنه سألهم أتعذبونهم إن كان فيها خمسون من المؤمنين؟ قالوا: لا، قال : فإن كان فيها أربعون؟ قالوا: لا، إلى أن أنزلهم إلى عشرة، فقالوا لا، قاله قتادة .
الثالث : أنه سألهم عن عذابهم هل هو عذاب الاستئصال فيقع بهم لا محالة على سبيل التخويف ليؤمنوا، فكان هذا هو جداله لهم وإن كان سؤالاً لأنه خرج مخرج الكشف عن أمر غامض .

قال أبو مالك : ولم يؤمن بلوط إلا ابتاه رقية وهي الكبرى وعروبة وهي الصغرى .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾

قوله عز وجل: ﴿ولما جاءت رُسُلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ قال ابن عباس : ساء ظنه بقومه وضاق ذرعاً بأضيافه .

ويحتمل وجهاً آخر أنه ساء ظنه برسلى ربه، وضاق ذرعاً بخلاص نفسه لأنه نكرهم قبل معرفتهم .

﴿وقال هذا يومٌ عصيب﴾ أي شديد لأنه خاف على الرسل من قومه أن يفضحوهم على قول ابن عباس . وعلى الاحتمال الذي ذكرته خافهم على نفسه فوصف يومه بالعصيب وهو الشديد، قال الشاعر^(٦١٤) :

(٦١٤) مجاز القرآن (١/ ٢٩٤) والطبري (١٥/ ٤١٠) .

وإنك إلا ترض بكر بن وائل يكن لك يومً بالعراق عصيب
قال أبو عبيدة: وإنما قيل له عصيب لأنه يعصب الناس بالشر، قال الكلبي:
كان بين قرية إبراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ.

قوله عز وجل: ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ أي يسرعون، والإهرع بين الهرولة
والحجزي. قال الكسائي والفراء: لا يكون الإهرع إلا سراعاً مع رعدة.

وكان سبب إسراعهم إليه أن امرأة لوط أعلمتهم بأضيافه وجمالهم فأسرعوا
إليهم طلباً للفاحشة منهم.

﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ فيه وجهان:

أحدهما: من قبل إسراعهم اليه كانوا ينكحون الذكور، قاله السدي.

الثاني: أنه كانت اللوطية في قوم لوط في النساء قبل الرجال بأربعين سنة، قاله
عمر بن أبي زائدة.

﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم﴾ قال لهم لوط ذلك ليفتدي أضيافه
منهم.

﴿هؤلاء بناتي﴾ فيهن قولان:

أحدهما: أنه أراد نساء أمته ولم يرد بنات نفسه. قال مجاهد وكل نبي أبو أمته
وهم أولاده. وقال سعيد بن جبير: كان في بعض القرآن: النبي أولى بالمؤمنين من
أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم.

الثاني: أنه أراد بنات نفسه وأولاد صلبه لأن أمره فيهن أنفذ من أمره في
غيرهن، وهو معنى قول حذيفة بن اليمان.

فإن قيل: كيف يزوجهم ببناته مع كفر قومه وإيمان بناته؟

قيل عن هذا ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه كان في شريعة لوط يجوز تزويج الكافر بالمؤمنة، وكان هذا في
صدر الإسلام جائزاً حتى نسخ، قاله الحسن.

الثاني: أنه يزوجهم على شرط الإيمان كما هو مشروط بعقد النكاح.

الثالث: أنه قال ذلك ترغيباً في الحلال وتنبيهاً على المباح ودفعاً للبادرة من غير
بذل نكاحهن ولا تعريض بخطبتن، قاله ابن أبي نجيح.

﴿هن أظهر لكم﴾ أي أحل لكم بالنكاح الصحيح .

﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا تذلوني بعار الفضيحة ، ويكون الخزي بمعنى الذل .

الثاني : لا تهلكوني بعواقب فسادكم ، ويكون الخزي بمعنى الهلاك .

الثالث : أن معنى الخزي ها هنا الاستحياء ، يقال خزي الرجل إذا استحي ،

قال الشاعر^(٦١٥) :

من البيض لا تخزي إذا الريح ألصقت بها مِرطها أو زایل الحلبي جيدها

والضيف : الزائر المسترقذ ، ينطلق على الواحد والجماعة ، قال الشاعر^(٦١٦) :

لا تعدمي الدهر شفار الجازر للضيف والضيف أحق زائر

﴿أليس منكم رجلٌ رشيدٌ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي مؤمن ، قاله ابن عباس .

الثاني : آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر ، قاله أبو مالك .

ويعني : رجل رشيد ليدفع عن أضيافه ، وقال ذلك تعجباً من اجتماعهم على

المنكر .

قوله عز وجل : ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما لنا فيهن حاجة ، قاله الكلبي .

الثاني : (٦١٧) ليس لنا بأزواج ، قاله محمد بن إسحق .

﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تعلم أننا لا نتزوج إلا بامرأة واحدة وليس منا رجل إلا له امرأة ، قاله

الكلبي .

الثاني : أننا نريد الرجال .

(٦١٥) انظر زاد المسير (٤/١٣٨) .

(٦١٦) انظر فتح القدير (٢/٥١٤) .

(٦١٧) كذا وفي المطبوعة والصواب لست لنا بأزواج والتصحيح من زاد المسير (٤/١٣٩) حيث نقل هذا القول بتمامه وزاد نسبته لابن قتيبة ولا يفوتن الى اثنين الى أن محقق المطبوعة قد نبه على ذلك فجراه الله خيراً .

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسِّلَ لَكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدًا إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِن مَّوْعَدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ يعني أنصاراً. وقال ابن عباس: أراد الولد.

﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يعني إلى عشيرة مانعة. وروى أبو سلمة عن أبي هريرة (٦١٨) أن رسول الله ﷺ قال «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد». يعني الله تعالى قال رسول الله ﷺ: «فما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه». قال وهب بن منبه: لقد وجدت الرسل على لوط وقالوا: إن ركنك لشديد. قوله عز وجل: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسِّلَ لَكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ وفي اسمه وجهان:

أحدهما: أنه اسم أعجمي وهو قول الأكثرين. الثاني: أنه اسم عربي مأخوذ من قولهم: لَطُتُ الحوض إذا ملسته بالطين. وقيل إن لوطاً كان قائماً على بابهِ يمنع قومه من أضيافه، فلما أعلموه أنهم رسل ربه مكّن قومه من الدخول فطمس جبريل عليه السلام على أعينهم فعميت، وعلى أيديهم فجفت.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي فسرّ بأهلك ليلاً، والسرى سیر الليل، قال عبد الله بن رواحة:

عند الصباح يحمد القوم السرى وتنجلي عنهم غيابات الكرى
يقال وأسرى وفيهما وجهان:

أحدهما: أن معناهما في سير الليل واحد.

الثاني: أن معناهما مختلف، فأسرى إذا سار من أول الليل، وسرى إذا سار في آخره، ولا يقال في النهار إلا سار، قال لبيد:

(٦١٨) رواه الطبري (٤١٦/١٥ - ٤٢٠) واللفظ له والترمذي (١٣٩/٢) وحسنه والحاكم (٥٦١/٢) وصححه على شرط مسلم ورواه البخاري (٢٩٧/٦) إلا قوله «وما بعث الله نبياً... الخ».

إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه قضي عملاً، والمرء ما عاش عاملاً
﴿يقطع من الليل﴾ فيه أربعة تأويلات:
أحدها: معناه سواد الليل، قاله قتادة.

الثاني: أنه نصف الليل مأخوذ من قطعه نصفين، ومنه قول الشاعر (٦١٩):
ونائحة تنوح بقطع ليل على رجلٍ بقارعة الصَّعيد
الثالث: أنه الفجر الأول، قاله حميد بن زياد.
الرابع: أنه قطعة من الليل، قاله ابن عباس.
﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ فيه ثلاثة تأويلات:
أحدها: لا ينظر وراءه منكم أحد، قاله مجاهد.
الثاني: يعني لا يتخلف منكم أحد، قاله ابن عباس:
الثالث: يعني لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو امتناع، حكاه علي بن عيسى.

﴿إلا امرأتك إنّه مصيبها ما أصابهم﴾ فيه وجهان:
أحدهما: أن قوله ﴿إلا امرأتك﴾ استثناء من قوله ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل
إلا امرأتك﴾ وهذا قول من قرأ ﴿إلا امرأتك﴾ بالنصب.
الثاني: أنه استثناء من قوله ﴿ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾ وهو على معنى
البدل إذا قرئ (٦٢٠) بالرفع.

﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ فذكر قتادة أنها خرجت مع لوط من القرية فسمعت
الصوت فالتفت، فأرسل الله عليها حجراً فأهلكها.

﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ فروى (٦٢١) عن النبي ﷺ أنه قال «إن
لوطاً لما علم أنهم رسل ربه قال: فالآن إذن فقال له جبريل عليه السلام ﴿إن
موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ ويجوز أن يكون قد جعل الصبح ميقاتاً

(٦١٩) هو مالك بن كنانة والبيت أورده صاحب روح المعاني (١٠٩/١٢) والشطر الثاني فيه على رجل أهانته شعوب.

(٦٢٠) وهي قراءة ابن كثير وابن عمرو المبسوط ص ٢٤١.

(٦٢١) وقد رواه الطبري (٤٢٥/١٥، ٤٢٦) عن حذيفة موقوفاً مطولاً وينحوه رواه (٤٢٤/١٥) عن سعيد بن جبير وتصدير المؤلف للخبر بروي يشعر بضعفه والله أعلم.

لهلاكهم لأن النفوس فيه أودع والناس فيه أجمع .

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ
مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه أمر الله تعالى للملائكة .

الثاني: أنه وقوع العذاب بهم .

الثالث: أنه القضاء بعذابهم .

﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ قال محمد بن كعب القرظي إن الله تعالى بعث جبريل إلى مؤتفكات قوم لوط فاحتملها بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل السماء يسمعون نباح كلابهم وأصوات دجاجهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها وأتبعها بحجارة من سجيل حتى أهلكها وما حولها، وكن خمساً: صبغة ومقرة وعمرة ودوما وسدوم وهي القرية العظمى (٨٢٢).

وقال قتادة: كانوا في ثلاث قرى يقال لها سدوم بين المدينة والشام وكان فيها أربعة آلاف ألف (٦٢٣).

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ فيه ثمانية تأويلات:

أحدها: أنه فارسي معرب وهو «سك وكيل» فالسك: الحجر، والكيل الطين،

قاله ابن عباس .

الثاني: أنه طين قد طبخ حتى صار كالأرحاء، ذكره ابن عيسى .

الثالث: أنه الحجارة الصلبة الشديدة، قاله أبو عبيدة وأنشد قول ابن مقبل (٦٢٤):

(٨٢٢) قال الشوكاني في فتح القدير (٥١٧/٢) وقد ذكر المفسرون روايات وقصصاً في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة وليس في ذكرها فائدة لا سيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل ولا يتيسر له في مثله إسناد صحيح وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب وحالهم في الرواية معروف وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم... اهـ.

(٦٢٣) وقيل في كل قرية مائة ألف وهو قول قتادة أيضاً وقد حدث اختلاف كبير في أسماء القرى الخمس راجع الطبري (٤٢٦/١٥).

(٦٢٤) مجاز القرآن (٢٩٦/١) والطبري (٤٣٤/١٥) واللسان «سجن» وجمهرة أشعار العرب ١٦٢، منتهى الطلب ٤٤ والمعاني الكبير، واللسان «سجيل» وروى الشطر الثاني ضرباً تواصل به الأبطال سجلاً.

ورحلة يضربون البيض عن عَرَضٍ ضرباً توأسى به الأبطال سَجِيناً
إلا أن النون قلبت لاماً.

الرابع: من سجيل يعني من سماء اسمها سجيل، قاله ابن زيد (٦٢٥).

الخامس: من سجيل من جهنم واسمها سجين فقلب النون لاماً.

السادس: أن السجيل من السجل وهو الكتاب وتقديره من مكتوب الحجارة التي كتب الله تعالى أن يعذب بها أو كتب عليها، وفي التنزيل ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينَ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٧ - ٩].

السابع: أنه فعيل من السجل وهو الإرسال، يقال أسجلته أي أرسلته، ومنه سمي الدلو سجلاً لإرساله فكان السجيل هو المرسل عليهم.

الثامن: أنه مأخوذ من السجل الذي هو العطاء، يقال سجلت له سجلاً من العطاء، فكأنه قال سُجلوا البلاء أي أعطوه.

﴿منضود﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: قد نُضِدَ بعضه على بعض، قاله الربيع.

الثاني: مصفوف، قاله قتادة.

قوله عز وجل: ﴿مَسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ والمسومة: المعلمة، مأخوذ من السيماء

وهي العلامة، قال الشاعر (٦٢٦):

غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ يَافِعَا لَهُ سِمْيَاءٌ لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصَرِ
وفي علامتها قولان:

أحدهما: أنها كانت مختمة، على كل حجر منها اسم صاحبه.

الثاني: معلمة ببياض في حمرة، على قول ابن عباس، وقال قتادة: مطوقة

بسواد في حمرة.

﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فيه وجهان:

(٦٢٥) وقد تعقب هذا القول والذي يليه أبو حيان كما نقله عنه الألوسي في روح المعاني (١٢/١١٣) قال: قال

أبو حيان: وهو ضعيف لوصفه بقوله سبحانه منضود أي نضد ووضع بعضه على بعض معداً لعذابهم أو

نضد في الإرسال يرسل بعضه إثر بعض كقطار الأمطار ولا يخفى أن هذه المعاني كما تأبى ما قال أبو

العالية وابن زيد تأبى بحسب الظاهر ما قيل إن المراد بها جهنم.

(٦٢٦) هو أسيد بن عناق الفزاري والبيت في اللسان «سام».

أحدهما: في علم ربك، قاله ابن بحر.
 الثاني: في خزائن ربك لا يملكها غيره ولا يتصرف فيها أحد إلا بأمره.
 ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ فيه أربعة أوجه:
 أحدها: أنه ذكر ذلك وعيداً للظالمي قريش، قاله مجاهد.
 الثاني: وعيد للظالمي العرب، قاله عكرمة.
 الثالث: وعيد للظالمي هذه الأمة، قاله قتادة.
 الرابع: وعيد لكل ظالم (٦٢٧)، قاله الربيع.
 وفي الحجارة التي أمطرت قولان:
 أحدهما: أنها أمطرت على المدن حين رفعها.
 الثاني: أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجاً عنها.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
 عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (٨٤)

قوله عز وجل: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ومدين هم قوم شعيب، وفي تسميتهم بذلك قولان:
 أحدهما: لأنهم بنو مدين بن إبراهيم، ف قيل مدين والمراد بنو مدين، كما يقال مضر والمراد بنو مضر.
 الثاني: أن مدين اسم مدينتهم فنسبوا إليها ثم اقتصر على اسم المدينة تخفيفاً.
 ثم فيه وجهان:
 أحدهما: أنه اسم أعجمي.
 الثاني: أنه اسم عربي وفي اشتقاقه وجهان:
 أحدهما: أنه من قولهم مدن بالمكان إذا أقام فيه، والياء زائدة، وهذا قول من زعم أنه اسم مدينة.

(٦٢٧) وفي الطبري (٤٣٩/١٥) أن هذا قول قتادة وكذا نسبه إليه ابن الجوزي في زاد المسير (١٤٦/٤).

الثاني : أنه مشتق من قولهم دَيَّنْتُ أي ملكت والميم زائدة، وهذا قول من زعم أنه اسم رجل .

وأما شعيب فتصغير شعب وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الطريق في الجبل .

الثاني : أنه القبيلة العظيمة .

الثالث : أنه مأخوذ من شَعْب الإناء المكسور .

﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطيف فأمرُوا بالإيمان إقلاعاً عن الشرك، وبالفاء نهياً عن التطيف .

﴿إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنه رخص السعر، قاله ابن عباس والحسن .

الثاني : أنه المال وزينة الدنيا، قاله قتادة وابن زيد .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً : أنه الخصب والكسب .

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : غلاء السعر، وهو مقتضى قول ابن عباس والحسن .

الثاني : عذاب الاستئصال في الدنيا .

الثالث : عذاب النار في الآخرة .

وَيَقُومُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

قوله عز وجل : ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيها ستة أقاويل :

أحدها : يعني طاعة الله تعالى خير لكم، قاله مجاهد .

الثاني : وصية من الله، قاله الربيع .

الثالث : رحمة الله، قاله ابن زيد .

الرابع : حظكم من ربكم خير لكم، قاله قتادة .

الخامس : رزق الله خير لكم، قاله ابن عباس .

السادس: ما أبقاء الله لكم بعد أن توفوا الناس حقوقهم بالمكيال والميزان خير لكم، قاله ابن جرير الطبري (٦٢٨).

﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: حفيظ من عذاب الله تعالى أن ينالكم.

الثاني: حفيظ لنعم الله تعالى أن تزول عنكم.

الثالث: حفيظ من البخس والتطفيف إن لم تطيعوا فيه ربكم.

قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا يَا شَعِيبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ في ﴿صلاتك﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: قراءتك، قاله الأعمش.

الثاني: صلاتك التي تصلّيها لله تعبدًا.

الثالث: دينك الذي تدين به وأمرت باتباعه لأن أصل الصلاة الاتباع، ومنه أخذ

المصلي في الخيل.

﴿تأمرُك﴾ فيه وجهان:

أحدهما: تدعوك إلى أمرنا.

الثاني: فيها أن تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا يعني من الأوثان والأصنام.

﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: ما كانوا عليه من البخس والتطفيف.

الثاني: الزكاة، كان يأمرهم بها فيمتنعون منها، قاله زيد بن أسلم وسفيان

الثوري.

الثالث: قطع الدراهم والدنانير لأنه كان ينهاهم عنه، قاله زيد بن أسلم.

﴿إنك لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم قالوا ذلك استهزاء به، قاله قتادة.

الثاني: معناه أنك لست بحليم ولا رشيد على وجه النفي، قاله ابن عباس.
الثالث: أنهم اعترفوا له بالحلم والرشد على وجه الحقيقة وقالوا أنت حليم رشيد فلم تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟ والحلم والرشد لا يقتضي منع المالك من فعل ما يشاء في ماله، قال ابن بحر.

قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ قد ذكرنا تأويله.
﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: أنه المال الحلال، قاله الضحاك.

قال ابن عباس وكان شعيب كثير المال.

الثاني: أنه النبوة، ذكره ابن عيسى، وفي الكلام محذوف وتقديره: أفأعدل مع ذلك عن عبادته.

ثم قال ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ أي لا أفعل ما نهيتكم عنه كما لا أترك ما أمرتكم به.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ومعناه ما أريد إلا فعل الإصلاح ما استطعت، لأن الاستطاعة من شرط الفعل دون الإرادة.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٦٢٩) فيه وجهان:

أحدهما: أن الإنابة الرجوع ومعناه وإليه أرجع، قاله مجاهد.

الثاني: أن الإنابة الدعاء، ومعناه وإليه أدعو، قاله عبيد الله بن يعلى.

(٦٢٩) فائدة: قال البيضاوي في أنوار التنزيل ص ٥١ إن لأجوبته عليه السلام الثلاثة يعني ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ الخ. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ﴾ الخ. ﴿وَأِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ الخ. هذا التسقشاً وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره ثلاثة حقوق أهمها وأعلها حق الله تعالى فإن الجواب الأول متضمن ببيان حق الله تعالى من شكر نعمته والاجتهاد في خدمته وثانيها حق النفس فإن الجواب الثاني قد ضمن ببيان حق نفسه في كفها عما ينبغي أن ينتهي عنه غيره وثالثها حق الناس فإن الجواب الثالث متضمن للإشارة إلى أن حق الغير عليه إصلاحه وإرشاده. . ونقله الألوسي في روح المعاني (١٢/١٢١).

وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرَمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ
 أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ
 تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

قوله عز وجل: ﴿ويا قوم لا يجرمكم شقائي﴾

في ﴿يجرمكم﴾ تأويلان:

أحدهما: معناه لا يحملنكم، قاله الحسن وقتادة.

والثاني: معناه لا يكسبنكم، قاله الزجاج.

وفي قوله ﴿شقائي﴾ ثلاثة تأويلات:

أحدها: إضراري، قاله الحسن.

الثاني: عداوتي، قاله السدي ومنه قول الأخطل (٦٣٠):

ألا من مبلغ قيساً رسولاً فكيف وجدتم طعم الشقاق
 الثالث: فراقى، قاله قتادة.

﴿أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح﴾ وهم أول أمة أهلكوا بالعذاب.

﴿أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني بعد الدار لقربهم منهم، قاله قتادة.

الثاني: بعد العهد لقرب الزمان.

ويحتمل أن يكون مراداً به قرب الدار وقرب العهد.

وقد أهلك قوم هود بالريح العاصف، وقوم صالح بالرجفة والصيحة، وقوم لوط

بالرجم.

قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ
 لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
 وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

(٦٣٠) وذكره الشوكاني في فتح القدير (٥٢٠/٢) والشرط الأول فيه ألا من مبلغ عني رسولاً.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ أي ما نفهم، ومنه سمي
عِلْم الدين فقهاً لأنه مفهوم، وفيه وجهان:

أحدهما: ما نفقه صحة ما تقول من البعث والجزاء.

الثاني: أنهم قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه واحتقاراً لكلامه.

﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾ فيه سبعة تأويلات:

أحدها: ضعيف البصر، قاله سفيان.

الثاني: ضعيف البدن، حكاه ابن عيسى.

الثالث: أعمى^(٦٣١)، قاله سعيد بن جبيرة وقتادة.

الرابع: قليل المعرفة وحيداً، قاله السدي.

الخامس: ذليلاً مهيناً، قاله الحسن.

السادس: قليل العقل.

السابع: قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها.

﴿ولولا رهطك﴾ فيه وجهان:

أحدهما: عشيرتك، وهو قول الجمهور.

الثاني: لولا شيعتك، حكاه النقاش.

﴿لرجمناك﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لقتلناك بالرجم.

الثاني: لشتمناك بالكلام، ومنه قول الجعدي^(٦٣٢).

(٦٣١) ولكن نقل الإمام الألوسي (١٢/١٢٣) عن بعض أهل العلم قوله «جوز بعض أصحابنا العمى على الأنبياء عليهم السلام لكن لا يحسن الحمل عليه هنا وأنت تعلم أن المصحح عند أهل السنة أن الأنبياء عليهم السلام ليس منهم أعمى وما حكاه الله تعالى عن يعقوب عليه السلام كان أمراً عارضاً وذهب أهـ والأخبار المروية عن ذكرنا في شعيب [أي من كونه ضعيف البصر وأعمى] لم نقف على تصحيح لها سوى ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما فإن الحاكم صحح بعض طرقه لكن تصحيح الحاكم كتضعيف ابن الجوزي غير معول عليه وربما يقال فيه ما قيل في يعقوب أهـ.

قلت: ومن هنا نعلم أن القول الأول والثاني متعقبان والقول الأول تفسيره بلغة اليمن الأعمى والصواب في قوله تعالى ﴿إنا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أي لا قوة لك ولا قدرة على شيء من الضر والنفع والإيقاع والدفع.

راجع فتح القدير (٢/٥٢٠) وروح المعاني (١٢/١٢٣) والكشاف (٢/٢٣٣).

(٦٣٢) فتح القدير (٢/٥٢٠).

تراجمنا بمُرَّ القول حتى نصير كأننا فرساً رهان
﴿وما أنت علينا بعزیز﴾ فيه وجهان:
أحدهما: بكريم.

الثاني: بمتنع لولا رهطك.
قوله عز وجل: ﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ أي تراعون رهطي فيّ
ولا تراعون الله فيّ (٦٣٣).

﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ فيه أربعة تأويلات:
أحدها: اطرحت أمره وراء ظهوركم لا تلتفتون إليه ولا تعملون به، قاله
السدي، ومنه قول الشاعر (٦٣٤):

... ..
وَجَدْنَا بَنِي الْبِرْصَاءِ مِنْ وَلَدِ الظَّهْرِ
أي ممن لا يلتفت إليهم ولا يعتد بهم.

الثاني: يعني أنكم حملتم أوزار مخالفته على ظهوركم، قاله السدي، من
قولهم حملت فلاناً على ظهري اذا أظهرت عناده.

الثالث: يعني أنكم جعلتم الله ظهرياً إن احتجتم استعنتم به، وإن اكتفيتم
تركتموه. كالذي يتخذ الجمال من جماله ظهرياً إن احتاج إليها حمل عليها وإن
استغنى عنها تركها، قاله عبد الرحمن بن زيد.

الرابع: إن الله تعالى جعلهم وراء ظهورهم ظهرياً، قاله مجاهد (٦٣٥).
﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

(٦٣٣) فائدة: قال الإمام الشوكاني رحمه الله في فتح القدير (٢/ ٥٢٠) «انما قال أعز عليكم ممن الله ولم يقل
أعز عليكم مني لأن نفي العزة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفي استهانة
به والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعز عليه من الله فاستنكر
ذلك عليهم وتعجب منهم وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام وفي هذا
من قوة المحاجة ووضوح المجادلة والقام الخصم الحجة ما لا يخفى ولأمر ما سمي شعيب خطيب الأنبياء
اهـ.

(٦٣٤) هو أوطاة بن سمية المري وما قاله هنا شطر من بيت صدره: فمن مبلغ أبناء مرة أننا

والبيت في مجاز القرآن (١/ ٢٩٨) واللسان ظهر والطبري (١٥/ ٤٥٩).

(٦٣٥) وقول مجاهد في الطبري (١٥/ ٤٦١). «تركتم ما جاء به شعيب وفي قول آخر نبذوا أمره وفي ثالث هم رهط
شعيب بتركهم ما جاء به وراء ظهورهم ظهرياً اهـ. ولا أدري هنا ما معنى القول الذي أورده المؤلف لمجاهد.

أحدهما : حفيظ .

الثاني : خبير .

الثالث : مُجَازٍ .

وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ۖ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ
ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَانُوا يَغْنَوْنَ فِيهَا الْأَبْعَدَا
لْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴿٩٥﴾

قوله عز وجل : ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ فيه وجهان :

أحدهما : على ناحيتكم ، قاله ابن عباس .

الثاني : على تمكنكم ، قاله ابن عيسى .

وقوله ﴿اعملوا﴾ يريد ما وعدوه من إهلاكه ، قال ذلك ثقة بربه .

ثم قال جواباً لهم فيه تهديد ووعيد ﴿إني عاملٌ سوف تعلمون﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تعلمون الإجابة .

الثاني : عامل في أمر من يأتي بهلاككم ليطهر الأرض منكم ، وسترون حلول

العذاب بكم .

﴿من يأتيه عذابٌ يخزيه﴾ قال عكرمة : الفرق .

وفي ﴿يخزيه﴾ . وجهان :

أحدهما : يذله .

الثاني : يفضحه .

﴿ومن هو كاذبٌ﴾ فيه مضمّر محذوف تقديره : ومن هو كاذبٌ يخزي بعذاب

الله ، فحذفه اكتفاءً بفحوى الكلام .

﴿وارتقبوا﴾ أي انتظروا العذاب .

﴿إني معكم رقيبٌ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : إني معكم شاهد .

الثاني : إني معكم كفيل .

وفيه وجه ثالث : إني منتظر، قاله الكلبي .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً
وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَبْئُسُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

قوله عز وجل : ﴿واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن اللعنة في الدنيا من المؤمنين وفي الآخرة من الملائكة .

الثاني : أنه عنى بلعنة الدنيا الغرق، وبلعنة الآخرة النار، قاله الكلبي ومقاتل .

﴿بئس الرفد المرفود﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بئس العون المعان، قاله أبو عبيدة .

الثاني : أن الرفد بفتح الراء : القدح، والرفد بكسرهما ما في القدح من

الشراب، حكى ذلك عن الأصمعي فكأنه ذم بذلك ما يسقونه في النار .

الثالث : أن الرفد الزيادة، ومعناه بئس ما يرفدون به بعد الغرق النار، قاله

الكلبي .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَنِيْبٌ ﴿١٠١﴾

قوله عز وجل : ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نخبرك .

الثاني : نتبع بعضه بعضاً .

﴿منها قائم وحصيد﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن القائم : العامرة، والحصيد : الخاوية، قاله ابن عباس .

الثاني : أن القائم : الآثار، والحصيد : الدارس، قاله قتادة، قال الشاعر (٦٣٦) :

والناس في قسم المنية بينهم كالزرع منه قائم وحصيد
قوله عز وجل : ﴿وما زادوهم غير تنبيب﴾ فيه ثلاثة تأويلات :
أحدها : أن التنبيب الشر، قاله ابن زيد .
الثاني : أنه الهلكة، قاله قتادة . قال لبيد :

فلقد بليت وكلُّ صاحب جدّةٍ ليلئ يعودُ وذاكم التنبيب
ومنه قول جرير :

عراية (٦٣٧) من بقية قوم لوطٍ ألا تبأ لما فعلوا تباباً (٦٣٨)
الثالث : التخسير، وهو الخسران، قاله مجاهد وتأول قوله تعالى ﴿تبئت يدا أبي
لهب﴾ [المسد : ١] أي خسرت .

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ
مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾

قوله عز وجل : ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ فيه ثلاثة تأويلات :
أحدها : لا تشفع إلا بإذنه .

الثاني : لا تتكلم إلا بالمأذون فيه من حسن الكلام لأنهم ملجؤون إلى ترك
القبیح .

الثالث : أن لهم في القيامة وقت يمنون فيه من الكلام إلا بإذنه .

﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ فيه وجهان :

أحدهما : محروم ومرزوق، قاله ابن بحر .

(٦٣٦) أورده في روح المعاني (١٢/١٣٥) وفتح القدير (٢/٥٢٤) .

(٦٣٧) كذا في المطبوعة وهو خطأ والصواب عراة والتصويب من الطبري (١٥/٤٧٢) وغيره .

(٦٣٨) والبيت في ديوانه ٧٢ والطبري (١٥/٤٧٢) .

الثاني : معذب ومكرم ، قال لبيد .

فمنهم سعيد أخذٌ بنصيبه ومنهم شقي بالمعيشة قانعٌ
ثم في الشقاء والسعادة قولان :

أحدهما : أن الله تعالى جعل ذلك جزاء على عملهما فأسعد المطيع وأشقى العاصي ، قاله ابن بحر .

الثاني : أن الله ابتدأهما بالشقاوة والسعادة من غير جزاء . وروى عبد الله بن عمر عن أبيه أنه قال : لما نزلت ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ قلت : يا رسول الله فعلام نعمل ؟ أعلى شيء قد فرغ منه أم على ما لم يفرغ منه ؟ فقال : «بلى على شيء قد فرغ منه يا عمر ، وجرت به الأقلام ولكن كل شيء ميسور لما خلق له» (٦٣٩) .

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

قوله عز وجل : ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن الزفير الصوت الشديد ، والشهيق الصوت الضعيف ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن الزفير في الحلق من شدة الحزن ، مأخوذ من الزفير ، والشهيق في الصدر ، قاله الربيع بن أنس .

الثالث : أن الزفير تردد النفس من شدة الحزن ، مأخوذ من الزفر وهو الحمل على الظهر لشدة ، والشهيق النفس الطويل الممتد ، مأخوذ من قولهم جبل شاهق أي طويل ، قاله ابن عيسى .

الرابع : أن الزفير أول نهيق الحمار ، والشهيق آخر نهيقه ، قال الشاعر (٦٤٠) :

(٦٣٩) رواه الطبري (١٥/ ٤٨٠) وفي سنده سليمان بن سفيان وهو ضعيف منكر الحديث ولكن للحديث شواهد تقويه وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤٧٥) وزاد نسبه للترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه . راجع لشواهد الحديث كتاب القدر لابن وهب ص

(٦٤٠) هو رؤية بن العجاج والبيت في ديوانه ١٠٦ واللسان «حشرج» والطبري (١٥/ ٤٧٩) (٤/ ٢٩) .

حشرج في الجوف سحياً أو شقق حتى يقال ناهق وما نهق
«خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك» فيه ثمانية
تاويلات :

أحدها : خالدين فيها ما دامت سماء الدنيا وأرضها إلا ما شاء ربك من الزيادة
عليها بعد فناء مدتها حكاه ابن عيسى .

الثاني : ما دامت سموات الآخرة وأرضها إلا ما شاء ربك من قدر وقوفهم في
القيامة ، قاله بعض المتأخرين .

الثالث : ما دامت السموات والأرض ، أي مدة لبثهم في الدنيا ، قاله ابن قتيبة .

الرابع : (٦٤١) خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من أهل
التوحيد أن يخرجهم منها بعد إدخالهم إليها ، قاله قتادة ، فيكونون أشقياء في النار
سعداء في الجنة ، حكاه الضحاك عن ابن عباس ، وروى يزيد بن أبي حبيب عن
أنس بن مالك (٦٤٢) قال : قال رسول الله ﷺ «يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا
كالحمحممة أخرجوا منها وأدخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون» .

الخامس : إلا ما شاء من أهل التوحيد أن لا يدخلهم إليها ، قاله أبو نضرة (٦٤٣)
يرويه مأثوراً عن النبي ﷺ .

السادس : إلا ما شاء ربك من كل من دخل النار من موحد ومشرك أن يخرج
منها إذا شاء ، قاله ابن عباس .

السابع : أن الاستثناء راجع إلى قولهم «لهم فيها زفير وشهيق» إلا ما شاء
ربك من أنواع العذاب التي ليست بزفير ولا شهيق مما لم يسم ولم يوصف ومما قد

(٦٤١) واختار هذا القول ابن جرير رحمه الله (٤٨٤/١٥) وقال الشوكاني رحمه الله في فتح القدير (٥٢٥/٢)
«وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً يفيد العلم الضروري إلى أنه يخرج من النار أهل التوحيد فكان ذلك
مخصصاً لكل عموم أـ» .

قلت وقد رد الأقوال في هذا الانتقاد الإمام الشوكاني في تفسيره ، (٥٢٥/٢) فراجعها وقد اشار هناك الى
أنه جمع فيها رسالة .

(٦٤٢) رواه البخاري (٣٧١/١١) ، (٤٣٤/١٣) وقد روى نحوه عن عمران بن حصين مرفوعاً البخاري
(٣٨٤/١١) وأبو داود (٤٧٤٠) والترمذي (٢٦٠٣) .

(٦٤٣) لكن الذي في الطبري (٤٨٣/١٥) وغيره أن هذا القول رواه أبو نضرة عن جابر أو عن أبي سعيد
الخدري أو عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ وعلى هذا فالقول موقوف وليس بمرفوع .

سمي ووصف، ثم استأنف ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ حكاية ابن الأنباري.
 الثامن: أن الاستثناء واقع على معنى لو شاء ربك أن لا يخلدهم لفعل ولكن
 الذي يريده ويشاؤه ويحكم به تخليدهم.

وفي تقدير خلودهم بمدة السموات والأرض وجهان:
 أحدهما: أنها سموات الدنيا^(٦٤٤) وأرضها، ولئن كانت فانية فهي عند العرب
 كالباقية على الأبد فذكر ذلك على عادتهم وعرفهم كما قال زهير:
 ألا لا أرى على الحوادث باقيا ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا
 والوجه الثاني: أنها سموات الآخرة وأرضها لبقائها على الأبد^(٦٤٥).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا
 شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوزٍ﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
 وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فيها خمسة تأويلات:

أحدها: دامت سموات الدنيا وأرضها إلا ما شاء ربك من الزيادة عليها في
 الخلود فيها:

الثاني: إلا ما شاء ربك من مدة يوم القيامة.

الثالث: إلا ما شاء ربك من مدة مكثهم في النار إلى أن يخرجوا منها، قاله
 الضحاك.

(٦٤٤) واختار العلامة الألوسي أن السموات والأرض هي هي فقال (١٢/١٤٢) «والأولى أن تبقى على ظاهرها
 ويجعل الكلام خارجاً مخرج ما اعتادته العرب في محاوراتهم عند إرادة التبديد والتأييد وهو أكثر من أن
 يحصى اهـ».

(٦٤٥) قال العلامة الألوسي (١٢/١٤٦): «وأنت تعلم أن خلود الكفار مما أجمع عليه المسلمون ولا عبرة
 بالمخالف والقواطع أكثر من أن تحصى ولا يقاوم واحداً منها كثير من الاخبار ولا دليل في الآية على ما
 يقوله المخالف اهـ».

قلت: قال ذلك يرد على من استدلل ببعض الاحاديث التي فيها أن جهنم سيأتي عليها يوم تفتنى وهذه
 الاحاديث لا تصح راجع رفع الأستار في إبطال أدلة القائلين بفناء النار.

الرابع: خالدين فيها يعني أهل التوحيد، إلا ما شاء ربك يعني أهل الشرك، وهو يشبه قول أبي نضرة.

الخامس: خالدين فيها إلا ما شاء ربك أي ما شاء من عطاء غير مجذوذ، فتكون ﴿إلا﴾ هنا بمعنى (٦٤٦) الواو كقول الشاعر:

وكلُّ أخٍ مفارقُهُ أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان
أي والفرقدان.

﴿عطاء غير مجذوذ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: غير مقطوع.

الثاني: غير ممنوع.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ
وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيْبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ
مُريبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِقُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله عز وجل: ﴿...﴾ وإنا لموفونهم نصيبهم غير منقوص ﴿﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: نصيبهم من الرزق، قاله أبو العالية.

الثاني: نصيبهم من العذاب، قاله ابن زيد.

الثالث: ما وعدوا به من خير أو شر، قاله ابن عباس.

فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾
وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتُمْسِكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

قوله عز وجل: ﴿ولا تركبوا إلى الذين ظلموا﴾ فيه أربعة تأويلات:

(٦٤٦) قال العلامة الألوسي رحمه الله (١٢/١٤٤) عن بعض أهل العلم: «إن هذا القول مردود عند النحاة».

أحدها: لا تميلوا^(٦٤٧)، قاله ابن عباس.

الثاني: لا تدنوا، قاله سفيان.

الثالث: لا ترضوا أعمالهم، قاله أبو العالية.

الرابع: لا تدهنوا لهم في القول وهو أن يوافقهم في السر ولا ينكر عليهم في الجهر. ومنه قوله تعالى ﴿وَدَّوْا لَوْ تَدَّهَنَ فَيَدَّهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، قاله عبد الرحمن بن زيد

﴿فتمسكم النار﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: فيمسكم عذاب النار لركونكم إليهم.

الثاني: فيتعدى إليكم ظلمهم كما تتعدى النار إلى إحراق ما جاورها، ويكون ذكر النار على هذا الوجه استعارة وتشبيهاً، وعلى الوجه الأول خبراً ووعداً.

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ
ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكْرَيْنِ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ أما الطرف الأول فصلاة الصبح باتفاق وأما الطرف الثاني ففيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه عنى صلاة الظهر والعصر، قاله مجاهد.

الثاني: صلاة العصر وحدها، قاله الحسن.

الثالث: صلاة المغرب، قاله ابن عباس.

﴿وزلفاً من الليل﴾ والزلف جمع زلفة، والزلفة المتزلة، فكأنه قال ومنازل من

(٦٤٧) وقال في روح المعاني (١٥٤/١٢) «وإذا كان حال الميل في الجملة إلى من وجد منه ظلم ما في الإفضاء إلى مساس الناس النار فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين في الظلم كل الميل ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويتعب قلبه وقاله من إدخال السرور عليهم ويستنهض الرجل والخيل في جلب المنافع لهم ويتهيج بالتزويج يزيهم والمشاركة لهم في غيهم ويمد عينيه إلى ما قنعوا به من زهرة الدنيا الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية، غافلاً عن حقيقة ذلك ذاهلاً عن منتهى ما هنالك وينبغي أن يعدّ مثل ذلك من الذين ظلموا إلا من الراكنين إليهم بناءً على ما روي أن رجلاً قال لسفيان إني أخيط للظلمة فهل أعد من أعوانهم؟ فقال لا أنت منهم والذي يبيعك ألا الإبرة من أعوانهم وما احسن ما كتبه بعض الناصحين للزهري حين خالط السلاطين. . راجعه فإنه كلام جميل.

الليل، أي ساعات من الليل، وقيل إنما سميت مزدلفة من ذلك لأنها منزل بعد عرفة، وقيل سميت بذلك لازدلاف آدم من عرفة إلى حواء وهي بها، ومنه قول العجاج (٦٤٨) في صفة بعير:

ناجٍ طواه الأين مما وجفا طيَّ الليالي زُلْفاً فزلفا
وفي معنى ﴿زلفاً من الليل﴾ قولان:

أحدهما: صلاة العشاء الآخرة، قاله ابن عباس ومجاهد.

الثانية: صلاة المغرب والعشاء الآخرة، قاله الضحاك والحسن ورواه مرفوعاً (٦٤٩).

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ في هذه الحسنات أربعة أقاويل:

أحدها: الصلوات الخمس، قاله ابن عباس والحسن وابن مسعود والضحاك.

الثاني: هي قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، قاله مجاهد

قال عطاء: وهن الباقيات الصالحات.

الثالث: أن الحسنات المقبولة يذهبن السيئات المغفورة.

الرابع: أن ثواب الطاعات يذهبن عقاب المعاصي.

﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾ فيه وجهان:

أحدهما: توبة للتائبين، قاله الكلبي.

الثاني: بيان للمتعظيين، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «واتبع السيئة

الحسنة تمحها» (٦٥٠).

وسبب نزول هذه الآية ما روى الأسود عن ابن مسعود قال: جاء رجل الى

النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني عالجت امرأة في بعض أقطار المدينة فأصببت منها

دون أن أمسها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على

(٦٨٤) ديوانه: ٨٤ ومجاز القرآن (٣٠٠/١) وسيبويه (١٨٠/١) واللسان (زلف) (حقف) (سما) (جف)

والكامل للمبرد (١٢٩/١) (٨٢٤/٣).

(٦٤٩) رواه الطبري (٥٠٧/١٥) وهو مرسل من مراسلات الحسن وزاد في الدر (٤٨١/٤) نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٦٥٠) جزء من حديث رواه أحمد (٢٢٨/٥) عن معاذ بن جبل ورواه (١٥٣/٥) عن أبي ذر الغفاري ورواه الترمذي (٢٠/٢) عن أبي ذر ومعاذ وصححه في السنن وحسنه في أخرى ولفظه «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

نفسك. ولم يردّ عليه النبي ﷺ شيئاً، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ فقرأها عليه فقال عمر: يا رسول الله أله خاصة أم للناس كافة؟ فقال: «بل للناس كافة» (٦٥١).

قال أبو موسى طمحان: إن هذا الرجل أبو اليسر الأنصاري (٦٥٢). وقال ابن عباس هو عمرو بن غزية الأنصاري، وقال مقاتل: هو عامر بن قيس الأنصاري.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

قوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أولو طاعة.

الثاني: أولو تمييز.

الثالث: أولو حذر من الله تعالى.

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٥٣) ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴿يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ﴾.

أحدهما: أنهم اتبعوا على ظلمهم ما أترفوا فيه من استدامة نعمهم استدراجاً لهم.

الثاني: أنهم أخذوا بظلمهم فيما أترفوا فيه من نعمهم. والمترف: المنعم.

وقال ابن عباس: أترفوا فيه: معناه انظروا فيه (٦٥٤).

(٦٥١) رواه الطبري (٥١٦/١٥) عن علقمة والأسود عن أبي مسعود واللفظ له ورواه أحمد رقم ٤٢٥٠، ٤٢٩٠ ومسلم (٢١١٦/٤) وأبو داود (٤٤٦٨) والترمذي (١٣٩/٢).

(٦٥٢) وقد توسع الحافظ ابن حجر في الفتح في اسم هذا الرجل فراجع (٢٦٨/٨، ٢٦٩).

(٦٥٣) قال ابن الجوزي رحمه الله في زاد المسير (١٧٠/٤) «استثناء منقطع أي لكن قليلاً ممن أنجينا منهم ممن نهى عن الفساد».

(٦٥٤) وقد أورد هذا القول صاحب فتح القدير (٥٣٥/٢) ولفظه عن ابن عباس «أنظروا فيه» قلت وما هنا =

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله عز وجل: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ فيه وجهان:

أحدهما: على ملة الإسلام وحدها، قاله سعيد بن جبير.

الثاني: أهل دين واحد، أهل ضلالة وأهل هدى، قاله الضحاك.

﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ فيه ستة أقاويل:

أحدها: مختلفين في الأديان إلا من رحم ربك من أهل الحق، قاله مجاهد

وعطاء.

الثاني: مختلفين في الحق والباطل إلا من رحم ربك من أهل الطاعة، قاله ابن

عباس.

الثالث: مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير إلا من رحم ربك من أهل

القناعة. قاله الحسن.

الرابع: مختلفين بالشقاء والسعادة إلا من رحم ربك بالتوفيق (٦٥٥).

الخامس: مختلفين في المغفرة والعذاب إلا من رحم ربك بالجنة.

السادس: أنه معنى مختلفين أي يخلف بعضهم بعضاً، فيكون من يأتي خلفاً

للماضي لأن سوءاً في كل منهم خلف بعضهم بعضاً، فاقتلوا ومنه قولهم: ما اختلف

الجديدان، أي جاء هذا بعد ذاك، قاله ابن بحر.

﴿ولذلك خلقهم﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: للاختلاف خلقهم، قاله الحسن وعطاء.

الثاني: للرحمة خلقهم، قاله مجاهد.

الثالث: للشقاء والسعادة خلقهم (٦٥٦)، قاله ابن عباس.

= انظروا فيه فإذا كان هذا كذلك فإن تفسير ما أورده المؤلف هنا يكون بمعنى الإنظار والمراد أنهم تركوا

مدة في ترفهم وفي التنزيل حكاية عن إبليس ﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون﴾.

(٦٥٥) واختاره ابن جرير (٥٣٧/١٥) وتبعه الزجاج كما في زاد المسير (١٧٢/٤).

(٦٥٦) وهو اختيار الطبري (٥٤٣/١٥).

الرابع: للجنة والنار خلقهم، قاله منصور بن عبد الرحمن.

وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي نقوي به قلبك وتسكن إليه نفسك، لأنهم بُلُوا فصبروا، وجاهدوا فظفروا.

﴿وجاءك في هذه الحق﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: في هذه السورة، قاله ابن عباس وأبو موسى.

الثاني: في هذه الدنيا، قاله الحسن وقتادة.

الثالث: في هذه الأنبياء، حكاه ابن عيسى.

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ
﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ
عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

وفي هذا ﴿الحق﴾ وجهان:

أحدهما: صدق القصص وصحة الأنبياء وهذا تأويل من جعل المراد السورة.

الثاني: النبوة، وهذا تأويل من جعل المراد الدنيا.

﴿وموعظة﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: القرآن الذي هو وعظ الله تعالى لخلقه.

الثاني: الاعتبار بأنبياء من سلف من الأنبياء ولذلك قال النبي ﷺ «والسعيد من

وعظ بغيره» (٦٥٧).

(٦٥٧) جزء من حديث رواه مسلم (٢٠٣٧/٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ورواه ابن ماجه عن ابن مسعود (٤٦) بسياق آخر وفيه هذه الجملة.